مظاهر الانحرافات العقدية

عند الصوفية

وأثرها السيء على الأمة الإسلامية

تأليف

أبو عبد العزيز

إدريس محمود إدريس

المجلد الأول

مكتبة الرشد

ناشرون

مظاهر الانحرافات العقدية

عند الصوفية

وأثرها السيئ على الأمة الإسلامية

أصل هذا الكتاب رسالة علمية تقدم بها الباحث لنيـــل درجة الماجستير من كلية الدعوة وأصول الدين قســم العقيدة الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة وقـــد نال بها الباحث الدرجة العلمية الماجستير بتقدير ممتـــاز .

مظاهر الانحرافات العقدية

عند الصوفية

وأثرها السيء على الأمة الإسلامية

تأليف
أبو عبد العزيز
إدريس محمود إدريس

المجلد الأول

مكتبة الرشد
الرياض

شركة الرياض
للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الثانية
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

مكتبة الرشد ناشرون
المملكة العربية السعودية - الرياض - شارع الأمير عبدالله بن عبد الرحمن (طريق الحجاز)
ص.ب ١٧٥٢٢ الرياض ١١٤٩٤ هاتف ٤٥٩٣٤٥١ فاكس ٤٥٧٣٣٨١
Email: alrushd@alrushdryh.com
Website: WWW. rushd.com

* فرع طريق الملك فهد: الرياض - هاتف ٢٠٥١٥٠٠ فاكس ٢٠٥٢٣٠١
* فرع مكة المكرمة: هاتف ٥٥٨٥٤٠١ فاكس ٥٥٨٣٥٠٦
* فرع المدينة المنورة: شارع أبي ذر الغفاري - هاتف ٨٣٤٠٦٠٠ فاكس ٨٣٨٣٤٢٧
* فرع جدة: ميدان الطائرة - هاتف ٦٧٧٦٣٣١ فاكس ٦٧٧٦٣٥٤
* فرع القصيم: بريدة - طريق المدينة - هاتف ٣٢٤٢٢١٤ فاكس ٣٢٤١٣٥٨
* فرع أبها: شارع الملك فيصل - تلفاكس ٢٣١٧٣٠٧
* فرع الدمام: شارع الخزان - هاتف ٨١٥٠٥٦٦ فاكس ٨٤١٨٤٧٣

وكلاؤنا في الخارج

القاهرة: مكتبة الرشد - هاتف ٢٧٤٤٦٠٥
بيروت: دار ابن حزم - هاتف ٧٠١٩٧٤
المغرب: الدار البيضاء - وراقة التوفيق - هاتف ٣٠٣١٦٢ فاكس ٣٠٣١٦٧
اليمن: صنعاء - دار الآثار - هاتف ٦٠٣٧٥٦
الأردن: عمان - الدار الأثرية - هاتف ٦٥٨٤٠٩٢ جوال ٧٩٦٨٤١٢٢١
البحرين: مكتبة الغرباء - هاتف ٩٥٧٨٣٣ - ٩٤٥٧٣٣
الإمارات: مكتبة دبي للتوزيع - هاتف ٤٣٣٣٩٩٩٨ فاكس ٤٣٣٣٧٨٠٠
سوريا: دار البشائر - هاتف ٢٣١٦٦٦٨
قطر: مكتبة ابن القيم - هاتف ٤٨٦٣٥٣٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد للَّه نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهد اللَّه فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[1] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[2] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾[3] .

أما بعد فإن اللَّه سبحانه وتعالى بعث نبيه محمداً ﷺ على حين فترة من الرسل اندرست فيها معالم التوحيد واختفت آثاره إلا في قلة من الحنفاء

---

(١) آل عمران : (١٠٢) .

(٢) النساء : (١) .

(٣) الأحزاب : (٧٠ ، ٧١) .

واستشرى الشرك وعم بلاؤه نطاق المجتمعات البشرية عربية كانت أو أعجمية حيث اتخذ الناس من دون اللَّه آلهة من طواغيت البشر والشجر والحجر يستغيثون بها عند الشدائد ويستعينون بها في تذليل الأزمات وتسهيل العقبات ويخضعون لتشريعات الطواغيت من البشر فيحلون ما أحلوه لهم ويحرمون ما حرموه عليهم .

وقد أراد اللَّه للمجتمع العربي أن يتولى قياة البشرية ويتولى ريادتها وهدايتها إلى التوحيد الخالص فاختار منهم رسوله محمداً ﷺ ليكون للعالمين بشيراً ونذيراً فصدع فيهم بدعوة اللَّه المباركة ودعاهم إلى إفراد اللَّه بالعبادة ونبذ ما كانوا فيه من الشرك والوثنية وبهذه الدعوة المباركة تبدل الوضع في الجزيرة العربية ونشأ فيها جيل يستقي من كتاب اللَّه وسنة رسوله محمد ﷺ ويكيف حياته وفق الشريعة الإسلامية ويعمل ليل نهار لتخليص البشرية كافة من العبودية لغير اللَّه إلى العبودية للَّه سبحانه وتعالى .

وظلت هذه الصفوة المختارة تسير على ضوء الكتاب والسنة يشد بعضها بعضًا كالجسد الواحد وقد شهد لهم بهذه الأخوة الصادقة اللَّه سبحانه وتعالى في كتابه فقال : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ الآية[1] .

وقد فارقهم رسول اللَّه ﷺ وهو عنهم راض بعد أن بلغهم الرسالة وأشهدهم على ذلك ورباهم أحسن تربية ليكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليهم شهيداً .

وهكذا كانت الأمة الإسلامية في عهد أبي بكر وعمر وعثمان في عافية

---

(١) الفتح : (٢٩) .

من البدع والعقائد الفاسدة موحدة فيما بينها متماسكة مترابطـة حتى ظهر عبد اللَّه بن سبأ الخبيث في أواخر عهد عثمان رضي اللَّه عنه الذي كان السبب الرئيسي في تفريق الأمة الإسلامية ونشر العقائد الفاسدة .

ومنذ ذلك الوقت ظل السيف يعمل في رقاب المسلمين وظلت أفكار اليهود تجد مرتعًا خصبًا لدى العقول المريضة فظهرت عقائد غريبة على الإسلام كعقائد الشيعة والخوارج وهكذا توالت البدع حتى ظهرت العقائد الباطلة بشتى أنواعها كالمعتزلة والجهمية والأشاعرة والصوفية وغيرها من الفرق الضالة المنتشرة في عالمنا الإسلامي على امتداده الواسع والذي يهمنا في هذه الرسالة هي الصوفية .

والصوفية ظهرت أول ما ظهرت على هيئة الزهد المبالغ فيه والتقشف الذي ليس له أساس في الإسلام حيث إن الزهد الذي مارسوه إذا نظرنا فيه نجده زهدًا فلسفيًا وثنيًا بحتًا وليس من الإسلام في شيء .

وياليتهم وقفوا عند هذا الحد بل واصلوا طريقهم حتى تأثروا بعقائد الفلاسفة اليونانيين والبوذيين والهنود والنصرانية المحرفة فاعتنقوا عقائد إلحادية ووثنية .

وهكذا واصلوا الطريق حتى نشروا الشرك والوثنية في العالم الإسلامي بأسره إلا ما شاء اللَّه كالمملكة العربية السعودية التي طهرها اللَّه من هذه الشركيات بدعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب السلفية حيث إنك تجد في كل العالم الإسلامي قبورًا تعبد من دون اللَّه سبحانه وتعالى يتوجه إليها الناس بالدعاء والاستغاثة والذبح والنذر وهذه الوثنية كان وراءها الصوفية ولا زالوا إلى الآن يواصلون نشرها وينفقون الأموال الطائلة لها وخير شاهد على

ذلك المركز العالمي للصوفية والذي مقره في لندن حيث إن هذا المركز يقود الصوفية في العالم أجمع ويصدر كتبًا ومجلات كلها مليئة بالدعوة إلى الشرك والإلحاد وانظر إذا أردت الدليل على ذلك مجلتهم التي يصدرونها بعنوان « الصوفية المتجددة » فإنك ستجد فيها نفس العقائد الإلحادية التي قررها محيي الدين بن عربي وأمثاله من زعماء الصوفية وهذا يؤكد لنا وحدة معتقدات الصوفية مهما تباعدت أمكنتهم وأزمنتهم وهو في نفس الوقت رد كاف على الذين يقولون بأن محيي الدين بن عربي وأمثاله من أهل وحدة الوجود لا يمثلون كل الصوفية حيث إن كل من يقرأ في كتب الصوفية التي ألفوها بأيديهم يجد ثناءهم على ابن عربي وأمثاله من أهل وحدة الوجود حيث يصفونه بأنه الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر .

سبب اختياري للكتابه عن الصوفية :

إنني اخترت الكتابة عن مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية وأثرها السيىء على الأمة الإسلامية :

أولا : لخطورة الصوفية على الأمة الإسلامية حيث إن الصوفية اعتنقوا عقائد باطلة دخيلة على الإسلام ثم قاموا بنشرها بين الأمة الإسلامية وليس هناك أي باب من أبواب العقيدة الإسلامية إلا وقد انحرفوا فيه سواء كان فيما يتعلق بالإلهيات أو النبوات أو في باب الولاية وكذلك انحرفوا في باب القضاء والقدر والتوكل والزهد والجهاد والجنة والنار والخوف والرجاء وهذا سيتضح من خلال قراءة هذه الرسالة إن شاء اللَّه .

ومن الأسباب التي دفعتني للكتابة في هذا الموضوع هو أنني أردت أن أبين خطورة الصوفية على الأمة الإسلامية وأنها من أشد الفرق الضالة التي كانت السبب الرئيسي في انحراف كثير من أفراد الأمة الإسلامية عن المعتقد

الصحيح والمنهج السليم .

ومن الأسباب التي دفعتني للكتابة عن الصوفية الإيضاح والتبيين لعوام المسلمين الذي يسيرون خلف دجاجلة الصوفية مع جهلهم لحقائقها .

ولأجل هذا أحببت أن أشارك في الدفاع عن العقيدة الإسلامية بتقديم جهد المقل حسب استطاعتي لعل اللّه سبحانه وتعالى أن يكتبه لي في ميزان حسناتي يوم القيامة وإن كانت بضاعتي من العلم أقل من القليل .

منهج البحث :

١ ـ لقد جمعت مادة هذا البحث فيما يتعلق بالصوفية من كتبهم في الغالب وفي بعض الأحيان أنقل عنهم بواسطة الكتب التي ألفت في التصوف وذلك إلزام لهم بأن هذا المعتقد المنسوب إليهم هو معتقدهم الحقيقي .

٢ ـ إذا أردت أن أبين أي انحراف عقدي عند الصوفية أعقد له مبحثًا أو مطلبًا خاصًا به وأذكر فيه مجموعة من النصوص من بطون كتب الصوفية أنفسهم مع شرح بعض النصوص الغامضة وتوضيح وجه الاستدلال بها للموضوع المذكور فيه النص إن كانت تحتاج إلى شرح وإيضاح وإلا أورد النص وأتركه لوضوحه .

ثم أتبعه بالرد عليهم بالكتاب والسنة وأقوال علماء الأمة الإسلامية عبر التاريخ بعقد مبحث أو مطلب آخر غالبًا وقد لا أعقد مبحثاً أو مطلبًا آخر إن كان الرد عليهم لا يقتضي التطويل .

٣ ـ حاولت بقدر المستطاع أن لا أخرج في المناقشة عن الأسلوب العلمي والمجادلة بالتي هي أحسن مع البعد عن تحكم العاطفة وسيطرتها وبذلت جهدي بقدر الإمكان لوضع الأمور في مواضعها دون تجنٍ عليهم أو

تعصب للرأي المجرد عن الدليل قاصداً بذلك إبراز الحق والصواب وتبيين الباطل ودحضه محكمًا في كل الكتاب والسنة مع فهمهما الفهم الصحيح قدر الإمكان .

٤ ـ أكثرت من نقل أقوال الصوفية لإلزامهم الحجة والمعتقد المنسوب إليهم . وكذلك أكثرت من إيراد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال علماء أهل السنة والجماعة لإثبات بطلان المعتقد الصوفي بالكتاب والسنة وبالإضافة إلى ذلك فقد قال ببطلانه علماء أهل السنة والجماعة عبر القرون المتتالية وليس هو قول رجل أو رجلين كما يزعم الصوفية وأتباعهم .

٥ ـ ترجمت لبعض الأعلام من الصوفية الذين لهم اليد الطولى في تأليف الكتب في مجال تأسيس عقائد الصوفية وعباداتهم وسلوكهم وقواعدهم التي يسيرون عليها الذين وردت أسماؤهم في الرسالة وأكثرت من النقل عنهم والأعلام الذين لهم باع طويل في تأسيس مباديء الصوفية وإن لم تكن لهم مؤلفات . والأعلام الذين تنتسب إليهم الطرق الصوفية كالقدرية والشاذلية والرفاعية والتيجانية والختمية وغيرها من الطرق .

٦ ـ عزوت الآيات القرآنية الواردة في الرسالة بذكر رقمها واسم السورة في الهامش .

٧ ـ خرجت الأحاديث النبوية الواردة في الرسالة .

٨ ـ عملت الفهارس الآتية :

١ ـ فهرس للآيات القرآنية .

٢ ـ فهرس للأحاديث النبوية .

٣ ـ فهرس للأعلام المترجم لهم في الحاشية .

٤ ـ فهرس للمصادر والمراجع .

٥ ـ فهرس الموضوعات .

خطة البحث :

إن الخطة التي سرت عليها في هذه الرسالة هي كما يلي :

لقد قسمتها إلى مقدمة وخمسة أبواب وتحت كل باب فصول وتحت كل فصل مباحث وتحت كل مبحث مطالب إن احتاج الأمر إلى تقسيم المباحث إلى مطالب .

وإليك الخطة مفصلة :

الباب الأول : مفهوم التصوف ونشأته ومصادره وأقسامه وأهم العوامل التي أدت إلى الانحرافات العقدية عند الصوفية .

وتحته فصلان :

الفصل الأول : تعريف التصوف ونشأته ومصادره وأقسامه .

وتحته ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : تعريف التصوف .

المبحث الثاني : نشأة التصوف .

المبحث الثالث : مصادر التصوف وأقسامه .

الفصل الثاني : أهم العوامل التي أدت إلى الانحرافات العقدية عند الصوفية .

وتحته أربعة مباحث :

المبحث الأول : طلب الهداية في غير الكتاب والسنة .

المبحث الثاني : اعتقادهم بأن هناك حقيقة تخالف الشريعة .

المبحث الثالث : الغلو الزائد في الرسول ﷺ والأولياء .

المبحث الرابع : تأثرهم بالفكر اليوناني الوثني .

الباب الثاني : انحرافات الصوفية في الإلهيات .

وتحته فصلان :

الفصل الأول : انحرافات الصوفية في التوحيد مع ذكر المفهوم الصحيح لتوحيد اللَّه .

وتحته ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : تعريف التوحيد في اللغة والاصطلاح مع توضيح المفهوم الصحيح لتوحيد اللَّه الذي أرسل اللَّه به الرسل وأنزل به الكتب .

المبحث الثاني : موقف الصوفية من التوحيد .

المبحث الثالث : مفهوم التوحيد عند غلاة الصوفية والمضاعفات التي ترتبت على هذا المفهوم مع ذكر حكم من آمن بوحدة الوجودة في ميزان الإسلام.

وتحته ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : ذكر النصوص التي تدل على أن الصوفية يعتقدون بأن حقيقة التوحيد هو القول بوحدة الوجود .

المطلب الثاني : المضاعفات التي ترتبت على القول بوحدة الوجود.

المطلب الثالث : حكم من يعتقد بوحدة الوجود في ميزان الإسلام.

الفصل الثاني : انحراف الصوفية في المحبة واعتقادهم بأن اللَّه يحل في بعض مخلوقاته .

وتحته مبحثان :

المبحث الأول : انحراف الصوفية في المحبة.

المبحث الثاني : اعتقاد الصوفية بأن اللَّه يحل في بعض مخلوقاته الذين يتفانون في الرياضة على الطريقة الصوفية .

وتحته مطلبان :

المطلب الأول : ذكر النصوص عنهم التي تدل على قول الصوفية بالحلول .

المطلب الثاني : موقف أهل الإسلام من القول بالحلول .

الباب الثالث : انحرافاتهم في الرسول ﷺ والخضر عليه السلام والأولياء رحمهم اللَّه تعالى .

وتحته ثلاثة فصول :

الفصل الأول : انحرافاتهم في الرسول اللَّه ﷺ .

وتحته ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : انحرافهم في مبدإ خلقه والمادة التي خلق منها .

وتحته ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : اعتقادهم بأن الرسول ﷺ أول مخلوق وأنه خلق من نور.

المطلب الثاني : اعتقادهم بأن الكون خلق من نور محمد ﷺ .

المطلب الثالث : اعتقادهم بأن الكون خلق من أجل محمد وأن جميع العلوم جزء من علمه حتى علم اللوح والقلم .

المبحث الثاني : اعتقاد الصوفية بجواز التوجه إلى الرسول بالدعاء والاستغاثة من دون اللّه وأهم شبههم ومناقشتها وحكم التوجه إلى الرسول بالدعاء والاستغاثة .

وتحته ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : ذكر النصوص عنهم التي تدل على أنهم يتوجهون إلى الرسول ﷺ بالدعاء والاستغاثة .

المطلب الثاني : أهم الشبه التي يوردها الصوفية لتجويز دعاء الرسول ﷺ والاستغاثة به ومناقشتها .

المطلب الثالث : حكم التوجه إلى الرسول ﷺ بالدعاء والاستغاثة .

الفصل الثاني : انحرافاتهم في الخضر عليه السلام.

وتحته مبحثان :

المبحث الأول : اعتقادهم بأن الخضر ولي وليس بنبي وأن الولي أفضل من النبي ومناقشتهم .

المبحث الثاني : اعتقادهم بأن الخضر حي يرزق إلى يوم القيامة .

وتحته مطلبان :

المطلب الأول : ذكر النصوص عنهم التي تدل على أنهم يعتقدون بأن الخضر حي يرزق .

المطلب الثاني : بيان بطلان هذا المعتقد وأن الصحيح وفاته .

الفصل الثالث : انحرافاتهم تجاه الأولياء .

وتحته أربعة مباحث :

المبحث الأول : ادعاء الصوفية التلقي عن اللَّه والعروج إليه وتفضيل الولاية على النبوة .

وتحته مطلبان :

المطلب الأول : ذكر النصوص عنهم التي تثبت بأنهم يزعمون التلقي عن اللَّه والعروج إليه وأن الولاية أفضل من النبوة.

المطلب الثاني : بيان بطلان هذا الادعاء وأنه لا وحي بعد رسول اللَّه ﷺ يتلقاه أحد عن اللَّه كائنًا من كان .

المبحث الثاني : اعتقادهم بأن هناك مجموعة من الأولياء لهم ألقاب خاصة بهم يتصرفون في هذا الكون ويتحكمون فيه .

وتحته مطلبان :

المطلب الأول : مراتب الأولياء ووظائفهم عندهم وذكر نماذج من النصوص عنهم تثبت بأنهم يعتقدون بأن للأولياء تصرفًا في هذا الكون.

المطلب الثاني : موقف أهل الإسلام من هذه المراتب وممن يدعي التصرف لغير اللَّه .

المبحث الثالث : اعتقادهم بأن الأولياء يعلمون الغيب.

وتحته مطلبان:

المطلب الأول : ذكر النصوص عنهم التي تثبت بأنهم يعتقدون بأن الأولياء يعلمون الغيب .

المطلب الثاني : بيان أن علم الغيب خاص باللَّه تعالى وحكم من يدعي علم الغيب .

المبحث الرابع : توجه الصوفية إلى الأولياء بالدعاء والاستغاثة .

وتحته مطلبان :

المطلب الأول : ذكر النصوص عنهم التي تثبت بأنهم يتوجهون إلى الأولياء بالدعاء والاستغاثة .

المطلب الثاني : حكم دعاء غير اللَّه تعالى .

الباب الرابع : انحرافاتهم في مفهوم الزهد والجهاد والقضاء والقدر والتوكل والجنة والنار .

وتحته ثلاثة فصول :

الفصل الأول : انحرافهم في مفهوم الزهد .

وتحته مبحثان :

المبحث الأول : تعريف الزهد ومراتبه والفهم الصحيح له .

المبحث الثاني : انحراف الصوفية في مفهوم الزهد .

وتحته مطلبان:

المطلب الأول : تعريف الصوفية للزهد .

المطلب الثاني : عبارات أئمة التصوف التي تدل على أنهم يفهمون

الزهد بأنه ترك الدنيا بالكلية وتعذيب النفس بشتى أنواع التعذيب من الجوع والعري والسهر والفقر .

الفصل الثاني : انحرافهم في مفهوم الجهاد مع ذكر نماذج من مواقفهم من أعداء الأمة الإسلامية عبر التاريخ .

وتحته مبحثان :

المبحث الأول : مكان الجهاد في سبيل اللَّه في الإسلام .

المبحث الثاني : انحرافهم في مفهوم الجهاد وموقفهم من أعداء الأمة الإسلامية عبر التاريخ .

الفصل الثالث : انحرافهم في مفهوم القضاء والقدر والتوكل والجنة والنار .

وتحته ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : انحرافهم في مفهوم القضاء والقدر وأهمية الإيمان بهما في العقيدة الإسلامية .

وتحته ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : تعريف القضاء والقدر ومكانة الإيمان بهما في العقيدة الإسلامية .

المطلب الثاني : انحرافهم في عقيدة القضاء والقدر .

المطلب الثالث : بيان بطلان المعتقد الصوفي تجاه عقيدة القضاء والقدر .

المبحث الثاني : انحرافهم في مفهوم التوكل ومكانته العظيمة في العقيدة الإسلامية .

وتحته مطلبان :

المطلب الأول : تعريف التوكل وفضله ومكانته العظيمة في الإسلام وأنواعه

المطلب الثاني : عقيدة الصوفية في التوكل وبيان بطلانها .

المبحث الثالث : انحراف عقيدة الصوفية تجاه الجنة والنار والخوف والرجاء .

الباب الخامس : أهم الآثار السيئة التي نشرها الصوفية في الأمة الإسلامية وأساليب مقاومة الزحف الصوفي :

الفصل الأول : أهم الآثار السيئة التي نشرها الصوفية في الأمة الإسلامية .

وتحته أربعة مباحث :

المبحث الأول : انتشار الوثنية والشرك .

المبحث الثاني : تعطيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الحياة العامة .

وتحته مطلبان :

المطلب الأول : تعريف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأهميتهما في الإسلام .

المطلب الثاني : تعطيل الصوفية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الحياة العامة .

المبحث الثالث : نشر الموالد البدعية في الأمة الإسلامية .

وتحته ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : نشأة الموالد .

المطلب الثاني : المفاسد التي وقعت بسبب هذه الاحتفالات.

المطلب الثالث : حكم الاحتفال بالمولد النبوي والموالد الأخرى التي يقيمها الصوفية في العالم الإسلامي .

المبحث الرابع : انتشار الأذكار والأدعية والصلوات المبتدعة في الأمة الإسلامية وإعراض الناس بسببها عن تلاوة القرآن وذكر اللَّه بما ورد في الكتاب والسنة .

وتحته مطلبان :

المطلب الأول : نماذج من الأذكار والصلوات الصوفية المبتدعة .

المطلب الثاني : موقف الإسلام من الأوراد والأذكار والأدعية التي ابتدعتها الصوفية .

المبحث الأول : نشر العقيدة الإسلامية الصحيحة المأخوذة من الكتاب والسنة .

المبحث الثاني : القضاء على المظاهر التي تكون سببًا في انتشار الشركيات كالقباب والمساجد المبنية على القبور والأشجار والأحجار التي تعبد من دون اللَّه .

المبحث الثالث : منع كتب الصوفية لئلا يتداولها الناس ومنع دعاة التصوف ودراسة كتبهم من قبل شخصيات لها حصانة عقدية لكشف زيفها .

* * *

شكر وتقدير

أولاً وقبل كل شيء أشكر اللَّه عز وجل على توفيقه لي لإتمام هذه الرسالة .

ثم أشكر كل من ساهم معي في إخراج هذه الرسالة بتوجيه أو نصح أو إبداء رأي سديد وأخص بالشكر شيخي الفاضل د / صالح بن عبد اللَّه العبود الذي كان لي شرف التتلمذ على يديه فكان نعم المشرف فقد كان له اليد الطولى في إظهار هذا البحث على هذا الوجه وقد منحني الكثير من وقته وجهده المبارك وتوجيهاته المفيدة مع تزاحم الأعمال والواجبات عليه فجزاه اللَّه عني خير الجزاء وأمد اللَّه في عمره ونفع به الإسلام والمسلمين .

كما أشكر القائمين على الجامعة الإسلامية الذين بذلوا النفس والنفيس لخدمة أبناء العالم الإسلامي وتعليمهم كتاب ربهم وسنة نبيهم على المنهج الصحيح السليم فجزاهم اللَّه خيراً وسدد خطاهم وأخذ بأيديهم إلى ما فيه الخير لخدمة أبناء المسلمين وحفظ اللَّه على هذه البلاد دينها وأمنها وكفاها اللَّه شر الحاسدين والحاقدين إنه ولي ذلك والقادر عليه وهو نعم المولى ونعم النصير .

وآخر دعوانا أن الحمد للَّه رب العالمين وصلى اللَّه على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

الباب الأول

مفهوم التصوف ونشـــأته ومصادره وأقسامـــه وأهم العوامل التي أدت إلى الانحرافات العقدية عند الصوفية

وتحته فصلان :

الفصل الأول : تعريف التصوف ونشأته ومصادره وأقسامه.

الفصل الثاني : أهـــم العوامـــل التي أدت إلى الانحرافات العقدية عند الصوفية.

الفصل الأول

تعريف التصوف ونشأته ومصادره وأقسامه

وتحته ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : تعريف التصوف .

المبحث الثاني : نشأة التصوف.

المبحث الثالث : مصادر التصوف وأقسامه .

الفصل الأول

هذه الدراسة في هذا الفصل تشتمل على مقدمة الدراسة وتشمل على :

مقدمة الدراسة : تناول الباحث في هذا الفصل

مشكلة الدراسة : تناول الباحث في هذا الفصل

أهداف الدراسة : تناول الباحث في هذا الفصل

المبحث الأول

تعريف التصوف

قبل أن نتعرض لتعريف التصوف في اللغة والاصطلاح نريد أن نتعرف على الشيء الذي اشتقت منه كلمة « التصوف » أو كلمة « صوفي » .

والشيء الذي اشتقت منه هذه الكلمة لم يعرف له مصدر محدد من قبل أكثر الباحثين سواء من الصوفية أو من غيرهم ولكنهم ذكروا عدة احتمالات لتحديد الشيء الذي قد تكون مشتقة منه .

فالاحتمال الأول الذي ذكروه هو أن هذه الكلمة « التصوف » نسبة إلى الصفاء وقد رد هذه النسبة القشيري[1] والكلاباذي[2] .

الاحتمال الثاني : أن تكون منسوبة إلى الصفة نسبة إلى أهل الصفة الذين كانوا يقعدون في مؤخرة مسجد رسول اللّه ﷺ[3] .

---

(١) انظر « الرسالة القشيرية » (١٢٦) .

وترجمته هو أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسابوري وهو من قبيلة قشير بن كعب (ت٤٦٥هـ) ومن آثاره « الرسالة في التصوف » و « لطائف الإشارات في التصوف » انظر « الرسالة » (١٤) .

(٢) انظر « التعرف لمذهب أهل التصوف » (٨) .

وترجمته هو محمد بن إبراهيم الكلاباذي البخاري أبو بكر شارك في بعض العلوم من آثاره « التعرف لمذهب أهل التصوف » (ت٣٨٠هـ) .

(٣) انظر كتاب « أبو حامد الغزالي والتصوف » فقد أبطلها من عدة وجوه (١٣٦) .

قلت : وهي نسبة باطلة لغويا وواقعيًا .

الاحتمال الثالث: التصوف نسبة إلى رجل يقال له صوفة ، واسمه العوني بن مر ، وإنما سُمّي صوفة لأن أمه نذرت لأن عاش لتعلقن برأسه صوفة ولتجعلنه ربيط الكعبة ، فكان أول من تفرد بخدمة بيت اللَّه الحرام وانتسب إليه قوم في الجاهلية فسموا « صوفية » وقد انقطعوا إلى اللَّه عز وجل وقطنوا الكعبة ، فمن تشبه بهم فهم « الصوفية »[1] .

ونفهم من هذه النسبة بأن المتصوفة ينتسبون إلى أناس من أهل الجاهلية لم يعرفوا الإسلام ، وإذا صحت مثل هذه النسبة فإن القوم قد حكموا على أنفسهم بأنهم ينتسبون إلى أقوام في الجاهلية .

الاحتمال الرابع : أن تكون نسبة هذه الكلمة إلى « صوفانة » وهي بقلة رعناء قصيرة ، ونسبوا إليها لاكتفائهم بنبات الصحراء ، وهذا أيضًا لا يصح لغويًا لأنه لو نسبوا إليها لقيل للواحد منهم « صوفاني »[2] .

الاحتمال الخامس : أن تكون نسبة هذه الكلمة إلى الصوف ، وقد ذهب إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وابن خلدون[3] .

وهو الراجح لأن القوم كانوا يلبسون الصوف كثيرًا اقتداء برهبان النصارى ، وبعدوا عن الرفاهية والراحة الجسمية رغم أن الإسلام لم يأمر بتعذيب الجسد ولا بلباس معين ، بل الإسلام أباح لنا أن نأكل من الطيبات فقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن**

---

(١) انظر « تلبيس إبليس » (ص١٦٣) .

(٢) « تلبيس إبليس » (١٦٣) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

(٣) انظر « الفتاوي » لشيخ الإسلام (ج١١ ص٦) و« المقدمة » لابن خلدون (ص٤٦٧) .

كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[2] .

تعريف التصوف لغة واصطلاحًا :

أولاً : تعريفه في اللغة :

قال الجوهري في « الصحاح » : « الصوف للشاة والصوفة أخص منه وصوفة أي حي من مضر وهو الغوث بن مريم بن أدين بن طابخة بن إلياس ابن مضر ، كانوا يخدمون الكعبة في الجاهلية ويجيزون الحاج أي يغيضون بهم » .

وقول الشاعر : حتى يقال أجيزوا آل صوفانا[3] .

وكبش صاف أي كثير الصوف[4] .

وصاف السهم عن الهدف يصوف ويصيف عدل عنه .

ومنه قولهم صاف عني شر فلان وأصاف اللّه عني شره[5] .

ومن خلال هذه التعريفات اللغوية المتقدمة يتضح لنا أن كلمة صوف تأتي بمعنى الصوف المعروف للشاة ونحوها .

---

(١) البقرة : (١٧٢) .

(٢) الأعراف : (٣١) .

(٣) انظر « معجم مقاييس اللغة » لأبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا . الطبعة الأولى ، القاهرة (٣/ ٣٢٢) .

(٤) « المصباح المنير » ص (٤٨١) .

(٥) « الصحاح » للجوهري (٤/ ١٣٨٨) .

كما تأتي بمعنى مال وعدل .

ويرى أحمد بن فارس أن الباب كله يرجع إلى الصوف المعروف وفي ذلك يقول : « الصاد والواو والفاء أصل واحد صحيح وهو الصوف المعروف .

يقال كبش أصوف وصوف وصائف وصاف كل هذا يكون في كثير الصوف .

ويقولون خذ بصوفة قفاه إذا أخذ بالشعر السائل في نقرته »[1] .

وذهب أحمد بن علي المقري في « المصباح المنير » إلى أن كلمة صوفية كلمة مولدة لا يشهد لها قياس ولا اشتقاق في اللغة العربية[2] .

وقال ابن خلدون في « المقدمة » : « إن قيل بالاشتقاق فإنها مشتقة من الصوف لأنهم في الغالب مختصون به »[3] .

ثانيًا تعريف التصوف في الاصطلاح :

وأبدأ أولاً بتعريف التصوف لدى المتصوفة أنفسهم .

وقد اختلفوا اختلافًا كثيرًا في تعريفه ، كما اختلفوا في أصله واشتقاقه، بل اختلفوا هنا في تعريفه اختلافًا كثيرًا حتى تناقضت وتعارضت تعريفاتهم فمن المتصوفة الذين أوردوا تعريفات عدة للتصوف :

---

(١) انظر « معجم مقاييس اللغة » لأبي الحسين أحمد بن فارس (ج٣/ ٣٢٢) .

(٢) انظر « المصباح المنير » (ج١/ ٤٨١) الطبعة الخامسة بالمطبعة الأميرية .

(٣) « مقدمة ابن خلدون » (ص٤٦٧) الطبعة الرابعة .

١ ـ معروف الكرخي[١] وقد عرفه بما يلي : « التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق »[٢] .

٢ ـ الجنيد[٣] وقد عرفه بما يلي فقال : « التصوف أن تكون مع اللَّه بلا علاقة » وقد عرفه أيضًا بما يلي فقال : « التصوف تصفية القلب عن موافقة البرية ومفارقة الأخلاق الطبعية وإخماد الصفات البشرية ومجانبة الدواعي النفسانية ومنازلة الصفات الربانية والتعلق بعلوم الحقيقة واتباع الرسول في الشريعة »[٤] .

وقد عرف سحنون التصوف بما يلي حين سئل عنه فقال : « التصوف هو أن لا تملك شيئًا ولا يملكك شيء »[٥] .

---

(١) وهو أبو محفوظ معروف بن فيروز ، ومعروف قد أسلم على يد علي بن موسى الرضا وهو أستاذ السرقسطي وقد صحب داود الطائي ، وتوفي ببغداد ودفن بها . انظر « الطبقات » للسلمي (ص٨٣ ـ ٨٥) .

(٢) « عوارف المعارف » للسهروردي (ص٦٢) طبعة دار المعارف ببيروت .

(٣) نفس المرجع السابق .

وترجمة الجنيد هو محمد أبو القاسم الخزاز وكان أبوه يبيع الزجاج فلذلك كان يقال القواريري وأصله من نهاوند ومولده ومنشؤه بالعراق وكان فقيهًا تفقه على أبي ثور وكان يفتي في حلقته ، وصحب السرى السقطي والحارث المحاسبي وغيرهما ، وهو من أئمة القوم توفي سنة (٩٢٧هـ) انظر السلمي (ص١٥٥) .

(٤) « التعرف لمذهب أهل التصوف » للكلاباذي (ص٣٤) . مكتبة الكليات الأزهرية الطبعة الأولى .

(٥) « اللمع » للطوسي (ص١٥) .

وسحنون هو سحنون بن عمر المحب ويقال : سحنون بن عبد اللَّه أبو الحسن الخواص ويقال : كنيته أبو القاسم سمى نفسه سحنون الكذاب ، صحب السري السقطي ومحمد بن علي القصاب وغيرهما ، وهو من كبار مشائخ العراق مات بعد الجنيد . انظر « طبقات الصوفية » للسلمي (١٩٥).

إذا نظرنا في التعريفات السابقة نرى أن أئمة التصوف قد عرفوا التصوف بتعريفات مختلفة ، فمثلاً معروف الكرخي قد عرفه بأن معنى التصوف هو الأخذ بالحقائق ، كلمة الحقائق تحتمل عدة وجوه ولا ندري ماذا يقصد بها ولعله في الغالب يقصد بها العلم الصوفي الذي يقولون عنه علم الحقيقة .

وأما الجنيد فقد عرفه بتعريفين ، ففي التعريف الأول عرفه بأن معنى التصوف هو أن يكون الإنسان مع اللَّه بلا علاقة ، ولعله يقصد بأن على الإنسان أن يقطع جميع علاقاته مع بني جنسه وهذه دعوة باطلة فإننا لسنا مأمورين بالهروب عن البشر والاختفاء عنهم في الأربطة والخوانق ، والزوايا الصغيرة كما يفعل المتصوفة إلى يومنا هذا .

وأما في التعريف الثاني فقد عرفه بأنه تصفية القلب عن موافقة الخليقة والابتعاد عن الأخلاق الطبيعية التي فطر الإنسان عليها والسعي إلى التخلص من الصفات البشرية وعدم إعطاء النفس حقها مما تطلبه وأن يكون متعلقًا بعلوم الحقيقة ويتبع الرسول في الشريعة .

وهذه كلها مخالفة لما جاء به الرسول ﷺ من عند اللَّه لأن الإنسان بشر وسيظل بشرًا هكذا مهما عبد اللَّه سبحانه وتعالى .

وسحنون قد عرف التصوف بأنه التجرد عن كل الأملاك والتحرر من أي أحد أن يملكك .

وهذا مخالف للإسلام لأن الإسلام لم يأمرنا بالتجرد عن أملاكنا بل أمرنا الرسول ﷺ أن نعطي كل شيء حقه .

وفي الحقيقة فالصوفية في هذه التعريفات تعرب لنا عن معتقدات الصوفية التي يعتقدونها في قلوبهم ولم يقولوها هكذا جزافًا .

تعريف التصوف لدى غير المتصوفة من المسلمين :

لقد عرف الدكتور إبراهيم هلال التصوف بما يلى فقال :

« رغم كثرة التعريفات التي عرف بها التصوف الإسلامي في كتب التصوف وغيرها فإننا نستطيع أن نقول أن التصوف كما يراه الصوفية في عمومه هو السير في طريق الزهد ، والتجرد عن زينة الحياة وشكلياتها وأخذ النفس بأسلوب من التقشف وأنواع من العبادة والأوراد والجوع والسهر في صلاة أو تلاوة ورد .

حتى يضعف في الإنسان الجانب الجسدى ويقوى فيه الجانب النفسي أو الروحي فهو إخضاع الجسد للنفس بهذا الطريق المتقدم سعيًا إلى تحقيق الكمال النفسي كما يقولون وإلى معرفة الذات الإلهية وكمالاتها وهو ما يعبرون عنه بمعرفة الحقيقة »[1] .

والإسلام يدعو حقيقة إلى تربية الإنسان تربية إسلامية صحيحة حتى يكون مستقيمًا في حياته ويخضع لأوامر اللَّه ورسوله عن قناعة كاملة .

ولكن الإسلام لا يسلك في تربية الإنسان الطريق الذي سلكه المتصوفة في تربية الإنسان وإنما يسلك في التربية إلى تقوية الإيمان باللَّه وباليوم الآخر وبجميع ما يجب الإيمان به والعمل بالشريعة في حدود استطاعة الإنسان بالإتيان بالواجبات والإقلاع عن المحرمات والابتعاد عنها كلية ، ولذا أقول إن سلوك المتصوفة في تربية الإنسان سلوك منحرف بعيد كل البعد عن المنهج الذي جاء به الإسلام وأمرنا أن نسلكه ، ذلك لأن السلوك الذي يسير

---

(١) « التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة » للدكتور إبراهيم هلال الطبعة الأولى (١٣٩٥هـ) نشر دار النهضة العربية (ص١) .

عليه المتصوفة في التربية يحطم معنويات الإنسان ويسعى دائمًا أن يفصل الإنسان عن هذه الحياة نهائيًا حتى يصبح عضواً ميتًا لا قيمة له في هذه الحياة، وهذا سلوك يختلف تمامًا مع السلوك الذي دعا إليه الإسلام ذلك لأن الإسلام دين شامل كامل يدعو الإنسان لكي يقوم بوظائفه في هذه الحياة على أكمل وجه وأتمه .

فالإسلام أباح للإنسان أن يأكل من الطيبات كما قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[2] .

ولو تتبعنا وبحثنا في المصادر التاريخية فسنجد أن هذه التربية الصوفية أخذت من فلسفات أجنبية كالهندوكية والبوذية أو الديانات المحرفة كالمسيحية واليهودية أو أنها أخذت من البيئة الإسلامية عن طريق الطوائف الضالة كالشيعة والباطنية .

فالمتصوفة قد أدخلوا في الإسلام ما ليس منه في جميع جوانبه سواء كان في جانب العبادة أو كان في جانب العقائد والأخلاق حتى أصبحت معرفة الصوفية في عمومها معرفة فلسفية أو إشراقية لا معرفة دينية ترجع إلى محض التمسك بالكتاب والسنة .

فالإشراق الفلسفي الذي عرف من قبل عند سقراط وأفلاطون وغيرهم من فلاسفة اليونان والهند والفرس ، والذي يصل فيه المرء بعد مرحلة التجرد

---

(١) البقرة : (١٧٢) .

(٢) الأعراف : (٣٢) .

والرياضة والعبادة إلى مرحلة الكشف والإخبار عن المغيبات هو غاية التصوف الإسلامي في منهجه الفلسفي[1] .

وقد عرفه الشيخ محمد فهر شقفة بقوله :

« التصوف طريقة زهدية في التربية النفسية يعتمد على جملة من العقائد الغيبية « الميتافيزيكية » مما لم يقم على صحتها دليل لا في الشرع ولا في العقل » .

وقد شرح هذا التعريف فقال :

« وقولنا : يعتمد على جملة من العقائد « الميتافيزيكية » مما لم يقم على صحتها دليل في الشرع ولا في العقل .

يعني تلك العقائد التي تبحث فيما وراء الطبيعة والتي يدعون بأنهم تعلموها عن طريق الكشف أو وردت إليهم عن طريق الخواطر أو الرؤى المنامية كعقيدة البعض في الحلول ووحدة الوجود والحقيقة المحمدية واعتبارها أصلاً لكل حياة بشرية وكونية ، وعقيدة البعض الآخر عن النواميس الطبيعية مما لم يخبر بذلك قرآن ولا سنة ولا يقوم على أساس علمي ولا يتفق مع المقاييس العقلية »[2] .

* * *

(١) انظر « التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة » لإبراهيم هلال (ص١٠) .

(٢) « التصوف بين الحق والخلق » للشيخ محمد فهر شقفة . الدار السلفية (ص٧) .

المبحث الثاني

نشأة التصوف

إذا تتبعنا كتب التاريخ التي كتبت عن نشأة الفرق في الإسلام فسنجد بأن أول بوادر ظهور التصوف وبروزه ظاهرة معروفة بهذا الاسم ولها تعاليم خاصة بها ومدرسة وتلاميذ تربيهم تربية خاصة تختلف مع التربية العامة التي يسلكها أهل السنة والجماعة في تربية الأجيال المسلمة كان في القرن الثاني الهجري وذلك نتيجة توسع الفتوحات الإسلامية واختلاط الشعوب المتنوعة المختلفة في عقائدها وأجناسها ولغاتها ، ولذا لا يستبعد أن يكون بعض من المسلمين تأثروا بالعقائد التي كانت سائدة هناك خاصة وأن التصوف كان معروفًا قبل الإسلام في الأمم الماضية وبالأخص في بلاد فارس والهند رغم أن التصوف في الأمة الإسلامية بدأ بمظهر الزهد والمبالغة في العبادة في أول أمره .

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن ظهور التصوف كان نتيجة إقبال الناس على الدنيا والانشغال بها ولذا عرف المقبلون على الزهد والعبادة باسم الصوفية والمتصوفة[1] .

ومن ذلك الحين غلبت هذه التسمية على هذه الطائفة من الزهاد فيقال رجل صوفي وللجماعة « الصوفية » ومن يتوصل إلى ذلك يقال له متصوف

---

(١) « مقدمة ابن خلدون » (٤٦٧) و« تلبيس إبليس » (١٦٣) .

والجماعة المتصوفة[1] .

ويقال بأن أول رجل لقب بالصوفي هو أبو هاشم الكوفي المتوفى سنة (١٥٠هـ) وأنه بنى أول خانقاه للصوفية في الرملة من بلاد الشام.

وكان يقول بالحلول والاتحاد وكان باطنيًا ودهريًا وهو من الموالي[2] وقيل أن أول من تسمى ببغداد صوفيًا هو عبدك الصوفي وقيل من بين الذين لقبوا بالصوفي أولاً جابر بن حيان[3] .

ويقول الإمام الشافعي رحمه اللَّه : « تركت بغداد وقد أحدث الزنادقة فيها شيئًا يسمونه السماع وهو الغناء والمواجيد » والإمام الشافعي معروف بأنه دخل مصر سنة (١٩٩هـ) .

ومن كلام الشافعي نستنتج أن أمر هؤلاء الزنادقة كان معلومًا قبل ذلك.

وكلام الإمام الشافعي رحمه اللَّه يدل دلالة واضحة على أنه كان في القرن الثاني الهجري توجد فرقة معلومة عند علماء الإسلام يسمونهم أحيانًا بالزنادقة وأحيانًا بالمتصوفة ، ووصف الشافعي لهم بهذا الوصف يدل على أن القوم كانوا منحرفين في ذلك الوقت المبكر.

ويقول ابن خلدون رحمه اللَّه في مقدمته : « إن نشأة التصوف كانت في القرن الثاني عندما أقبل الناس على الدنيا وانصرف أناس للزهد والعبادة فسموا بالصوفية »[5] .

---

(١) « الرسالة القشيرية » (٢/ ٥٥٠) .

(٢) انظر « الصلة بين التصوف والتشيع » لكامل الشيبي (ص٢٦٩) .

(٣) انظر المرجع السابق (ص٢٦٦) .

(٤) انظر « تلبيس إبليس » (ص٢٣٠) .

(٥) انظر « مقدمة ابن خلدون » (٤٦٧) الطبعة الرابعة.

وأيد شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الرأي فقال : « إن نشأة التصوف كانت في أوائل القرن الثاني الهجري وأنه لم يشتهر إلا بعد القرن الثالث »[1].

وقال رحمه اللَّه : « إن أول ما ظهرت الصوفية في البصرة وأول من بنى دويرة للصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن يزيد من أصحاب الحسن وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن في سائر أهل الأمصار .ولهذا يقال فقه كوفي وعبادة بصرية »[2] .

كما ذكر شيخ الإسلام رحمه اللَّه أنه قد نقل التكلم بالتصوف عن الحسن البصري المتوفى سنة (١١٠هـ) وعن سفيان الثوري المتوفى سنة (١٦١هـ)[3] .

ويقول عمر رضا كحالة عن اسم الصوفية : « اشتهر هذا الاسم قبل المائتين من الهجرة فهو اسم محدث بعد عهد الصحابة والتابعين .

وورد لقب الصوفي مفرداً في النصف الثاني للهجرة إذ نعت به جابر ابن حيان .

وأما صيغة الجمع « الصوفية » فإنها ظهرت عام (١٩٩هـ) .

وقال : « وقد أطلق الصوفي والمتصوف باديء الأمر مرادفًا للزاهد والعابد والفقير »[4] .

---

(١) انظر « الفتاوي » لشيخ الإسلام ابن تيمية (١١/ ٥ ـ ٧) .

(٢) « الفتاوى » (١١/ ٦ ـ ٧) .

(٣) « الفتاوى » (١١/ ٥) .

(٤) «الفلسفة الإسلامية وملحقاتها» لعمر رضا كحالة ط الحجاز بدمشق (١٣٩٤هـ) (ص٢٣١).

وقد اشتهر في هذه الفترة ـ أي القرن الثاني الهجري ـ الزاهد الصوفي إبراهيم بن أدهم البلخي[1] المتوفى سنة (١٦٠هـ) أو (١٦٢هـ) الذي ترك ملكه وأمواله ولبس الصوف وهام على وجهه في البلاد متقشفًا منصرفًا إلى العبادة رغم ما في هذا السلوك من مخالفة لتعاليم الإسلام الحنيف.

كما اشتهرت في هذه الفترة الزاهدة رابعة العدوية[2] المتوفاة سنة (١٣٥هـ) بدعوتها إلى حب اللَّه حبًا مطلقًا مجردًا من الخوف والرغبة وجعلت هذا الحب من أسس الصوفية وركزت عليه .

وهذا مخالف للنهج الإسلامي الصحيح فاللَّه سبحانه وتعالى قال في وصف أنبيائه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[3] .

فما دام أن اللَّه وصف أنبياءه بهذا الوصف وهم أعرف به من غيرهم فمن باب أولى أن يعبد اللَّه غيرهم رغبًا ورهبًا.

قال الإمام ابن تيمية رحمه اللَّه : « قال بعضهم : من عبد اللَّه بالحب

---

(١) هو أبو إسحاق من أهل بلخ كان من أبناء الملوك والمياسير خرج متصيدًا فهتف به هاتف فيما يزعم أيقظه من غفلته فترك التزين واتجه إلى طريق أهل الزهد والورع وخرج إلى مكة وصحب بها سفيان الثوري والفضيل بن عياض ودخل الشام وكان يعمل فيه ويأكل من عمل يده وبها مات .

انظر « طبقات الصوفية » للسلمي (ص ٣٠ ـ ٣١) تجد القصة كاملة .

(٢) هي رابعة بنت إسماعيل بن الحسين بن زيد بن علي بن أبي طالب وهي صوفية كبيرة وعابدة شهيرة ، قال ابن الجوزي : كانت رابعة فطنة ومن قولها : الذي يدل على قوة فهمها قولها أستغفر اللَّه من قلة صدقي في قولي أستغفر اللَّه » وقال مصطفى عبد الرزاق إنها « هي السابقة إلى وضع قواعد الحب والحزن في هيكل التصوف » وتوفيت سنة (١٣٥هـ) وقيل (١٨٥هـ) .

« أعلام النساء » لعمر رضا كحالة (٢/ ٤٣١) المطبعة الهاشمية ط (٢/ ١٣٧٩هـ).

(٣) الأنبياء آية : (٩٠) .

وحده فهو زنديق ، ومن عبد اللَّه بالخوف وحـده فهو حروري ، ومـن عبـد اللَّه بالرجاء وحده فهو مرجيء ، ومن عبد اللَّه بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد »[1] .

ولم يكن للتصوف في أول نشأته جماعة معروفة بعينها لها نظامها الخاص ورئيسها المعين ، وإنما تميزت الجماعات الصوفية في أول أمرها بالزهد المبالغ فيه ومحاربة النفس والتوكل على اللَّه في جميع أمورهم كما يزعمون ، وإن كان على فهم الصوفية للتوكل ملاحظات ستأتي في محلها في الباب الرابع ، وبالإضافة فإن محاربة النفس ليست من الأمور التي حث عليها الإسلام بل الإسلام حث على حفظ حقوق النفس وعدم تحميلها ما لا تطيق من الأعمال والعبادات .

ولذا الصوفية الأوائل كانوا ينطلقون دائمًا من قاعدتين اثنتين وهما المبالغة في الزهد وحب اللَّه ولكن مع مرور الزمن وقعوا في انحرافات خطيرة وذلك لبعدهم عن تعاليم كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ ، وهكذا مصير كل من يبتغي الهدى من غيرهما .

والحقيقة أن الزهد في الدنيا بدون مبالغة وتنطع أمر مشروع في الإسلام إلا أن المتصوفة بالغوا فيه حتى أدخلوا فيه تدريجيًا عناصر من المذاهب والفلسفات الأجنبية المخالفة للإسلام.

وقد دعا القرآن إلى الزهد في متاع الدنيا وحذر من الاغترار بالحطام الدنيوي الفاني ، وقد وصف اللَّه الدنيا بأنها حقيرة لا تساوى شيئًا بالنسبة لنعيم الآخرة ، لكن مع ذلك لم يأمر الإسلام بالبعد الكامل عن الدنيا

---

(١) انظر « الفتاوى » لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٠/ ٨١) .

وإهمال الواجبات فيها بل اللَّه سبحانه وتعالى أحل لنا أن نأكل من الطيبات ونلبس ونتزوج وننام كل ذلك بدون إسراف ونسيان للآخرة بينما المتصوفة يدعون إلى البعد الكامل عن الدنيا بكل ما فيها وتعذيب الجسد بالجوع والسهر والعري وهذا ليس من الإسلام في شيء .

والآيات التي تحذر من الاغترار بالدنيا كثيرة منها :

١ ـ قوله تعالى : ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[١] .

٢ ـ وقوله تعالى : ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾[٢] .

٣ ـ وقوله تعالى : ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾[٣] .

وقد وصف اللَّه سبحانه وتعالى المؤمنين بأنهم يحبون اللَّه أشد المحبة فقال تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[٤] .

وقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ منكُمْ عَن دينه فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٥] .

---

(١) آل عمران : (١٥٨) .

(٢) التوبة : (٣٨) .

(٣) الحديد : (٢٠) .

(٤) البقرة : (١٦٥) .

(٥) المائدة : (٥٤) .

ومن هنا نعلم بأن حب اللَّه أمر واجب ولكن ليس الحب الصوفي الذي يسعى أهله إلى اعتقاد الحلول والاتحاد بذات اللَّه فهذا اعتقاد فاسد وليس حبًا إسلاميًا وإنما هو فلسفة وثنية هندية ويونانية كما سنعرف ذلك حينما نتعرض لذكر مصادر الصوفية في المبحث الآتي .

والحقيقة لقد وجد في صدر الإسلام كثيرون ممن عرفوا بالزهد كأهل الصفّة وأبي ذر الغفاري وحذيفة بن اليمان وغيرهم ، وكان زهدهم زهدًا معتدلا لا يخرج عما أرشد إليه القرآن من التوسط والاعتدال بمعنى أنهم لم يكونوا منقطعين عن الحياة العامة بل كانوا يشاركون في الحياة الاجتماعية ويسعون لكسب معاشهم بخلاف المتصوفة فإنهم يحيون حياة تخالف حياة الآخرين من حيث المبالغة في الزهد وترك متاع الدنيا وتكليف النفس ما لا تطيقه من العبادات حتى تنهار وبالتالي تعجز عن القيام بواجباتها ، وسأوضح ذلك إن شاء اللَّه في الفصل الخاص بمفهوم المتصوفة الخاطيء للزهد في الباب الرابع إن شاء اللَّه .

يقول رينولد : « كان التصوف في بدء أمره صورة من صور الحياة الدينية لا يأخذ بها إلا الأفراد ولا يأخذها عن هؤلاء الأفراد إلا خاصة أصحابهم ثم أصبح رويدًا رويدًا حركة منظمة ومدرسة يتخرج فيها الأولياء ـ والأحرى يتخرج فيها الدجاجلة والمجاذيب والدراويش والكهنة والمشعوذون ـ لها قواعدها ورسومها من حيث سيرة المريدين وأخلاقهم وعبادتهم وأصبح المريد يتلقى قواعد الطريق الصوفي على أستاذه ويخضع لإرشاد هذا الأستاذ خضوعًا أعمى .

وهناك دلائل واضحة على أن رجال التصوف من أهل القرن الثالث لم يقنعوا بحياة الزهد والعزلة عن الناس بل تطلع المريد الذي سلك طريق القوم

أن يصبح يومًا شيخًا عظيمًا ومرشدًا ملهمًا يظهر في الحفلات العامة ومن حوله أتباعه الكثيرون المعجبون به .

يقول أبو يزيد البسطامي: «من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان. . .».

وقد ادعى رجال التصوف منذ البدء الحظوة عند اللَّه واستمداد السلطان منه ، فهذا معروف الكرخي يقول لمحدثه : اقسم على اللَّه بي .

وهذا ذو النون المصري يصرح بأن طاعة المريد لأستاذه أولى به من طاعته لربه .

أما تقعيد القواعد وتنظيم رسوم الطريق الصوفي فإنك تلمحهما واضحين كل الوضوح في أقوال مشائخ ذلك العصر ـ القرن الثالث الهجري ـ أينما قرأتها ، فإنهم قسموا الطريق إلى سلسلة من المراحل بل ميزوا بين أنواع مختلفة من الطرق .

يقول يحيى بن معاذ الرازي المتوفى (٢٥٨هـ) : « إذا رأيت الرجل يعمل بالطيبات فاعلم أن طريقه التقوى وإذا رأيته يحدث بآيات اللَّه فاعلم أنه على طريق الأبدال وإذا رأيته يحدث بآلاء اللَّه فاعلم أنه على طريق المحبين وإذا رأيته عاكفًا على ذكر اللَّه فاعلم أنه على طريق العارفين » [1] .

ومن هنا يتضح لنا أن التصوف في القرنين الثالث والرابع الهجريين ظهر في صورة جديدة تختلف تمام الاختلاف عن سابقتها ، حيث أن التصوف في هذه الفترة لم يقف عند حدود الزهد والرياضة والمجاهدة وإنما تجاوز هذا كله إلى غاية بعيدة ألا وهي فناء الإنسان في نفسه اتحاده

---

(١) « في التصوف الإسلامي وتاريخه » لرينولد (ص١٩ ـ ٢٠) طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .

بربه ـ حسب زعم المتصوفة الأفاكين لأن اتحاد المخلوق بالخالق غير ممكن فاللَّه سبحانه وتعالى مباين لخلقه ـ .

ولقد تأثرت الصوفية في هذه الفترة بالمذاهب الفلسفية القديمة كالبوذية والهندوسية واليونانية الوافدة والتي انتشرت في ذلك الوقت في أنحاء الخلافة الإسلامية الواسعة وبالأخص في خراسان وفارس وذلك نتيجة للفتوحات الإسلامية لهذه البلاد الذي تولد عنه الاختلاط بين الثقافات[1] .

وقد ظهر في هذه الفترة كثير من كبار المتصوفة وكان معظمهم من غير العرب بل إن جلهم كان من الفرس ، وبلاد الفرس هي منبع الفرق الضالة وعلى رأسها الشيعة والفرق الباطنية بأنواعها المختلفة وما الصوفية إلا وليدة التشيع .

وإليك نبذة قليلة بأسماء عدد قليل من الذين ظهروا في هذين القرنين:

١ ـ أبو سليمان الداراني المتوفى سنة (٢١٥هـ) الذي اشتهر بشدة التقشف[2] .

٢ ـ بشر الحافي (ت٢٢٧هـ) الذي كان ذا شأن في المجاهدة كما يقول المتصوفة[3] .

---

(١) انظر « ظهر الإسلام » لمحمد أمين (٤/ ١٥٠ ـ ١٥١) .

(٢) هو عبد الرحمن بن عطية ويقال عبد الرحمن بن أحمد بن عطية وهو من أهل داريا قرية من قرى دمشق .

انظر « طبقات الصوفية » للسلمي (ص٧٥) .

(٣) هو بشر بن الحارث الحافي بن عبد الرحمن بن عطاء بن هلال ماهان بن عبد اللَّه الحافي كنيته أبو نصر أصله من مرو من قرية بقرد أو ما برسام سكن بغداد ومات بها .

انظر « طبقات الصوفية » للسلمي (ص٣٩) .

٣ ـ أبو بكر الشبلي الخراساني (ت٢٣٤هـ)[١] .

٤ ـ أبو تراب (ت٢٤٥هـ) والذي كان من كبار سياحي المتصوفة قطع بوادٍ كثيرة على التجرد[٢] .

٥ ـ الحارث المحاسبي (ت٢٤٧هـ) الذي عمل كتابًا في أصول التصوف اسمه « الرعاية لحقوق اللّه » ، ويعتبر أقدم الكتب في التصوف[٣] .

٦ ـ ذو النون المصري[٤] (ت٢٤٥هـ) والذي يعتبر من الذين لهم الأثر الكبير في تشكيل الفكرة الصوفية كما قال المستشرق نيكلسون . وكذلك ذكر نيكلسون بأن ذا النون أول من تكلم في معرفة الأحوال والمقامات وأول من

---

(١) اسمه دلف يقال بن جحدر ويقال ابن جعفر ويقال اسمه جعفر بن يونس وهو خراساني الأصل بغدادي المنشأ والمولد وأصله من أسروشنة ومولده كما قيل سامراء صحب الجنيد ومن في عصره من المشائخ وعاش (٨٧) سنة ومات في ذي الحجة سنة (٣٣٤هـ) ودفن في مقبرة الخيزران.

انظر « طبقات الصوفية » للسلمي (ص٣٣٧) .

(٢) واسمه عسكر بن حصين ويقال : ابن محمد بن حصين صحب أبا حاتم العطار البصري وحاتم الأصم البلخي وتوفي بالبادية وقيل نهشته السباع (ت٢٤٥هـ) .

انظر « طبقات الصوفية » للسلمي (ص١٤٦) .

(٣) الحارث المحاسبي وكنيته أبو عبد اللّه من علماء مشايخ القوم وله تصانيف كثيرة ومشهورة منها كتاب « الرعاية لحقوق اللّه » وغيره وهو يعتبر أستاذ أكثر البغداديين وهو بصري مات ببغداد سنة (٢٤٣هـ) .

انظر « طبقات الصوفية » للسلمي (ص٥٦) .

(٤) ذو النون المصري وذو النون بن إبراهيم المصري أبو الفيض ويقال ثوبان بن إبراهيم وذا النون لقب ويقال الفيض بن إبراهيم وهو مولى لقريش وكان أبوه إبراهيم نوبيًا توفي سنة (٢٤٥هـ) وقيل مات سنة (٢٤٨هـ) .

انظر « طبقات الصوفية » للسلمي (ص١٥) .

بحث فيما يسمونه المعرفة بحثًا نظريًا غامضًا[1] .

٧ ـ السري سقطي الفارسي الذي ذكر عنه الهجوري بأنه أول من تكلم في بغداد في ترتيب المقامات وبسط الأحوال وأنه أكثر مشائخ العراق من حيث المريدين[2] .

٨ ـ أبو اليزيد البسطامي (ت٢٦١هـ) والذي كان ظهوره سببًا في تطور انحراف الأفكار الصوفية تطورًا خطيرًا لأنه أدخل في التصوف فكرة الفناء وفكرة وحدة الوجود[3] .

٩ ـ الجنيد (ت٢٩٧هـ) وهو فارسي من نهاوند ويلقب بسيد الطائفة[4].

١٠ ـ الحلاج (ت٣٠٩هـ) والذي نادى بمذهب الحلول ، وبظهور الحلاج بلغ التصوف غايته وذروته في الانحراف من حيث العقيدة لأنه استطاع أن يظهر معتقده في الحلول على الملأ فأفتى علماء عصره بكفره وقتله فقتل في آخر سنة (٣٠٩هـ) ولكن طريقته بقيت بعده وتولى نشرها

---

(١) انظر « في التصوف الإسلامي وتاريخه » (ص ٧ ـ ٨) .

(٢) السري سقطي وهو سري بن المفلس السقطي كنيته أبو الحسن يقال : أنه خال الجنيد وأستاذه صحب معروفًا الكرخي وهو أول من تكلم ببغداد في الحقائق والأحوال وهو إمام البغداديين وشيخهم في وقته وإليه ينتمي أكثر الطبقة الثانية من مشائخ الصوفية ، (ت٢٥١هـ).

انظر « طبقات الصوفية » للسلمي (ص٤٨) .

(٣) انظر « في التصوف الإسلامي وتاريخه » (ص ٢٢ ـ ٢٤) .

وترجمة أبي يزيد البسطامي هو طيفور بن عيسى بن سروشان وكان جده سروشان هذا مجوسيًا فأسلم وهو من أهل بسطام مات سنة إحدى وستين ومائتين .

انظر « طبقات الصوفية » للسلمي (ص٦٣) .

(٤) سبقت ترجمته (ص٢٩) .

بعده كبار المتصوفة في الماضي والحاضر[1] .

وقد ظهر في هذين القرنين كثير من الشخصيات الصوفية غير الذين سبق ذكرهم وانتشروا في الساحة الإسلامية على امتداد الخلافة الإسلامية وبالأخص في فارس وخراسان والعراق بسبب وجود المؤثرات الأجنبية المختلفة في هذه المناطق كالهندوسية والبوذية والفارسية واليونانية والنصرانية المحرفة المصبوغة بالفلسفة اليونانية والتي انقلبت إلى ديانة وثنية بتخطيط من اليهود .

وبدأوا ينظمون أنفسهم في جماعات وفرق لها طرقها الخاصة وشيوخها وسالكوها .

وكانت هناك مدارس كثيرة للتصوف في هذه الفترة لكل منها طابع معين .

وقد ذكر الهجويري (ت٤٦٥هـ) الطرق الصوفية التي ظهرت في هذه الفترة باثنتي عشرة فرقة ونسب كل منها إلى شيخ من شيوخ القرنين الثالث والرابع الهجريين[2] .

وهذا دليل على أن الصوفية قد انتشرت في هذه الفترة انتشاراً واسعًا كما انتشرت تبعًا لذلك الخوانق والأربطة والزوايا التي يختلون بها في أنحاء

---

(١) الحلاج هو الحسين بن منصور وكنيته أبو مغيث وهو من أهل بيضاء فارس ونشأ بواسط بالعراق.

صحب الجنيد وأبا الحسن الثوري وعمر المكي والخواص وغيرهم وقد اختلف المتصوفة في أمره فمنهم من ذمه وأبعده ومنهم من أثنى عليه وآواه إلى حظيرة التصوف وقد قتل ببغداد بباب الطاق يوم الثلاثاء (٣٠٩هـ) .

(٢) انظر « كشف المحجوب » للهجويري (١/٥٨) .

بلاد العالم الإسلامي على امتداد رقعة الخلافة الإسلامية الواسعة[1] .

وقد وضعوا نظامًا خاصًا في هذه الأربطة يشبه إلى حد ما نظام الرهبنة في المسيحية والبوذية حيث يقوم بإدارة كل منها شيخ من شيوخهم ، وانتشر نظام الأربطة في الصوفية على أيدي رجال الطرق التي توالى ظهورها سريعًا في القرنين الخامس والسادس الهجريين[2] .

والعجيب أن كل واحد من أولئك الطرقيين الذين قاموا بإنشاء هذه الطرق الصوفية يزعم كل واحد منهم أنه من نسل رسول اللّه ﷺ حيث استطاع كل منهم أن يقيم له طريقة صوفية خاصة به وأتباعًا مخصوصين فإننا إذا نظرنا في العالم الإسلامي نجد أن كل مجموعة من الصوفية تنتسب إلى شيخ من شيوخ الصوفية إلى يومنا هذا.

وفي القرن السادس والسابع والثامن بلغت الفتنة الصوفية أقصاها وأنشأوا فرقًا خاصة للدراويش وظهر المجاذيب وبنيت القباب على القبور في كل ناحية وذلك بقيام الدولة الفاطمية في مصر وبسط سيطرتها على أقاليم واسعة من العالم الإسلامي واستطاعت هذه الدولة تجنيد هذه الفرق الصوفية وغزوا العالم الإسلامي بها والتي كان لها أعظم الأثر بعد ذلك في تمكين الجيوش الصليبية من أرض الإسلام[3] .

وهكذا امتلأت الساحة الإسلامية بالمدارس والمذاهب الصوفية التي وضعت للمريد لكي يدخل إلى مقام شيخه أو ينخرط في طريقه قوانين يجب

---

(١) انظر « الخطط» للمقريزي (ص٤٥م) دار العلم للملايين ، بيروت .

(٢) انظر « في التصوف الإسلامي وتاريخه » .

(٣) « الفكر الصوفي » لعبد الرحمن عبد الخالق (ص ٧) .

أن يسلكها وامتلأت الصوفية بالرسوم والطقوس التي أطلقوا عليها اسم الأحوال والمقامات يتدرج فيها المريد إلى أن يصل إلى مرحلة العشق والوجد والفناء الباطل والاتحاد والحلول وغير ذلك من العقائد الباطلة التي ستتضح لنا من خلال هذه الرسالة إن شاء اللَّه[1] .

أما في مجال التدوين فقد دون الصوفية علومًا خاصة بهم ذكروا فيها مقامات الصوفية وأحوالها ومجاهداتها وما ينشأ عنها من الأذواق والمواجد والعقائد الباطلة الإلحادية .

ومن أشهر مؤلفيهم الطوسي[2] فقد ألف كتابًا خاصًا بالتصوف بعنوان « اللمع » ، وأبو طالب المكي[3] ، ومحيي الدين بن عربي الذي يصفونه بأنه الشيخ الأكبر[4] ، وابن الفارض[5] ، وابن عجيبة[6] وغيرهم من المؤلفين

---

(١) انظر « دراسات في الفرق » لطعيمة (ص١٠٨) .

(٢) هو أبو نصر عبد اللَّه بن علي السراج الطوسي شيخ الصوفية وهو بحق أكثر المؤلفين الصوفيين وأستاذهم جميعًا بلا استثناء (ت٣٧٨هـ) انظر « مقدمة اللمع » (١٢ ـ ١٤) .

(٣) هو أبو عبد اللَّه عمرو بن عثمان المكي إمام الطائفة في الأصول والفروع والطريقة مات ببغداد (٢٩١هـ) انظر « الرسالة » للقشيري (ص١٨٠) و« طبقات الصوفية » للسلمي (ص٢٠٠) .

(٤) محيي الدين بن عربي هو أبو عبد اللَّه محمد بن علي المعروف بابن عربي الطائي الحارثي الأندلسي من غلاة الصوفية القائلين بوحدة الوجود ويقول عنه الصوفية الإمام الأكبر والكبريت الأحمر وله كتب كثيرة في التصوف منها : « الفتوحات المكية » و« فصوص الحكم » و« ذخائر الأعلام » وغيرها (ت٣٧٦هـ) . انظر « جمهرة الأولياء » للمنوفى (٣/ ٣٠١) .

(٥) هو أبو حفص عمر بن أبي الحسين حموي الأصل مصري المولد (ت٦٣٢هـ) ومن أشهر مؤلفاته ديوانه المعروف بديوان ابن الفارض والذي يتغزل فيه بالحب الإلهي حسب زعمه . انظر «مقدمة ابن الفارض والحب الإلهي » (ص٢٨) .

(٦) هو أحمد بن محمد المهدي بن عجيبة صوفي من أهل المغرب وله كتب كثيرة في التصوف منها : « الفتوحات الإلهية »، و« إيقاظ الهمم في شرح الحكم » (ت١٢٢٤هـ) انظر « جمهرة الأولياء » للمنوفي (١/ ٢٣٤) .

الكبار الذين يصعب حصرهم .

وقد امتلأت كتب هؤلاء بالمصطلحات الصوفية الغامضة وزعموا أنه لا يفهمها إلا من سلك طريقهم وتعارف عليها وربما عجزوا هم أنفسهم عن إيضاح بعضها .

وهكذا تطور الانحراف لدى المتصوفة حتى وصلوا إلى تقسيم العلم إلى قسمين : علم الشريعة وعلم الحقيقة .

وقالوا : إن علم الشريعة خاص بالفقهاء وهم الذين يسمونهم أهل الرسوم .

وعلم الحقيقة أو الباطن كما يسمونه خاص بأهل الحقائق ويعنون به أنفسهم .

ومن هنا انفصل غلاة المتصوفة عن علمي الكتاب والسنة وأنشأوا لهم علمًا خاصًا مزيجًا من أفكار الباطنية والشيعة والأديان الهندية والأفلاطونية اليونانية وهذا منتهى الضلال والانحراف الخطير الذي هوى به غلاة المتصوفة إلى الحضيض في مجال العقيدة والعبادة والسلوك .

ومن الأمثلة على ذلك ما قاله محيي الدين بن عربي : « فلما رأى أهل اللَّه أن اللَّه قد جعل الدولة في الحياة الدنيا لأهل الظاهر من علماء الرسوم وأعطاهم التحكم في الخلق بما يفتون به وألحقهم بالذين يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ، وفي أفكارهم عن أهل اللَّه يحسبون أنهم يحسنون صنعًا ، سلم أهل اللَّه لهم أحوالهم لأنهم علموا من أين تكلموا وصانوا عنهم أنفسهم بتسميتهم الحقائق إشارات فإن علماء

الرسوم لا ينكرون الإشارات»[1] .

قد بذل المتصوفة جهدهم للتوفيق بين التصوف وبين القرآن والسنة وذلك بالتأويلات الفاسدة التي هي تحريفات في الحقيقة[2] .

قال الإمام ابن الجوزي رحمه اللَّه منكرًا تقسيم الإسلام إلى حقيقة وشريعة : « وقد فرق كثير من الصوفية بين الشريعة والحقيقة وهذا جهل من قائله لأن الشريعة كلها حقائق » .

وقال ابن عقيل : « جعلت الصوفية الشريعة اسمًا وقالوا المراد منها الحقيقة » قال : « وهذا قبيح لأن الشريعة وضعها الحق لمصالح الخلق وتعبداتهم فما الحقيقة بعد هذا سوى شيء واقع في النفس من إلقاء الشياطين وكل من رام الحقيقة في غير الشريعة فمغرور مخدوع »[3] .

أقسام الصوفية :

لقد اختلف العلماء المتقدمون في تقسيم الصوفية ، وإليك بعض من أقوال العلماء الذين تكلموا في تقسيم الصوفية :

فقد قسمها شيخ الإسلام ابن تيمية إلى ثلاثة أقسام وتبعه الهجويري في تقسيم الصوفية إلى ثلاثة أقسام ، بينما الرازي قسم الصوفية إلى ستة أقسام ، وفيما يلي تقسيم كل منهم على حدة :

أولاً : أقسام الصوفية عند الإمام ابن تيمية :

يرى شيخ الإسلام ابن تيمية أن الصوفية ينقسمون إلى ثلاثة أقسام هي:

---

(١) « الفتوحات المكية » (١/ ٣٦٥) نقلاً عن التصوف للشقفة (ص٣٧) .

(٢) انظر « فصوص الحكم » لابن عربي فسترى تحريفات خبيثة من أول الكتاب إلى آخره.

(٣) « تلبيس إبليس » لابن الجوزي (ص٣٢٤).

١ ـ **صوفية الحقائق** : وهم المتفرغون للعبادة والذكر والزاهدون في الدنيا .

٢ ـ **صوفية الأرزاق** : وهم الذين وقفت عليهم الوقوف ، ويشترط شيخ الإسلام في هؤلاء الشروط الآتية :

أ ـ العدالة الشرعية بحيث يؤدون الفرائض ويجتنبون المحارم .

ب ـ التأدب بآداب أهل الطريق وهي الآداب الشرعية ، أما الآداب البدعية فلا يلتفت إليها .

ج ـ أن لا يكون أحدهم متمسكًا بفضول الدنيا .

٣ ـ **صوفية الرسم** : وهم المقتصرون على المظاهر كاللباس والزنار ونحوها وليس لهم رصيد من العمل فيظن الجاهل أنهم منهم وليسوا منهم[1] .

ثانيًا : أقسام الصوفية عند الهجويري :

يقسم الهجويرى الصوفية إلى ثلاثة أقسام ويقول إن منهم :

١ ـ **الصوفي** : وهو المتفرغ لعبادة اللَّه المتجه إليه المتجرد عن العلائق الدنيوية .

٢ ـ **ومنهم المتصوف** : وهو الذي يجاهد نفسه ويقومها للوصول إلى الدرجة السابقة .

٣ ـ **ومنهم المستصوف** : وهو من تشبه بهم من أهل المنزلة والجاه والمال ولا رصيد له من العمل المخلص حتى قيل فيه : المستصوف عند

---

(١) « مجموع الفتاوى » (١١/ ١٩ ـ ٢٠) بتصرف .

الصوفية كالذباب وعند غيرهم كالذئاب[1] .

ثالثًا : أقسام الصوفية عند الفخر الرازي :

لقد قسمهم الرازي إلى ست فرق نوجزها فيما يلي :

الأولى : أصحاب العادات : وهم الذين يهتمون بتزيين الظاهر كلبس الخرقة وتسوية السجادة .

الثانية : أصحاب العبادات : وهم المتفرغون للعبادة المنقطعون عن الدنيا .

الثالثة : أصحاب الحقيقة : وهم الذين إذا فرغوا من الفرائض لم يشتغلوا بنوافل العبادات بل في التفكر في ملكوت اللَّه وتجريد النفس عن كل ما يشغلها عن ذكر اللَّه فهم يحرصون أن لا يخلو بالهم عن ذكر اللَّه .

الرابعة : النورية : وهم يقولون إن الحجاب حجابان نوري وناري ، أما النوري فالاشتغال باكتساب الصفات المحمودة وأما الناري فالاشتغال بالشهوة والغضب والحرص والأمل .

الخامسة : الحلولية : وهم قوم يزعمون أنه قد حصل لهم الحلول أو الاتحاد فيدعون دعاوى عظيمة وليس لهم من العلوم العقلية نصيب .

السادسة : المباحية : وهم قوم يدعون محبة اللَّه ويخالفون شريعته ويقولون إن الحبيب رفع عنا التكاليف وهؤلاء شر الطوائف[2] .

قلت : وهناك قسمان آخران من أقسام الصوفية وهما :

---

(١) « كشف المحجوب » للهجويري (١/ ٢٣١) .

(٢) « اعتقادات فرق المسلمين والمشركين » للرازي (ص ١١٥ ـ ١١٧).

١ ـ **الصوفية القائلون بوحدة الوجود** كابن عربي وابن الفارض وابن عجيبة وغيرهم من ملاحدة الصوفية .

٢ ـ **الصوفية القبورية** وهم الذين يزعمون أن للأولياء تصرفًا في هذا الكون وأنهم يغيثون من استغاث بهم ويجيبون من ناداهم ويفرجون الكربات ومن الذين كتبوا في هذا المجال يوسف النبهاني ويظهر هذا في كتابه « شواهد الحق[١] ومنهم الشعراني ويظهر هذا في كتابه « الطبقات الكبرى والصغرى»[٢] ومنهم زيني دحلان ويظهر في كتابيه « خلاصة الكلام » و«الدرر»[٣] ومنهم العلوي المعاصر الساكن بمكة والذي لا يزال حيًّا يرزق .

وغير هؤلاء كثيرون يصعب حصرهم وسيظهر لنا في الأبواب القادمة وخاصة في باب انحراف المتصوفة في باب الولاية والنبوة كثير من هذه الانحرافات .

وهذه الأقسام التي أشار إليها هؤلاء الأعلام لا تختص بزمان معين ولا بطريقة معينة من المتصوفة بل إن المتصوفة وإن تعددت الطرق التي ينتسبون

---

(١) هو يوسف بن إسماعيل النبهاني الشاذلي له كتب كثيرة فيها الصالح والطالح وحمل على أعلام الإسلام كابن تيمية وابن القيم حملة شعواء وتناول بمثلها الإمام الألوسي والإمام محمد بن عبد الوهاب .

قلت : وهو من الصوفية الغلاة ومن دعاة الشرك والضلال . (ت٩٧٣هـ) انظر « الأعلام » (٢٨٩/٩) .

(٢) هو عبد الوهاب بن أحمد بن علي الشعراني الشاذلي طريقة له مؤلفات كثيرة في التصوف وهو من الغلاة القبوريين الذين دعوا إلى عبادة القبور بكل وقاحة (ت٩٧٣هـ) انظر « معجم المؤلفين» لكحالة (٢١٨/٦) .

(٣) هو أحمد زيني دحلان وهو من غلاة الصوفية المتأخرين وله مؤلفات كثيرة في الدعوة إلى الشرك والخرافة مثل كتابه « خلاصة الكلام» و«الدرر السنية» . انظر «الأعلام» للزركلي (١٢٥/١).

إليها فإنهم متفقون في منطلقاتهم وسائلهم وأهدافهم التي يرمون إليها فلكل قسم من هذه الأقسام التي سبق ذكرها أتباع ومريدون ، فلو نظرنا في متصوفة عصرنا الحاضر لوجدنا هذه الأقسام كلها موجودة بل وسنجد زيادة على هذه الأقسام وهذا ما سيظهر لنا إن شاء اللَّه خلال بحثنا معهم في هذه الرسالة .

وبما أننا لا نريد أن نتناول كل الأقسام التي ذكرت للتصوف بل نريد أن نكتب عن الأقسام المنحرفة عقديًا من المتصوفة نريد أن نركز بحثنا عن الأقسام الآتية من المتصوفة وهي :

١ ـ **الصوفية الحلولية** وهم القائلون بحلول اللَّه في بعض مخلوقاته .

٢ ـ **الصوفية الوجودية** وهم القائلون بوحدة الوجود .

٣ ـ **الصوفية الإباحية** وهم القائلون بسقوط التكاليف وإباحة المحرمات.

٤ ـ **الصوفية القبورية** وهم الداعون إلى دعاء الأنبياء والأولياء أحياءً أو أمواتًا من دون اللَّه أو مع اللَّه .

ولذا أرجو من قارئ هذه الرسالة أن يجعل في حسبانه هذا وذلك حتى لا يتبادر من عنوان الرسالة بأن المقصود منها هو القول بأن جميع المتصوفة وقعوا في انحرافات عقدية .

* * *

المبحث الثالث

مصادر التصوف

إن التصوف مذهب عجيب وغريب ذلك لأن التصوف له روافد متعددة ومصادر مختلفة ، إذ هو متأثر بالثقافات المتنوعة والديانات المختلفة سواء كانت هذه الديانات وثنية في الأصل كالبوذية واليونانية أو كانت ديانات سماوية في الأصل كالمسيحية التي تأثرت بهذه الفلسفات التي سبق ذكرها .

ولذا أريد الآن أن أذكر أهم المصادر التي استقى منها المتصوفة أذكارهم ومبادئهم لإثبات أن هذه المصادر استمد منها المتصوفة نظرياتهم التي تصطدم مع العقيدة الإسلامية اصطدامًا صريحًا وخاصة العقائد الإلحادية كالقول بوحدة الوجود والحلول والاتحاد وادعاء تلقي العلوم عن طريق ما يسمونه الإشراق بدون دراسة ولا تعلم بل عن طريق المجاهدة والتي يعنى بها المتصوفة تعذيب الجسد حتى تبقى الروح صافية فينكشف لها الغيبيات ، ولنبدأ بالأفلاطونية اليونانية :

المصدر الأول : الأفلاطونية اليونانية الغربية[1] :

إن أثر الفلاسفة اليونانية لدى الصوفية واضح جدًا ويتمثل هذا الأثر في

---

(١) ولد أفلاطون عام (٤٢٧) في عهد ديوتيمس وكان لا يزال في مستهل الطفولة حين توفي والده وبعد انتهاء طفولته رعاه عبد مسن كان يقوده إلى المدرسة وهو أحد الفلاسفة اليونانيين الذين برعوا في الفلسفة وإليه تنسب الفلسفة الأفلاطونية اليونانية الوثنية . انظر أفلاطون تعريب محمد إسماعيل (ص٦) .

نظريات المتصوفة الآتية وهي نظرية القول « بوحدة الوجود » و« الحلول والاتحاد » فهذه النظريات كلها قال بها فلاسفة اليونان ، كما نقل عنهم عبد القادر محمود : « إنه لا يوجد شيء إلا اللَّه وأن كل شيء غير اللَّه ليس إلا مظاهر خارجية وأحوال للَّه »[1] .

وقال أبو الريحان البيروني : « إن قدماء اليونانيين قبل ظهور الحكمة فيهم بالسبعة المسمين أساطين الحكمة » وقد سماهم بأسمائهم . . ثم قال: « كانوا على مثل مقالة الهند وكان بينهم من يرى أن الأشياء كلها شيء واحد. . . ومنهم من كان يرى الوجود الحقيقي للعلة الأولى فقط لاستغنائها بذاتها فيه وحاجة غيرها إليها وأن ما هو مفتقر في الوجود إلى غيره فوجوده كالخيال غير حق والحق هو الواحد الأول فقط. . . » ثم قال : « وكذلك ذهبوا إلى أن الموجود شيء واحد وأن العلة الأولى تتراءى فيه بصور مختلفة و تحل قوتها في أبعاضه بأحوال متباينة توجب التغاير مع الاتحاد »[2] .

فالنصان السابقان يثبتان لنا بأن عقيدة وحدة الوجود قال بها اليونانيون ، وهذه العقيدة تعني أن كل شيء في هذا الوجود هو اللَّه وما هذه الأشياء الموجودة في هذا الكون من حيوان وإنسان وغيرهم إلا مظاهر ومجال للَّه سبحانه وتعالى ، وهذا حسب زعم القائلين بها وإلا فهي عقيدة باطلة ومرفوضة نقلاً وعقلاً وبما أننا لا نريد في هذا المبحث إلا المقارنة بين عقائد المتصوفة والفلاسفة اليونانيين حتى نثبت استمداد المتصوفة منهم بعض عقائدهم لنترك بيان بطلان هذه العقيدة للفصل الخاص بها[3] .

---

(١) « الفلسفة الصوفية في الإسلام » د / عبد القادر محمود (ص٣٠) .

(٢) « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة » (ص ٢٤ ـ ٢٥) .

(٣) انظر (ص ٢٨١ ـ ٢٩٥) .

ومن النصوص التي تثبت بأن المتصوفة قالوا بمثل ما قال به اليونانيون وأنهم يعتقدون نفس هذه العقيدة الوثنية :

قول ابن عربي والذي قاله لتقرير عقيدة وحدة الوجود:

فلـولاه لما كنـا ولولا نحن ما كانـا
فـإن قلنـا بأنا هـو يكـون الحق إيانـا
فيظهرنا ليظهر هو سـرارا ثم إعلانا[1]

فهذه الأبيات كلها واضحة فيها عقيدة وحدة الوجود وبالأخص في البيت الأخير وهو قوله : « فيظهرنا ليظهر هو » فقد صرح في هذا البيت بأن كل هذه المخلوقات خلقها اللّه ليظهر فيها هو .

ويقول أيضًا :

الرب حق والعبد حق يال ليت شعري من المكلف
إن قلت عبد فذاك حق أو قلت رب أنى يكلف[2]

ويقول صاحب كتاب « هتك الأستار في علم الأسرار » :

« العالم موجود بوجود الحق وهو منقطع النظر عن الحق غير موجود في عينه إذ لا وجود له من ذاته ولا وجود لظل بلا وجود شخص»[3] .

وقال أيضًا في مكان آخر من نفس الكتاب : « إن الحق المنزه عن الأكوان هو بعينه الخلق المشبه وإن قد تميز الخلق بإمكانه من الخالق فالشيء

---

(١) « الفتوحات المكية » لابن عربي (٢/٥٩) نقله عنه الشقفة في كتابه « التصوف بين الحق والخلق » (ص٦٨) .

(٢) « التصوف بين الحق والخلق » لشقفة (ص٦٨) .

(٣) « دائرة معارف القرن العشرين » لمحمد فريد وجدي (١٠/١٧٨) .

الذي هو الخالق هو المخلوق بعينه لكن في مرتبة أخرى غير مرتبة الخالقية»[1] .

فالمقارنة بين النصوص المتقدمة التي أوردناها من الطرفين اليوناني والصوفي كنماذج لإثبات أن الأفلاطونية اليونانية مصدر من مصادر المتصوفة تثبت لنا بأن بين الطرفين تطابقًا كاملاً في القول بوحدة الوجود والتي هي تعتبر من أخطر العقائد الفاسدة التي لا يمكن أن يبقى للإنسان الذي يعتقدها إسلام لأن القول بوحدة الوجود يعني أن كل ما في هـذا الكـون يطلق عليه « اللَّه » وما الأشياء الموجودة في هذا الكون إلا مظاهر ومجال للَّه سبحانه وتعالى وهذا إلحاد صريح .

وقد نقل القول بوحدة الوجود عن كثير من علماء التصوف وفي مقدمتهم محيي الدين بن عربي كما سبق والحلاج وعبد الكـريم الجيلي وعبد الغني النابلس وأحمد التيجاني وغيرهم من غلاة المتصوفة .

ولكن لا نجد أحداً خدم فكرة وحدة الوجود كابن عربي حيث حاول مزج تاريخ كل نبي من الأنبياء بروح نظرية وحدة الوجود وحاول أن يضعها تحت حماية كل نبي وذلك عن طريق تأويل الآيات القرآنية وتحريفها عن معانيها من أجل تأييد نظريته الإلحادية الوثنية ألا وهي القول بوحدة الوجود.

فقد ألف كتابًا كاملاً لأجل هذا الغرض وتعرض للآيات التي تتكلم عن الأنبياء وفسرها كلها تفسيراً باطنيًا بحتًا وحاول تمييع معنى الآيات القرآنية لتأييد فكرته الخبيثة مبتدئًا بآدم عليه السلام ومنتهيًا بخاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ وهذا الكتاب هو كتابه المسمى بـ « فصوص الحكم » ، فالكتاب

---

(١) المرجع السابق (١٠/١٧٩) .

من أوله إلى آخره زندقة وكفر بواح .

وإليك أنموذج من تفسيره الغريب في نفس الكتاب حيث يقول في « فص حكمة قدسية في كلمة إدريسية » :

« ومن أسمائه العلي ، على من ؟ وما ثم إلا هو فهو العلي لذاته ، أو عن ماذا ؟ وما هو إلا هو ، فعلوه لنفسه وهو من حيث الوجود عين الموجودات فالمسمى محدثات هي العلية لذاتها وليس إلا هو . . . فهو الأول والآخر والظاهر والباطن فهو عين ما ظهر وهو عين ما بطن فهو ظاهر لنفسه باطن عنه وهو المسمى أبا سعيد الحزاز وغير ذلك من أسماء المحدثات »[1] .

والمقصود أن كل من يقرأ في كتب ابن عربي سيلاحظ بأن الرجل عنده مقدرة على التلاعب بالألفاظ وأنه يفسر النصوص القرآنية والحديثية حسب هواه بحيث توافق فكرته التي استوردها من وثنيي اليونان والهنود.

وبما أننا سنتحدث الآن في العقيدة الثانية التي أخذها المتصوفة من فلاسفة اليونان وهي القول بالحلول فإننا نرى من اللازم أن نذكر الفرق بين الحلول ووحدة الوجود فنقول :

« الفرق بين الحلول ووحدة الوجود أن الحلول هو وجود حقيقتين مختلفتين « الإلهية » و« البشرية » وقيام الأولى بالثانية تحت ظروف خاصة بينما يرى أصحاب وحدة الوجود وحدة ذاتية لجميع الأشياء مع تعدد مظاهرها »[1] .

---

(١) « فصوص الحكم » (ص٧٧) .

(٢) « الإسلام والفلسفات القديمة » لأنور الجندي (ص١٣٧) ط دار الاعتصام .

العقيدة الثانية التي أخذها غلاة المتصوفة من فلاسفة اليونان عقيدة القول بحلول الخالق في المخلوق ، فاليونانيون قالوا بالحلول وإليك النصوص التي تثبت ذلك :

يقول أفلاطون حاكيًا كيفية اتحاده باللَّه حسب زعمه :

« وقد حدث مرات عدة أن ارتفعت خارج جسدى بحيث دخلت نفسي كنت حينئذ أحيا وأظفر باتحاد مع الإله ، يجب علي أن أدخل في نفسي ومن هنا أستيقظ وبهذه اليقظة أتحد باللَّه » .

ثم إن تعريف أفلاطون لسقراط في قوله : « اعرف نفسك » يؤكد لنا بأن منهجه الذي دخل الأفق الصوفي يقتضي أن ينطوي الإنسان على نفسه ويسد كل المنافذ التي تربط بينه وبين العالم الخارجي ، والأفلاطونية تحاول الارتفاع بالمتناهي إلى مقام اللامتناهي وباتحاد الإنسان باللَّه عبر صعق الفناء[1] وهو عين ما أخذه البسطامي والحلاج وغيرهما من غلاة المتصوفة القائلين بالحلول والاتحاد وسأورد نصوصًا منقولة من كتب المتصوفة تثبت ذلك بعد قليل .

وقد أورد أبو الريحان البيروني عن أفلاطون العبارة الآتية :

« إن المنصرف بكليته إلى العلة متشبهًا بها على غاية إمكانه يتحد بها عند ترك الوسائط وخلع العلائق »[2] .

فهذا النص الـذي أورده أبو الريحـان البيرونـي عن « أفلاطون » يثبت لنا بأن القول بإمكانية حلـول الخالق في المخلـوق أو اتحـاده به

---

(١) انظر « الفلسفة الصوفية في الإسلام » د / عبد القادر محمود (ص٣٣ ـ ٣٤) باختصار.

(٢) « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة » (ص٢٥) .

عقيدة يونانية وثنية.

والمقصود أنه يجب على النفس الإنسانية في النظرية الأفلاطونية أن ترجع من حالة التبدد والكثرة إلى حال الوحدة المطلقة التي تكون فيها النفس في حال الفناء والمحو ويصبح كل شيء في حال عماء تسميه الدوائر الصوفية « حال الغراب الأسود » كما أسمته الدوائر المسيحية الصوفية « الليلة الظلماء » فإذا ارتفع الإنسان من مرتبة الفناء والمحو بعد أن يجتاز جسر القلق والتردد والخوف إلى مرتبة الطمأنينة بعد مرتبة الصعق أصبح وكأنه هو الله، أي بأنه الله[1] .

وحين يفصل أفلاطون في هذه الحالة يؤكد أنها تأتي لا بالاختيار بل تتلقاها النفس وكأنها نور يهبط عليها وهو هنا يؤكد لنا وحدة الشهود في هذا الاتحاد والبقاء عبر الفناء[2] .

والآن وبعد أن أثبتنا بأن عقيدتي الحلول والاتحاد من عقائد فلاسفة اليونان الوثنيين إليك نصوص تثبت لنا بأنهم قالوا بمثل ما قال به اليونانيون في إمكانية حلول الخالق في المخلوق واتحاده به .

ولنبدأ بالحلاج الذي يعتبر المؤسس الأول لعقيدة الحلول في الأوساط الصوفية فقد قال مبينًا الأمور التي إذا قام بها الإنسان يحل فيه روح الله :

« من هذب نفسه في الطاعة وصبر على اللذات والشهوات ارتقى إلى مقام المقربين ثم لا يزال يصفو ويرتقي في درجات المصافات حتى يصفو عن البشرية فإذا لم يبق فيه من البشرية حظ حل فيه روح الإله الذي حل في

---

(١) « الفلسفة الصوفية في الإسلام » للدكتور عبد القادر محمود (ص٢٩) .

(٢) نفس المرجع (ص٣٠) .

عيسى بن مريم ولم يرد حينئذ شيئًا إلا كان كما أراد وكان جميع فعله فعل اللَّه »[1] .

ومن زعماء المتصوفة القائلين بالحلول أيضًا أبو يزيد البسطامي فقد ذكر هذا الرجل بأنه رفع إلى اللَّه مرة وأجرى مع اللَّه محادثات طلب فيها من اللَّه أن يحل به وذلك حسب زعمه وهذا هو النص حرفيًا :

فقد قال : « رفع بي مرة حيث قمت بين يديه فقال لي : يا أبا يزيد ، إن خلقي يحبون أن يروك ، قلت : يا عزيزي وأنا أحب أن يروني ، فقال : يا أبا يزيد إنى أريد أن أريكهم ، فقلت : يا عزيزي إن كانوا يحبون أن يروني وأنت تريد ذلك وأنا لا أقدر على مخالفتك قربني بوحدانيتك وألبسني ربانيتك وارفعني إلى أحديتك حتى إذا رآني خلقك قالوا رأيناك فيكون أنت ذاك ولا أكون أنا هناك ففعل بي ذلك »[2] .

ويقول عبد الكريم الجيلي[3] واصفا حلول اللَّه في الخلق :

« إذا تجلت ذات الحق سبحانه وتعالى على عبده بصفة من صفاتها سبح العبد في فلك تلك الصفة إلى أن يبلغ حدها بطريق الإجمال لا بطريق التفصيل لأن الصفتين لا تفصل لهم إلا من حيث الإجمال فإذا سبح العبد في فلك صفة واستكملها الإجمال استوى على عرش تلك الصفة فكان موصوفًا

---

(١) « دائرة معارف القرن العشرين » لمحمد فريد وجدي (١٠/ ٣٥٤) .

(٢) « اللمع » للطوسي (ص٤٦١).

(٣) عبد الكريم الجيلي هو عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الجيلي ابن سبط الشيخ عبد القادر الجيلاني من علماء الصوفية الكبار له كتب كثيرة منها : « الإنسان الكامل في معرفة الأوائل والأواخر » و« المناظر الإلهية » و« مراتب الوجود » و« قاب قوسين » وغيرها . انظر «الأعلام » للزركلي (٤/ ١٧٥) .

بها فحينئذ تتلقاه صفة أخرى فلا يزال كذلك إلى أن يستكمل الصفات جميعها. . .» إلى أن قال : « فإذا أقام الحق لطيفة من ذاته عوضًا عن العبد كان التجلي على تلك اللطيفة فما تجلى إلا على نفسه لكنا نسمي تلك اللطيفة الإلهية عبدًا باعتبار أنها عوض عن العبد وإلا فلا عبد ولا رب إذ بانتفاء المربوب انتفى اسم الرب فما ثم إلا اللَّه وحده الواحد الأحد »[1] .

وقال في مكان آخر في معرض حديثه عن كيفية حلول اللَّه في المخلوقات : « واعلم أن تجليات الصفات عبارة عن قبول ذات العبد الاتصاف بصفات الرب قبولاً أصليًا حكميًا قطعيًا كما يقبل الموصوف الاتصاف بالصفة »[2] .

فهذه النصوص المتقدمة منقولة عن زعماء المتصوفة كلها تدور حول القول بالحلول والاتحاد وبالمقارنة البسيطة بين هذه النصوص التي نقلت عن أئمة التصوف وبين أقوال فلاسفة اليونان يتضح لنا بأن عقيدتي الحلول والاتحاد أخذهما المتصوفة من فلاسفة اليونان الوثنيين ولذا نقول إن الفلسفة اليونانية تعتبر من أهم المصادر للمتصوفة المتفلسفة كالحلاج والبسطامي وابن عربي وغيرهم ممن سار على نهجهم من المتصوفة إلى يومنا هذا .

ومقصدنا هنا هو الإثبات بأن الفلسفة اليونانية تعتبر من أهم مصادر الفكر الصوفي الفلسفي وقد أثبتنا ذلك والحمد للَّه بإيراد نصوص من الطرفين اليوناني والصوفي وتبين لنا من خلال النصوص المنقولة من الطرفين بأن القول بالحلول والاتحاد باللَّه مصدره الفكر اليوناني الفلسفي فبهذا يتبين لنا بأن عقيدتي الحلول والاتحاد عقيدتان وثنيتان دخيلتان على الإسلام والإسلام

---

(١) « الإنسان الكامل » لعبد الكريم الجيلي (١/ ٦٢) .

(٢) نفس المرجع (١/ ٦٣) .

بريء من الذي يعتقد بهاتين العقيدتين ولا أريد هنا أن أتعرض لمناقشة القول بالحلول والاتحاد وإبطاله بالأدلة لأن هذا له مجاله إن شاء اللّه وسوف أناقش ذلك في الباب الثاني من هذه الرسالة[1] .

المصدر الثاني : أديان الهند الوثنية :

إن كل من يقرأ في كتب المتصوفة بإمعان ويفهمها جيداً سيدرك بأن المتصوفة قد تأثروا إلى حد كبير بأديان الهند القديمة في تعاليمهم وفلسفتهم وأورادهم وأذكارهم ولا يشك أحد في وجود الأثر الهندي الوثني في الفكر الصوفي بل إن كبار الكتاب عن التصوف والباحثين فيه من المستشرقين والمسلمين بل وحتى من الصوفية أنفسهم أقروا بوجود الأثر الهندي في الفكر الصوفي وذلك لأنه حقيقة واضحة لا يمكن إنكارها وبما أن مقصودنا هنا هو إثبات أن أديان الهند القديمة مصدر من مصادر التصوف أريد أن أذكر نماذج فقط لإثبات العلاقة بين المتصوفة والوثنيين الهنود ، وقد اخترت النموذجين التاليين لذلك وهما :

أولاً: القول بالحلول :

إن الاعتقاد بالحلول مأخوذ من العقائد الهندية الوثنية ، فالهنود قد قالوا بالحلول في كتبهم التي كتبها لهم الكهنة والسحرة .

« وقد سئل أرجن باسديو فقيل له : كيف مثال براهم في العالم ؟ قال باسديو : تتوهمه شجرة أشوت ـ وهي معروفة عندهم من كبار الأشجار وهي معكوسة الوضع ، عروقها في العلو وغصونها في السفل قد غزر غذاؤها حتى غلظت وانبسطت فروعها وتشبثت بالأرض فعلقت بها وتشابه في

---

(١) انظر (ص٣٣٩ ـ ٣٤٦) وكذلك (٢٨١ ـ ٢٩٥) .

الجهتين فروعها وعروقها فاشتبهت ـ فبراهم من هذه الشجرة عروقها العليا وساقها « بيد » وغصونها الآراء والمذاهب وأوراقها الوجوه والتفاسير وغذاؤها بالقوى الثلاثة واستغلاظها وتماسكها بالحواس وليس للعاقل سوى قطعها فإذا تم له قطعها طلب من عند منشئها موضع القرار الذي يعدم فيه العود وإذا ناله فقد خلف أذى الحر والبرد وراءه ووصل من ضياء النيرين والنيران إلى الأنوار الإلهية » .

ثم قال البيروني : « وإلى طريق بانتجل ذهبت الصوفية في الاشتغال بالحق » ثم ذكر أمثلة لذلك من أقوال الصوفية أنفسهم ومن الأدلة التي ذكرها قول الصوفية الآتي :

« مادمت تشير فلست بموحد حتى يستولي الحق على إشارتك بإخفائها عنك فلا يبقى مشير ولا إشارة »[1] .

ومن الأدلة التي ذكرها البيروني على قول الصوفية بالحلول متأثرين بأقوال الهند القديمة قول الشبلي : « اخلع الكل تصل إلينا بالكلية فتكون ولا تكون أخبارك وفعلك فعلنا »[2] .

واستدل أيضًا بقول أبي يزيد البسطامي حينما سئل : بم نلت ما نلت ؟ قال : « إني انسلخت من نفسي كما تنسلخ الحية من جلدها ثم نظرت إلى ذاتي فإذا أنا هو »[3] .

فالنصوص التي نقلها عنهم البيروني كلها تدل دلالة صريحة بأن المتصوفة يؤمنون بنظرية الحلول وهي كما ترى عقيدة هندية وثنية إلحادية دخيلة على الإسلام فالفناء الصوفي الذي يسعى أصحابه للحلول والفناء

---

(١) ، (٢) ، (٣) « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة » للبيروني (١/ ٦٥ ـ ٦٦) .

الهندي الذي يعبرون عنه « بالنرفانا » وكلمة النرفانا من جملة معانيها الحلول[1] فبين الفناءين الصوفي والهندي تطابق كامل .

ومن هنا نقول إن صلة الفكر الصوفي بالفكر الهندي الوثني قوية جداً .

ثانيا : من العقائد التي أخذها المتصوفة عن الهنود الوثنيين القول بوحدة الوجود :

فالقول بوحدة الوجود قال به الهنود وقد ذكر هذا أبو الريحان البيروني حيث قال : (قال « باسديو » في كتابه « كيتا » : أما عند التحقيق فجميع الأشياء إلهية لأن بش جعل نفسه أرضًا ليستقر عليها وجعله ماءً ليغذيهم وجعله ناراً وريحًا لينميهم وينشئهم وجعله قلبًا لكل واحد منهم ومنح الذكر والعلم وضديهما على ما هو مذكور في « بيد »)[2] .

ويقول الديورانت في كتابه قصة الحضارة :

« إذا بحثنا عن أخطر نظرية أخذها الجانب الصوفي في الإسلام عن المصدر الهندي وجدناها نظرية وحدة الوجود ، إنها أساس جوهر « الفيدا » فالإله « براجاتي » هو خالق وخلق والعالم فيها لم ينشأ من العدم وإنما أجزاؤه أبعاض الإله »[3] .

ولا شك أن ابن عربي رئيس الاتحادية في مدرسة وحدة الوجود وما سبقه من مدارس كالحلاج وأبي يزيد البسطامي وما لحقه من مدارس كعبد الكريم الجيلي وعبد الغني النابلسي والتيجاني والرفاعي وغيرهم من زعماء الطرق الصوفية قد تأثروا تأثرا كبيراً بالأفكار الهندية الوثنية في قولهم بالحلول

---

(١) « قصة الحضارة » الديورانت (٣/ ٨٤) .

(٢) « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة » (١/ ٣٠) .

(٣) « قصة الحضارة » الديورانت (٣/ ٣٤) .

والاتحاد ولا حاجة لنا هنا أن نورد نصوصًا لإثبات أن المتصوفة يقولون بالحلول ووحدة الوجود لأننا ذكرنا عنهم نصوصًا في المصدر الأول من مصادر التصوف وهو المصدر اليوناني فانظره هناك فإنه كاف لإقامة الحجة عليهم .

ويقول الدكتور عبد القادر محمود : « وتبدو نظرية وحدة الوجود واضحة في « اليوبنشاد »[1] على الأخص حيث يؤكد في تعبيراته الشعرية أن اللَّه والنفس الإنسانية شيء واحد.

فإن خيل للإنسان أنهما شيئان مختلفان فما ذاك إلا لأن إدراكه أضيق من أن يرى اتحادهما »[2] .

ثالثًا : من النظريات التي أخذها المتصوفة عن الهنود نظرية تعذيب النفس وحرمانها من الحياة السعيدة :

إن تعذيب النفس وتحميلها أكثر مما تطيقه وحرمانها من الأكل والشرب واللباس لم يأخذه المتصوفة إلا عن أديان الهند القديمة وخاصة البوذية فالمقارنة البسيطة بين سلوك بوذا وسلوك المتصوفة ترينا بوضوح مدى الصلة بين الطرفين الفكر الهندي والصوفي .

وإليك قصة بوذا :

فصاحب كتاب « قصة الحضارة » يروى لنا قصة بوذا فيقول :

« وفي ظلمة الصباح الباكر خلف بوذا المدينة على ظهر جواده يصحبه سائق عربته وقد تعلق يائسًا بذيل الجواد. . . » ثم قال : « ووقف عند مكان

---

(١) كتاب من كتب الهنود الوثنيين .

(٢) « الفلسفة الصوفية في الإسلام » للدكتور عبد القادر محمود (ص١١) .

اسمه « يوروفيلا » قلت لنفسي : إن هذا المكان رائع وإن هـذه الغابة جميلة . . وههنا في هذا الموضع أخضع نفسه لأشد أنواع التقشف ولبث ستة أعوام يحاول أساليب « اليوجا »[1] التي كانت قد ظهرت قبل ذلك في ربوع الهند وعاش على الحبوب والكلأ ومضى عليه عهد اقتات بالروث وانتهى به التدرج إلى أن جعل طعامه حبة من الأرز كل يوم ولبس ثيابًا من الوبر وانتزع شعر رأسه ولحيته لينزل بنفسه العذاب لذات العذاب وكان ينفق الساعات الطويلة واقفًا أو راقدًا على الشوك وكان يترك التراب والقذر يتجمع على جسده حتى يشبه في منظره شجرة عجوزًا وكثيرًا ما كان يرتاد مكانًا تلقى فيه جثث الموتى مكشوفة ليأكلها الطير والوحش فينام بين هـذه الجثث العفنة . . . » ثم قال بوذا : « فضمر جسدي ضمورًا شديدًا وكان من أثر تقليل الطعام أن أصبحت العلامة التي أتركها على الأرض إذا ما جلست في هيئة أثر الخف يتركها البعير على الرمال وكان من أثر تقليل الطعام أن برزت عظام فقراتي . . . » ثم قال المؤلف : « إن بوذا أدرك أن تعذيب النفس لا يمكن أن يحصل عن طريقه على المعرفة والعلم فأقلع عن الزهد وجلس تحت شجرة وارفة الظل وسأل نفسه ما مصدر ما يعانيه الإنسان من أحزان وآلام وأمراض وشيخوخة وموت وهنا أشرقت عليه فجأة صورة للموت والولادة تعاقبان مجرى الحياة تعاقبًا لا ينتهي »[2] .

والخلاصة أن بوذا خرج من هذا المجاهدات القاسية بعقيدة تناسخ الأرواح والتي تعتبر العمود الفقري لعقائد الهنود الوثنيين رغم أنه حسب

---

(١) أي رياضة النفس .

(٢) « قصة الحضارة » (٣/٦٨ ـ ٧١) بتصرف واختصار طبع الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية .

زعمه كان يبحث عن الهداية وتطهير النفس ولكن بوذا أدرك أخيراً بأنه لا يمكن أن يصل إلى مطلبه عن طريق التقشف الشديد ونبذ الحياة فانتقل أخيراً إلى طريق آخر وهو طريق الراحة وحصل على النتيجة السابقة ومع ذلك فإن المتصوفة قد ساروا على نفس الطريق الذي سلكه بوذا طالبًا للهداية والطهر والمعرفة حسب زعم بوذا ونحن هنا لا يهمنا في كون بوذا يسلك هذا الطريق أو غيره فالرجل وثني لا يعرف خالقه ولكن يهمنا أمـر المتصوفة الذين سلكوا هذا الطريق الذي خطه هذا الوثني لأتباعه فأصبحوا يمارسون نفس الرياضات التي اتبعها بوذا طالبًا للمعرفة ولذا سنرى خلال بحثنا الطويل مع المتصوفة بأن بحثهم عن الهداية والمعرفة عن طريق تعذيب النفس بالرياضات الشاقة لم توصلهم إلى الهداية وإنما وصلت بهم إلى الضلال والانحراف الخطير .

وحتى لا نكون تجنينا على المتصوفة في أن الطريق الذي سلكوه طلبًا للمعرفة أخذوه من الديانة البوذية إليك نصوص من بطون كتبهم ومقالات زعمائهم الكبار الذين يعتبرونهم قمة في المعرفة والولاية كما يزعمون .

فقد ذكر الهجويري[1] عن أحد المتصوفة وهو أبو عثمان المغربي بأنه في بداية حاله اعتزل عشرين سنة في البوادي بحيث لم يكن يسمع آدميًا حتى ذابت بنيته من المشقة وصارت عيناه كسم الخياط وتحول عن صورة الآدميين وجاءه الأمر بالصحب بعد عشرين عامًا ، وقيل له : اصحب الخلق . فقال

---

(١) هو على بن عثمان من كبار أئمة الصوفية في القرن الرابع الهجري(ت٤٩٣هـ) وتظهر لنا مكانته بين الصوفية من خلال كتابه « كشف المحجوب » فقد ذكر فيه عقائد الصوفية وآدابهم وعباداتهم وسلوكهم وهو بحث يعتبر من المراجع المهمة في مجال الصوفية وهو من بلاد فارس وقد ترجم كتابه الدكتور سعاد قنديل .

لنفسه : فلأبدأ بصحبة أهل اللّه ومجاوري بيته ليكون ذلك أكثر بركة . فقصد مكة وأطلع المشايخ على مجيئه بقلوبهم وخرجوا لاستقباله فوجدوه وقد تبدلت صورته وفي حال لم يكن قد بقي عليه فيها شيء سوى رق الخلقة[1] .

وقال أبو طالب المكي : « قد كان الخواص لا يقيم في بلد أكثر من أربعين يومًا ويـرى أن ذلك علة في توكله فيعمل في اختبار نفسه وكشف حاله »[2] .

وحكى عن إبراهيم الخواص أنه قال : « مكثت في البادية أحد عشر يومًا لم آكل وتطلعت نفسي أن آكل من حشيش البر فرأيت الخضر مقبلاً نحوي فهربت منه ثم التفت فإذا هو رجع عني فقيل لم هربت قال : تشوفت نفسي أن يغيثني ، فهؤلاء الفارون بدينهم »[3] .

ونقل الشعراني عن شيخه أمين الدين أنه قال :

« كان شخص من أرباب الأحوال بناحية شان شلمون[4] بالشرقية جالسًا في البرية وقد حلق على نفسه بزرب شوك وعنده داخل هذه الحلقة الحيات والثعالب والثعابين والقطط والذئاب والخرفان والأوز والدجاج »[5] .

وذكر الشعراني في طبقاته عن البدوي[6] أنه قال :

---

(١) « كشف المحجوب » للهجويري (١/٤١٦) .

(٢) « قوت القلوب » لأبي طالب المكي (٢/٤٢٨) .

(٣) « عوارف المعارف » للسهروردي (ص٩٠) .

(٤) مكان في مصر .

(٥) « الطبقات الكبرى » للشعراني (١/١٣٦) .

(٦) هو أبو العباس أحمد البدوي الشريف ولد بمدينة فاس بالمغرب ثم رحـل أبوه إلى مكـة=

« كان طول نهاره وليله قائمًا شاخصًا ببصره إلى السماء وقد انقلب سواد عينيه بحمرة تتوقد كالجمر وكان يمكث الأربعين يومًا وأكثر لا يأكل ولا يشرب ولا ينام »[1] .

وذكر الطوسي أن الشبلي كان يكتحل بالملح ليعتاد السهر ولا يأخذه النوم وأحيانا كان يحمي الميل فيكتحل به[2] .

وأما ابن الفارض فيقول عنه ابنه : « سمعت والدي ابن الفارض يقول: كنت في أول تجريدي أستأذن أبي وأطلع إلى وادي المستضعفين بالجبل الثاني من المقطم وآوي فيه وأقيم في هذه السياحة ليلاً ونهارًا »[3] .

فهذه النصوص التي نقلتها عن المتصوفة توضح لنا بأن المتصوفة قد تأثروا تأثرًا كبيرًا بالبوذية في المجاهدات والرياضات التي اتبعوها طلبًا للمعرفة كما يزعمون هم فبوذا الوثني قد سلك طريق تعذيب النفس بأشق أنواع العذاب فتوصل أخيرًا إلى العقيدة الباطلة ألا وهي عقيدة تناسخ الأرواح واتبعه المتصوفة في سلوكه فوصلوا عن طريق هذه المجاهدات إلى ادعاء تلقي العلوم عن اللّه وإمكانية حلول اللّه في مخلوقاته وبما أننا لا نريد هنا مناقشة المتصوفة في هذا السلوك المشين الذي أخذوه عن وثنيي الهند بل قصدنا هنا هو الإثبات بأن أديان الهند الوثنية تعتبر مصدرًا هامًا من مصادر التصوف وقد أثبتنا ذلك والحمد للّه بإيراد نصوص من الطرفين البوذي

= (٦٠٣هـ) وعمره إذ ذالك سبع سنين وكان لكثرة ما يتلثم لقب بالبدوي وكانوا يسمونه في مكة العطاب فلما أحدث عليه حادث الوله تغيرت أحواله واعتزل الناس ولازم الصمت ثم سافر إلى العراق ومنها إلى مصر واستقر في طنطا ، ت(٦٨٦هـ) انظر « جمهرة الأولياء » للمنوفي (٢/ ٢٣٧).

(١) « الطبقات الكبرى » للشعراني (١/ ١٨٣) .

(٢) « اللمع » للطوسي (ص٢٧٥) .

(٣) « جمهرة الأولياء » للمنوفي (٢/ ٢٤٦) .

والصوفي فلنكتفي بهذا .

وتأكيداً لما قلته بأن أديان الهند الوثنية تعتبر مصدراً هامًا من مصار التوصف إليك نبذة من أقوال الباحثين في مجال التصوف من المسلمين وغيرهم من الكتاب المستشرقين .

فقد كتب الأستاذ أبو العلاء العفيفي في ثنايا بحثه عن المشتغلين بالدراسة عن التصوف من المستشرقين فقال :

« أما ريتشورد هارتمان ، وماركس هورتين فنزعتهما واحدة وهي أن التصوف يستمد أصوله من الفكر الهندي وإن كان هورتين قد بذل من المجهود في إثبات هذه النظرية ما لم يبذله أي كاتب آخر فقد كتب في سنتي (١٩٢٧م ـ ١٩٢٨م) مقالتين حاول أن يثبت في إحداهما بعد تحليل تصوف الحلاج والبسطامي والجنيد أن التصوف الإسلامي في القرن الثالث الهجري كان مشبعًا بالأفكار الهندية وأن الأثر الهندي أظهر ما يكون في حالة الحلاج.

وفي المقالة الثانية أيد النظرية نفسها عن طريق بحث المصطلحات الصوفية الفارسية وانتهى إلى أن التصوف الإسلامي هو بعينه مذهب الفيدانتا الهندية .

واستند هارتمان في إثبات دعواه إلى النظر في الصوفية أنفسهم وفي مراكز الثقافة القديمة التي كانت منتشرة في بلادهم واحتج هذا الكاتب لإثبات دعواه بما يلى :

أولاً : أن معظم أوائل الصوفية من أصل غير عربي كإبراهيم بن أدهم وشقيق البلخي وأبي يزيد البسطامي .

ثانيًا : أن التصوف ظهر أولاً وانتشر في خراسان .

ثالثًا : أن تركستان كانت قبل الإسلام مركز تلاقي الديانات والثقافات الشرقية والغربية فلما دخل أهلها الإسلام صبغوه بصبغتهم الصوفية القديمة .

رابعًا : أن المسلمين أنفسهم يعترفون بوجود الأثر الهندي في التصوف.

خامسًا : أن استعمال الزهاد للمخلاة في سياحتهم واستعمالهم للسبح عادتان هنديتان »[1] .

ويقول جولد زيهر :

« إن نظرية الصوفيين في فناء الشخصية هي التي تقترب وحدها من فكرة الجوهر الذاتي « أتمان » إذا لم تكن تتفق معها تمامًا ويطلق الصوفيون على هذه الحالة لفظ الفناء أو المحو أو الاستهلال »[2] .

والخلاصة التي نخرج بها هو أن الديانات الهندية القديمة تعتبر من أهم المصادر التي استقى منها المتصوفة بعض عقائدهم وسلوكهم وقد اتضح لنا ذلك من خلال إيراد النصوص من الطرفين الصوفي والبوذي ومن خلال أقوال الكتاب والباحثين الذين اهتموا بالدراسات في مجال التصوف.

المصدر الثالث من مصادر التصوف المسيحية المحرفة :

جاء الإسلام وزالت بمجيئة نظريات الرهبنة والتبتل والهروب إلى الصحاري والغابات وترك الأهل والأولاد واعتزال المجتمعات بحجة تطهير النفس وتربيتها وصار للرهبنة في الإسلام مفهومًا جديدًا يخالف تمامًا ذاك المفهوم الذي كان عليه سابقًا في العهود الماضية قبل الإسلام فقد صارت الرهبنة رمز الجهاد في سبيل اللّه سبحانه وتعالى ومقارعة الأعداء والدخول في خضم المعارف بعد أن كانت رمزًا للخلوات المظلمة التي كثيرًا ما تكون

---

(١) مقدمة كتاب « في التصوف الإسلامي وتاريخه » لنيكسون ص(ح ، ط) .

(٢) « العقيدة والشريعة في الإسلام » لجولد زيهر ترجمة عربية (ص١٦٢) .

هذه الخلوات المظلمة مأوى لمردة الشياطين والتبتلات وقطع العلائق مع البشرية الذي نتج عنه الخلل العقلي والخيالات ، ولما جاء رجل إلى النبي ﷺ مستوصيًا قال له النبي ﷺ : « **وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام**»[1] .

لكن التصوف أعاد مفهوم الرهبنة السابق إلى الأمة الإسلامية ودعا إلى الخلوات المظلمة وإلى الهروب عن الناس وإلى ترك التزوج ودعا إلى تطهير الروح عن طريق تعذيب الجسد بأنواع من المجاهدات الشاقة القاتلة وإلى لبس الصوف الخشن من الثياب عامة وتجويع النفس لتطهيرها والسياحة في البلاد ولذلك فالمتصوفة كانوا يستمعون إلى مواعظ الرهبان وأخبار رياضاتهم الروحية حتى يقتدوا بهم في سلوكهم ، وكتب المتصوفة مليئة بقصص كثيرة مروية عن رهبان النصارى .

وإليك نموذج لذلك من كتاب « إحياء علوم الدين » للغزالي وهو يدل على حرص الصوفية على الاستفادة من رياضات رهبان النصارى فقد أورد الغزالي عن إبراهيم بن أدهم وهو يعتبر من الرجال الذين يشار لهم بالبنان في الأوساط الصوفية :

« قال إبراهيم بن أدهم : تعلمت المعرفة من راهب يقال له سمعان ، دخلت عليه في صومعته ، فقلت : يا سمعان مذ كم كنت في صومعتك ؟ قال : منذ سبيعن سنة ، قلت : فما طعامك ؟ قال : يا حنيفي وما دعاك إلى ذلك ؟ قلت : أحببت أن أعلم قال : في كل ليلة حمصة ، قلت : فما الذي يهيج من قلبك حتى تكفيك هذه الحمصة ؟ قال : ترى الدير الذي بحذائك ؟ قلت : نعم ، قال : إنهم يأتون كل سنة يومًا واحدًا فيزينون صومعتي ويطوفون حولها ويعظموني فكلما تثاقلت نفسي عن العبادة ذكرتها

---

(١) أخرجه أحمد في « المسند » (٣/ ٢٦٦) وانظر « سلسلة الأحاديث الصحيحة » (٢/ ٨٧) .

عز تلك الساعة فأنا أحتمل جهد سنة لعز ساعة فاحتمل يا حنيفي جهد الساعة لعز الأبد .

قال إبراهيم بن أدهم : فوقع في قلبي المعرفة .

فقال : حسبك أو أزيدك ؟ قلت : بلى . قال : انزل عن الصومعة ، فنزلت فأدلى لي بركوة فيها عشرون حمصة »[1] .

وقال الغزالي أيضًا : بأنه لا وصول إلى اللَّه سبحانه وتعالى إلا بالتنزه عن الشهوات والكف عن اللذات والتجرد للَّه في الحركات والسكنات .

ثم بدأ يثني على انفراد رهبان النصارى عن الخلق واعتزالهم في قمم الجبال بعيداً عن الخلق وطلبًا للأنس باللَّه عز وجل وذكر أن اللَّه أثنى عليهم لذلك بقوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[2] .

وبالإضافة إلى ذلك فإن الغزالي قد شحن كتابه « الإحياء » بروايات كثيرة منسوبة إلى المسيح في التعبدات والأمثال والحكم والأحكام[3] .

وأن أثر المسيحية والفلسفة الأفلاطونية الحديثة والفلسفة البوذية عامل لا سبيل إلى إنكاره في تكوين التصوف الإسلامي وقد كانت هذه المذاهب والفلسفات متغلغلة في الأوساط التي عاش فيها المتصوفة فلم يكن مخرج من أن تترك طابعها في مذاهبهم[4] .

وأخطر مسألة تأثر فيها المتصوفة بالمسيحية المحرفة هي مسألة الحلول.

---

(١) «الإحياء » (٣/ ٣٣٤) .

(٢) المائدة : (٨٢) .

(٣) انظر « الإحياء » (١/ ٢٦٦) .

(٤) « في التصوف الإسلامي وتاريخه نيكلسون » (٤٢ ـ ٤٣) .

ففي المفهوم المسيحي لطبيعة المسيح عليه السلام تتمحور المواقف حول وجهين لشخصية المسيح هما اللاهوت الذي حل في الناسوت ، فالمسيح وفق مفهوم أوريجنس وهو فيلسوف مسيحي هو كلمة وعقل حل في عيسى الإنسان وبهذا المعني يكون المسيح قد بدأ وظهر أو تجلى في شخص عيسى عليه السلام وفكرة الحلول هذه تفيد أن عيسى إنسان إلهي صورته الخارجية صورة إنسان وطبيعته الداخلية مما ينتمي للإله فهو من طبيعتين امتزجتا وصارتا طبيعة واحدة إنه مركب من الناسوت واللاهوت كما يزعمون[1] .

وكل المسيحيين يعتقدون بحلول اللَّه في المسيح ولكلنهم اختلفوا في كيفية الاتحاد والتجسد ففرقة ترى أنه إشراق النور على الجسد المشف وفرقة ترى أنه انطباع النقش في الشمعة وفرقة ترى أنه ظهور الروحاني بالجسماني وفرقة ترى أن اللاهوت تدرع بالناسوت وفرقة ترى أن الكلمة مازجت جسد المسيح ممازجة اللبن بالماء .

أما حقيقة اللَّه عند المسيحية المحرفة فهو أنه جوهر واحد غير متحيز وليس بذي حجم بل قائم بالنفس وهو واحد بالجوهرية ثلاثة بالأقنومية .

والأقانيم هي الصفات : الوجود والحياة والعلم . . الأب والابن وروح القدس.

ولكن العلم من بين تلك الصفات تدرع وتجسد دون سائر الأقانيم .

والقاضي عبد الجبار يرى أن فرق المسيحية الثلاثة اتفقت على أن الخالق جوهر واحد ثلاثة أقانيم وأن أحد هذه الأقانيم أب والآخر ابن

---

(١) « التصوف منشؤه ومصطلحاته » د / أسعد السحمراني (ص٥٤) ط دار النفائس .

والثالث روح القدس وأن الابن هو الكلمة والروح هي الحياة والأب هو القديم الحي المتكلم . . . .

ومضى القاضي عبد الجبار يقول : إن المسيحيين جميعًا اتفقوا على أن الابن اتحد بالشخص الذي يسمونه المسيح وأن ذلك الشخص ظهر للناس وصلب وقتل .

أما في كيفية صلبه فقد آمن المسيحيون أنه قتل وصلب ولكنهم اختلفوا هل القتل ورد على الجزء اللاهوت أم ورد على الجزء الناسوت أم على الجزءين معًا ثم قام وصعد[1] .

وقال أبو علي الجبائي إن المسيحيين جميعًا متفقون على أن الكلمة هي الابن وأن الذي له الروح والكلمة هو الابن والثلاثة في رأي المسيحيين جميعًا إله واحد وخالق واحد وأنها من جوهر واحد[2] .

وتابع بعض غلاة الصوفية المسيحيين في القول بالحلول حيث زعموا أن الحق اصطفى أجسامًا حل فيها بمعنى الربوبية وأزال عنها معاني البشرية والأجسام التي اصطفاها اللَّه تعالى أجسام أوليائه وأصفيائه اصطفاها بطاعته وخدمته وزينها بهدايته وبين فضلها على خلقه وهذا حسب زعم المتصوفة[3] .

ومن الأدلة على ذلك قول الحلاج في الأبيات الآتية :

---

(١) انظر « الملل والنحل » للشهرستاني (٢/ ٣٣ ـ ٤٤) .

(٢) نفس المرجع (٢/ ٣٩ ـ ٤٤) .

(٣) « معجم مصطلحات الصوفية » للدكتور عبد المنعم الحفني ـ بيروت ـ دار السيرة ـ ط (١/ ١٤٠٠هـ) .

سبحان من أظهر ناسوته سـر سنـا لاهوتـه الثاقـب
ثم بدا في خلقه ظاهـرا في صورة الآكل والشـارب
حتى لقد عاينه خلقـه كلحظة الحاجب بالحاجب[1]

والحلولية ليست من الإسلام في شيء كما ذكرناه سابقًا في بحث موضوع تأثر الصوفية بالديانات الهندية والفلسفة اليونانية[2] .

ولذلك نقول إن ما ظهر من هذا القبيل عند بعض المتصوفة هو من تأثير الحلولية المسيحية على الصوفية .

ويكفي هذا بإيجاز وسنتعرض للموضوع بالتفصيل في الفصل القادم لأن مقصودنا في هذا الفصل هو مجرد إثبات بأن المسيحية مصدر من مصادر الأفكار الصوفية[3] .

وقد دعا كثير من المتصوفة إلى البعد عن الزواج وهذه نماذج من أقوال مشائخهم الكبار :

قال السهروردي : « التزوج انحطاط من العزيمة إلى الرخص ورجوع من الترمح إلى النقص وتقييد بالأولاد والأزواج ودوران حول مظان الاعوجاج، والتفات إلى الدنيا بعد الزهادة وانعطاف على الهوى بمقتضى الطبيعة و العادة »[4] .

ونقل أبو طالب المكي عـن قطـب من أقطـاب الصوفيـة الأوائل

---

(١) « تلبيس إبليس » لابن الجوزي ـ بيروت ـ دار الكتب العلمية (ص١٧١) .
(٢) انظر (٦١ ـ ٦٢) .
(٣) انظر (٣٢٢ ـ ٣٤٦) .
(٤) انظر « عوارف المعارف » للسهروردي (ص ١٠٤) .

أبي سليمان الداراني المتوفى سنة (٢١٥هـ) أنه قال : « من تزوج فقد ركن إلى الدنيا »[١] .

وهذه العبارات كلها المقصود منها هو التنفير عن الزواج وهذا خطأ كبير منهم وانحراف عن منهج خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد اللّه عليه الصلاة والسلام والخير كل الخير في اتباع هديه والشر كل الشر في مخالفته وهذه الأمور إنما ورثها المتصوفة من الرهبان النصارى الذين يمتنعون عن الزواج فيفسدون البنات في الأديرة لأن كبت الغريزة الجنسية بهذه الطريقة أمر من الصعوبة بمكان فالزواج هو السبيل الوحيد لبقاء الجنس البشري على هذه المعمورة وقد حث الرسول على الزواج في أحاديث كثيرة ولا نريد أن نوردها هنا لأن لها موضعًا آخر في الرسالة وسنتطرق ونناقش الموضوع بالتفصيل وسأقوم بالرد عليهم ردًا مقنعًا إن شاء اللّه تعالى في انحراف مفهوم الصوفية في الزهد .

وقد وردت عدة آيات في الإنجيل المحرف تدعو إلى التبتل والبعد عن الزواج فمن هذه الآيات قول المسيح : « ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السماوات من استطاع أن يقبل فليقبل»[٢] .

ويقول بولس في رسالته إلى أهل كورنتوس : « وأما من جهة الأمور التي كتبتم عنها فحسن للرجل أن لا يمس امرأة »[٣] وكذلك قال : « أقول لغير المتزوجين الأرامل أنه حسن لهم إذا لبثوا كما أنا »[٤] .

---

(١) انظر « قوت القلوب » لأبي طالب المكي (١/ ٢٥٢) دار صادر ـ بيروت .

(٢) انظر إنجيل متى العهد الجديد الآية (١٢) .

(٣) انظر رسالة بولس إلى أهل كورنتوس من العهد الجديد الإصحاح السابع الآية (١) .

(٤) نفس المرجع الآية (٨) .

ومما يؤكد بأن المسيحية المحرفة مصدر من مصادر التصوف قول الكاتب الأوروبي نيكلسون حيث كتب يقول : (لم يخرج الصوفية كثيراً على الحديث القائل : « **لا رهبانية في الإسلام** » ، إلا بعد مضي عدة قرون . . .) ثم قال : « وإننا لا نعلم إلا القليل عن نظام الزهد الرهباني ونشأته في العصور الإسلامية الأولى » ثم قال : « ويقال إن أول خانقاه أسست لمتصوفة المسلمين كانت برملة في فلسطين قبل نهاية المائة الثامنة الميلادية على ما يظهر وأن مؤسسها كان راهبًا مسيحيًا . . . » ثم قال : « وقد ذكر الصوفية بعض الأحاديث المدخولة على النبي التي تشير لإباحة العزوبة لجميع المسلمين بعد المائتين من الهجرة . . . فقد ظهر نظام الرهبنة في الإسلام حوالي هذا التاريخ تقريبًا ، نعم لم يعم الزهد في العالم الإسلامي ولم تظهر فيه الربط والزوايا المظلمة إلا في عصر متأخر لأن القاريء للكتب التي ألفت في التصوف حتى منتصف القرن الخامس الهجري مثل « قوت القلوب » لأبي طالب المكي و« حلية الأولياء » لأبي نعيم و« الرسالة » للقشيري قلما يجد فيها إشارة إلى هذه الربط والزوايا ومع ذلك نجد أن كبار الصوفية من رجال القرنين الثالث والرابع قد اجتمع حولهم المريدون ليأخذوا عنهم الطريق ويتأدبوا بآدابه ومن الطبيعي أن هؤلاء المريدين أقاموا في بيوت دينية من نوع ما كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً . ويذكر المقريزي أن الخانقاوات وجدت في الإسلام في القرن الخامس الهجري المقابل للقرن الحادي عشر الميلادي . . .

وبعد ذلك بمائتي سنة أي بين (٤٥٠ ، ٦٥٠) زيد في نظام الرهبنة وانتشر هذا النظام على أيدي رجال الطرق كالعدوية والقادرية والرفاعية وغير ذلك من الطرق التي توالي ظهورها سريعًا »[1] .

---

(١) « في التصوف الإسلامي وتاريخه » لنيكلسون ترجمة عربية للدكتور أبي العلاء عفيفي (ص٥٦ ـ ٥٨) .

(1) [illegible]

الفصل الثاني

أهم العوامل التي أدت إلى الانحرافات العقدية عند الصوفية

وتحته أربعة مباحث :

المبحث الأول : طلـــب الهداية فـي غير الكتاب والسنة.

المبحث الثاني : اعتقادهم بأن هناك حقيقة تخالف الشريعة.

المبحث الثالث: الغلـــو الزائـد في الرسول ﷺ والأولياء .

المبحث الرابع : تأثرهم بالفكر اليوناني .

الفصل الثالث

ثالثا: الأضداد وأنواعها وأهم المؤلفات فيها مع التعريف بأشهرها:

أشهر من ألف في الأضداد:

١- ابن الأنباري: وله كتاب الأضداد في اللغة.

٢- قطرب: وله كتاب الأضداد.

٣- الأصمعي: وله كتاب الأضداد.

٤- أبو حاتم السجستاني: وله كتاب الأضداد.

المبحث الأول

طلب الهداية في غير الكتاب والسنة

من يقرأ في كتب المتصوفة يلاحظ بأن القوم لا يهتمون بعلم الكتاب والسنة اللذين لا يمكن الحصول على الهداية إلا عن طريقهما وذلك لأن القوم يزعمون بأن لهم علومًا خاصة يتلقونها عن اللَّه سبحانه وتعالى مباشرة عن طريق الكشوفات المزعومة وبالإضافة إلا ذلك يزعمون بأنهم يلتقون بالأنبياء بعد موتهم ويتعلمون منهم علومًا وبالأولياء أيضًا وعلى رأس الأولياء يزعمون بأنهم يلتقون بالخضر ويتعلمون منه العلوم اللدنية ولم يكتف المتصوفة بهذا الإدعاء بل صرحوا بأن علومهم التي يتلقونها عن اللَّه بلا واسطة كما يزعمون أفضل من العلوم التي أتى بها رسول اللَّه ﷺ ولذا نفّر المتصوفة الناس عن تعلم العلوم الشرعية وهذا مكر ومكيدة ودهاء وخبث منهم لأنهم يعلمون بأن علومهم الوهمية الخيالية التي يزعمون بأنهم يتلقونها عن طريق المنامات والأحلام والرؤى والهتافات والكشوفات لا يمكن أن يقبلها منهم الناس إذا تعلموا الكتاب والسنة إلا إذا نفّروا الناس عن العلوم الصحيحة التي مصدرها الكتاب والسنة حتى لا تتبدد أباطيلهم فتصبح هباءً منثوراً لأنها ما هي إلا كالسراب الذي يحسبه الظمآن ماءًا حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا.

ولم يكتف المتصوفة بالتنفير عن طلب العلم الشرعي بل استهزؤا بعلماء الأمة الإسلامية ووصفوهم بأنهم علماء الرسوم الذين لا يفهمون شيئًا

عن الحقائق ووصفوا أنفسهم بأنهم علماء الحقيقة ومن أجل هذا طلب المتصوفة الهداية خارج الكتاب والسنة عن طريق الهواتف والمجاهدات والكشوفات المزعومة فضلوا عن الصواب وأضلوا كثيراً من شعوب العالم الإسلامي وهكذا مصير كل من بحث عن الهداية والوصول إلى رضوان اللّه سبحانه وتعالى خارج الكتاب والسنة فإن مصيره الضلال والتيه والضياع .

ولقد ادعى كثير من المتصوفة بأن الهداية تأتي إليهم عن طريق الهواتف وإليك الدليل على ما أقول :

فقد ذكر إبراهيم بن أدهم بأن أباه كان من ملوك خراسان وأنه خرج يومًا للصيد وأثار ثعلبًا أو أرنبا ثم يقول : إنه هتف به هاتف وسمع صوته ولم يره وقال له : « يا إبراهيم ألهذا خلقت أم بهذا أمرت » ثم يذكر بأن الهتاف عاوده فقال : « ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت » ثم قال : إنه أخذ جبة راعي أبيه وانطلق هائمًا في الصحاري والغابات والأودية والجبال طلبًا للهداية والتقى بسليمان عليه السلام وعلّمه اسم اللّه الأعظم ثم جاءه الخضر وقال له : « إن الذي علمك اسم اللّه الأعظم هو أخي داوود » .

ثم قال إبراهيم بن أدهم إنه التقى بأسلم بن يزيد بالأسكندرية : « فقال لي : من أنت يا غلام ؟ قلت : شاب من أهل خراسان ـ قال : وما حملك على الخروج من الدنيا ؟ قلت : زهداً فيها ورجاء الثواب من اللّه تعالى .

فقال : إن العبد لا يتم رجاؤه لثواب اللّه تعالى حتى يحمل نفسه على الصبر فقال رجل ممن كان معه : وأي شيء الصبر ؟ فقال : إن أدنى منازل الصبر أن يروض العبد نفسه على احتمال مكاره الأنفس ، قال : قلت : ثم مه ؟ قال : إن كان محتملاً للمكاره أورث اللّه قلبه نوراً ، قلت : وما ذاك

النور ؟ قال : سراج يكون في قلبه يفرق به بين الحق والباطل والناسخ والمتشابه. . . » .

ثم قال إبراهيم بن أدهم قال له رجل من أصحاب أسلم بن يزيد أضربه فأوجعه فإنا نراه غلامًا قد وفق لولاية اللَّه تعالى »[1] .

وبتحليلنا لهذه القصة نستنتج الأمور التالية :

الأمر الأول : أن الهداية قد جاءت لإبراهيم بن أدهم من هاتف هتف به ولا أريد مناقشة هذه الدعوى لإثبات صحتها أو بطلانها لأن الذي أوردها صوفي له مكانته العالية في الأوساط الصوفية ولكن الذي أريده هو أنني أقول إن هذا الطريق الذي سلكه إبراهيم بن أدهم طالبًا للهادية يختلف تمامًا عن الطريق الذي رسمه لنا رسول اللَّه ﷺ لطلب الهداية .

فالهداية دائمًا إنما تطلب بالعودة إلى تلاوة كتاب اللَّه وفهم معانيه والاهتمام بدراسة سنة رسول اللَّه ﷺ ولا يمكن أن تكون الهواتف عندنا طريقًا للهداية لأن الهواتف أنواع شتى فقد يكون الهاتف شيطانًا ويأمره بشيء فيضل الطريق ولذا فالأحلام والرؤى والمنامات والهتافات أو الهواتف لا وزن لها في الشريعة الإسلامية فضلاً عن أن تكون أسبابًا للهداية .

الأمر الثاني : أقول إن خروج إبراهيم عن وطنه وتركه لماله وأهله وخلق ثيابه وبعده عن الدنيا كلية ليس من الإسلام في شيء لأن الإسلام لا يأمر المسلم أن يهاجر عن وطنه إلا إذا اضطهد فيه وأصبح لا يتمكن من أداء الشعائر الإسلامية فحينئذ تجب الهجرة ، وخراسان بلد إبراهيم لم تكن كذلك .

---

(١) « طبقات الصوفية » للسلمي تحقيق نور الدين شريبة (ص٢٧ ـ ٣٠) .

الأمر الثالث : ثم إن ادعاء إبراهيم بن أدهم بأنه لقي داوود عليه السلام وعلمه اسم اللَّه الأعظم .

أولاً وقبل كل شيء ما الذي دعا داوود عليه السلام للعودة إلى الدنيا مرة أخرى ليعلم فردًا من أفراد أمة محمد ﷺ اسم اللَّه الأعظم ، مع أن الرسول ﷺ قال لعمر : « **واللَّه لو كان موسى حيًّا لما وسعه إلا أن يتبعني** »[1] فكذلك داوود لو عاد حيًّا لم يسعه إلا اتباع الرسول ﷺ ولا يجوز له أن يقوم بتعليم الناس شيئًا لم يعلمه لهم رسول اللَّه ﷺ على حد زعم المتصوفة وإلا فاسم اللَّه الأعظم ليس مجهولاً حتى يأتي داوود ويخرج من قبره ليعلمنا إياه بل هو معروف من ملة محمد ﷺ فقد ورد في الحديث الصحيح : « **أن رسول اللَّه ﷺ سمع رجلاً يدعو قائلاً : اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت اللَّه لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد . فقال ﷺ : قد سأل اللَّه باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب** » .

الأمر الرابع : نستنتج من قصة إبراهيم بن أدهم بأنه بالمجاهدة والصبر يحصل النور الذي يعرف به الحق والباطل والناسخ والمتشابه .

وأنا أقول إن مجرد المجاهدة والصبر مهما كانت لا يمكن أن تعلم الإنسان بل لابد من التعلم لأن الرسول ﷺ يقول : « **إنما العلم بالتعلم** »[2] .

نعم الاجتهاد في طلب علمي الكتاب والسنة والصبر فيهما يجعل قلب الإنسان منورًا لأن العلم نور والجهل ظلام فالاجتهاد في العلم الذي جاء به

---

(١) « مسند أحمد » (٥/ ٣٥٠) .

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في « تاريخه » (٩/ ١٢٧) وذكره الألباني في « سلسلة الأحاديث الصحيحة » برقم (٣٤٢) .

رسول اللَّه من عند اللَّه وهو علم الكتاب والسنة الذي من تعلمه عرف الحق من الباطل واللَّه عز وجل يقول : ﴿ **فاعلم أنه لا إله إلا اللَّه واستغفر لذنبك** ﴾ الآية فاللَّه عز وجل أمر بالعلم قبل العمل بخلاف المتصوفة فإنهم يأمرون بالعمل على الجهل من أجل الحصول على العلم الذي يزعمون بأنه يقذف في قلوبهم بسبب المجاهدة .

الأمر الخامس : نأخذ من قول أسلم بن يزيد لإبراهيم بن أدهم : « يا غلام إنا قد أفدناك ومهدناك وعلمناك علمًا » بأن للمتصوفة طريقًا آخر يتلقون منه العلوم غير العلوم التي جاء بها رسول اللَّه ﷺ من ربه حسب زعمهم ، وقد صرح المتصوفة بأن هناك علمًا آخر غير العلم الذي جاء به الرسول ﷺ من عند اللَّه ومما يدل على هذا قول الغزالي[1] فقد قسم العلوم إلى أقسام وذكر من جملة الأقسام علم يسمى « علم المكاشفة » فقال :

« القسم الأول : علم المكاشفة : وهو علم الباطن ، وذلك غاية العلوم فقد قال بعض العارفين : من لم يكن له نصيب من هذا العلم أخاف عليه سوء الخاتمة وأدنى نصيب منه التصديق به وتسليمه لأهله . . . وهو علم الصديقين والمقربين أعني علم المكاشفة فهو عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة وينكشف من ذلك النور أمور كثيرة . . . » ثم قال : « فنعني بعلم المكاشفة أن يرتفع الغطاء حتى

---

(١) أبو حامد الغزالي هو محمد بن محمد بن أحمد أبو حامد الطوسي الغزالي ولد بطوس (٤٥٠هـ) ولما حضرت الوفاة لوالده وصى به وبأخيه أحمد إلى صديق له متصوف وقد لبس الثياب الخشنة وقلل طعامه وشرابه وصار يطوف المشاهد ويزور الترب والمساجد ويأوى إلى القفار إلى أن صار قطب الوجود وتكلم على لسان أهل الحقيقة ـ حسب زعمهم ـ توفي في طوس (٥٠٥هـ).
انظر ترجمته في مقدمة « الإحياء » (١/١ ـ ٦) .

تتضح له جلية الحق في هذه الأمور اتضاحًا يجرى مجري العيان الذي لا يشك فيه وهذا ممكن في جوهر الإنسان لولا أن مرآة القلب قد تراكم صدؤها وخبثها بقاذورات الدنيا وإنما نعني بعلم طريق الآخرة العلم بكيفية تصقيل هذه المرآة عن الخبائث التي هي الحجاب عن اللَّه سبحانه وهذه العلوم التي لا تسطر في الكتب ولا يتحدث بها من أنعم اللَّه عليه بشيء منها إلا مع أهله وهو المشارك فيه على سبيل المذاكرة وبطريق الإسرار وهذا هو العلم الخفي الذي يوصف بالعلم المكنون فقد قيل في وصفه أن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا أهل المعرفة باللَّه فإذا نطقوا به لم يجهله إلا أهل الاغترار باللَّه تعالى »[1] .

ومن أقوال الغزالي السابقة يتضح لنا بأن القوم يدعون بأن لهم علومًا خاصة وأن هذه العلوم يحصلون عليها من قبل اللَّه عز وجل عن طريق قذفها في قلوبهم وعلى هذا فالقوم لهم علوم أخرى يطلبون الهداية إلى الحق والصواب عن طريقها وليس لهم أي حاجة لإتعاب أنفسهم في الدراسة ما داموا يتلقون العلوم الربانية بطريقة سريعة وهي القذف في القلوب ولكن من المؤكد أن قول المتصوفة هذا إنما هو مجرد ادعاء فقط وإلا فليس لهم علوم يحصلون عليها عن طريق القذف في القلوب كما يدعون وبالتالي تهديهم إلى الحق والصواب والصراط المستقيم وإنما من الممكن أن يكونوا يتلقون علومًا من قبل الشياطين لأن الشياطين أيضًا لهم وحي شيطاني كما قال اللَّه عز وجل : ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[2] .

---

(١) « الإحياء » (١/ ٣١ ـ ٣٢) .

(٢) الأنعام : (١٢١) .

وإلا فليس لدينا في الإسلام وحي غير الوحي الذي جاء به الرسول ﷺ من عند اللَّه وقد ختمت النبوة فكل من يدعي أنه يحصل على علم غير العلم الذي جاء به رسول اللَّه فقد كذب وافترى على اللَّه فرية عظيمة ولو نظرنا وفكرنا جيداً فسنجد بأن المتصوفة ادعوا هذا الادعاء من أجل التعمية على العوام من الناس حيث إن المتصوفة يفسرون الكتاب بأهوائهم تفسيراً يختلف تماماً مع التفسير الذي فسره العلماء للقرآن الكريم وإذا سئلوا قالوا : إن هذا علم الباطن الذي لا يعلمه إلا الخاصة من أوليائه وبهذه القاعدة هدموا كثيراً من أمور الشريعة وسنتناول هذه الفرية ألا وهي ادعاء الصوفية بأن للقرآن ظاهراً وباطناً في موضعها وسنوضح بأنها محض افتراء لا أساس لها من الصحة حينما نتعرض للعامل الثاني من العاوامل التي أدت إلى انحراف المتصوفة إن شاء اللَّه[1] .

الطريق الثاني الذي يطلب المتصوفة الهداية عن طريقه هى الكشوفات التي يزعمونها :

يعتقد كثير من المتصوفة بأن كل من انتسب إلى أي طريقة من الطرق الصوفية تحصل له المكاشفات والمشاهدات وتنزل عليه علوماً من اللَّه سبحانه وتعالى وذلك بشرط أن يجهد نفسه بقطع الرياضات الشاقة التي ابتدعها المتصوفة .

قال الغزالي : « اعلم أن ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون والبحث عن الأقاويل بل قالوا : الطريق تقديم المجاهدة ومحو الصفات

---

(١) انظر (١٠٨ ـ ١٣٥) .

المذمومة وقطع العلائق كلها والإقبال بكنه الهمة على اللَّه تعالى ومهما حصل ذلك كان اللَّه هو المتولي لقلب عبده والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم وإذا تولى اللَّه أمر القلب فاضت عليه الرحمة وأشرق النور في القلب وانشرح الصدر وانكشف له سر الملكوت وانقشع عن وجه القلب حجاب العزة بلطف الرحمة وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة وإحضار الهمة مع الإرادة الصادقة والتعطش التام والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه اللَّه تعالى من الرحمة .

فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر وفاض على صدورهم النور لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب بل بالزهد في الدنيا والتبري من علائقها وتفزيغ القلب من شواغلها والإقبال بكنه الهمة على اللَّه تعالى والاختلاء في زاوية مع الاقتصار على الفرائض والرواتب ويجلس فارغ القلب مجموع الهم ولا يفرق فكره بقراءة قرآن ولا بالتأمل في تفسير ولا بكتب حديث ولا غيره بل يجتهد في الصبر أن لا يخطر بباله شيء سوى اللَّه تعالى فلا يزال العبد بعد جلوسه في الخلوة قائلاً بلسانه : اللَّه اللَّه ، على الدوام مع حضور القلب حتى ينتهي إلى حالة يترك تحريك اللسان ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه ثم يصبر عليه إلى أن ينمحي أثره عن اللسان. . . وهكذا يصبح متعرضًا لنفحات رحمة ربه فلا يبقى إلا الانتظار لما يفتح اللَّه من الرحمة كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذا الطريق وعند ذلك إذا صدقت إرادته وصفت همته وحسنت مواظبته فلم تجاذبه شهواته ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا تلمع لوامع الحق في قلبه ويكون في ابتدائه كالبرق الخاطف لا يثبت »[1] .

---

(١) « الإحياء » (٣/ ٢١) .

وهكذا الغزالي قد تأثر بأفكار المتصوفة إلى حد بعيد حتى أصبح من أبرز علمائهم حيث ذكر في كتابه « الإحياء » كلامًا عن الصوفية لا يمكن أن يقبله مسلم له علم بالكتاب والسنة .

والشاهد من كلام الغزالي السابق إثبات بأن القوم يدعون بأنهم يتلقون علومًا أخرى غير العلوم التي جاء بها رسول اللَّه ﷺ ومن هنا نعلم بأن القوم يبحثون عن الهداية خارج الكتاب والسنة وهذا هو الأمر الذي ضل القوم بسببه حيث أن كل من يطلب الهداية عن غير الطريق الذي جاء به رسول اللَّه ﷺ فمصيره التيه والضلال المبين .

ويقول عبد الكريم الجيلي واصفًا كتابه « الإنسان الكامل » : « وكنت قد أسست الكتاب على الكشف الصريح وأيدت مسائله بالخبر الصحيح وسميته بالإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل » ثم يقول : « فأمرني الحق الآن بإبرازه بين تصريحه وألغازه ووعدني بعموم الانتفاع فقلت طوعًا للأمر المطاع »[1] .

وكلام عبد الكريم الجيلي السابق مضمونه هو أنه يقول إنه تلقى المعلومات التي ضمنها كتابه عن طريق الكشف من الغيب وأن اللَّه أمره بإظهار هذا الكتاب بما فيه من ألفاظ صريحة وألغاز معقدة وأن اللَّه وعده بعموم الانتفاع به وأنه أجاب لهذا الأمر فأظهره .

وما كتاب الجيلي حتى يأمره اللَّه بإظهاره فهو كتاب من أوله إلى آخره لا يحتوي إلا على الكفر والزندقة وسأورد منه نصوصًا حينما أتعرض لعقيدة المتصوفة تجاه من يزعمونهم أولياء في الباب الرابع إن شاء اللَّه تعالى .

---

(١) « الإنسان الكامل » لعبد الكريم الجيلي (ص ٦) .

ويقول ابن عربي : « نحن بحمد اللَّه لا نعتمد في جميع ما نقوله إلا على ما يلقيه اللَّه تعالى في قلوبنا لا على ما تحتمله الألفاظ » .

وقال أيضًا : « اعلم أن العارفين رضي اللَّه عنهم لا يتقيدون في تصانيفهم بالكلام فيما بوبوا عليه فقط وذلك لأن قلوبهم عاكفة على باب الحضرة الإلهية مراقبة لما يبرز لهم منها فمهما برز لهم كلام بادروا لإلقائه على حسب ما حد لهم فقد يلقون الشيء إلى ما ليس في جنسه امتثالاً لأمر ربهم وهو تعالى يعلم حكمة ذلك »[1] .

فإذا نظرنا إلى هذه النصوص فسنجد أن النص الأول صرح فيه ابن عربي بأنه هو وأتباعه من المتصوفة الكبار يلقي اللَّه عز وجل علومًا في قلوبهم وأنهم لا يتقيدون بما تدل عليه الألفاظ فقط لأن الوقوف على المعاني التي تدل عليها الألفاظ ظاهرًا إنما هو من اختصاص علماء الظاهر أو علماء الرسوم كما يسمونهم .

وأما النص الثاني فقد صرح فيه ابن عربي بأن علوم المتصوفة لا يحصلون عليها عن طريق الفكر وإنما تلقى عليهم من اللَّه إلقاءً مباشرة فهي هبة من اللَّه تعالى .

وأما النص الثالث فقد صرح فيه ابن عربي بأن قلوب المتصوفة عاكفة على باب الحضرة الإلهية وإنها تراقب هذه الحضرة حتى تأخذ عنها أي شيء يظهر منها ولذا فإنهم يبادرون بإلقاء أي كلام يلقى عليهم من قبل الحضرة الإلهية وأنهم لا يضعون هذا الكلام إلا على حسب ما حدد اللَّه لهم ولذلك فقد يضع مشايخ المتصوفة الكلام في غير جنسه امتثالاً

---

(١) « اليواقيت والجواهر في عقيدة الأكابر » للشعراني (٢/ ٢٤ ـ ٢٥) .

لأمر اللَّه تعالى كما يزعمون .

ووصف الرندي[1] علم المتصوفة الذي يحصلون عليه عن طريق كشوفاتهم المزعومة فقال :

« والعلم المخزون هو العلم اللّدنّي الذي اختزنه اللَّه عنده فلم يؤته إلا للمخصوصين من الأولياء » ثم أورد حديثًا مكذوبًا على الرسول ﷺ فقال إن الرسول قال : « **إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء باللَّه تعالى فإذا نطقوا به لا ينكره إلا أهل الغرة باللَّه** »[2] .

وقد شرح أحد المتصوفة هذا النص فقال : « هي أسرار اللَّه تعالى يبديها اللَّه إلى أنبيائه وأوليائه وسادات النبلاء من غير سماع ولا دراسة وهي من الأسرار التي لم يطلع عليها أحد إلا الخواص »[3] .

وقال الرندي أيضًا : « وربما أطلعك على غيب ملكوته وحجب عنك الاستشراف على أسرار العباد »[4] .

والنتيجة التي توصلنا إليها من خلال إيرادنا لهذه النصوص هي إثبات بأن المتصوفة يدعون التلقي عن اللَّه مباشرة علومًا خاصة بهم مخزونة عند اللَّه وأن هذه العلوم لا يكشفها اللَّه إلا لهم لأنهم خصوا أنفسهم بالأولياء وهم لا يطلقون هذا اللفظ إلا لمن انخرط تحت لواء إحدى الطرق الصوفية،

---

(١) الرندي هو أبو عبد اللَّه محمد بن إبراهيم بن عباد النفري الرندي وهو يعتبر من كبار أئمة الصوفية وله كتب كثيرة في التصوف من أهمها « غيث المواهب العلية شرح الحكم العطائية » (ت٧٩٣هـ) . انظر « الأعلام » للزركلي (٦/ ١٩٠) و « هدية العارفين » (٢/ ١٧٤) .

(٢) « غيث المواهب العلية » للرندي (٢/ ٢٣٨) ط دار الكتب الحديثة ١٣ شارع الجمهورية بعابدين لصاحبها توفيق عفيفي عامر .

(٣) نفس المرجع (٢/ ٢٣٩) .

(٤) « غيث المواهب العلية » للرندي (٢/ ٧) .

وأن هناك علمًا مكنونًا وهو لا يعلمه إلا العلماء باللَّه ويعنون بهذا أنفسهم وأن هذه العلوم هي عبارة عن أسرار اللَّه وأنه سبحانه لا يظهرها إلا للأنبياء والأولياء وأن الحصول على هذه العلوم لا يحتاج إلى دراسة ولا سماع بل تلقى في القلب إلقاءًا وهي علوم خاصة بالخواص من البشر وهم زعماء الطرق الصوفية كما يزعمون .

ولذا طلب المتصوفة الهداية إلى الحق والتقرب إلى اللَّه عن طريق هذه العلوم التي ادعوا بأنهم يتلقونها عن اللَّه فلم يصلوا إلى الهدى بل ضلوا الطريق لأنهم بحثوا عن الهداية في غير مكانها وسلكوا لها غير طريقها فإن كل من يطلب الهداية في غير الكتاب والسنة فإن مصيره الضلال المبين والانحراف الخطير كما حصل لهؤلاء المتصوفة الذين بحثوا عن الهداية عن طريق الكشوفات المزعومة فانحرفوا في عقائدهم وسلوكهم ومعاملاتهم .

الطريق الثالث الذي يبحث المتصوفة فيه عن الهداية « الذوق » :

قال أبو حامد الغزالي في معرض حديثه عن المتصوفة :

« ابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل « قوت القلوب » لأبي طالب المكي وكتب الحارث المحاسبي . . حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلية وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع فظهر لي أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات» .

ثم قال أيضًا : « فعلمت يقينًا بأنهم أرباب الأحوال لا أصحاب الأقوال وأن ما يمكن تحصيله بطرق العلم فقد حصلته ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه

بالسماع والتعلم بل بالذوق والسلوك »[1] .

وقال ابن عربي :

« جميع علومنا من علوم الذوق لا من علم بلا ذوق فإن علوم الذوق لا تكون إلا عن تجلي إلهي والعلم قد يحصل لنا بنقل المخبر الصادق وبالنظر الصحيح »[2] .

ومن هنا نعلم بأن الذوق من أهم الطرق التي يبحث المتصوفة فيه عن الهداية وهو معرفة اللَّه سبحانه وأن هذا العلم الذي يسميه المتصوفة علم الذوق لا يحصل عليه الإنسان إلا عن طريق الكشف بتجلي اللَّه له كما قال ابن عربي في النص السابق .

ويقول عبد الرحمن الوكيل في نقده لاعتماد الصوفية على الذوق في تلقي العلوم : « ويدين الصوفية ببهتان آخر يدمغها بالمروق عن الإسلام ذلك هو اعتقادها أن الذوق الفردي لا الشرع ولا العقل هو وحده وسيلة المعرفة ومصدرها معرفة اللَّه وصفاته وما يجب له فهو ـ أي الذوق ـ الذي يقوم حقائق الأشياء ويحكم عليها بالخيرية أو الشرية بالحسن أو القبح بأنها حق أو باطل فلا جرم أن تدين الصوفية بعدد عديد من أرباب وآلهة ولا عجب أن ترى النحلة منها تعبد وثنًا بغير ما تعبده أخرى أو تخضع لصنم يكفر به سواها من النحل الصوفية لا عجب من ذلك كله ما دامت تجعل الذوق الفردي حاكمًا وقيمًا على المسميات وأسمائها فيضع للشيء معناه مرة ثم ينسخه بنقيضه مرة أخرى ، هذه الحدة في توتر التناقض صبغت الصوفية دائمًا في منطقها المخبول ولقد ضربت الصوفيين أهواء أحبارهم بالحيرة

---

(١) « المنقذ من الضلال » للغزالي (ص٦١) .

(٢) « اليواقيت والجواهر في عقيدة الأكابر » للشعراني (٢/ ٨٤) .

والفرقة فحالوا طرائق قدداً تؤله كل طريقة منها ما ارتضاه كاهنها صنمًا له وتعبده بما يفتريه هواه من خرافات »[1] .

تنفير الصوفية الناس عن العلم الشرعي :

لقد نفر الصوفية الناس عن العلم الشرعي بوصفهم له بأوصاف منفرة حيث وصفه بعضهم بأنه آفة المريد ووصفه البعض منهم بأنه مفرق الاهتمامات ووصف بعضهم طلب العلم بأنه ركون إلى الدنيا وانحطاط من الحقيقة إلى العلم ووصفه بعضهم بأنه موحش ووصفه بعضهم بأنه حجاب .

وإليك النصوص الدالة على ذلك من بطون كتبهم :

فقد وصف أبو بكر الوراق[2] كتابة الحديث والاهتمام به بأنه من الآفات التي يجب أن يبتعد عنها المريد فقال :

« آفة المريد ثلاث : التزويج وكتابة الحديث والأسفار»[3] .

ويقول الجنيد :

« إذا لقيت الفقير ـ أي الصوفي ـ فالقه بالرفق ولا تلقه بالعلم فإن الرفق يؤنسه والعلم يوحشه »[4] .

واعتبر بعض المتصوفة طلب الحديث النبوي بأنه ركون إلى الدنيا حيث قال :

---

(١) « هذه هي الصوفية » لعبد الرحمن الوكيل (ص ٢٠) .

(٢) هو محمد بن عمر الحكيم أصله من ترمذ وأقام ببلخ لقي أحمد بن خضرويه وصحبه له كتب كثيرة مشهورة في أنواع الرياضات والمعاملات والآداب انظر « طبقات الصوفية » للسلمي (٢٢١) .

(٣) « الرسالة القشيرية » (٢/ ٤٣٦) .

(٤) « الرسالة القشيرية » (٢/ ٥٤٥) ط دار التأليف ـ مصر .

« إذا طلب الرجل الحديث أو سافر في طلب المعاش أو تزوج فقد ركن إلى الدنيا »[1] .

ووصف بعض المتصوفة العلم بأنه حجاب عن اللَّه حيث قال أبو يزيد البسطامي :

« أشد المحجوبين عن اللَّه ثلاثة : الزاهد بزهده والعابد بعبادته والعالم بعلمه »[2] .

ولقد صرح أحد كبار المتصوفة بأن المتصوفة لم يتعلموا العلم ولم يحرصوا على دراسته فقال :

« اعلم أن ميل أهل التصوف إلى الإلهية دون التعليمية ولذلك لم يتعلموا ولم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون بل قالوا الطريق تقديم المجاهدات بمحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والإقبال على اللَّه تعالى بكنه الهمة وذلك بأن يقطع الإنسان همه عن الأهل والمال والولد والعلم ويخلو نفسه في زاوية ويقتصر على الفرائض والرواتب ولا يقرن همه بقراءة القرآن ولا بالتأمل في نفسه ولا يكتب حديثًا ولا غيره ولا يزال يقول : « اللَّه اللَّه اللَّه » إلى أن ينتهي إلى حال يترك تحريك اللسان ثم يمحو عن القلب صورة اللفظ »[3] .

فالنصوص المتقدمة كلها توضح لنا موقف المتصوفة من العلم وتثبت لنا بأن المتصوفة من ألد الأعداء لعلمي الكتاب والسنة حيث أن النصوص المتقدمة صرحوا فيها بعدائهم للقرآن والسنة بنهيهم وتحذيرهم عن طلب الحديث النبوي وتلاوة كتاب اللَّه عز وجل فهل هناك جريمة أكبر من الذي يحذر عن تلاوة القرآن وكتابة الحديث النبوي وطلبه بل وطلب العلم عمومًا.

---

(١) « تراجم الصوفية » للمناوي (٢/ ٢١٥) .

(٢) « تراجم الصوفية » للمناوي (٢/ ٢٤٧) .

(٣) « إحياء علوم الدين » للغزالي (٣/ ٢١) .

ولم يقدم زعماء الصوفية على هذا عن جهل منهم بل أقدموا عليه عن تخطيط وتدبير ومكر ومكيدة لأنهم يعلمون جيداً بأن أباطيلهم لا يمكن أن يقبلها الناس إلا إذا كانوا جهالاً لا يعلمون شيئًا عن الكتاب والسنة فعلم الكتاب والسنة نور يكشف عورات هذه الظلمات التي يدعو لها أرباب التصوف عوام الناس لأنه بالعلم ينكشف للناس حقائق طرقهم وزيف أقوالهم وبالعلم يتبين المنكر وبالعمل به يتم الإنكار وقد علم الصوفية بأن الإنكار أصبح حجر عثرة أمامهم وأعاق طريقهم والمنكر لا يمكن أن يعرف إلا عن طريق العلم ولذا نفروا الناس عنه ودعوهم إلى الابتعاد عنه وشغلوهم بحلقات الرقص ونوادي الوجد والسماع ولبس الخرقة والتزام الخلوات المظلمة وغير ذلك من بدعهم المنكرة كما سيتضح لنا ذلك خلال بحثنا الطويل معهم في هذه الرسالة إن شاء اللَّه تعالى .

حث الإسلام على العلم والإعلاء من شأنه :

لقد حث الإسلام على العلم وأعلى من شأنه ومما يدل على ذلك الأدلة الآتية من كتاب اللَّه وسنة رسول اللَّه ﷺ .

فأول سورة نزلت من القرآن جاء الأمر فيها بالقراءة وهي سورة العلق حيث قال تعالى : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1] .

وقد أمر اللَّه سبحانه بالعلم قبل العمل فقال : ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾[2] .

---

(١) العلق : (١ـ ٥) .

(٢) محمد : (١٩) .

وقد أخبرنا اللَّه سبحانه وتعالى بأن أولى الناس بخشية اللَّه سبحانه وتعالى هم العلماء فقال : ﴿ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[1] .

وقد أنكر اللَّه سبحانه وتعالى أن يستوي العالمون والجاهلون فقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾[2] .

وأما الأدلة من السنة في الحث على طلب العلم وفضله فكثيرة جداً وإليك نبذة منها :

الحديث الأول : حديث معاوية رضي اللَّه عنه قال سمعت النبي ﷺ يقول : « **من يرد اللَّه به خيراً يفقهه في الدين ، وإنما أنا قاسم واللَّه يعطي ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر اللَّه لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر اللَّه**»[3] .

الحديث الثاني : الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي اللَّه عنه حيث قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل اللَّه له طريقًا إلى الجنة**»[4] وقال الترمذي عنه : حديث حسن .

الحديث الثالث : الحديث الذي رواه أنس بن مالك رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ : « **من خرج في طلب العلم فهو في سبيل اللَّه حتى يرجع** »[5] .

الحديث الرابع : الحديث الذي رواه ابن عباس رضي اللَّه عنهما قال :

---

(١) فاطر : (٢٨) .

(٢) الزمر : (٩) .

(٣) البخاري مع الفتح (١/ ١٦٤) .

(٤) « جامع الترمذي » مع « تحفة الأحوذي » (٧/ ٤٠٥) .

(٥) نفس المرجع (٧/ ٤٠٥) .

ضمني رسول اللَّه ﷺ وقال : « اللهم علمه الكتاب »[1] .

فالآيات والأحاديث السابقة التي أوردتها هنا كلها تفيد بأن الإسلام دعا إلى العلم ورفع من شأن العلم وشأن أهله ووعد على طلبه الأجر العظيم والثواب الجزيل وأن كل دعوة إلى الابتعاد عن العلم والتنفير منه ما هي إلا محادة للَّه ولرسوله وتدمير وقتل لمواهب الأمة الإسلامية لأنه ما من أمة ابتعدت عن العلم إلا وانتشر فيها الجهل وأي أمة انتشر فيها الجهل فإنها تدمر وتصبح لقمة سائغة لأعدائها .

ولم يدع الصوفية إلى الابتعاد عن العلم الصحيح إلا ليصبح الناس جهلة حتى تسهل قيادتهم إلى حيث يشاءون وينشرون فيهم أفكارهم الخرافية الوهمية التي لا تستطيع أن تثبت أمام الحقائق العلمية ولذا نرى دائمًا زعماء الطرق الصوفية يحاربون علم الكتاب والسنة لأنهم يعلمون يقينًا بأنهم لا وجود لهم ولا لأفكارهم الضالة إذا فهم الناس دينهم كما أنزل على الرسول ﷺ من عند اللَّه عز وجل لأن أفكار الصوفية لا يمكن أن تعيش إلا في الظلام الحالك كالسباع التي لا تخرج إلا ليلاً لتبحث عن فريستها فكذلك الصوفية يريدون أن يبقى الناس جهالاً حتى يسهل إخضاعهم لهذه الأفكار المنحرفة .

استهزاء الصوفية بعلماء الأمة الإسلامية :

لقد استهزء الصوفية بعلماء الأمة الإسلامية ووصفوهم بأوصاف تحط من قدرهم وذلك حتى ينفروا الناس عنهم ويسقطوهم من عيونهم وإليك الأدلة على ما أقول :

---

(١) البخاري مع الفتح (١/ ١٦٩) .

فقد وصف أحد الصوفية الكبار الطريقة التي نقلت بها السنة النبوية بأنها طريقة لا يسلكها إلا المساكين وصرح بأن الصوفية يأخذون علمهم عن اللَّه مباشرة وإليك نص كلام هذا الصوفي :

فقد قال إبراهيم بن سبتيه :

(حضرت مجلس أبي يزيد والناس يقولون فلانًا لقي فلانًا وأخذ من علمه وكتب منه الكثير وفلانًا لقي فلانًا ، فقال أبو يزيد : « مساكين أخذوا علمهم ميتًا عن ميت وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت »)[1] .

وكلام أبي يزيد هذا يرمي إلى أمور خطيرة جدًا من هذه الأمور أن أبا يزيد بكلامه هذا قلل من شأن الإسناد الذي يعتبر مفخرة عظيمة للأمة الإسلامية دون غيرها بجانب أنه قلل من شأن علماء السنة المشرفة والذين نقلوا إلينا السنة كما قالها رسول اللَّه ﷺ والاستهزاء والاستهتار بعلماء الأمة الإسلامية لا يحصل إلا من إنسان في قلبه مرض وكراهية للإسلام والمسلمين، ثم إن وصف أبي يزيد للعلوم الإسلامية وعلى رأسها السنة النبوية بأنها نقلت ميتًا عن ميت فيه استهزاء بمن شهد لهم القرآن بالجنة وأخبرنا اللَّه بأنه رضي عنهم وهم الصحابة الكرام وهذا يعتبر أكبر جريمة.

ثم إن ادعاء أبي يزيد بأنه أخذ علمه هو وجماعته الصوفية الكذابون عن اللَّه ما هو إلا محض افتراء على اللَّه عز وجل فنحن المسلمين نعتقد بأنه لا نبي ولا رسول بعد النبي محمد ﷺ لأن اللَّه عز وجل يقول :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾[2] .

---

(١) « الكواكب الدرية » للمناوي (١/ ٣٤٦) .

(٢) الأحزاب : (٤٠) .

وبما أن اللَّه عز وجل أخبرنا بأنه لا يكلم البشر إلا بالوحي أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء ، وأبو يزيد البسطامي وأمثاله من المتصوفة الذين يدعون بأنهم يتلقون علومهم من اللَّه ليسوا بأنبياء ولا رسل فدعواهم التلقي المباشر عن اللَّه تصبح دعوى لا أساس لها من الصحة بل هي كذب وافتراء على اللَّه عز وجل ومع ذلك فنحن لا ننكر بأن القوم ربما يوحى إليهم من قبل الشياطين لأن اللَّه عز وجل قد أثبت في كتابه الكريم بأن الشياطين يوحون إلى أوليائهم حيث قال تعالى : ﴿ **وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ** ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ** ﴾[2] .

وعلى هذا فنحن لا نصدق المتصوفة بأنهم يتلقون علومًا عن اللَّه مباشرة وذلك لأن النبوة قد ختمت ولكن نقول لهم إنه من الممكن أن ينزل إليكم الوحي من قبل الشياطين وإلا فليس عندنا في الإسلام دينان دين يتلقاه أبو يزيد وأمثاله من دجاجلة الصوفية عن اللَّه ودين أتى به الرسول ﷺ عن اللَّه بل الدين عندنا دين واحد وهو الدين الذي جاء به الرسول ﷺ لا غير .

وممن حمل على أئمة الإسلام وعلمائهم ابن عربي حيث شبههم بأوصاف قبيحة للتقليل من شأنهم فمرة شبههم بفراعنة الرسل ومرة وصفهم بأنهم فاقدو الإدراك ومرة وصفهم بعدم الإنصاف وإليك نصوصا من كتبه :

---

(١) الأنعام : (١٢١) .

(٢) الأنعام : (١١٢) .

فقد قال : « وما خلق اللَّه أشق ولا أشد من علماء الرسوم على أهل اللَّه المختصين بخدمته العارفين به من طريق الوهب الإلهي الذي منحهم أسراره في خلقه وفهمهم معاني كتابه وإشارات خطابه فهم لهذه الطائفة مثل الفراعنة للرسل»[1] .

وقال أيضًا : « ولو كان علماء الرسوم ينصفون لاعتبروا بما في نفوسهم إذا نظروا في الآية بالعين الظاهرة التي يسلمون بها فيما بينهم فيرون أنهم يتفاضلون في ذلك ويعلو بعضهم في الكلام على معنى تلك الآية ويقر القاصر بفضل غير القاصر وكلهم في مجرى واحد .

ومع هذا الفضل المشهود لهم فيما بينهم في ذلك ينكرون على أهل اللَّه إذا جاءوا بشيء مما يغمض عن إدراكه وذلك لأنهم يعتقدون فيهم أنهم ليسوا بعلماء وأن العلم لا يحصل إلا بالتعلم المعتاد في العرف وصدقوا فإن أصحابنا ما حصل لهم العلم إلا بالتعلم وهو الإعلام الرحماني الرباني »[2] .

وقال أيضًا : « فلما رأى أهل اللَّه أن اللَّه قد جعل الدولة في الحياة الدنيا لأهل الظاهر من علماء الرسوم وأعطاهم التحكم في الخلق بما يفتون به وألحقهم بالذين يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون وهم في أفكارهم عن أهل اللَّه يحسبون أنهم يحسنون صنعًا . سلم أهل اللَّه لهم أحوالهم لأنهم علموا من أين تكلموا وصانوا عنهم أنفسهم لتسميتهم الحقائق إشارات فإن علماء الرسوم لا ينكرون الإشارات »[3] .

---

(١) « الفتوحيات المكية » لابن عربي (٢/ ١٧٥) .

(٢) « الفتوحيات المكية » لابن عربي (٢/ ١٧٦) .

(٣) « الفتوحيات المكية » لابن عربي (٢/ ٢٧٩) .

وهكذا زعماء التصوف الدجاجلة استهزءوا بعلماء الإسلام ووصفوهم بأوصاف لا تليق أن يوصف بها إنسان جاهل بل إنسان كافر فضلاً عن العلماء الربانيين فماذا ترك ابن عربي من التشويه بعد ما تقدم لعلماء الأمة الإسلامية الذين تفتخر بهم الأمة الإسلامية وإذا بحثنا عن السبب الذي دفع زعماء التصوف للقيام بهذه الحملة ضد علماء الأمة الإسلامية فإننا سنجد بأن الدافع الأساسي لهم على هذا هو تنفير الناس العوام من هؤلاء العلماء حتى لا يأتوا إليهم ويتعلموا منهم ويعرفوا الحق من الباطل فتتعطل مصالح المتصوفة الاقتصادية التي يحصلون عليها من قبل جهلاء الأمة الإسلامية وبالإضافة إلى ذلك فإن زعماء المتصوفة يستخدمون الجهلة من المسلمين الذين انخرطوا في إحدى هذه الطرق الصوفية كالعبيد في مصالحهم الشخصية .

وفي ختام هذا المبحث أقول إن زعم المتصوفة بأنهم يتلقون علومًا خاصة بهم من اللَّه مباشرة كذب محض لا أساس له من الصحة لأن اللَّه عز وجل يقول : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾[1] .

وبما أن زعماء الطرق الصوفية ليسوا بأنبياء ولا رسل تصبح دعوى تلقيهم العلم عن اللَّه عارية عن الصحة ، إذا نقول لا كشف لهم ولا إلهام لهم من اللَّه يأتون عن طريقه بعلوم تخالف العلوم التي جاء بها رسول اللَّه ﷺ لأن اللَّه قد ختم النبوة به كما قال سبحانه : ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[2] .

---

(١) الشورى : (٥١) .

(٢) الأحزاب : (٤٠) .

ولذا نقول فكل من يدعي تلقي العلم عن اللَّه تعالى إنما هو محادد للَّه ولرسوله لأن اللَّه أخبر في كتابه بأن النبوة قد ختمت وكذلك أخبر الرسول في سنته بأنه آخر النبيين فدعوى الصوفية بأنهم يتلقون العلم عن اللَّه دعوى فارغة عارية عن الصحة وإنما هي محض دجل وافتراء فقط لإيهام العوام والتلبيس عليهم .

وبما أن الدين قد كمل وتم فلا يحتاج إلى ترقيع عن طريق الكشوفات المزعومة كما قال اللَّه سبحانه وتعالى في كتابه : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾[1] .

وهذه من أكبر النعم على هذه الأمة حيث أكمل لها دينها فلا تحتاج إلى دين غيره فلا حلال إلا ما أحله اللَّه ولا حرام إلا ما حرمه اللَّه ولا دين إلا ما شرعه اللَّه وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لقوله تعالى : ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ** ﴾[2] .

وقد أخرج الطبري رحمه اللَّه عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما أنه قال :

« ﴿ **أَكْمَلْتُ لَكُمْ** ﴾ وهو الإسلام قال : أخبر نبيه ﷺ والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبدًا وقد أتمه اللَّه عز ذكره فلا ينقصه أبدًا وقد رضيه اللَّه فلا يسخطه أبدًا »[3] .

ويقول سيد قطب رحمه اللَّه في تفسير هذه الآية :

« أعلن لهم إكمال العقيدة وإكمال الشريعة معًا فهذا هو الدين ولم يعد

---

(١) المائدة : (٣) .

(٢) النجم : (٣ ـ ٤) .

(٣) « تفسير ابن جرير الطبري » (٦/ ٥١) .

للمؤمن أن يتصور أن بهذا الدين نقصًا يستدعي الإكمال ولا قصورًا يستدعي الإضافة ولا محلية أو زمانية تستدعي التطور أو التحوير »[1] .

وبما أن الدين قد كمل والحمد للَّه فالعلوم التي يزعم المتصوفة بأنهم يتلقونها عن اللَّه لا قيمة لها في ميزان الشرع لأنها أوهام وخيالات وكذب ودجل فقط .

وإليك قول المعلمي فإنه مفيد في هذا المجال قال رحمه اللَّه : «والشرع يقضي بأن الكشف ليس مما يصلح الاستناد إليه في الدين ففي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه أنه قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « **لم يبق من النبوة إلا المبشرات ، قالوا : وما المبشرات؟قال : الرؤيا الصالحة**»[2] » .

ثم قال المعلمي :

« وفيه حجة على أنه لم يبق مما يناسب الوحي إلا الرؤيا اللهم إلا أن يكون بقي ما هو دون الرؤيا فلم يعتد به فدل ذلك أن التحديث والإلهام والفراسة والكهانة والكشف كلها دون الرؤيا . . . » .

ثم قال المعلمي :

« إن التحديث والإلهام من إلقاء الملك في الخاطر والكهانة من إلقاء الشياطين والكشف قوة طبيعية كما يسمى في هذا العصر قراءة الأفكار . . . » .

ثم قال : « وقد اتفق أهل العلم على أن الرؤيا لا تصلح للحجة وإنما

---

(١) « في ظلال القرآن » لسيد قطب (٢/ ٨٤٣).

(٢) « صحيح البخاري » مع الفتح (١٢/ ٣٧٥) .

هي تبشير وتنبيه وتصلح للاستئناس بها إذا وافقت حجة شرعية صحيحة كما ثبت عن ابن عباس » .

ثم قال : « هذه حال الرؤيا فقس عليه حال الكشف إن كان في معناها فأما إن كان دونها فالأمر أوضح وتجد في كلام المتصوفة أن الكشف قد يكون حقًا وقد يكون من الشيطان وقد يكون تخيلاً موافقًا لحديث النفس. . . »

ثم يقول المعلمي : « فالكشف إذا تبع الهوى فغايته أن يؤيد الهوى ويرسخه في النفوس ويحول بين صاحبه وبين الاعتبار والاستبصار فكأن الساعي في أن يحصل له الكشف إنما يسعى في أن يضله اللَّه عز وجل ولا ريب أن من التمس الهدى من غير الصراط المستقيم مستحق أن يضله اللَّه عز وجل وما يزعمه بعض غلاتهم من أن لهم علامات يميزون بها بين ما هو حق من الكشف وما هو باطل دعوى فارغة .

فأما ما عرف عن المتصوفة من تحريف النصوص ربما أشنع وأفظع من تحريف الباطنية فهذا لا يشهد لكشفهم بل يشهد عليه أوضح شهادة بأنه من أبطل الباطل وذلك لأمور :

أولاً : لأن النصوص بدلالتها المعروفة حجة فإذا شهدت ببطلان قولهم علم أنه باطل.

ثانيًا : لأنهم يعترفون أن الكشف محتاج إلى شهادة الشرع فإن قبلوا من الكشف تأويل الشرع فالكشف شهد لنفسه فمن يشهد له على تأويله .

وأما التحديث والإلهام ففي صحيح البخاري وغيره من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه عن النبي أنه قال : « **لقد كان فيما قبلكم من الأمم**

محدثون فإن يكن في أمتي فإنه عمر »[1] .

وجاء في عدة روايات تفسير التحديث بالإلهام .

وهذه سيرة عمر بين أيدينا لم يعرف عنه ولا عن أحد من أئمة الصحابة وعلمائهم أنهم استدلوا بالتحديث والإلهام في القضايا الدينية بل كان يخفى عليهم الحكم فيسألون عنه فيخبرهم إنسان بخبر عن النبي ﷺ فيصيرون إليه»[1] .

* * *

(١) البخاري مع « الفتح » (٧/ ٤٢) .

(٢) « القائد إلى تصحيح العقائد » للمعلمي . ط المكتب الإسلامي (١٤٠٢هـ - ١٩٨٣م) (ص٦٩) .

المبحث الثاني

اعتقادهم بأن هناك حقيقة تخالف الشريعة

إن من أهم العوامل التي أدت إلى انحراف المتصوفة هو تفريقهم بين الحقيقة والشريعة وادعاؤهم بأن الحقيقة غير الشريعة .

ومصطلح الشريعة والحقيقة مصطلح خاص بهم وكل من يقرأ في كتب المتصوفة يجد بأن المتصوفة يكررون هذا المصطلح بكثرة وهو في الحقيقة لا يبعد كثيرًا عن مصطلح الظاهر والباطن الذي وضعه الباطنية كمصطلح خاص بهم إلا أن الصوفية قد شاركوا الباطنية في مصطلح الظاهر والباطن أيضًا وكلا المصطلحين وضعهما الصوفية والباطنية ليهدموا بهما الشريعة الإسلامية ويقضوا عليها .

ويعني المتصوفة والباطنية بهذين المصطلحين بأن هناك في الإسلام علمين علم يخص أهل الظاهر وهي الشريعة الإسلامية التي جاء بها الرسول ﷺ بكل ما فيها من عقائد وعبادات وآداب وأخلاق وسلوك وهذا علم يترفع عنه المتصوفة ويرون الوقوف عند هذا العلم انحطاطًا وأن الإنسان الذي تعلم العلم الشرعي « الكتاب والسنة » يعتبر في نظر المتصوفة في درجة العوام الذين لا يعتد بفتواهم والعلم الثاني العلم الذي يطلق عليه المتصوفة علم الحقيقة وهو الذي يعبرون عنه بالعلم اللدني ويعتقد المتصوفة بأن هذا هو العلم النافع وهو الذي من عرفه يستحق أن يسمى عالمًا في زعمهم وأما الكيفية التي ينال بها هذا العلم اللدني حسب زعم المتصوفة فهي المجاهدة

التي إذا استمر عليها الإنسان ينزل عليه علم الحقيقة من اللَّه والذي يقولون عنه أنه سر من أسرار اللَّه لا ينزله اللَّه إلا على قلوب الخاصة ويعنون بهذا أنفسهم لأنهم يقولون لا ينزل هذا العلم إلا على أولياء اللَّه وقد حصروا الولاية في أنفسهم .

ومن هنا بعد القوم عن الشريعة الإسلامية الغراء التي جاء بها الرسول ﷺ من عند اللَّه وفيها هدى ونور وأصبحوا يبحثون عن الهداية والوصول إلى مرضاة اللَّه عن طريق علمهم المزعوم والذي وصفوه بأنه علم الحقيقة وأصبحوا يفسرون النصوص القرآنية والحديثية تفسيراً باطنيًا بحتًا بعيدًا كل البعد عن المعاني التي تدل عليها النصوص القرآنية والحديثية على حسب الأساليب المعروفة في اللغة العربية وكل من اعترض على تفسيرهم الباطل سدوا عليه الباب بأن هذا علم الحقيقة أو علم الباطن وأن هذا العلم لا يدركه إلا أهل الحقيقة ويعنون أنفسهم ولذا لا ينبغي لأهل الرسوم أن يعترضوا عليهم لأنهم يجهلون هذا العلم ولقد صرح المتصوفة بأن هناك علمًا يسمى علم الحقيقة يختلف تمامًا عن علم الشريعة الذي جاء به الرسول ﷺ وإليك النصوص من كتبهم أنفسهم .

قال المنوفي في كتابه « جمهرة الأولياء » :

« إن القوم يرجعون بسند طريقهم إلى الرسول ﷺ من حيث أن جبريل عليه السلام نزل بالشريعة أولاً فلما تقررت ظواهر الشريعة واستقرت نزل إليه بالحقيقة المقصودة والحكمة المرجوة . . من أعمال الشريعة فخص الرسول ﷺ بباطن الشريعة بعض أصحابه دون البعض ».

ثم قال في نفس الصفحة :

« وأول من أظهر علم القوم وتكلم فيه سيدنا علي وذكر السلسلة

الصوفية في تلقي العلوم اللدنية إلى أن وصل إلى الجنيد الذي قال عنه أنه صحب الشافعي في علوم الظاهر ثم صحب وأخذ عن خاله السريسقطي علوم الباطن وعن الجنيد أخذ المحاسبي ثم انتشر هذا الطريق انتشارًا لا ينقطع حتى ينقطع عمر الدنيا »[1] .

وقد ذكر ابن عجيبة في « الفتوحات الإلهية شرح المباحث الأصلية » شرح الحديث المكذوب على الرسول ﷺ والذي هو : « **إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا أهل المعرفة باللَّه فإذا نطقوا به لا ينكره إلا أهل الغرة باللَّه**» ثم ذكر في نفس الكتاب شرح هذا الحديث المكذوب فقال :

«قال بعضهم في شرح هذا الحديث هي أسرار اللَّه يبديها اللَّه إلى أمناء أوليائه وسادات النبلاء من غير سماع ولا دراسة وهي من الأسرار التي لم يطلع عليها إلا الخواص فإذا سمعها العوام أنكروها ومن جهل شيئًا عاداه»[2] .

وينبغي أن نتذكر جيدًا بأن المتصوفة يقصدون بكلمة العوام علماء الأمة الإسلامية من محدثين ومفسرين وفقهاء .

فمن النصوص المتقدمة نخرج بالنتائج الآتية :

أولاً : أثبتنا بأن المتصوفة يقولون بأن هناك حقيقة تختلف عن الشريعة ومع هذا فإننا نلاحظ أيضًا بأن البعض منهم قالوا إنها نزلت على الرسول بعد استكمال الشريعة .

والبعض الآخر قال : إنها أسرار اللَّه يبديها اللَّه لأوليائه .

---

(١) « جمهرة الأولياء » للمنوفي (١/ ١٥٩) ط مؤسسة الحلبي وشركاه.

(٢) « الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية » لابن عجيبة على هامش « إيقاظ الهمم في شرح الحكم » له (١/ ٢٩) .

وكلا القولين تترتب عليهما أموراً خطيرة .

فالقول بأن الرسول خص بعلم الحقيقة جزءًا أو بعضًا من أصحابه دون البعض فيه اتهام للرسول ﷺ بأنه كتم العلم وهذا يعتبر جناية كبرى وكفراً بواحًا فإن من العقيدة التي يجب أن يعتقدها المسلم تجاه الأنبياء التبليغ الكامل بكل الأشياء التي أمرهم اللَّه بتبليغها وقد أمر اللَّه رسوله محمدًا ﷺ أن يبلغ كلُ ما أنزل اللَّه إليه وبالفعل قام الرسول ﷺ بتبليغ الأمانة كاملة فلم يكتم منها شيئًا بل بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في اللَّه حق جهاده حتى أتاه اليقين .

فكون المنوفي يقول بأن الرسول خص بعض أصحابه ببعض العلوم كذب صراح ودعوى عارية عن الدليل لأنه لا يستطيع أن يأتي بدليل واحد من كتاب اللَّه أو سنة رسول اللَّه يؤيد قوله إذا الرجل ارتكب جرائم عديدة بإيراده هذا الكلام

فأولاً : الرجل وقع في جريمة الكذب وهي تعتبر من الجرائم الكبيرة عند عوام المسلمين فكيف بمن نصب نفسه للتأليف.

ثانيًا : يعتبر تصريح المنوفي بأن الرسول خص بعض أصحابه بعلم دون البعض اتهام للرسول بكتمان ما أنزل اللَّه مع أن اللَّه أمره بتبليغ ما أنزل إليه ونحن نعتقد اعتقاداً جازمًا بأن الرسول بلغ ما أنزل إليه من ربه ومن هنا نستطيع أن نقول بأن ادعاء المنوفي بأن جبريل نزل بالشريعة أولاً ثم بالحقيقة وأن الرسول خص بها بعض أصحابه دعوى كاذبة خالية عن الدليل والبرهان.

بل إن عليًا رضي اللَّه عنه قد نفى تخصيص الرسول لهم بعلم خاص فقد روى الإمام البخاري في صحيحه أن أبا جحيفة قال : قلت لعلي : «هل عندكم كتاب ؟ فقال : لا ، إلا كتاب اللَّه أو فهم أعطيه رجل مسلم أو ما

في هذه الصحيفة . قلت : وما في هذه الصحيفة ؟ قال : العقل وفكاك الأسير ولا يقتل مؤمن بكافر »[1] .

ففي هذا الأثر ينفي علي رضي اللَّه عنه أن يكون خص رسول اللَّه ﷺ أهل بيته بشيء وكتمه عن غيرهم وأنه ليس عندهم علم مكتوب أو غير مكتوب إلا كتاب اللَّه أو فهم أي علم وهو أثر الفهم والاجتهاد وفي الصحيفة فليس عندهم إلا ما عند الناس واللَّه سبحانه يختص بقوة الفهم من يشاء وهذا الأثر يعتبر أقوى دليلاً على بطلان مزاعم الصوفية الذين ادعوا بأن الرسول خص عليًا وأهل بيته وبعضًا من الصحابة بعلم خاص لأن عليًا رضي اللَّه عنه قد نفى هذا الزعم الصوفي والحمد للَّه فالقوم ليس لهم أي دليل يستندون عليه لإثبات هذه الدعوى وما دام ليس لهم أي مستند فدعواهم بأن هناك حقيقة تختلف عن الشريعة دعوى باطلة لأنه لا يمكن لإنسان أن يدعي دعوة لا أساس لها فيحاول فرضها على الناس عن طريق الكذب والدجل .

أما الحديث الذي أورده المتصوفة لإثبات بأن هناك علومًا مخزونة عند اللَّه وأن هذه العلوم هي عبارة عن أسرار اللَّه لا يبديها اللَّه إلا لأوليائه .

أولاً : الحديث مكذوب على الرسول ﷺ اخترعه المتصوفة لإثبات دعواهم بأن الأولياء تنزل عليهم علوم من اللَّه غير العلوم التي نزلت على الرسول ﷺ ونحن نقول للمتصوفة: إن الدعاوى لا يمكن أن تثبت عن طريق الكذب وإنما تثبت الدعاوى عن طريق الأدلة القوية الصحيحة أما اختراع الأحاديث ونسبتها إلى الرسول ﷺ فهذا غير جائز شرعًا كيف وقد قال

---

(١) « صحيح البخاري » مع الفتح (١/٢٤٦).

الرسول ﷺ : « من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار »[1] .

وادعاء تلقي العلوم عن اللَّه سبحانه وتعالى يلزم منه بأن النبوة لم تختم لأن التلقي للعلوم عن اللَّه لا يكون إلا عن طريق الوحي ويلزم منه أيضًا القول بأن هناك طريقًا آخر غير الطريق الذي جاء به الرسول ﷺ يغني عما جاء به الرسول ﷺ وهذا فيه مخالفة صريحة للنصوص فقد أخبرنا اللَّه سبحانه وتعالى في كتابه بأن النبوة قد ختمت فقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾[2] .

وفي الحديث فقد قال رسول اللَّه ﷺ : « لا نبي بعدي »[3] .

وعلى هذا فالنبوة قد ختمت وبختم النبوة الوحي قد انقطع فدعوى الصوفية بأن هناك علمًا يلقيه اللَّه على قلوبهم ويطلبون الهداية عن طريقه وأنه من الممكن أن يستغنوا به عن علم الشريعة فيه خطورة عظيمة عليهم فليرجعوا عنه وإلا يعتبرون منكرين شيئًا معلومًا من الدين بالضرورة فكل المسلمين مجمعون بأن النبوة قد ختمت وأن الوحي قد انقطع وأنه لا توجد علومًا يمكن أن تزكي النفس وتطهرها إلا علم الكتاب والسنة اللذين جاء بهما الرسول ﷺ من عند اللَّه .

وحتى يتضح لنا مقصود الصوفية بمصطلح الحقيقة والشريعة إليك بعض النصوص من بطون كتبهم .

---

(١) « صحيح البخاري » مع الفتح (١/ ٢٠٠).

(٢) الأحزاب : (٤٠) .

(٣) « صحيح مسلم » مع النووي (١٢/ ٢٣١) .

فقد قال القشيري في معرض حديثه لإيضاح معنى الحقيقة والشريعة في « الفكر الصوفي » :

« الشريعة أمر بالتزام العبودية والحقيقة مشاهده الربوبية » .

ثم قال : « فالشريعة أن تعبده والحقيقة أن تشهده والشريعة قيام بما أمر والحقيقة شهود لما قضى وقدر وأخفى وأظهر »[1] .

فكلام القشيري السابق واضح جداً بأن الصوفية يعنون بالحقيقة خلاف الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ وأنهم يعنون بالحقيقة رؤية اللَّه عز وجل والإطلاع على قضاء اللَّه وقدره وما أخفاه اللَّه وأظهره .

ونحن نقول رؤية اللَّه عز وجل في الدنيا لا يمكن أن تحصل لأحد كائنًا من كان لأنها لم تحصل للرسل وهم أفضل الناس فيكف تحصل لمن دونهم؟! وحينما طلب موسى بن عمران رؤية اللَّه سبحانه وتعالى قال له : ﴿لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2] .

ثم إن ادعاء القشيري بأن الحقيقة مشاهدة ما قضاه اللَّه وقدره وأخفاه وأظهره فيه جرأة كبيرة على اللَّه عز وجل لأن هذا يعتبر ادعاء علم الغيب مع أن اللَّه سبحانه وتعالى قد أخبر بأن الغيب لا يطلع عليه أحد إلا من ارتضى من رسله حيث قال سبحانه وتعالى في كتابه: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾[3] .

---

(١) « الرسالة القشيرية » لأبي القاسم القشيري (١/ ٢٦١) ط حسان القاهرة ش الحسيني .

(٢) الأعراف : (١٤٣) .

(٣) الجن : (٢٦ ـ ٢٧) .

والرسل أيضًا لا يعلمون من الغيب إلا ما أعلمهم اللَّه به عن طريق الوحي فالرسول ﷺ قد أخبر عن الأحداث التي حصلت للأمم الماضية مع أممهم وأقوامهم وذلك لأن اللَّه أعلمه بذلك عن طريق الوحي.

وقد أمر اللَّه رسوله محمداً ﷺ أن ينفي عن نفسه علم الغيب فقال له: ﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾[1].

إذا فدعوى القشيري بأن الحقيقة هي الاطلاع على قضاء اللَّه وقدره أمر لا يمكن أن يكون لأحد مهما كان فعلم الغيب خاص باللَّه سبحانه وتعالى.

وقد جر مصطلح الحقيقة والشريعة المتصوفة إلى القول بأن العلم علمان ظاهر وباطن وأن العلم الظاهر هو علم الشريعة والعلم الباطن هو علم الحقائق.

فقد روى المتصوفة حديثًا ونسبوه إلى الرسول كذبًا وزوراً حيث قالوا إن أحد الصحابة سأل رسول اللَّه ﷺ عن علم الباطن فقال: « **سألت جبريل عن علم الباطن فقال: سألت اللَّه جل ثناؤه عن علم الباطن فقال: هو سر من سري أجعله في قلب عبدي لا يقف عليه أحد من خلقي** »[2].

فمن هذا الحديث المكذوب نخرج بنتيجة وهي أن المتصوفة يعنون بعلم الباطن غير علمي الكتاب والسنة وأن هذا العلم لا يعلمه أحد حتى الرسول ﷺ بل هو علم يقذف في قلوب المتصوفة حسب زعمهم ولا يخفى

---

(١) الأنعام: (٥٠).

(٢) كتاب « السيف الحداد في أعناق أهل الزندقة والإلحاد » لمصطفى كمال الدين علي البكري (ص١٦) المطبعة المتوسطة بالعشماوي ـ مصر.

ما في هذا الكلام من تفضيل أنفسهم على الرسول ﷺ لأن هذا الرجل الصوفي زعم بأن الرسول سئل عن هذا العلم فقال اللّه له هو سر من سري ولم يعلمه إياه وعلى هذا فالصوفية يزعمون بأنهم يعلمون علومًا لم يعلمها رسول اللّه ﷺ وهذا يعتبر منهم انحرافًا خطيرًا واستهتارًا بالرسول ﷺ وتقليلاً من شأنه بالإضافة إلى أنهم كذبوا عليه وقد قال الرسول ﷺ : « **من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**»[1] .

وقال في نفس الصفحة : « وعلوم المشاهدات والمكاشفات هي التي تختص بعلم الإشارة وهو العلم الذي تفردت به الصوفية بعد جمعها سائر العلوم وإنما قيل علم الإشارة لأن مشاهدات القلوب ومكاشفات الأسرار لا يمكن العبارة عنها على التحقيق بل تعلم بالمنازلات والمواجيد ولا يعرفها إلا من نازل تلك الأحوال وتلك المقامات »[2] .

ونقل أيضًا عن غانم المقدسي ما يلي :

« اعلم أن العلم علمان علم الظاهر للشريعة وعلم الباطن للحقيقة » وكذب على الرسول فقال : « العلم علمان علم باللسان وعلم بالقلب فأما علم اللسان فهو حجة اللّه على عبادة وأما علم القلب فهو العلم الأعلى الذي لا يخشى اللّه العباد إلا به »[3] .

ثم قال : « فعلم القلب هو العلم اللدني لم يسطر في السطور وإنما هو

---

(١) « صحيح البخاري » مع الفتح (١/ ٢٠٠) .

(٢) كتاب « السيف الحداد في أعناق أهل الزندقة والإلحاد » لمصطفى كمال الدين البكرى (ص١٦) المطبعة المتوسطة بالعشماوي ـ مصر .

(٣) نفس المرجع (ص١٠٧) .

تلقين من اللَّه سبحانه وتعالى بغير واسطة ملك ولا سفارة »[1] .

فالنصوص المتقدمة كلها تثبت بأن المتصوفة يؤمنون بأن هناك علمين ظاهر وباطن وأن العلم الظاهر هو العلم الذي جاء به رسول اللَّه ﷺ من عند اللَّه وأنه مجرد حجة فقط وأن العلم الذي يورث خشية اللَّه سبحانه وتعالى هو علمهم المزعوم الذي سموه بعلم الحقيقة وزعموا أنهم يتلقونه عن اللَّه سبحانه وتعالى وهذا الاعتقاد يعتبر كفرًا فلا يمكن لإنسان يؤمن باللَّه ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًا ورسولاً أن يفضل أي علم عن علمي الكتاب والسنة ولا يمكن أن يقول بأنه يتلقى علمًا عن اللَّه سبحانه وتعالى يغنيه عن العلم الذي جاء به الرسول ﷺ وإنما يقدم على مثل هذه الأقوال من فرغ قلبه عن الإيمان باللَّه وبرسوله وبكتابه وإلا فكيف يدعي الإنسان تلقي العلم عن اللَّه مع بقاء الإيمان عنده .

وقال ابن عجيبة الحسني : « فالعلم الظاهر هو علم الشريعة والعلم الباطن هو علم الطريقة والحقيقة فإذا لم يحصل شيئًا من هذين العلمين ثم ادعى مرتبة الشيخوخة فأخرجه من سفينة دائرة الشيخوخة وألقه في بحر لجج النفاق »[2] .

ونقل عن أحد المتصوفة بأنه لا يعتبر أحد من الرجال الذين يقتدى بهم إلا أن يكون جامعًا لعلمي الظاهر والباطن حيث نقل عنه بأنه قال : « لا يقتدي في طريقتنا هذه بظاهر ولا بباطن وإنما يقتدى بمن جمع بينهما »[3] .

---

(١) « السيف الحداد » (ص١٠٨) .

(٢) « إيقاظ الهمم في شرح الحكم » لابن عجيبة (١/ ١٩٥) .

(٣) نفس المرجع (١/ ١٥٩) .

ثم قال ابن عجيبة :

« واعلم أن ما شرطه هذا العارف في شيخ التربية من العلم الظاهر والباطن صحيح»[1] .

وقال ابن عجيبة في وصف الحقيقة :

« الحقيقة شهود الحق. . . ولا تطاق إلا بعد موت النفوس وحط الرءوس وتصفية البواطن من الأغيار وتحليتها بالأنوار فمن اطلع عليها قبل ذلك خيف عليه التزندق لأن الحقيقة لا تدرك بالعلم وإنما هي أذواق ووجدان. . .» ثم قال : « اطلاع المريد على الحقيقة قبل كمال الطريقة توجب له التقصير في الأعمال والتفتر في الخدمة فإن الحقيقة حلوة قد يشتغل بها ويهمل الشريعة ولذا قيل من تصوف ولم يتشرع فقد تزندق لتعريته الحقيقة عن الشريعة »[2] .

ففي هذا النص صرح ابن عجيبة بأن الحقيقة عارية عن الشريعة .

وقال ابن عربي في « الفتوحات المكية » في معرض حديثه بأن المتصوفة تفيض عليهم العلوم فيضانًا من اللَّه :

« ولما رأت عقول أهل الإيمان باللَّه تعالى أن اللَّه قد طلب منها أن تعرفه بعد أن عرفته بأدلتها النظرية علمت أن ثم علمًا آخر باللَّه تعالى لا تصل إليه من طريق الفكر فاستعملت الرياضات والخلوات والمجاهدات. . . والانفراد والجلوس مع اللَّه بتفريغ المحل وتقديس القلب عن شوائب الأفكار».

---

(١) « إيقاظ الهمم » (١/ ١٥٩) .

(٢) « إيقاظ الهمم في شرح الحكم » لابن عجيبة (٢/ ١٣٣) .

ثم قال: « فتوجه العقل إليه بالكلية والانقطـاع من كل ما يأخـذه عنه من هذه القوى فعند هذا التوجه أفاض اللَّه عليه من نوره علمًا إلهيًا عرفه بأن اللَّه تعالى من طريق المشاهدة والتجلي لا يقبله كون ولا يرده كون »[1].

وقال أبو حامد الغزالي في معرض حديثه عن أنواع العلوم التي يحصل عليها الإنسان :

« اعلم أن العلوم التي ليست ضرورية إنما تحصل في القلب في بعض الأحوال تختلف الحال فتارة تهجم على القلب كأنه ألقي فيه من حيث لا يدري وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم فالذي يحصل بالاستدلال يسمى اعتباراً واستبصاراً ثم الواقع في القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد ينقسم إلى ما لا يدري العبد أنه كيف حصل له ومن أين حصل وإلى ما يطلع معه على السبب الذي استفاد منه ذلك العلم وهو مشاهدة الملك الملقى في القلب والأول : يسمى إلهامًا ونفثًا في الروع والثاني : يسمى وحيًا وتختص به الأنبياء والأول يختص به الأولياء والأصفياء والذي قبله وهو المكتسب بطريق الاستدلال يختص به العلماء .

وحقيقة القول فيه أن القلب مستعد لأن تنجلي فيه حقيقة الحق في الأشياء كلها وإنما حيل بينه وبينها للحجاب المسدل الحائل بين مرآة القلب وبين اللوح المحفوظ الذي هو منقوش بجميع ما قضى اللَّه به إلى يوم القيامة وتجلي حقائق العلوم من مرآة اللوح المحفوظ في مرآه القلب يضاهي انطباع صورة من مرآة في مرآة تقابلها والحجاب بين المرآتين تارة يزال باليد وأخرى يزول بهبوب الرياح تحركه وكذلك قد تهب رياح الألطاف وتنكشف الحجب عن أعين القلوب فينجلي فيها بعض ما هو مسطور في اللوح المحفوظ

(١) « الفتوحات المكية » لابن عربي (٤/ ١٢١) .

ويكون ذلك تارة عند المنام فيعلم به ما يكون في المستقبل وتمام ارتفاع الحجاب بالموت فيه ينكشف الغطاء وينكشف أيضًا في اليقظة حتى يرتفع الحجاب بلطف خفي من اللَّه تعالى فيلمع في القلوب من وراء ستر الغيب شيء من غرائب العلم تارة كالبرق الخاطف وأخرى على التوالي إلى حدى ما دوامه في غاية الندور »[1] .

وقد قسم ابن عربي العلم إلى قسمين : فطري ووهبي حيث قال :

« الحكيم عبارة عمن جمع العلم الإلهي والطبعي والرياضي والمنطقي وما ثم إلا هذه الأربع مراتب من العلوم » .

ثم قال : « العلم النظري والعلم الوهبي وتختلف الطريق في تحصيلها تحصيل العلوم بين الفكر والوهب وهو الفيض الإلهي وعليه طريقة أصحابنا ليس لهم في الفكر دخول لما يتطرق إليه من الفساد ، والصحة فيه مظنونة فلا يوثق بما يعطيه وأعني بأصحابنا أصحاب القلوب والمشاهدات والمكاشفات لا العباد والزهاد ولا مطلق الصوفية إلا أهل الحقائق والتحقيق منهم ولهذا يقال في علوم النبوة والولاية إنها وراء طور العقل وليس للعقل فيها دخول بفكر لكن له القبول خاصة عند سليم العقل الذي لم تغلب عليه شبهة خيالية فكرية يكون من ذلك فساد نظره وعلوم الأسرار كثيرة »[2] .

فالنصوص المتقدمة التي نقلناها من كتب أئمة التصوف تثبت لنا بأن القوم يعنون بكلمة علم الباطن والظاهر أو الحقيقة والشريعة بأن هناك علمًا آخر غير العلم الذي جاء به رسول اللَّه ﷺ وأنهم يتلقون هذا العلم عن اللَّه بواسطة الملك أو مباشرة عن اللَّه بدون واسطة أو عن طريق الاطلاع على

---

(١) « إحياء علوم الدين » للغزالي (٣/ ٢٠) .

(٢) « الفتوحات المكية » لابن عربي (٤/ ١٦١) .

اللوح المحفوظ والاطلاع على ما قدره اللَّه وقضاه منذ الأزل.

والاعتقاد بأن هناك طريقًا آخر غير الطريق الذي رسمه لنا رسول اللَّه ﷺ بأمر من ربه يغني عن الوحي الذي أتى به رسول اللَّه ﷺ أو يكون في منزلة الوحي الذي أوحاه اللَّه إلى رسوله أو هو أفضل منه يعتبر كفرًا بواحًا لأن اللَّه عز وجل قال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾[2].

وقد جعل اللَّه علامة محبته اتباع رسوله فقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[3].

وباختصار أقول: فإن الدين كمل وإن النبوة قد ختمت فكل من يدعي تلقي العلوم عن اللَّه بواسطة أو بغير واسطة فهو كاذب مفتر وادعاؤه تلقي العلوم عن اللَّه يغنيه عن علمي الكتاب والسنة أو تكون في مستويهما أو أحسن منهما يعتبر انحرافًا عقديًا يجب أن يتوب منه لأن ادعاء تلقي العلوم عن اللَّه معناه أن النبوة لم تختم بعد وهذا يعتبر مخالفة صريحة للنصوص القرآنية والحديثية التي صرحت بختم النبوة وكمال الدين يقول تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[4].

ويقول الرسول ﷺ: «لا نبي بعدي»[5].

فدعوى الصوفية بأنهم يتلقون العلوم عن اللَّه وينظرون إلى اللوح

---

(١) الحشر: (٧).

(٢) النور: (٥٤).

(٣) آل عمران: (٣١).

(٤) الأحزاب: (٤٠).

(٥) «صحيح مسلم» مع النووي (١٢/ ٢٣١).

المحفوظ دعوى كاذبة عارية عن الصحة تمامًا وإنما هي دجل وافتراء من أجل التعمية على العوام والقضاء على الإسلام والمسلمين لأن المتصوفة رأوا أن علومهم تختلف تمام الاختلاف مع ما جاء به رسول اللَّه ﷺ فأسسوا قاعدة العلم الظاهر والعلم الباطن وأن العلم الباطن لمجموعة خاصة ليس لأحد غيرهم المقدرة على معرفته بل هو علم خاص بهم كما يدعون ولذا لا ينبغي لغيرهم أن يعترض عليهم لأنه محجوب عن علم الحقيقة وعلى حسب هذه القاعدة وهي القول بأن هناك علمين ظاهر وباطن فقد قسم المتصوفة العلوم إلى عدة أقسام واختلفوا في تقسيمها مع أنهم كلهم متفقون بأن هناك علمًا آخر يسمى علم الباطن يتلقونه عن اللَّه سبحانه وتعالى .

فقد ذكر الهجويري عن محمد بن الفضل البلخي أنه قال في تقسيم العلوم :

« العلوم ثلاثة علم من اللَّه وعلم مع اللَّه وعلم باللَّه ».

ثم قال : « فالعلم باللَّه هو علم المعرفة الذي عرفه جميع أوليائه ولو لم يكن تعريفه وتعرفه لما عرفوه .

وأما العلم من اللَّه فهو علم الشريعة وهو أمر وتكليف منه لنا وأما العلم مع اللَّه فهو علم مقامات الطريق الحق وبيان درجات الأولياء »[1] .

وقد ذكر الهجويري بأن لكل من علمي الحقيقة والشريعة أركانًا خاصة به وهذا مما يدل على أن المتصوفة يعنون بالحقيقة غير الشريعة فقال :

« ولعلم الحقيقة أركان ثلاثة :

الأول : العلم بذات اللَّه .

---

(١) « كشف المحجوب » للهجويري (١/ ٢١٠) .

الثاني : العلم بصفات اللَّه وأحكامها .

الثالث : العلم بأفعال اللَّه .

ولعلم الشريعة أركان ثلاثة :

الأول : الكتاب .

الثاني : السنة .

الثالث : الإجماع »[1] .

وقد سبب ادعاء المتصوفة بأن هناك علمًا يسمى علم الحقيقة يختلف تمامًا مع علم الشريعة الاستهتار بعلم الشريعة وأهلها وأنها ما جاءت إلا للعوام وطبعًا هم يقصدون بكلمة العوام كل من لم يندرج تحت لوائهم ولو كان بحرًا في علوم الشريعة .

فقد نقل أبو طالب المكي عن أحد المتصوفة أنه قال :

« إن اللَّه سبحانه وتعالى اطلع على قلوب طائفة من عباده فلم يرها تصلح لمعرفته ولا موضعًا لمشاهدته فرحمها فوهب له العبادات والأعمال الصالحة »[2] .

فنفهم من هذا النص أن المتصوفة يعتبرون العبادات والأعمال الصالحة إنما أنزلها اللَّه سبحانه وتعالى لأناس لا تصلح قلوبهم لمعرفة اللَّه ولذا شرع لهم الأعمال الصالحة والعبادات بكل أنواعها وبما أن المتصوفة يعتبرون أنفسهم أنهم العارفون باللَّه حقيقة فلا تجب عليهم العبادات والأعمال الصالحة يعتبرون قد انسلخوا تمامًا من الأوامر والنواهي التي أنزلها اللَّه في كتابه وفي سنة رسوله لأنه ليس هنـــاك إسلام مجـــرد عن العبادات

---

(١) « كشف المحجوب » للهجويري (١/ ٢٠٧) .

(٢) « قوت القلوب في معاملة المحبوب » لأبي طالب المكي (٢/ ٦١) .

والأعمال الصالحة إلا إذا قال المتصوفة بأن علمهم الذي سموه علم الحقيقة ينص على هذا وهذا ليس ببعيد لأن علمهم المزعوم ما هو إلا من القاء الشيطان ووساوسه فمن الممكن جداً أن يوحي إليهم الشيطان بأن هذه التكاليف ما أنزلها اللّه إلا للعوام أما الزاعمون بأنهم عرفوا اللّه فليسوا مكلفين بها .

وقد صرح المتصوفة بأنهم صعب عليهم التوفيق بين علم الشريعة وعلم الحقيقة المزعومة ومما يدل على هذا قول أبي يزيد البسطامي: «عملت في المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئًا أشد علي من العلم ومتابعته »[1] .

وقد تولى المنوفي الصوفي المعاصر المعروف بأن مقصود أبي يزيد بهذا هو أنه صعب عليه تطبيق الباطن على الظاهر والحقيقة على نهج الشريعة.

ومن هذا النص نستخلص بأن الحقيقة عند المتصوفة تناقض تمامًا علم الشريعة الغراء التي جاء بها محمد رسول اللّه عليه الصلاة والسلام وما دام اعترف المتصوفة أنفسهم بهذا فنحن نقول إن من أهم العوامل التي أدت إلى انحراف المتصوفة هو قولهم أو زعمهم بأن علم الحقيقة يختلف عن علم الشريعة ومن يعتقد مثل هذا الاعتقاد لا شك أن مصيره هو الضلال كما حصل للمتصوفة لأنه ليس هناك علم ينجي صاحبه من النار يوم القيامة إلا علم الكتاب والسنة .

وقد بالغ المتصوفة في رفع شأن علمهم المزعوم وأوجبوا على كل إنسان أن يذهب إلى زعماء الطرق الصوفية من أجل أن يحصل على علم الحقيقة من اللّه مباشرة .

وفي هذا يقول المنوفي :

---

(١) « التمكين » للهروي (ص١٩٦) .

« اعلموا رحمكم اللّه أن علم التصوف يقال له علم الباطن » ثم قال : « لا ينبغي للعالم ولو تبحر في العلوم حتى صار وحيد أهل زمانه أن يقنع بما علمه وإنما الواجب عليه الاجتماع بأهل الطريق المستقيم حتى يكون ممن يحدثهم الحق تعالى في سرائرهم من شدة صفاء باطنهم ويصير أهلاً لفيضان العلوم اللدنية على قلبه ولا يتيسر ذلك عادة إلا بسلوك الطريق على يد شيخ كامل عالم بعلاج النفوس وتطهيرها من الخبائث»[1] .

وقد صرح المتصوفة بأن علماء الظاهر ـ ويعنون بهم علماء الشريعة الإسلامية ـ ليسوا بحجة على علماء الباطن وهم علماء الحقيقة وذلك لأن علماء الحقيقة يعلمون علمًا لدنيا خاصًا بهم يتلقونه عن اللّه مباشرة حسب زعمهم بينما علماء الظاهر لا يعلمون إلا الكتاب والسنة وهذه في نظر المتصوفة لا قيمة لها وفي هذا نقل ابن عجيبة عن أحد المتصوفة أنه قال : « لا تجعلوا أهل الظاهر حجة على أهل الباطن » ثم قال ابن عجيبة : « أي لأن أهل الباطن نظرهم دقيق وغزلهم رقيق لا يفهم إشاراتهم غيرهم »[2] .

وقد صرح المتصوفة بأنه ليس بينهم وبين علماء الشريعة أي محبة ولا مودة وإنما هو عداء وصراع مستمر وصدقوا في هذا لأن علماء الشريعة يقفون أمامهم حجر عثرة ويبددون أفكارهم الواهية التي يزعمون بأنها حقائق ولكنها في الحقيقة ما هي إلا علوم شيطانية.

وفي هذا يقول الشعراني نقلاً عن شيخه إبراهيم المتبولي وغيره قال إنه سمعهم يقولون : « ما بيننا وبين هؤلاء المنكرين الذين ينكرون علينا مودة ولا محبة لأنه ليس معهم شيء لنستفيده ولا يقبلون منا ما هو معنا من

(١) « بداية الطريق » للمنوفي (ص ٦٦) .

(٢) « إيقاظ الهمم في شرح الحكم » لابن عجيبة (١/ ٦٣) .

المعارف والأسرار»[1] .

وفي هذا النص لقد صرح المتصوفة بأن علوم الظاهر لا تفيدهم شيئًا لأنهم ليسوا في حاجة إليها وماذا يعملون بها بعد أن ادعوا الأخذ عن اللَّه مباشرة حسب زعمهم .

وقد قال الشعراني :

« إن أقل درجات الأدب مع القوم أن يجعلهم المنكر كأهل الكتاب لا يصدقهم ولا يكذبهم »[2] .

وهنا جنى الشعراني على نفسه وعلى أصحابه المتصوفة حيث صرح أنه ينبغي للمسلم أن يقف من المتصوفة وعلومهم كموقفه من أهل الكتاب وإنما قال الشعراني هذا الكلام لأنه رأى تناقضًا واضحًا بين الشريعة وعلمهم المزعوم وأنه لا يمكن التوفيق بينهما ولم ير مخرجًا يخرجه من هذا المأزق إلا أن يصرح بأنهم كالكتابيين ونحن نقول لا نقف منهم موقف أهل الكتاب لأن أهل الكتاب نزلت عليهم الكتب ثم حرفت ولذا نقف مما يقولونه موقف المحايد فلا نصدقهم ولا نكذبهم إلا ما صدقه شرعنا أو كذبه بخلاف المتصوفة فإننا لا نعترف لهم بأنهم تنزل عليهم علوم خاصة من اللَّه تختلف مع علم الشريعة الإسلامية ولذا يجب علينا إذا صدر من المتصوفة أو من غيرهم أي فعل يخالف الشريعة أن ننكر عليهم لأن من أوصاف هذه الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ** ﴾[3] .

(١) « لطائف المنن » للشعراني (١/ ١٤٥) .

(٢) « لطائف المنن » للشعراني (١/ ١٢٥) .

(٣) آل عمران : (١١٠).

وقد نقل الشعراني عن سيده علي الوفا أنه كان يقول :

« التسليم للقوم أسلم والاعتقاد فيهم أغنم والإنكار عليهم سم ساعة في إذهاب الدين وربما تنصر بعض المنكرين ومات على ذلك » .

ثم قال الشعراني :

« فإن أردت يا أخي عدم الإنكار فَأَجْلِ مرآة قلبك فإنك تشهد الصوفية من خيار الناس ويقل إنكارك وإلا فمن لازمك كثرة الإنكار لأنك لا تنظر في مرآتك إلا صورة نفسك »[1] .

وقد وصف المتصوفة المنكر عليهم بأوصاف قبيحة .

يقول ابن عجيبة في معرض حديثه عن علوم المتصوفة التي تلقى عليهم من قبل اللّه عز وجل وهي من الأسرار التي لم يطلع عليها إلا الخواص فإذا سمعها العوام أنكروها ثم قال : « ومن جهل شيئًا عاداه » وضرب المثل العربي المعروف والذي هو : « ومن يكن ذا فم مر مرير يجد مرًا به الماء الزلالا » .

واستشهد بقول البوصيري :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ويُنكر الفم طعم الماء من سقم

ثم قال : « وقال مشائخ الطريقة : المنكر علينا كالعنين ينكر شهوة الجماع والمزكوم ينكر رائحة المسك الأذخر والمحموم ينكر حلاوة السكر وفي مثلهم قال الشاعر :

وكم عائب ليلى ولم ير وجهها فقال له الحرمان حسبك ما كان»[2]

---

(١) « لطائف المنن » للشعراني (ص١٢٥) .

(٢) « الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية » على هامش « إيقاظ الهمم في شرح الحكم» له (١/٢٩) .

ومن هذه النصوص يتضح لنا بأن المتصوفة يعتبرون غيرهم كالمرضى لأنهم لا يعلمون شيئًا عن علومهم المزعومة التي هي تختلف تمامًا مع العلوم التي جاء بها رسول اللَّه ﷺ لذلك يعتبرون كل من ينكر عليهم كالمريض الذي يقول للحلو مر لعلة فيه مع سلامة الشيء وبقائه على حلاوته ولذا شبه المتصوفة المنكرين كالمرضى وهذه استهانة بعلماء المسلمين وبالشريعة الإسلامية في آن واحد فالعلماء لا ينكرون على المتصوفة إلا إذا وقعت منهم مخالفة صريحة لنصوص الشريعة الإسلامية لأن المنكر ما أنكرته الشريعة والمعروف ما قالت عنه الشريعة أنه معروف .

والحقيقة أن المتصوفة يضربون هذه الأمثلة للتشنيع بالشريعة والعلماء في آن واحد لأنهم يعلمون بأن علومهم في نظر الشريعة الإسلامية وعلمائها ما هي إلا أضغاث أحلام ولذا يضربون هذه الأمثال لتنفير الناس عن علماء الأمة الإسلامية .

ونحن نقول إن أي إنسان يرتكب أمرًا مخالفًا لما جاء به الرسول ﷺ يجب أن ينكر عليه كائنًا من كان ولا عبرة بمن يقول إنه يفعل هذا الفعل لأنه أوحي إليه من اللَّه وأمره بفعله فإن هذا كذب وبهتان وافتراء على اللَّه فلا نبوة بعد نبوة سيدنا محمد بن عبد اللَّه ولا شريعة بعد شريعته فالنبوة قد ختمت والشريعة قد كملت فكل من يريد أن يأتي إلينا بتشريعات جديدة يجب أن يرد بحزم ويؤمر بتوبة فإن تاب وإلا فيجب أن يقطع عنقه حتى لا ينشر فساده لأن ادعاء تلقي علمًا آخرَ يحل ما حرمته الشريعة أو يحرم ما أحلته الشريعة ليس بأمر سهل بل أمر خطير جدًا يؤدي بصاحبه إلى الهلاك الدنيوي والأخروي ويفتح الباب على مصراعيه لكل دجال أفاك كذاب يكيد للإسلام والمسلمين.

موقف المتصوفة من القرآن الكريم :

أما موقف المتصوفة من القرآن الكريم فقد فسروا القرآن الكريم تفسيراً باطنيًا يختلف تمامًا مع التفسير الذي فسره به السلف وعلماء الأمة الإسلامية عبر التاريخ وبعيداً كل البعد عن المعاني التي تدل عليها الألفاظ عند العرب وذلك من أجل إخضاع الآيات القرآنية لعقائدهم الفاسدة وإليك نماذج من تفسيرهم الباطني حتى تعرف بأن المتصوفة من ألد الأعداء لكتاب اللَّه عز وجل.

يقول محيي الدين بن عربي في تفسير قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾.

قال : « إيجاز البيان فيه :

يا محمد ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي ستروا محبتهم في عنهم

فسواء عليهم أأنذرتهم بوعيدك الذي أرسلتك به

﴿أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ بكلامك فإنهم لا يعقلون غيري وأنت تنذرهم بخلقي ، وهم ما عقلوه ولا شاهدوه » .

ثم قال : « وكيف يؤمنون بك يا محمد وقد ختمت على قلوبهم فلم أجعل فيها متسعًا لغيري

﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ فلا يسمعون كلامًا في العالم إلا مني

﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ من بهائي عند مشاهدتي فلا يبصرون سواي »[1] .

---

(١) « الفتوحات المكية » (٢/٢٠٦) ط المكتبة العربية القاهرة .

ثم قال مرة أخرى في تفسير نفس الآيات حيث أراد أن يوضح تفسيره جيداً فقال :

« انظر كيف أخفى سبحانه أولياءه في صفة أعدائه وذلك أنه لما ابتدع الأمناء من اسمه اللطيف وتجلى لهم من اسمه الجميل فأحبوه تعالى والغيرة من صفات المحبة في المحبوب والمحب بوجهين مختلفين فستروا محبته تعالى غيرة منهم عليه كالشبلي وأمثاله وسترهم الحق بهذه الغيرة عن أن يعرفوا فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي ستروا ما بدا لهم في مشاهدتهم من أسرار الوصلة فقال : لابد من أن أحجبكم عن ذاتي بصفاتي فهو كذلك. . .

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فلم يسعها غيره وعلى سمعهم فلا يسمعون سوى كلامه على ألسنة العالم فيشهدونه في العالم متكلماً بلغاتهم.

﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ من سناه إذ هو النور، وبهائه إذ له الجلال والهيبة فأبقاهم الحق غرقى في بحور اللذات بمشاهدة الذات فقال لهم : لابد لكم من ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

فما فهموا ما العذاب لاتحاد الصفة عندهم فأوجد لهم الحق علم الكون والفساد وعلمهم جميع الأسماء وأنزلهم على العرش الرحماني وفق عذابهم وقد كانوا مخبوئين عنده في خزائن غيوبه فلما أبصرتهم الملائكة خرت سجوداً لهم فعلموهم الأسماء فأما أبو يزيد فلم يستطع الاستواء ولا أطاق العذاب فصعق من حينه فقال تعالى : « ردوا عليّ حبيبي فإنه لا صبر له عني ».

فحجب بالشوق والمخاطبة وبقي للكفار فنزلوا من العرش إلى الكرسي فنبتت لهم المقدمان فنزلوا عليهما من الثلث الباقي من ليلة هذه النشأة الجسمية إلى السماء الدنيا « النفس » فخاطبوا أهل الثقل الذين لا يقدرون

على الوجد هل من داع فيستجاب له هل من تائب فيتاب عليه هل من مستغفر فيغفر له »[1] .

ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾[2] .

قال : « فشبه نوره بالمصباح فلم يكن أقرب إليه تعالى قبولاً في ذلك الهباء إلا حقيقة محمد ﷺ المسماة بالعقل فكان سيد العالم بأسره وأول ظاهر في الوجود فكان وجوده من ذلك النور الإلهي ومن الهباء ومن الحقيقة الكلية وفي الهباء وجد عينه وعين العالم من تجليه وأقرب الناس إليه علي بن أبي طالب وأسرار الأنبياء »[3] .

ونكتفي بهذه النماذج لإثبات أن المتصوفة فسروا القرآن الكريم بأهوائهم من أجل أن يوافق معتقدهم الفاسد وهذا يتضح لنا من خلال تفسيرات ابن عربي التي أوردناها كنماذج فقط فابن عربي في تفسيره للآية الأولى حاول أن يثبت وحدة الأديان وأنه ليس هناك مؤمن ولا كافر بل الكل واحد وأثبت أيضًا من خلال تفسيره القول بوحدة الوجود أن الكل رب لأن هذا العالم كله مظاهر ومجال للّه سبحانه وتعالى حسب زعمه .

وأما الآية الثانية وهي قوله تعالى : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ فقد فسرها كما رأينا تفسيرًا باطنيًا باطلاً بعيدًا كل البعد عن المعنى الذي تدل عليه الآية .

وهو لجأ إلى هذا التفسير كما هو واضح من أجل أن يثبت عقيدته التي يعبر عنها بالحقيقة المحمدية رغم أن الآية بعيدة كل البعد عن التفسير الذي

---

(١) « الفتوحات المكية » لابن عربي (٢/ ٢٠٨) ط المكتبة العربية القاهرة .

(٢) النور : (٣٥) .

(٣) « الفتوحات المكية » لابن عربي (٢/ ٢٢٧) .

فسرها به ابن عربي فالرسول ﷺ بشر ولد من أب وأم معروفين وليس هو مخلوق من نور كما يزعم المتصوفة الأفاكين ومناقشة عقيدة المتصوفة تجاه الرسول لها باب خاص في البحث فلا داعي لمناقشتها هنا .

ومن هنا يتضح لنا بأن المتصوفة حاولوا أن يخضعوا معاني القرآن لتوافق معتقدهم الفاسد وذلك عن طريق التأويلات الباطلة .

أما السنة فإنهم بعيدون عنها كل البعد فهم دائمًا تراهم يحبون البدع وينشئونها ويشجعون عليها ويروون لتأييدها أحاديث وينسبونها إلى الرسول كذبا وزورًا فهم قوم هلكى غرقى في البدع والخرافات بل هم وكر البدع والخرافات وناشروها في الأمة الإسلامية .

موقف العلماء من تقسيم الصوفية الدين إلى شريعة وحقيقة :

قد رفض علماء الأمة الإسلامية تقسيم الدين إلى شريعة وحقيقة واستنكروها وإليك نماذج من أقوالهم حتى تعلم بأن المتصوفة ما أتوا بهذا التقسيم إلا لتأييد مذهبهم الباطل حتى لا يحتج عليهم الناس بالنصوص فيبطلون ماهم عليه من الأعمال المخالفة للنهج الإسلامي.

فقد قال الإمام ابن القيم مستنكرًا قول الصوفية بأن هناك علمًا باطنًا وظاهرًا :

« ومن كيد الشيطان ما ألقاه إلى جهال المتصوفة من الشطح والطامات وأبرز لهم في قالب الكشف من الخيالات فأوقعهم في أنواع الأباطيل والترهات وفتح لهم أبواب الدعاوى الهائلات وأوحى إليهم أن وراء العلم طريقًا إن سلكوه أفضى بهم إلى الكشف العياني وأغناهم عن التقيد بالسنة والقرآن فحسن لهم رياضة النفوس وتهذيبها وتصفية الأخلاق والتجافي عما

عليه أهل الدنيا وأهل الرياسة والفقهاء وأرباب العلوم والعمل على تفريغ القلب وخلوه من كل شيء حتى ينقش فيه الحق بلا واسطة تعلم فلما خلا من صورة العلم الذي جاء به الرسول نقش فيه الشيطان بحسب ما هو مستعد له من أنواع الأباطيل وخيله للنفس حتى جعله كالمشاهد كشفا وعيانًا فإذا أنكره عليهم ورثة الرسل قالوا لكم العلم الظاهر ولنا الكشف الباطن ولكم ظاهر الشريعة وعندنا باطن الحقيقة ولكم القشور ولنا اللباب فلما تمكن هذا من قلوبهم سلخها من الكتاب والسنة والآثار كما ينسلخ الليل من النهار ثم أحالهم في سلوكهم على تلك الخيالات وأوهمهم أنها من الآيات البينات وأنها من قبل اللَّه الهامات فلا تعرض على السنة والقرآن ولا تعامل إلا بالقبول والإذعان ، وكلما ازدادوا بعدًا وأعراضًا عن القرآن وما جاء به الرسول كان هذا الفتح على قلوبهم أعظم »[1] .

وقال ابن عقيل في معرض نقده للمتصوفة والتحذير منهم :

« فاللَّه اللَّه في الإصغاء إلى هؤلاء الفرغ الخالين من الإثبات وإنما هم زنادقة جمعوا بين مدايح العمال مرقعات وصوف وبين أعمال الخلعاء الملحدة أكل وشرب ورقص وسماع وإهمال لأحكام الشرع ولم تتجاسر الزنادقة أن ترفض الشريعة حتى جاءت المتصوفة فجاءوا بوضع أهل الخلاعة.

فأول ما وضعوا أسماء وقالوا حقيقة وشريعة. وهذا قبيح لأن الشريعة ما وضعه الحق لمصالح الخلق. فما الحقيقة بعدها سوى ما وقع في النفوس من إلقاء الشياطين وكل من رام الحقيقة في غير الشريعة فمغرور مخدوع»[2].

---

(١) « إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان » لابن القيم (١/ ١١٩) .

(٢) « تلبيس إبليس لابن الجوزي » (٣٧٤) ط دارالكتب العلمية بيروت لبنان.

وقال الإمام ابن الجوزي رحمه اللَّه :

« وقد فرق كثير من الصوفية بين الشريعة والحقيقة وهذا جهل من قائله لأن الشريعة كلها حقائق » .

ثم قال : «وقد أنكر جماعة من قدمائهم في إعراضهم عن ظواهر الشرع »[1] .

ومن هذه النصوص التي أوردتها عن الأئمة الكبار من علماء الأمة الإسلامية يتضح لنا بأن ادعاء الصوفية تقسيم العلم إلى حقيقة وشريعة أو ظاهر وباطن كذب وافتراء فليس هناك حقيقة وشريعة وإنما عندنا الشريعة فقط فهي الحقيقة عندنا ولكن في الإسلام عندنا أعمال القلوب وأعمال الجوارح وهذه كلها موجودة في الشريعة الإسلامية ولذا نقول للمتصوفة لا يمكن أن تصلوا إلى الحقيقة خارج الشريعة فإن كنتم تبحثون عن الحقيقة بالفعل فارجعوا إلى الشريعة التي جاء بها محمد بن عبد اللَّه ﷺ فهي الحقيقة لا غير .

الانحرافات التي وقع فيها الصوفية بسبب هذه القاعدة :

إن المتصوفة قد وقعوا في انحرافات عديدة بسبب هذه القاعدة التي وضعوها وهي القول بأن الحقيقة تختلف عن الشريعة ومن هذه الانحرافات التي وقعوا فيها ما يلي :

١ ـ اتهام الرسول بأنه خص أناسًا بعلم خاص وهذا يترتب عليه اتهامه بكتمان ما أنزل إليه والواجب تجاه الرسل الاعتقاد بأنهم قد بلغوا ما أمرهم اللَّه به .

---

(١) « تلبيس إبليس » لابن الجوزي (ص٣٢٤) .

٢ ـ تعطيل وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحجة أنه نزل عليهم علوم تختلف عن علم الشريعة ولذا لا ينبغي أن ينكر عليهم .

٣ ـ ادعاء التلقي عن اللّه مباشرة وهذا يؤدي إلى القول بعدم ختم النبوة وهو انحراف عقدي خطير .

٤ ـ الاستهزاء بعلماء الأمة الإسلامية والتقليل من شأنهم ووصفهم بأنهم عوام وبأنهم محجوبون بظواهر الشريعة عن علوم الحقيقة .

٥ ـ تفسير القرآن الكريم بأهوائهم وتأويله بحيث يؤيد معتقدهم إلى جانب تحريفهم لمعاني السنة النبوية وتصحيح الأحاديث عن طريق كشفهم المزعوم مما أدى بهم إلى نسبة أحاديث كثيرة كذبًا وزوراً إلى الرسول ﷺ لتأييد معتقدهم الفاسد كما مر بنا بعضها في موضوع تفريق الصوفية بين الحقيقة والشريعة .

* * *

المبحث الثالث

الغلو الزائد في الرسول ﷺ والأولياء

إن من أهم العوامل التي أدت إلى انحراف المتصوفة عن الطريق المستقيم هو الغلو في الرسول ﷺ والأولياء .

وقبل أن نتعرض لتوضيح غلوهم في هذا المجال نحب أن نتعرض لتعريف الغلو في اللغة والاصطلاح مع ذكر موقف الإسلام من الغلو عمومًا بايجاز كتمهيد للموضوع .

أولاً : تعريف الغلو :

الغلو لغة التجاوز عن الحد والخروج عن القصد في كل شيء وغلا في الدين والأمر يغلو جاوز حده وأفرط فيه .

واصطلاحًا :

قال ابن الأثير في « النهاية » في قوله ﷺ : « **إياكم والغلو في الدين** » «أي التشدد فيه ومجاوزة الحد كحديثه الآخر : « **إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق** » .

وقيل معنى الغلو البحث عن بواطن الأشياء والكشف عن عللها وغوامض متعبداتها .

ومنه الحديث : « **وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه** » إنما قال ذلك لأن من أخلاقه وآدابه التي أمر بها القصد في الأمور وخير الأمور

أوساطها وكلا طرفي قصد الأمور ذميم .

ومنه حديث عمر : « **لا تغالوا صداق النساء** » وفي رواية : « **لا تغلوا في صدقات النساء** » أي لا تبالغوا في كثرة الصداق ، وأصل الغلاء الارتفاع ومجاوزة القدر في كل شيء يقال غاليت الشيء وبالشيء وغلوت فيه أغلو إذا جاوزت فيه الحد »[1] .

إذا نظرنا في التعريف اللغوي للغلو نجد أن معناه هو المبالغة في أي شيء كان ومجاوزة الحد به ورفعه فوق مستواه .

وكذلك التعريف الاصطلاحي للغلو يدل على أن المراد بالغلو هو التشدد في أي شيء كان ومجاوزة الحد به .

ومن التعريف الاصطلاحي للغلو أيضًا هو المبالغة في الشيء .

والخلاصة التي نخلص بها من التعريفين اللغوي والاصطلاحي أن من المعاني التي يدل عليها الغلو هو مجاوزة الحد في أي شيء كان ورفعه فوق منزلته الحقيقية .

ثانيًا : موقف الإسلام من الغلو :

لقد حذر الإسلام من الغلو بجميع صوره وعاب على أهل الكتاب غلوهم في دينهم فقال تعالى : ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ**﴾[2] .

وما وقع الغلو في أمة إلا وأهلكها فقد ثبت في الحديث أن النبي ﷺ

---

(١) « النهاية في غريب الحديث والأثر » لابن الأثير (٣/ ٣٨٢) .

(٢) المائدة : (٧٧) .

قال محذراً أمته من الغلو : « **إياكم والغلو فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين** »[1] .

وما اجتاحت الشياطين البشرية عن فطرتها إلا بالغلو في رجال صالحين ذكرهم اللَّه سبحانه وتعالى في كتابه فقال تعالى : ﴿ **وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا** ﴾[2] .

وقد روى ابن جرير في معنى هذه الآية ما يلي :

« ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر كانوا قومًا صالحين بين آدم ونوح وكان لهم أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم لو صورناهم كانوا أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوروهم فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم »[3] .

ونهى النبي ﷺ عن إطرائه خشية أن يقال فيه ما قالته النصارى في عيسى عليه السلام فقد روى البخاري عن ابن عباس أنه سمع عمر رضي اللَّه عنه يقول على المنبر : سمعت النبي ﷺ يقول : « **لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد اللَّه ورسوله** »[4] .

وعن أنس رضي اللَّه عنه أن ناسًا قالوا : يا رسول اللَّه يا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا . فقال : « **يا أيها الناس قولوا ببعض قولكم ولا يستهوينكم الشيطان أنا محمد عبد اللَّه ورسوله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي**

---

(١) « مسند أحمد » (١/ ٢١٥) .

(٢) نوح : (٢٣ ـ ٢٤) .

(٣) « جامع البيان » للطبري (٢٩/ ٦٢) .

(٤) البخاري مع الفتح (٦/ ٤٧٨) ط دار الفكر .

التي أنزلني اللَّه عز وجل »[1] .

بمثل هذا نهى الإسلام عن الغلو لأن الغلو هو السبب الرئيس في حدوث الشرك باللَّه لأول مرة في تاريخ البشرية ولا شك أن الشرك باللَّه يعتبر أعظم ما عصي به اللَّه على وجه الأرض ومما يدل على هذا قول اللَّه عز وجل على لسان لقمان : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾[3] .

والصوفية وقفوا من هذه النصوص موقف المعاند فلم يلقوا لها بالاً ولم يتقيدوا بها بل أتوا بنقيضها فغلوا في الرسول ﷺ ونسبوا إليه أموراً لو كان حيا لقاتل قائلها ، وتوجهوا إليه بطلب المنفعة ودفع المضرة والأخذ باليد يوم الحشر وشكوا إليه نوائب الدهر ونسوا اللَّه الذي بيده مقاليد كل شيء ولم يقف المتصوفة في غلوهم في الرسول ﷺ بل غلوا أيضًا في مشايخهم فاعتقدوا فيهم أموراً لا تليق إلا باللَّه عز وجل .

وليس الغلو أن يعتقد الإنسان بأن فلانًا من البشر يستطيع أن يخلق ويوجد فحسب فإن هذا المعتقد ما اعتقده أحد من المشركين الذين بعث اللَّه إليهم الرسل وليس هو الذي وقعت فيه الخصومة وذلك أن المشركين لم يشركوا في ربوبية اللَّه كما أخبرنا اللَّه بذلك في كتابه حيث قال تعالى :

---

(١) « مسند أحمد » (٣/١٥٣) .

(٢) لقمان : (١٣) .

(٣) النساء : (٤٨) .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[2] .

إنما استحقوا الشرك لإشراكهم في ألوهية اللَّه بغلوهم في رجال صالحين كعيسى وعزير وود وهذا عين ما تفعله الصوفية حيث غلوا في الرسول ﷺ والأولياء حتى رفعوهم إلى منزلة الألوهية والربوبية وهذا سيتضح لنا الآن أثناء تعرضنا لإيراد نماذج من غلو الصوفية تجاه الرسول والأولياء وإليك البيان وسنبدأ بضرب نماذج من غلو الصوفية تجاه الرسول ثم سنتبعه ثانيًا بضرب نماذج أخرى نثبت بها غلو الصوفية تجاه الأولياء :

المطلب الأول

غلوهم في الرسول محمد ﷺ

لقد غلا المتصوفة غلواً مفرطًا في الرسول محمد ﷺ حتى رفعوه فوق منزلته التي أنزله اللَّه فيها واعتقدوا فيه عقائد فاسدة باطلة لا أساس لها من الصحة ونحن هنا لا نريد أن نناقش كل معتقدات الصوفية المنحرفة تجاه الرسول محمد ﷺ وإنما سنضرب نماذج فقط نثبت بها بأن من أهم العوامل التي أدت إلى انحراف المتصوفة عن الخط المستقيم هو غلوهم الزائد تجاه الرسول ﷺ وذلك لأن انحرافات المتصوفة تجاه الرسول ﷺ قد عقدنا لها فصلاً خاصًا في الباب الثالث من هذه الرسالة وسنناقش كل انحرافاتهم تجاهه هناك مناقشة تفصيلية حتى نثبت بأن المتصوفة أتوا بهذه العقائد من

---

(١) الزمر : (٣٨) .

(٢) يوسف : (١٠٦) .

عند أنفسهم مع براءة الإسلام منها كلية[1] .

ومن الانحرافات التي وقع فيها المتصوفة بسبب غلوهم في الرسول ﷺ ما يلي :

١ ـ الانحراف الأول: اعتقادهم بأن الرسول ﷺ خلق من نور وأنه أول مخلوق على الإطلاق وأن اللّه خلق من نور محمد جميع ما في هذا الكون من أرض وسماء وما فيهما وما بينهما :

وإليك النصوص من بطون كتب القوم.

قال أحمد بن المبارك راويًا عن شيخه عبد العزيز الدباغ[2] :

« وسمعته رضي اللّه عنه يقول في قوله : « وانفلقت الأنوار » أن أول ما خلق اللّه تعالى نور سيدنا محمد ﷺ ثم خلق منه القلم والحجب السبعين وملائكتها ثم خلق اللوح ثم قبل كماله وانعقاده خلق العرش والأرواح والجنة والبرزخ. . . » ثم قال مفصلاً ما مضى :

« ثم إن اللّه تعالى خلق ملائكة الأرضين من نوره ﷺ وأمرهم أن يعبدوه عليها وأما الأرواح والجنة إلا مواضع منها فإنها أيضًا خلقت من نور وخلق ذلك النور من نوره ﷺ وأما البرزخ فنصفه الأعلى من نوره ﷺ فخرج من هذا أن القلم واللوح ونصف البرزخ والحجب السبعين وجميع ملائكتها وجميع ملائكة السموات والأرضين كلها خلقت من نوره ﷺ بلا واسطة وأن العرش والماء والجنة والأرواح خلقت من نور خلق من نوره ﷺ »[3] .

---

(١) انظر (٣٣٩ ـ ٥٠١) .

(٢) عبد العزيز الدباغ هو عبد العزيز بن مسعود المعروف بالدباغ صوفي مشهور من آثاره « الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز » في التصوف جمعه أحمد بن المبارك السلجمان أحد تلاميذه الذين تربوا تحت رعياته . انظر « معجم المؤلفين » لعمر رضا كحالة (٥/ ٢٦٣) .

(٣) « الإبريز » لعبد العزيز الدباغ (٢٥٢) .

هذا هو النموذج الأول مما تعتقده الصوفية تجاه الرسول ﷺ حيث ادعوا في هذا النص بأن أول ما خلق اللّه نور الرسول ﷺ وأن جميع ما في هذا الكون خلق من نوره ﷺ .

ولنعرض هذا المعتقد الصوفي على الكتاب والسنة لنرى هل أتوا بهذا المعتقد من عند أنفسهم أم أخذوه من الكتاب والسنة .

فنقول أولاً : إن ادعاء المتصوفة بأن أول ما خلق اللّه نور الرسول ﷺ غير صحيح بل هو ادعاء باطل وكذب محض وليس لهم أي دليل يستندون عليه لإثبات دعواهم هذه سوى الحديث الموضوع والذي نصه « **أول ما خلق اللّه نور نبيك يا جابر**»[1] والحديث الموضوع لا يصلح أن يكون دليلاً لإثبات قضية عادية فضلا عن أن يكون دليلاً لإثبات قضية عقدية ولهذا نقول إن المتصوفة أتوا بهذا المعتقد من عند أنفسهم ليضللوا به العوام عن المعتقد الصحيح الموجود في كتاب اللّه وفي سنة رسوله ﷺ وإلا فالرسول ﷺ ليس مخلوقًا من نور كما يزعمون بل خلق مما يخلق منه البشر ولكن اللّه فضله بالرسالة وجعله خاتم رسله وجعله أفضل مخلوقاته .

وقد أخبرنا اللّه سبحانه وتعالى بأن أول مخلوق بشري هو أبونا آدم عليه السلام وبين لنا من أي شيء خلقه وذكر لنا المراحل التي مر بها أثناء إنشائه فقال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾[2] .

---

(١) « الإبريز » لعبد العزيز الدباغ (ص٢٥٢) .

(٢) المؤمنون : (١٢ ـ ١٤) .

والشاهد في الآية هو قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ والمقصود بها أصل الإنسان وهو أبونا آدم عليه السلام حيث خلقه اللَّه من طين .

ومما يدل على أن أصل الإنسان من طين قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾[1] .

فهذه الآيات التي أوردتها وغيرها كثير كلها أثبتت لنا بأن أصل الإنسان من طين وأن أول مخلوق بشري هو أبونا آدم عليه السلام وبما أن الرسول ﷺ هو أحد أفراد ذرية آدم عليه السلام فأصله من تراب.

ولهذا نقول ونحن موقنون ومتأكدون مما نقوله بأنه حق وما عداه باطل بأن الرسول ليس أول مخلوق ولا هو مخلوق من نور كما تدعي الصوفية بل الرسول ولد من أب وأم قرشيين معروفين وهذا معلوم لدى الجميع إلا من أصيب بالمكابرة والعناد وكون الرسول خلق كما يخلق غيره من البشر لا ينقص هذا من قيمته ومكانته العالية وذلك لأن اللَّه سبحانه وتعالى قد فضله بالرسالة الخاتمة وجعله خير الخليقة على الإطلاق ولكن مع ذلك كله فهو عبد اللَّه وقد وصفه اللَّه بالعبودية له في آيات عديدة من كتابه سبحانه وتعالى منها :

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾[2] .

ومنها قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ

---

(١) ص : (٧١ ـ ٧٢) .

(٢) الجن : (١٩) .

إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا ﴾[1] الآية.

وقال تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾[2] .

وقد أمره اللَّه سبحانه وتعالى أن يقول أنه بشر مثلنا فقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾[3] الآية.

وبعد أن سقنا هذه الأدلة وأبطلنا حجج المتصوفة بها نقول : إن الاعتقاد الواجب تجاه الرسول ﷺ من حيث خلقه هو أنه خلق كما يخلق البشر غيره من أب وأم ثم أكرمه اللَّه سبحانه وتعالى وشرفه بالرسالة الخاتمة وجعله أفضل جميع الخلق على الإطلاق وما يعتقده المتصوفة من أنه خلق من نور فغير صحيح بل هو اعتقاد باطل وكذب محض أتوبه من عند أنفسهم لإفساد عقيدة المسلمين حتى يردوهم إلى أمة وثنية تعبد الأشخاص والأحجار والأشجار.

وبما أننا أبطلنا دعوى الصوفية بأن الرسول خلق من نور فلا حاجة لمناقشة الصوفية في ادعائهم الآخر وهو قولهم إن الكون خلق من نور محمد ﷺ لأن الأساس الذي أقاموا عليه دعوتهم قد هدمناه وبينا بأنه كذب محض وأثبتنا بأن الرسول بشر خلق كغيره من أب وأم وولد كما يولد البشر[4] فالادعاء الثاني وهو زعم المتصوفة بأن الكون خلق من نوره باطل أيضًا لأنها ليس لها أي أساس تعتمد عليه وليس لهم برهان من اللَّه ولا من رسوله على

---

(١) الإسراء : (١) .

(٢) البقرة : (٢٣) .

(٣) الكهف : (١١٠) .

(٤) انظر : (١٤٢ ـ ١٤٤) .

صحة دعواهم هذه .

والخلاصة أن الرسول ليس مخلوقًا من نور وليس الكون مخلوقًا من نوره كما تدعي الصوفية بل هو بشر قد ولد من أب وأم قرشيين معروفين فضله اللَّه بالرسالة الخاتمة وجعله أفضل الخليقة وادعاء الصوفية بأنه خلق من نور كذب محض ومصادمة صريحة مع نصوص الكتاب والسنة فيجب أن ترد عليهم ويضرب بها على وجوههم.

٢ ـ الانحراف الثاني الذي وقع فيه المتصوفة : هو قولهم بأن جميع الأنبياء فاضت عليهم العلوم من الرسول ﷺ :

لقد بالغ المتصوفة في الغلو في الرسول ﷺ حتى وصل بهم الأمر إلى ادعاء أن جميع الأنبياء فاضت عليهم العلوم من الرسول ﷺ وإليك النصوص الدالة على هذا :

فقد قال أحمد مبارك ناقلاً عن شيخه الدباغ :

« وسمعته رضي اللَّه عنه يقول مرة أخرى أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وإن سقوا من نوره لم يشربوه بتمامه بل كل واحد يشرب منه ما يناسبه وكتب له فإن النور المكرم ذو ألوان كثيرة وأحوال عديدة وأقسام كثيرة فكل واحد شرب لونًا خاصًا ونوعًا خاصًا » قال رضي اللَّه عنه : « فسيدنا عيسى ﷺ شرب من النور المكرم فحصل له مقام الغربة وهو مقام يحمل صاحبه على السياحة وعدم القرار في موضع واحد وسيدنا إبراهيم شرب من النور المكرم فحصل له مقام الرحمة والتواضع مع المشاهدة الكاملة فتراه إذا تكلم مع أحد يخاطبه بلين ويكلمه بتواضع عظيم فيظن المتكلم أنه يتواضع له وهو إنما يتواضع للَّه عز وجل لقوة مشاهدته وسيدنا موسى ﷺ شرب من

النور المكرم فحصل له مقام مشاهدة الحق سبحانه في نعمه وخيراته وعطاياه التي لا يقدر قدرها وهكذا سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والملائكة الكرام واللَّه أعلم »[1] .

وقال البوصيري[2] :

وإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

وكل آي أتى الرسل الكرام بها فإنما اتصلت من نوره بهم[3]

فالنصوص المتقدمة تدل دلالة واضحة بأن الصوفية يعتقدون بأن جميع الرسل شربوا من نور الرسول ﷺ كل واحد منهم حسب ما يناسبه وأن جميع الرسل فاضت عليهم العلوم من نور الرسول ﷺ .

ولكن الصوفية ليس لهم دليل يستندون عليه لإثبات هذا المعتقد الباطل لا من كتاب اللَّه ولا من سنة رسول اللَّه ﷺ بل هي دعوى مبنية على الهراء البحت فقط .

والرسل عليهم الصلاة والسلام لم تفض عليهم العلوم من الرسول كما يزعمون بل نزلت عليهم من اللَّه عز وجل وحيًا كما نزلت على الرسول محمد ﷺ ومما يدل على هذا قول اللَّه عز وجل : ﴿ **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ** ﴾الآية[4] .

---

(١) « الإبريز » لعبد العزيز الدباغ (٢٥٤) .

(٢) هو الأديب البليغ والشاعر المجيد والصوفي المتحقق شرف الدين أبو عبد اللَّه محمد بن سعيد بن حماد بن محسن بن عبد اللَّه وقد تلقى علومه ومعارفه على طائفة من علماء عصره كأبي حيان وهو من تلاميذ أبي العباس المرسي الشاذلي وقد توفي بالإسكندرية (٦٩٤هـ).

(٣) « بردة المديح » للبوصيري (١٤ ـ ١٥) .

(٤) « النساء : (١٦٣) .

فهذه الآية نص قاطع في أن جميع الرسل نزل عليهم الوحي من اللَّه ولم تفض عليهم العلوم من نور الرسول كما يزعم الصوفية الكذبة .

وقد أخبرنا اللَّه عز وجل في كتابه بأن رسولنا محمداً ﷺ ما كان يعرف الكتاب ولا الإيمان قبل أن يوحي اللَّه إليه فكيف أخذ الرسل منه العلوم التي أوحيت إليهم وفي هذا يقول اللَّه عز وجل : ﴿ **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾[1] .

ومن هنا نقول ما دام الرسول ﷺ ما كان يدرى الكتاب ولا الإيمان قبل أن يوحي إليه اللَّه عز وجل فمن باب أولى أن الرسل لم يأخذوا العلوم التي أوحيت إليهم منه بالإضافة إلى أن الرسل أوحي إليهم قبل أن يخلق الرسول ﷺ ويظهر في الوجود ومن أجل هذا نقول إن دعوى الصوفية بأن الرسل أخذوا العلوم من نوره ﷺ دعوى باطلة تمامًا وليس لها أي أساس تعتمد عليه .

٣ ـ الانحراف الثالث الذي وقع فيه المتصوفة هو اعتقادهم بأن الرسول ينفع ويضر من دون اللَّه والتوجه إليه بالدعاء والاستغاثة به :

لقد غلا المتصوفة غلواً مفرطًا في الرسول ﷺ حتى رفعوه من مقام العبودية إلى مقام الألوهية فقد توجهوا إليه بأنواع من العبادات التي لا ينبغي صرفها لغير اللَّه عز وجل رغم أن الرسول ﷺ حذر من الغلو والإطراء فيه في أحاديث كثيرة وقد نهى اللَّه عز وجل عن الغلو فقال تعالى : ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا**

---

(١) الشورى : (٥٢) .

كَثِيراً وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾[1] .

وإليك نماذج من كلام المتصوفة الذي يظهر فيه الغلو واضحًا جليًا وتشم منه رائحة الشرك العفنة المنتنة الذي نهى عنه الرسول ﷺ في سنته ونهى اللَّه عنه في كتابه والذي يعتبر أكبر جريمة عصي بها اللَّه عز وجل في هذا الكون على الإطلاق .

فقد قال محمد الفقي في كتابه « التوسل والزيارة » في إحدي قصائده والتي زعم أنها إحدى القصائد التي نظمها في مدح النبي ﷺ متوسلاً به مستغيثًا به وزعم أن الرسول تحدث معه بشأنها ونحن لا نريد إيراد القصيدة كلها هنا وإنما نريد أن نأخذ منها مقتطفات فقط لتكون لنا شواهد على ما نقول :

يقول في تلك القصيدة :

إلى مصدر الأنوار والأنس نهرع ... وفي الساحة العليا نحط ونفزع
حماك ملاذ اللاجئين وقصدهم ... يطوف به وفد وآخر يضرع
ألا يا رسول اللَّه ما لي ملجأ ... سواك أناجيه وجاهك واسع
أناجيك في سري وأدعوك جهرة ... يهيجني وجد وشوق ومطمع
وليس بخاف أنني كنت دائمًا ... أروح بحبي في رضاك وأرجع
وما ذاك إلا أنك الفضل كله ... وأنك غوث للأنام ومفزع
وأنك يوم العرض حصن وموئل ... رؤوف رحيم شافع ومشفع
فيا من عهدناه الوسيلة للورى ... يلبي دعاء المستجير ويسمع
ويا من عهدناه الشفيع إذا دعا ... إلى الموقف الداعي وعم التطلع

---

(١) المائدة : (٧٧) .

سألتك فضلاً يسعف القلب والنهى يقوم به مثلي ويحيا ويخشع
فجد لي به واعطف فعطفك نعمة وكل الورى يصبو إليه ويطمع
ألست لنا بعد المهيمن رحمة وبابًا لعفو اللَّه والكل يقرع
فيا سيدي إني على الباب قائم أموت وأحيا هواك وأولع[1]

فهذه الأبيات إذا نظرنا إليها نظرة فاحصة سنجد فيها أن الرجل وقع في شرك صريح باللَّه عز وجل حيث صرف للرسول ﷺ عبادات لا ينبغي صرفها لغير اللَّه عز وجل لأن المعبود هو اللَّه سبحانه وتعالى وحده لا شريك له أما غيره فكلهم عبيد له سبحانه يتصرف فيهم كما يشاء ، ففي البيت الأول الرجل صرح بأنه إذا أصيب بأي مصيبة يسرع إلى الرسول ويفزع إليه حتى ينقذه مما أصيب به حسب زعمه وكذلك في البيت الثاني وصف الرسول بأن كل من يطلب شيئًا يتوجه إلى الرسول وأن هناك وفود تطوف بالرسول وطبعًا يقصد قبره ووفود أخرى تتضرع إلى الرسول ، وفي البيت الثالث صرح الرجل بأنه يناجي الرسول في سره ويدعوه علنًا طالبًا منه ما يريده ، وفي البيت الرابع وصف الرسول بأنه يعلم الغيب ويعلم ما فيه من حالة وأنه بذل جهده لإرضاء الرسول ﷺ ، وفي البيت الخامس كما هو واضح وصف الرسول بأنه كل الفضل وأنه مغيث لجميع من في الكون ومفزعهم عند الشدائد ، وفي البيت السادس وصف الرسول بأنه حصن لجميع المخلوقات وموئلهم يوم القيامة ، وفي البيت السابع وصف الرسول بأنه وسيلة جميع الورى وأنه يستجيب دعاء من يدعوه ويسمعهم ، وفي البيت العاشر والحادي عشر صرح الرجل بأن الفضل بيد الرسول وطلب منه أن يجود له به ثم صرح بأن جميع من في هذا الكون يتوجهون إليه ويطمعون

(١) « التوسل والزيارة » لمحمد الفقي (١٣٤) .

في فضله ، وفي البيت الأخير صرح الرجل بأنه قائم على باب الرسول ويعني به طبعًا باب قبره طلبًا للمغفرة والرحمة منه وقضاء جميع ما يحتاجه.

وهكذا غلا المتصوفة في الرسول ﷺ حتى أعطوه أموراً لا يملكها إلا اللَّه عز وجل حيث تجاوزوا به حدود البشرية وأوصلوه إلى حدود الألوهية والربوبية فتوجهوا إليه بأنواع العبادات رغم أن الرسول ﷺ نهى عن الغلو وحذر منه تحذيراً شديداً ، منها حديث : « **لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد اللَّه ورسوله** »[1] ومع ذلك فقد بالغ المتصوفة في تعظيمه ﷺ حتى رأوا أن الطواف بقبره والتمسح بترابه والسجود له من القربات التي يتقرب بها إلى اللَّه عز وجل واعتقدوا أنه ينفع ويضر ويعطي ويمنع وأنه يفرج الكربات وأنه يشفع فيمن يشاء ويدخل الجنة من يشاء وهذا غلو منهم ومبالغة ممقوتة تؤدي بصاحبها إلى الشرك والانسلاخ الكامل من الدين إن لم يتب منها .

وقد صرح الرسول ﷺ بأنه لا يملك نفعًا ولا ضراً كما أمره اللَّه عز وجل في كتابه فقال : ﴿ **قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾[2] .

ففي هذه الآية نفى اللَّه عن رسوله ملك النفع والضر وأنه لو كان يملك ذلك لما أصابه السوء بل لدفعه عنه ومعروف أن الرسول ﷺ قد أصيب في حروبه مع المشركين إصابات كما في غزوة أحد[3] فلو كان يملك تفريج

---

(١) « صحيح البخاري » مع الفتح (٦/ ٤٧٨) .

(٢) الأعراف : (١٨٨) .

(٣) انظر « الروض الأنف » للسهيلي (٥/ ٤٤١) و « السيرة النبوية » لابن حبان (٢٢٣) وفي =

الكربات لفرج عن نفسه ولكنه لا يملك شيئًا من ذلك بل الرسول يدعو اللَّه عز وجل واللَّه يفرج عنه فهو عبد من عباد اللَّه فضله اللَّه بالرسالة وجعله خير ما خلقه اللَّه على الإطلاق ولكن مع ذلك لم يخرج عن كونه عبدًا للَّه .

والرسول ﷺ لم يرسله اللَّه إلا للنهي عن الشرك باللَّه والدعوة إلى توحيده فكل من يدعو غير اللَّه يعتبر محادًا للَّه ولرسوله لأنه يريد أن يعيد الشرك الذي وصفه اللَّه بأنه أعظم ظلم وحاربه رسوله ﷺ .

فالمخلوق لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا سواءً كان نبيًا أو ملكًا أو وليًا فالكل عبيد اللَّه فالتوجه إليهم بالدعاء والاستغاثة يعتبر شركًا أكبر وقد وصف اللَّه عز وجل من يتوجه إلى غيره بالدعاء بأنه مثل الذي يريد إيصال الماء إلى فيه مع بسط كفيه وهذا تشبيه دقيق ومقنع فكما أن الذي يريد أن يوصل الماء إلى فيه مع بسط كفيه لا يمكن أن يصل إلى فيه ويشرب منه فكذلك الذي يتوجه بالدعاء إلى غير اللَّه لا يمكن أن يحصل على مطلوبه لأن الذي يتوجه إليه بهذا الدعاء لا يملك ما يطلبه منه وفاقد الشيء لا يعطيه وإليك الآية قال تعالى : ﴿**لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ**﴾[1] .

وقد أخبر اللَّه سبحانه وتعالى بأن المدعوين من دونه لا يملكون كشف الضر ولا تحويله عمن يدعوهم فقال تعالى : ﴿**قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً**﴾[2] .

= « نور اليقين في سيرة سيد المرسلين » (١٣٨) .

(١) الرعد : (١٤) .

(٢) الإسراء : (٥٦) .

وقد أخبر اللَّه عز وجل بأن المشركين دُعوا شركاءهم فلم يستجيبوا لهم حيث قال تعالى : ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾[1] .

وقد أخبرنا اللَّه سبحانه وتعالى بأن المدعوين من دونه لا يملكون شيئًا ولو كان شيئًا بسيطًا جدًا كالقطمير فقال تعالى : ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[2] .

وبعد أن أوردنا هذه الآيات نقول إن كل من يتوجه إلى غير اللَّه بالدعاء والاستغاثة وطلب قضاء الحوائج سواء كان المدعو ميتًا أو حيًا ولكنه غائب وسواء كان المدعو نبيًا أو ملكًا أو وليًا يعتبر قد وقع في الشرك الأكبر الذي بعث اللَّه الرسل لمحاربته .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في « الرسالة السنية » :

« فإذا كان على عهد النبي ﷺ من انتسب إلى الإسلام ممن مرق منه مع عبادته العظيمة فليعلم أن المنتسب إلى الإسلام والسنة في هذه الأزمان أيضًا قد يمرق وذلك بأسباب : منها الغلو الذي ذمه اللَّه في كتابه حيث قال: ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم ﴾ وكذلك الغلو في بعض المشايخ بل الغلو في علي بن أبي طالب بل الغلو في المسيح عليه السلام فكل من غلا في نبي أو رجل صالح وجعل فيه نوعًا من الإلهية مثل أن يقول يا سيدي فلان انصرني أو أغنني أو ارزقني فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه فإن

---

(١) القصص : (٦٤) .

(٢) فاطر : (١٤) .

تاب وإلا قتل فإن اللَّه إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب ليعبد وحده ولا يدعى معه إله آخر والذين يدعون مع اللَّه آلهة أخرى مثل المسيح والملائكة والأصنام لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق أو تنزل المطر أو تنبت النبات وإنما كانوا يعبدونهم أو يعبدون قبورهم أو يعبدون صورهم يقولون : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾[1] . ويقولون : ﴿هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾[2] فبعث اللَّه رسله تنهى أن يدعى أحد من دونه لا دعاء عبادة ولا دعاء استغاثة .

ولهذا نقول أن ما يعتقده المتصوفة تجاه الرسول ﷺ من أنه ينفع ويضر من دون اللَّه وتوجههم إليه بأنواع من العبادات التي لا ينبغي صرفها لغير اللَّه عز وجل يعتبر شركًا أكبر باللَّه عز وجل وقد اتضح لنا جيدًا من خلال النصوص التي سقناها عن المتصوفة أنفسهم أنهم يتوجهون بطلب كل ما يحتاجونه إلى الرسول ﷺ من تفريج كرب أو تحقيق مطلب من المطالب أو جلب منفعة من المنافع مع أن هذه الأشياء لا يقدر عليها إلا اللَّه عز وجل في حياته فكيف بعد مماته والرسول ﷺ قد نفى عن نفسه هذه المهام التي يزعم المتصوفة أنه بإمكانه أن يحققها كما في قوله تعالى : ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[3] .

وقال : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[4] .

---

(١) الزمر : (٣) .

(٢) يونس : (١٨) .

(٣) الأعراف : (١٨٨) .

(٤) الكهف : (١١٠) .

فالآيات المتقدمة تكفي للرد على المتصوفة بأن ما يعتقدونه تجاه الرسول ﷺ من أنه ينفع ويضر ويعطي ويمنع ويفرج كرب المكروبين وهم المهمومين ويستجيب لمن دعاه باطل واعتقاد فاسد مخالف تمام المخالفة لما جاء به الرسول ﷺ بل هو شرك محض لا علاقة له بالإسلام دين التوحيد لأن الرسول ﷺ قد صرح بأنه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا وقد أخبر بأنه بشر وأن ميزته الوحيدة هي أنه يوحى إليه وأنه أفضل جميع الخليقة ولكن كونه أفضل جميع الخليقة لا يدعونا ذلك إلى أن ندعوه من دون اللَّه ونرفعه إلى درجة الربوبية .

وقد نهى اللَّه عز وجل عن أن يتجه الإنسان بالدعاء إلى غيره فقال تعالى : ﴿ **وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ** ﴾[1] .

إذًا فدعاء غير اللَّه يعتبر شركًا باللَّه وأن المدعو من دون اللَّه ليس بمقدوره النفع والضر وأنه لا يستطيع أن يرفع البلاء ولا أن يرد الخير وقد أخبر اللَّه عز وجل بأن كل من يدعو من دون اللَّه أحدًا من خلقه يعتبر كافرًا باللَّه فقال تعالى : ﴿ **وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ** ﴾[2] .

وهذه الآية نص صريح في أن دعاء غير اللَّه والاستغاثة به شرك أكبر ولهذا قال تعالى : ﴿ **وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ** ﴾[3] .

---

(١) يونس : (١٠٦ ـ ١٠٧) .

(٢) المؤمنون : (١١٧) .

(٣) يونس : (١٠٧) .

لأنه المتفرد بالملك والقهر والعطاء والمنع ولازم ذلك إفراده بتوحيد الألوهية لأنهما متلازمان وإفراده بسؤال كشف الضر وجلب الخير لا يكشف الضر إلا هو ولا يجلب الخير إلا هو قال تعالى : ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1] .

فتعين أن لا يدعى لذلك إلا هو وبطل دعاء من سواه ممن لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعًا فضلاً عن غيره وكما قالوا : فاقد الشيء لا يعطيه .

المطلب الثاني

غلوهم في الأولياء

لقد غلا المتصوفة في الأولياء كما غلوا في الرسول ﷺ غلواً شديداً حتى رفعوهم إلى منزلة الأنبياء ولم يقفوا عند هذا بل تجاوزوا بهم منزلة الأنبياء حتى أوصلوهم إلى منزلة الألوهية والربوبية فوقعوا بذلك في عقائد باطلة تصطدم تمامًا مع العقيدة التي جاء بها محمد بن عبد الله ﷺ ونحن هنا لا نريد أن نتتبع الانحرافات التي وقع فيها الصوفية تجاه الأولياء فإن هذا له باب خاص في البحث سيأتي[2] وإنما غرضنا هنا هو الإتيان ببعض النماذج لكي نثبت بأن من أهم العوامل التي أدت إلى انحراف المتصوفة هو غلوهم في الأولياء وإليك البرهان على ما نقول :

١ ـ الانحراف الأول : رفع مشايخهم إلى منزلة الألوهية والربوبية :

أولاً : النصوص عنهم من كتبهم :

---

(١) فاطر : (٢) .

(٢) انظر : (٥٠٤ ـ ٦٠٢) .

قال ابن عربي في منزلة القطب :

« القطب هو مركز الدائرة ومحيطها ومرآة الحق عليه مدار العالم له رقائق ممتدة إلى جميع قلوب الخلائق ومنزلة حضرة الإيجاد والصرف فهو الخليفة ومقامه تنفيذ الأمر وتصريف الحكم وحاله الحالة العامية لا يتقيد بحال تخصيص فإنه الستر العام في الوجود وبيده خزائن الوجود والحق له متجلٍ على الدوام وله من البلاد مكة ولو سكن حيث ما سكن بجسمه فإن محله مكة ليس إلا »[1] .

وقال الدسوقي :

ومكنني في سائر الأرض كلها وفي الجن والأشباح والمردية

وفي أرض صين الصين والشرق كلها لأقصى بلاد اللّه تحت ولايتي

ففي هذا النص يتضح لنا جيداً بأن المتصوفة يعتقدون في مشايخهم ما لا يجوز اعتقاده إلا في اللّه عز وجل حيث اعتقدوا فيه بأنه منفذ للأمور ومصرف للحكم وأن خزائن الوجود كلها بيده .

ولو عرضنا هذه المعتقدات على الكتاب والسنة سنجد بأنها عقائد مخالفة تمامًا لما فيهما .

فاللّه سبحانه وتعالى قد أخبرنا في كتابه بأن كل الأمور بيده وأن جميع ما في الكون له سبحانه وتعالى لا يشركه فيه أحد لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا ولي من أولياء اللّه عز وجل .

---

(١) كتاب « الإنسان الكامل والقطب الغوث الفرد من كلام الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي» جمع وتأليف محمود محمود العزب بدون ذكر مكان الطبع وتاريخه.

قال تعالى : ﴿ قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾[3] .

فهذه الآيات كلها تفيد بأن كل ما في السماوات وما في الأرض للّه سبحانه وتعالى لأنه المتصرف فيه وحده لا شريك له لأنه هو الذي خلقه وبالتالي فهو الذي يسيره لا يشركه في ذلك أي أحد من مخلوقاته مهما كانت منزلته ولذا نقول : إن زعم الصوفية بأن مشايخهم لهم التصرف في هذا الكون كذب محض لا يعتمد على أي دليل لا عقلي ولا نقلي بل هو زعم يؤدي بصاحبه إلى الشرك في توحيد الربوبية إن لم يتب منه لأن من الواجب للّه سبحانه وتعالى إفراده في توحيد ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته والقول بأن للمشايخ تصرفًا في هذا الكون يعتبر شركًا في توحيد الربوبية يجب أن يتوبوا منه ويرجعوا إلى اللّه فيوحدوه حق توحيده .

ولم يكتف الصوفية بهذا بل ادعوا بأن مشائخهم لهم القدرة الكاملة على إجابة كل من استغاث بهم وأنهم يستطيعون تفريج كرب من دعاهم بل بالغوا فيهم حتى زعموا بأنهم باستطاعتهم أن يتحدُّوا اللّه في قضائه وقدره وإليك الدليل على ما أقول :

فقد ذكر صاحب كتاب « مناقب الشيخ عبد القادر الجيلاني » راويًا عن الرفاعي[4] أنه قال :

---

(١) المؤمنون : (٨٤ ـ ٨٥) .

(٢) المؤمنون : (٨٨ ـ ٨٩).

(٣) الأعراف : (٥٤) .

(٤) هو أحمد بن أبي الحسين الرفاعي نسبة إلى بني رفاعة قبيلة من العرب وسكن أم عبيـدة =

« توفي أحد خدام الغوث الأعظم وجاءت زوجته إلى الغوث فتضرعت والتجأت إليه وطلبت حياة زوجها فتوجه الغوث إلى المراقبة فرأى في عالم الباطن أن ملك الموت عليه السلام يصعد إلى السماء ومعه الأرواح المقبوضة في ذلك اليوم فقال : يا ملك الموت قف وأعطني روح خادمي فلان وسماه باسمه فقال ملك الموت : إني أقبض الأرواح بأمر إلهي وأأديها إلى باب عظمته كيف يمكنني أن أعطيك روح الذي قبضته بأمر ربي؟؟ فكرر الغوث عليه إعطاءه روح خادمه إليه فامتنع من إعطائه وفي يده ظرف معنوي كهيئة الزنبيل فيه الأرواح المقبوضة في ذلك اليوم فبقوة المحبوبية جر الزنبيل وأخذه من يده فتفرقت الأرواح ورجعت إلى أبدانها فناجى ملك الموت عليه السلام ربه وقال : يا ربي أنت أعلم بما جرى بيني وبين محبوبك ووليك عبد القادر فبقوة السلطنة والصولة أخذ مني ما قبضته من الأرواح في هذا اليوم فخاطبه الحق جل جلاله : يا ملك الموت إن الغوث الأعظم محبوبي ومطلوبي لم لا أعطيته روح خادمه وقد راحت الأرواح الكثيرة من قبضتك بسبب روح واحد فتندم هذا الوقت »[1] .

وذكر أحد الصوفية بأن الشيخ محمد صديق وقع في البحر ولم يكن يعرف السباحة فكاد أن يغرق فناداه ـ أي عبد القادر ـ مستغيثًا به فحضر وأخذ بيده وأنقذه من الغرق .

= بأرض البطائح إلى أن مات بها عام (٥٧٠هـ) وكانت انتهت إليه الرياسة في علوم الطريق وشرح أحوال القوم وكشف مشكلات منازلهم وبه عرف الأمر بتربية المريدين بالبطائح وإليه تنتسب الطريقة الرفاعية . انظر ترجمته في « الطبقات الكبرى » للشعراني (١/ ١٤٠) .

(١) كتاب « تفريج الخاطر في مناقب تاج الأولياء وبرهان الأصفياء الشيخ عبد القادر الجيلاني » (ص١٧) .

وحكى في نفس الصفحة أنه كان جالسًا يومًا مع أصحابه في رباطه إذ ابتلت يده الشريفة وكمه إلى إبطه فعجبوا من ذلك وسألوه عنه فقال رضي اللَّه عنه : استغاث بي رجل من المريدين تاجرًا كان راكبًا في السفينة وقد كادت أن تغرق فخلصتها من الغرق فابتل لذلك كمي ويدى فوصل هذا التاجر بعد مدة وحدث بهذا الأمر كما أخبر الشيخ رضي اللَّه عنه »[1] .

فلو نظرنا في النصوص المتقدمة نلاحظ بأن الصوفية يجيزون الالتجاء إلى المخلوق والاستغاثة به ويقولون بأن بإمكان الولي أن يعلم بكل ما في هذا الكون وهو جالس في مكانه وأن باستطاعته تغيير القدر الذي قدره اللَّه في الأزل وأنه يسمع كل من ناداه واستغاث به ويفرج عنه كربه ولو عرضنا هذه الاعتقادات كلها على الكتاب و السنة سنجدها تصطدم تمامًا مع ما فيهما من الاعتقادات التي أمرنا اللَّه سبحانه وتعالى أن نعتقدها .

ولنبدأ أولاً بمناقشة موضوع الاستغاثة بغير اللَّه والالتجاء إلى غيره بإيجاز شديد جدًا.

فالصوفية كما اتضح لنا في النصوص السابقة التي نقلناها عنهم يجوزون الاستغاثة بغير اللَّه والالتجاء إلى غيره عند الشدائد والملمات مع أن الاستغاثة تعتبر عبادة لأن الاستغاثة هي طلب الغوث وهي بمعنى الدعاء وإذا كان الأمر كذلك فلا يجوز الاستغاثة بغير اللَّه لأنها عبادة لا يجوز صرفها لغير اللَّه سبحانه وتعالى بل يجب أن يعبد اللَّه وحده ولا يشرك معه أحد غيره في عبادته سبحانه وتعالى وبما أن المخلوق ليس لديه القدرة على إغاثة من استغاث به فلا يجوز التوجه إليه بالدعاء وطلب الإغاثة إذا كان غائبًا

---

(١) « المواهب السرمدية في مناقب النقشبندية » لمحمد أمين الكردي (ص ٢١٠) .

أو ميتًا أما إذا كان حاضراً فيجوز طلب الإغاثة منه فيما يقدر عليه فقط وادعاء الصوفية بأن مشائخهم بإمكانهم إغاثة من استغاث بهم بعد مماتهم أو في حياتهم حال غيابهم يعتبر كذبًا محضًا وافتراءً على اللَّه بغير علم ولا هدى ولا كتاب مبين لأن المغيث هو اللَّه وحده لا شريك له أما من عداه فلا يستطيع أن يغيث أحداً وقد أخبرنا اللَّه سبحانه وتعالى على أن أي مدعو من دونه لا يملك كشف ضر عن أحد أو تحويله عنه فقال تعالى : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً﴾[1] .

وقد أخبرنا اللَّه سبحانه وتعالى بأن المشركين دعوا شركاءهم فلم يستجيبوا لهم فقال تعالى : ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾[2] .

وقد أخبرنا اللَّه سبحانه وتعالى بأن أي مدعو من دونه لا يملك شيئًا ولو كان صغير الحجم قليل القيمة أو فاقد القيمة فقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[3] .

فهذه النصوص القرآنية التي أوردتها تفيد بأن المدعو من دون اللَّه سبحانه وتعالى لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضراً فضلاً عن غيره فلذا لا يجوز دعاء غير اللَّه عز وجل وكل من خالف هذه النصوص ودعا غير اللَّه عز وجل يعتبر وقع في الشرك الأكبر والذي يعتبر أكبر ظلم عصي به اللَّه عز وجل على الإطلاق وقد نهى اللَّه عز وجل في كتابه عن دعاء غيره فقال تعالى :

---

(١) الإسراء : (٥٦) .

(٢) القصص : (٦٤) .

(٣) فاطر : (١٣ ـ ١٤) .

﴿وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾[3] .

واللَّه عز وجل لم ينهنا عن دعاء غيره ويتركنا هكذا حيارى بل أمرنا أن ندعوه وحده ولا نشرك معه أحدًا غيره لا ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلاً ولا وليًا فقال تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[5] .

إلى غير ذلك من الآيات التي تحثنا كلها على دعاء اللَّه سبحانه وتعالى والالتجاء إليه والاستغاثة به عند الشدائد .

وفي الحديث : « ينزل ربنا تبارك وتعالى إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ثم يقول : من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له »[6] .

---

(١) يونس : (١٠٦) .

(٢) القصص : (٨٨) .

(٣) الجن : (١٨) .

(٤) البقرة : (١٨٦) .

(٥) غافر : (٦٠) .

(٦) « صحيح مسلم » تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (١/ ٥٢١) .

وفي حديث آخر : قال الرسول ﷺ : « **الدعاء هو العبادة** »[1]

وفي حديث آخر : قال الرسول ﷺ : « **الدعاء مخ العبادة** »[2] .

وأما ادعاء الصوفية بأن أحد مشايخهم نظر إلى ملك الموت وهو يصعد بالأرواح في زنبيل ثم أخذها منه ورجعت الأرواح إلى أصحابها وأن أحد مشائخهم أنقذ سفينة من الغرق وهو جالس في مكانه بالإضافة إلى إنقاذ إنسان آخر استغاث به فهذه كلها ادعاءات كاذبة مبنية على الكذب المحض لا أساس لها من الصحة ولا يمكن أن يقبلها إنسان به أقل شيء من العقل السليم من التأثر بالخرافات الصوفية وأوهامهم الفاسدة ولذا لا نريد أن نطول في الرد عليها بل نقول بإيجاز شديد إن علم الغيب مختص باللَّه سبحانه وتعالى ولا يمكن لأحد أن يعلم الغيب كائنًا من كان .

كما قال تعالى : ﴿ **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا** ﴾[3] .

ومشائخ الصوفية ليسوا أنبياءً ولا رسلاً حتي يدعي أتباعهم بأنهم يوحى إليهم عن اللَّه ولذا نقول بأن ادعاء الصوفية بأن مشائخهم يشاهدون ما في هذا الكون وهم جالسون في مكانهم لا أساس له من الصحة بل محض دجل وافتراء متعمد لتضليل العوام بتهويل قدر مشائخ الصوفية في أعينهم حتى يصرفوهم عن عبادة اللَّه الواحد القهار إلى عبادة القبور والأحجار.

وأما زعم هذا الصوفي بأن أحد مشائخ الصوفية أخذ الأرواح من ملك

---

(١) « سنن الترمذي » (٥/٤٢٦) .

(٢) « سنن الترمذي » (٥/٤٢٥) .

(٣) الجن : (٢٦ ـ ٢٧)

الموت وردها إلى أصحابها فهذا يجر الصوفية إلى الاعتقاد بأن أحداً ما من المخلوقات باستطاعته منازعة اللَّه في قضائه وقدره وذلك لأن من المعلوم والواجب اعتقاده بأن كل شيء يقع في هذا الكون يكون بقضاء اللَّه وقدره وأن اللَّه سبحانه وتعالى قد حدد الآجال والأرزاق فكل ميت لا يمكن أن يموت قبل اليوم الذي قدره اللَّه له ولا يمكن أن يحيا كذلك بعدها ولو لحظة ومن الأدلة في هذا المجال الآيات التالية :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[3] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[4] .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[5] .

ولهذا نقول إن زعم هذا الصوفي بأن شيخه أخذ الأرواح وردها إلى أصحابها ليس بصحيح وإنما هو كذب وافتراء على اللَّه ويلزم أصحاب هذا القول الاعتقاد بأن المخلوق يستطيع أن يغالب اللَّه في قضائه وقدره وهذا يعتبر شركًا في توحيد الربوبية وذلك لأن من أقسام التوحيد هو إفراد اللَّه في

---

(١) القمر : (٤٩) .

(٢) الفرقان : (٢)

(٣) الحديد : (٢٢) .

(٤) نوح : (٤) .

(٥) الأعراف : (٣٤) .

ربوبيته واللَّه سبحانه وتعالى قد قدر كل الأشياء قبل أن يظهرها لنا ومما يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[1] .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾[2] .

والمعنى : أي على أمر قد علم في سابق علم اللَّه سبحانه وتحتم وقوعه فوقع كما قدره اللَّه سبحانه وتعالى .

ومنها قوله تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾[3] .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾[4] .

ولهذا نقول إن الإيمان بقضاء اللَّه وقدره أمر واجب على كل مسلم ومعنى الإيمان بقضاء اللَّه وقدره هو أن نؤمن بأن اللَّه سبحانه وتعالى قد قدر كل ما يقع في هذا الكون وقضاه وكل شيء قدره اللَّه لابد وأن يقع ولا يمكن لأحد كائن من كان أن يغير شيئًا مما قدره اللَّه سبحانه وعلى هذا تصبح دعوى الصوفية بأن الشيخ نزع الأرواح من ملك الموت ورجعت إلى أصحابها كذب وافتراء بحت وذلك لأن اللَّه سبحانه قد قدر بأن هذه الأرواح ستموت في هذا اليوم وما دام قدر اللَّه أن تموت في هذا الوقت فلا يمكن أن تعود هذه الأرواح إلى أصحابها إلا إذا قال الصوفية بأنهم يؤمنون بأن مشائخهم باستطاعتهم أن ينازعوا اللَّه في قضائه وقدره والتصرف في هذا

---

(١) الحديد : (٢٢) .

(٢) القمر : (١٢) .

(٣) النمل : (٥٧) .

(٤) الأحزاب : (٣٨) .

الكون وإذا قالوا بهذا فإنهم قد وقعوا في الشرك باللَّه في توحيد ربوبيته لأن من الأمور الواجب اعتقادها تجاه اللَّه سبحانه وتعالى هو الإيمان بأن كل ما في هذا الكون تحت تصرفه سبحانه وتعالى لا يشركه فيه أحد ولا يستطيع أحد أن ينازعه مهما كانت مكانته لا نبيًا مرسلاً ولا ملكًا مقربًا ولا وليًا لأن الكل عبيد للَّه سبحانه وتعالى يتصرف فيهم كما يشاء .

٢ ـ الانحراف الثاني الذي وقع فيه الصوفية بسبب غلوهم في مشائخهم هو الادعاء بأن لهم علومًا خاصة يتلقونها عن اللَّه وعن رسوله مباشرة:

لقد وصل الغلو بالصوفية إلى أن ادعوا بأن لمشائخهم علومًا خاصة يتلقونها عن اللَّه مباشرة تختلف تمامًا مع العلوم التي جاء بها رسول اللَّه ﷺ من ربه وادعوا أيضًا بأنهم يتلقون علومًا خاصة بهم عن رسول اللَّه ﷺ وهم يسمون هذه العلوم علوم الخاصة أي علومًا يختصون بها هم دون سائر الأمة الإسلامية وإليك الأدلة من بطون كتبهم :

قال صاحب « الرماح » الذي بهامش « جواهر المعاني »[١] في الفصل الثاني والعشرين :

« إنهم لا ينطقون إلا بما يشاهدون ويأخذون عن اللَّه ورسوله الأحكام الخاصة للخاصة لا مدخل فيها للعامة لأنه ﷺ كان يلقي إلى أمته الأمر الخاص . . . » .

ثم قال : « إن الكامل منهم ينزل عليه الملك بالأمر والنهي »[٢] .

---

(١) هو علي بن برادة من أتباع الطريقة التيجانية المشهورة ومن غلاتهم له كتاب « جواهر المعاني » في التصوف .

(٢) « الرماح بهامش جواهر المعاني » (١/ ١٥٦) .

ونقل الشعراني عن ابن عربي أنه قال :

« حدثني قلبي عن ربي أو حدثني ربي عن قلبي أو حدثني ربي عن نفسه بارتفاع الوسائط »[1] .

فالنصان السابقان يدلان دلالة واضحة على أن الصوفية يؤمنون بأن مشائخهم يتلقون علومًا خاصة بهم عن اللَّه مباشرة .

والرد عليهم بإيجاز : إن ادعاءهم هذا يؤدي بهم إلى القول بعدم ختم النبوة وبقاء بابها مفتوحًا لكل من يدعي التلقي عن اللَّه وهذا يعتبر انحرافًا عقديًا خطيراً وذلك لأن عقيدة ختم النبوة تعتبر من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة يعرفها العامي فضلاً عن العالم وقد وردت نصوص قرآنية وأحاديث نبوية تدل دلالة قاطعة على ختم النبوة فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى : ﴿ **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا** ﴾[2] .

ومن الأحاديث الدالة على أن النبوة قد ختمت قوله ﷺ : « **لا نبي بعدي**»[3] .

فالآية والحديث السابقان يدلان دلالة واضحة على أن النبوة قد ختمت بالرسول محمد ﷺ وذلك لأن اللَّه سبحانه وتعالى قد أخبرنا بأن محمداً بن عبد اللَّه عليه أفضل الصلاة والسلام خاتم النبيين ونفى الرسول ﷺ أن يكون نبيٌ بعده .

---

(١) « لطائف المنن » للشعراني (١/ ١٤٥) .

(٢) الأحزاب : (٤٠) .

(٣) « صحيح مسلم » مع النووي (١٢/ ٢٣١) .

فكل من يدعي بأنه تنزل عليه علوم من اللَّه سبحانه وتعالى بعد هذا الدليل القاطع يعتبر دجالاً مفتريًا على اللَّه يجب أن يستتاب فإن تاب وإلا فيجب أن تقطع عنقه حتى لا يفتن المسلمين في دينهم وذلك لأن ادعاء التلقي عن اللَّه يؤدى إلى الإتيان بأحكام وعقائد جديدة تختلف مع العقيدة والشريعة التي أتى بها محمد بن عبد اللَّه عليه الصلاة والسلام من ربه وإذا اعترض عليه أي معترض يستطيع أن يقول بكل سهولة أنه تلقاه عن اللَّه تعالى كما يزعم الصوفية ذلك وهذا يعتبر هدمًا وتقويضًا للعقيدة والشريعة الإسلامية والقضاء عليها نهائيًا.

٣ ـ الانحراف الثالث الذي وقع فيه الصوفية بسبب غلوهم في المشائخ : هو الادعاء بأن لهم الاطلاع على الغيب :

لقد وصل غلو الصوفية في مشائخهم إلى أن زعموا بأنهم يعلمون الغيب حيث ادعوا بأن الأولياء يعلمون الأشياء المكتوبة على أوراق الشجر والماء والهواء وكل ما في البر والبحر وما في السماء وكل ما يقع للإنس والجن في حياتهم وبعد مماتهم وأنهم يسمعون كل من ناداهم من قريب أو بعيد فيقضون له طلبه وإليك الأدلة على هذا من بطون كتبهم :

فقد قال إبراهيم الدسوقي[1] في معرض حديثه عن خصائص العارف باللَّه عندهم :

« وكذلك لهم الاطلاع على ما هو مكتوب على أوراق الشجر والماء

---

(١) هو إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن الدسوقي الصوفي ولد سنة (٨٣٣هـ) ولبس خرقة التصوف من شهاب الدين ولقنه الذكر أبو العباس المرسي (ت٦٧٦هـ) .

انظر « الكواكب السائرة » (١/ ١٠٠) .

والهواء وما في البر والبحر وما هو مكتوب على صفحة قبة خيمة السماء وما في حياة الإنس والجان مما يقع لهم في الدنيا والآخرة ولا يحجب من حكيم يتلقى علمًا من حكيم عليم »[1] .

وحكى أحد الصوفية عن أحد الصوفية أنه وقع في البحر ولم يكن يعرف السباحة فكاد أن يغرق فناداه مستغيثًا به فحضر وأخذ بيده وأنقذه من الغرق[2] .

فالنصان السابقان يدلان بأن الصوفية يعتقدون بأن مشائخهم يعلمون الغيب ويفرجون كرب كل من استغاث بهم ودعاهم .

والذي نريد أن نناقشه هنا هو مسألة علم الغيب وهل يمكن للمخلوق أن يعلمه أم أن علم الغيب مختص باللَّه سبحانه وتعالى .

فلو نظرنا في كتاب اللَّه عز وجل سنجد فيه آيات كثيرة وكلها تتحدث في اختصاص اللَّه تعالى بعلم الغيب وليس بإمكاننا الأن أن نذكر كل الآيات التي تتحدث في هذا المجال وإنما نريد أن نذكر آية واحدة مع إيراد بعض أقوال المفسرين فيها وهي بالفعل كافية ومقنعة في هذا المجال لمن يبحث عن الحق ويريد الوصول إليه أما المعاند المكابر فلا يمكن أن يقتنع مهما أتينا له بالآيات .

والآية التي نريد أن نستدل بها على أن علم الغيب خاص باللَّه تعالى وأنه لا يمكن لأحد أن يطلع على الغيب إطلاقًا باستثناء الرسل عليهم الصلاة

---

(١) « جمهرة الأولياء » للمنوفي (٢/ ٢٤٢) .

(٢) « المواهب السرمدية » لمحمد أمين الكردي (ص٢١٠) مطبعة السعادة مصر ط ١ (١٣٢٩هـ) .

والسلام فإن اللَّه سبحانه وتعالى يطلعهم على بعض غيبه تأييداً لهم حتى يكون ذلك مساعداً لهم لإقناع أقوامهم بما يدعونهم إليه هي قوله تعالى : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَداً ﴿٢٦﴾ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً ﴾[1] .

وإليك أقوال بعض المفسرين الأعلام في هذه الأمة حتى نستطيع التوصل إلى الحكم الصحيح في كل من يدعي علم الغيب :

فقد قال القرطبي :

« والغيب ما غاب عن العباد فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يظهره على ما يشاء من غيبه لأن الرسل مؤيدون بالمعجزات ومنها الإخبار عن بعض الغائبات. . . » .

ثم قال : « والأولى أن يكون المعنى: أي لا يظهر على غيبه إلا من ارتضى أي اصطفى للنبوة فإنه يطلعه على ما يشاء من غيبه ليكون ذلك دالاً على نبوته »[2] .

ثم قال القرطبي :

« قال العلماء رحمة اللَّه عليهم : لما تمدح سبحانه بعلم الغيب واستأثر به دون خلقه كان فيه دليل على أنه لا يعلم الغيب أحد سواه ثم استثنى من ارتضاه من الرسل فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوتهم وليس المنجم ومن ضاهاه ممن يضرب بالحصى وينظر في الكتب ويزاجر الطير ممن ارتضاه من رسول

(١) الجن : (٢٦ ـ ٢٨) .

(٢) « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي (١٩/ ٢٧) .

فيطلعه على ما يشاء من غيبه بل هو كافر باللَّه مفتر عليه بحدسه وتخمينه »[1].

وقال ابن جرير الطبري في تفسير هذه الآية في المجلد الثاني عشر :

« يعني بعالم الغيب عالم ما غاب عن أبصار خلقه فلم يروه فلا يظهر على غيبه أحدًا فيعلمه أو يريه إياه ﴿إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ فإنه يظهره على ما يشاء من ذلك ».

ونقل عن ابن عباس أنه قال في تفسيرها :

« أعلم اللَّه سبحانه الرسل من الغيب الوحي وأظهرهم عليه بما أوحى إليهم من غيبه وما يحكم اللَّه فإنه لا يعلم ذلك غيره » .

ونقل عن قتادة أنه قال في تفسير هذه الآية :

« فإنه يصطفيهم ويطلعهم على ما يشاء من الغيب » .

ونقل عن ابن جرير أنه قال في تفسيرها :

« ينزل من غيبه ما شاء على الأنبياء أنزل على رسول اللَّه الغيب القرآن قال : وحدثنا فيه بالغيب بما يكون يوم القيامة »[2] .

وقال عبد الرحمن بن ناصر السعدي في كتابه « تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن » :

« فلا يظهر على غيبه أحدًا من الخلق بل انفرد بعلم الضمائر والأسرار والغيوب ﴿إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ أي فإنه يخبره بما اقتضت حكمته أن

---

(١) « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي (١٩/٢٨) .

(٢) « تفسير ابن جرير الطبري » (٢٩/٧٦).

يخبره به وذلك لأن الرسل ليسوا كغيرهم فإن اللَّه أيدهم بتأييد ما أيده أحدًا من الخلق وحفظ ما أوحاه إليهم حتى يبلغوه على حقيقته من غير أن تقربه الشياطين فيزيدوا فيه أو ينقصوا منه »[1] .

فالأقوال التي أوردتها عن هؤلاء العلماء الأجلاء الذين سبق ذكرهم كلها اتفقت على نفي علم الغيب على جميع ما في هذا الكون ومن هنا نقول إن باب علم الغيب مسدود نهائيًا وكل من يحاول أن يعلم الغيب إنما يسعى لكي يضله اللَّه عز وجل وإلا فما الداعي لإنسان يؤمن بأن القرآن كلام اللَّه أن يسعى للاطلاع على علم الغيب بعد أن أخبر اللَّه عز وجل في كتابه بأن الغيب خاص به سبحانه وأنه لا يطلع عليه أحدًا إلا رسله فإنه يطلعهم على جزء من غيبه حتى يكون لهم معجزة فيساعدهم في إيمان أقوامهم أو إقناعهم وحتى الوحي الذي يوحيه إليهم يعتبر غيبًا وقد قال بعض المفسرين بهذا كما سبق .

والخلاصة أن غلو المتصوفة في مشائخهم واعتقادهم بأنهم يعلمون الغيب يعتبر اعتقادًا فاسدًا وأن الواجب عليهم التراجع عن هذا الغلو الذي صار سببًا في ضلالهم كما ضل بسببه كثير ممن كان قبلهم من الأمم الماضية ومعروف أن أول شرك حصل في الأرض كان سببه الغلو في رجال صالحين.

* * *

(١) « تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن » (٨/ ١٨٢) المطبعة السلفية مصر (١٣٧٧هـ).

المبحث الرابع

تأثرهم بالفكر اليوناني الوثني

إن من أهم العوامل التي أدت إلى انحراف الصوفية هو تأثرهم بالفكر اليوناني الوثني .

ومما يدل على تأثر المتصوفة بأفكار الفلاسفة اليونانيين كأفلاطون وأرسطو طاليس ثناء كبار المتصوفة على هؤلاء الفلاسفة وتمجيدهم ووصفهم بالطهر والثناء على طريقتهم بوصفهم لها بأنها من أحسن الطرق التي ينبغي اتباعها لتطهير النفوس وصفائها .

وإلى جانب ذلك فقد أثبت المفكرون الإسلاميون الذين كتبوا عن التصوف تأثر المتصوفة بالفكر اليوناني في قضايا اعتقادية وسلوكية كثيرة وبما أنه يصعب حصر هذه الأشياء التي أخذها المتصوفة عن اليونانيين سأكتفي بذكر نماذج فقط لأن المقصود هو الإثبات بأن من أهم العوامل التي أدت إلى انحراف المتصوفة هو تأثرهم بالفكر اليوناني وليس المقصود حصر الأمور التي يلتقي فيها المتصوفة مع فلاسفة اليونان فإن هذا يحتاج إلى رسالة مستقلة وإليك بيان هذا فيما يلي :

أولاً : أقوال كبار أئمة التصوف التي تدل على تأثرهم بفلاسفة اليونان وإعجابهم بهم :

فمن المتصوفة الذين ذكروا إعجابهم بفلاسفة اليونان عبد الكريم

الجيلي[1] فقد قال في كتابه « الإنسان الكامل في معرفة الأوائل والأواخر » في الجزء الثاني منه كلامًا يدل دلالة صريحة وواضحة على حبه العميق لموجدي الفلسفة اليونانية وإعجابه بهم وإليك نص كلامه الذي يدل على ما قلناه :

فقد قال : « ولقد اجتمعت بأفلاطون الذي يعدونه أهل الظاهر كافرًا فرأيته وقد ملأ العالم الغيبي نورًا وبهجة ورأيت له مكانة لم أرها إلا لآحاد من الأولياء فقلت له : من أنت ؟ قال : قطب الزمان وواحد الأوان ولكم رأينا من عجائب وغرائب مثل هذا ليس من شرطها أن تغشى وقد رمزنا لك في هذا الباب أسرارًا كثيرة ما كان يسعنا أن نتكلم فيها بغير هذا اللسان فالق القشرة من الخطاب وخذ اللب إن كنت من أولي الألباب »[2] .

وقد ذكر في مكان آخر من كتابه بأن أرسطو تلميذ أفلاطون لزم خدمة الخضر واستفاد منه علومًا جمة وكان من تلامذته[3] .

قلت : ادعاء عبد الكريم الجيلي بأن أفلاطون التقى بالخضر كذب محض وليس بصحيح لأن أفلاطون رجل وثني كافر والخضر نبي من أنبياء اللَّه على القول الراجح ولأن الخضر قد مات أيضًا على القول الراجح كما سنبينه في الباب الثالث من هذه الرسالة[4] .

---

(١) عبد الكريم الجيلي هو : عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الجيلي بن سبط الشيخ عبد القادر الجيلاني من كبار علماء الصوفية وله كتب كثيرة منها « الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل في اصطلاحات الصوفية » و« المناظر الإلهية » و« مراتب الوجود » و« قاب قوسين وملتقى الناموسين » انظر الأعلام للزركلي (٤/ ٢٧٥) .

(٢) « الإنسان الكامل » لعبد الكريم الجيلي (٢/ ٥٢ ـ ٥٣) .

(٣) « الإنسان الكامل » لعبد الكريم الجيلي (٢/ ١١٧) .

(٤) انظر (٤١٥ ـ ٥٠٤) .

وهل عبد الكريم الجيلي يدعي مثل هذا الادعاء لكي يبرر الأخذ من الوثنيين اليونانيين وينشر عقائدهم في أوساط المسلمين لو لم يكن معجبًا بهم.

ومن المتصوفة الذين مدحوا الفلاسفة اليونانيين لسان الدين الخطيب[1] فقد نقل عن أرسطو أنه قال :

« إني ربما خلوت بنفسي كثيراً وجعلت بدني جانبًا وصرت كأني مجرد بلا بدن عري من الملابس الطبيعية فأكون داخلاً في ذاتي خارجًا من سائر الأشياء فأرى في ذاتي من الحسن السناء والبهاء والضياء والمحاسن العجيبة والمناظر الأنيقة ما أبقى له متعجبًا متحيراً باهتًا فأعلم أني جزء من أجزاء العالم الأعلى الشريف فلما أيقنت بذلك رقيت بذهني إلى العلة الإلهية المحيطة بالكل فصرت كأني موضوع متعلق بها فأكون فوق العالم كله فرآنى كأني واقف في ذلك الموقف الشريف المقدس الإلهي فأرى هنالك من النور والبهاء والبهجة والسناء ما لا تقدر الألسن على صفته والأسماع على نعته ولا الأوهام أن تحيط به فإذا استغرقني ذلك النور والبهاء لم أطق على احتماله ولا الصبر عليه فارتددت عاجزًا عن النظر إليه وهبطت من العقل إلى الفكر والروية فإذا صرت في عالم الفكر والروية حجبت الفكرة عن ذلك النور والبهاء وحالت بيني وبينه الأوهام فأبقى متعجبًا كيف انحدرت من ذلك الموضع الشاهق العالي الإلهي وصرت سفلاً في موضع الفكر والضيقة بعد أن قويت نفسي على التخلف عن بدنها والرجوع إلى ذاتها والترقي إلى العالم العقلي ثم العالم الإلهي مع العقول فوق العوالم كلها حتى صرت في موضع

(١) هو محمد بن عبد بن سعيد المعروف بلسان الدين الخطيب وينسب إلى سلمان وهو حي من مراد من عرب اليمن انتقل إلى الشام ثم هاجر إلى الأندلس واستقر في غرناطة وقد مات قتيلاً بسبب كتابه « روضة التعريف بالحب الشريف » وذلك لما يحتويه من أباطيل ومنكرات عظيمة .

انظر ترجمته في « الإحاطة » (٤/٤٣٩) .

البهاء والنور والسناء متجلية الذي هو علة كل نور وبهاء وسبب كل دوام وبقاء ومن العجيب أني كنت قد رأيت نفسي ممتلئة نوراً وهي في البدن كهيأتها والبدن ومعها وهي خارجة عنه على أني لما أطلت الفكر ومحضت الروية وأجلت الآي وصرت كالمتحير المبهوت تذكرت الفلطنوس فإنه أمر بالطلب والبحث عن جوهر النفس الشريفة والحرص على الصعود إلى ذلك العالم الأعلى ولحق بالجواهر الإلهية والأسباب الكلية يجزي أحسن الجزاء اضطراراً فلا ينبغي لأحد أن يفتر عن الطلب والحرص والجد في الارتقاء إلى ذلك العالم وإن تعب وكد ونصب فإن أمامه الراحة التي لا تعب بعدها في حياة دائمة وعيشة راضية ولذات باقية لا يتناهى أمدها ولا يقطع مددها مخلوقة للإنسان كلها والإنسان مخلوق لها أليس عجزاً أن تمر ساعة من عمره في غير ما خلق من ذلك أليس من فرط في السعي لذلك ظالم لنفسه ومهلكًا ذاته وفاعلاً بجوهرته النفسية ما لم يفعل به أعدى عدو له فيندم حين لا ينفعه الندم » .

ثم علق لسان الدين الخطيب على كلام أرسطو هذا بما يلي :

فقال : « وبيان هذه السعادة من تعرض له فقد تعاطى ما لا تستقل به نفس ولا تطمع فيه قوة إنسانية . . . وسبيل السعادة عندهم الرياضة وعلاج الأخلاق حتى يصير شبيها بالخير المحض وهو المبدأ أو تلطيف السر وأن يصرف عن النفس شواغل الجسم ويترقى في معارج المحبة والشوق إلى ذلك الكمال بالفكرة حتى تحس النفس بانجذابها إلى عالمها وتفيض عليها عجائبه وقد أخبر هؤلاء الإلهيون عن أنفسهم بما ذكرنا آنفًا من أنهم نزعوا جلابيب الجسمانية في هذا العالم وترقوا إلى العالم العلوي فأبصروا من نوره ولذاته أموراً مذهلة ثم عادوا إلى عالم الحس ورمزوا ذلك في كتبهم حسبما نقل سقراط الدنان ومعلم الخير أفلاطون وإمام المشائين أرسطو »[1] .

(١) « روضة التعريف بالحب الشريف » للسان الدين الخطيب (٥٥٩ ـ ٥٦٠) .

إذا نظرنا في كلام لسان الدين الخطيب نرى أنه قد صرح بإعجابه بهذه الطريقة التي يسلكها فلاسفة اليونان لتربية النفس ومما يدل على هذا وصفه للفيلسوف اليوناني الوثني أفلاطون بأنه معلم الخير ووصفه لأرسطو بالإمام ومن هنا نفهم بأن أقطاب التصوف كانوا معجبيين بآراء فلاسفة اليونان وقد تأثروا بهم بالفعل تأثراً كبيراً.

ومن المتصوفة الذين أكدوا تأثر بعض الصوفية بالأفكار اليونانية المنوفي الصوفي المعاصر المصري[1] فقد قال :

« وأما وحدة الوجود الحلولية التي تجعل من اللّه شيئًا كائنًا يحل في مخلوقاته أو الاتحادية بالمعنى المفهوم خطأ .

تلك تجعل من الكائن الفاني شخصية تتحد بالوجود الدائم الباقي المنزه عن سائر النسب والإضافات والأحياز الزمانية والمكانية المحدثة أو يتحد به شيء منها فإنها مذهب هندي أو مسيحي وليس بإسلامي ولا يعرفه الإسلام استمده أهل الشذوذ في التصوف الإسلامي من الفلسفة البائدة وغذوا به مذهبهم الشاذ بفكر أفلاطونية وآراء بوذية وفارسية عن طريق الفارابي وابن سينا وأن المتتبع لحياة الحلاج ومؤلفات السهروردي وابن عربي يرى أنهم تأثروا بالمتفلسفة المسلمين الذين أخذوا عن الفلسفة الأفلاطونية القديمة والأفلاطونية الحديثة والأرسطوطالسية »[2] .

إذا نظرنا في كلام المنوفي نرى أنه صرح بأن المتصوفة تأثروا فعلاً بفلاسفة اليونان وأنهم أتوا بتلك العقائد الإلحادية التي توجد في التصوف من

---

(١) هو أبو الفيض محمود المنوفي من كبار الصوفية المعاصرين وله كتب كثيرة في التصوف منها « جمهرة الأولياء » و« بداية الطريق » .

(٢) « جمهرة الأولياء » للمنوفي (١/ ٢٩٢) .

أولئك الفلاسفة اليونانيين الوثنيين ومع أن المنوفي صوفي إلا أنه لم يستطع أن ينكر تأثر المتصوفة بفلاسفة اليونان وهذا في الحقيقة دليل قاطع ومخرس لكل من ينكر تأثر المتصوفة بأفكار فلاسفة اليونان الوثنيين.

وقال المنوفي في مكان آخر في معرض حديثه عن تأثر غلاة المتصوفة بفلاسفة اليونان :

« فكان بعضهم يعلن أنه اطلع على الغيب وأن في مقدوره الإتيان بخوارق العادات ثم يذهب إلى ما هو أبعد من هذا مثل قولة الحلاج المشهورة : « ما في الجبة غير اللَّه » وغيره « أنا الحق » .

وبمثل هذا وذاك ثار على الحلاج معاصروه ورموه بالسحر تارة والجنون أخرى وعذب عذابًا أليمًا إلى أن مات في أوائل القرن الرابع واللَّه أعلم بحاله وكان من أمثال الحلاج من بالغوا مبالغة قلت أم كثرت كشهاب الدين عمر السهروردي المقتول[1] ورئيس جماعة الإشراقيين ومحيي الدين بن عربي الأندلسي وابن سبعين السقلي وهم من رجال القرنين السادس والسابع وتابعهم جماعة من شعراء الفرس وأمثال جلال الدين الرومي وفريد الدين العطار وكلهم يرمي إلى أن يقيم التصوف الإسلامي على دعائم فلسفية أو فارسية وهندية أو يونانية »[2] .

ثانيًا : الكُتَّاب الذين كتبوا عن التصوف وأثبتوا تأثرهم بالفكر اليوناني الوثني :

---

(١) هو عمر بن محمد بن عبد اللَّه أبو حفص شهاب الدين القرشي البكري السهروردي من كبار الصوفية كان شيخ الشيوخ ببغداد وله كتب كثيرة في التصوف منها « عوارف المعارف » و« جذب القلوب إلى مواصلة المحبوب » توفي (٦٣٢هـ) انظر « الأعلام » للزركلي (٥/ ٢٢٣) .

(٢) « جمهرة الأولياء » للمنوفي (١/ ٢٧٦) .

لقد أثبت كثير من الكتاب الذين كتبوا في الفكر الصوفي تأثر المتصوفة إلى حد بعيد بفلاسفة الفكر اليوناني الوثني ومن هؤلاء الكتاب الذين كتبوا عن تاريخ التصوف الدكتور عبد الرحمن بدوي حيث قال في معرض حديثه عن الأثر اليوناني في التصوف تحت عنوان « التأثير اليوناني في التصوف » :

« وأهم نص في هذا الباب هو كتاب « أرثولوجية أرسطو طاليس » وهو كما تعلم فصول ومقتطفات منتزعة من التساعات الأفلاطونية وفيه نظرية الفيض[1] والواحد التي ستلعب دوراً خطيراً في التصوف الإسلامي خصوصًا عند السهروردي المقتول وابن عربي وفيه أيضًا نطرية الكلمة[2] .

ثم قال عبد الرحمن بدوي : « ولا شك في تأثر الصوفية المسلمين ابتداءً من القرن الخامس الهجري بما في « أرثولوجية » من آراء وإنما الخلاف هنا هو في هل وصل تأثيره إلى التصوف الإسلامي مباشرة أو عن طريق كتب الإسماعيلية وكلها حافلة بالتأثر به ويتلوه في الأهمية الكتب المنسوبة إلى هرمس[3] وشخصيته بارزة التأثير عند السهروردي المقتول وابن عربي والأول خصوصًا في فكرة الطباع التام الذي تأثر بها كل الإشراقيين بعد

---

(١) الفيض عند الصوفية هو ما يفيده التجلي الإلهي فإن ذلك التجلي هيولاني الوصف وإنما يتعين ويتقيد بحسب المتجلي فإن كان المتجلي له عينًا ثابتة غير موجودة يكون هذا التجلي بالنسبة إليه تجليًا وجوديًا فيفيد الوجود وإن كان المتجلي له موجودًا خارجيًا كالصورة يكون التجلي بالنسبة إليه بالصفات ويفيد صفة غير الوجود كصفة الحياة ونحوها والفيض الأقدس عبارة عن التجلي الحسي الذاتي الموجب لوجود الأشياء واستعداداتها في الحضرة العلمية ثم العينية .

انظر « معجم مصطلحات الصوفية » (ص٢٠٨) .

(٢) أما الكلمة فهي عين من الأعيان الثابتة في العلم الإلهي الداخلة تحت الإيجاد .

انظر « معجم مصطلحات الصوفية » (ص٢٠٨) .

(٣) هو أحد فلاسفة اليونان الوثنيين وقد أعجب به كثير من الصوفية ومدحوه وقلدوه في عقائده الوثنية كما قلدوا أفلاطون . انظر « نظرية المعرفة الإشراقية » د . إبراهيم هلال.

السهروردي والطباع التام هو « النور » ويسمى أيضًا الروحانية والطبيعة الكريمة . . . ومن النصوص المهمة المنسوبة إلى هرمس رسالة هرمس في معاذلة النفس التي نشرناها في كتابنا الأفلاطونية المحدثة عند العرب فهي مناجيات للنفس وتحليل لها وتأنيب للنفس الأمارة ودعوة للنفس من أجل التطهر والتقدس ومن السهل أن نجد أصداءًا لها ومشابه في مناجيات الصوفية المسلمين ثم إن هناك فصولاً منحولة لأفلاطون وسقراط وغيرهما من الفلاسفة اليونانيين معظمها آداب وأقوال وكلها تتشابه في بعض آرائها مع الأقوال المنسوبة إلى كبار الصوفية المسلمين في كتب طبقات الصوفية المختلفة كالقشيري والسلمي والشعراني والهروي والعطار والجامي وغيرهم»[1].

ومن الكتاب الذين كتبوا عن التصوف وأقروا تأثره بالفكر اليوناني الوثني الدكتور أبو الوفاء الغنيمي التفتازاني فقد قال متحدثًا عن تأثر المتصوفة بالأفكار اليونانية :

« ونحن لا ننكر الأثر اليوناني على التصوف الإسلامي فقد وصلت الفلسفة اليونانية عامة والأفلاطونية المحدثة خاصة إلى صوفية الإسلام عن طريق الترجمة والنقل أو الاختلاط مع رهبان النصارى في الرها وحران وقد خضع المسلمون لسلطان أرسطو وإن كانوا قد عرفوا فلسفة أرسطو على أنها فلسفة إشراقية لأن عبد المسيح بن ناعمة الحمصي حينما ترجم الكتاب المعروف بـ « أرثولوجية أرسطوطاليس » قدمه إلى المسلمين على أنه لأرسطو على حين أنه مقتطفات من تاسوعات أفلاطون وليس من شك في أن فلسفة أفلوطين السكندري التي تعتبر أن المعرفة مدركة بالمشاهدة في حال الغيبة عن النفس وعن العالم المحسوس كان لها أثرها في التصوف الإسلامي

(١) « تاريخ التصوف » لعبد الرحمن بدوي (ص ٤١ ـ ٤٢) .

فيما نجده من كلام متفلسفي الصوفية عن المعرفة وكذلك كان لنظرية أفلوطين السكندري في الفيض وترتيب الموجودات عن الواحد والأول أثرها على الصوفية المتفلسفين من أصحاب الوحدة كالسهروردي المقتول ومحيي الدين بن عربي وابن الفارض وعبد الحق بن سبعين و عبد الكريم الجيلي ومن نحا نحوهم ونلاحظ بعد ذلك أن أولئك المتفلسفة من الصوفية نتيجة اطلاعهم على الفلسفة اليونانية قد اصطنعوا كثيراً من مصطلحات هذه الفلسفة مثل « الكلمة »[١] « العقل الأول »[٢] « العقل الكلي »[٣] « العلة والمعلول»[٤] وغير ذلك من المصطلحات الفلسفية اليونانية »[٥] .

ومن العلماء الكبار الذين أثبتوا تأثر المتصوفة بالفلاسفة في عقائدهم الضالة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللّه تعالى فقد تكلم عن سبب وقوع المتصوفة في القول بوحدة الوجود وأثبت أن سبب ذلك هو سلوكهم مسلك الفلاسفة وبعدهم عن الكتاب والسنة فقال :

---

(١) الكلمة : عين من الأعيان الثابتة في العلم الإلهي تحت الإيجاد ولكلمة الحضرة إشارة إلى قوله « كن » فهي صورة الإرادة الكلية . انظر « معجم مصطلحات الصوفية ». (٢٢٥).

(٢) العقل الأول : هو مرتبة الوحدة وقيل هو محل تشكيل العلم الإلهي في الوجود لأنه العلم الأعلى ثم ينزل منه العلم إلى اللوح المحفوظ . انظر « معجم مصطلحات الصوفية » (١٧٥ ـ ١٨٦).

(٣) العقل الكلي : هو القسطاس المستقيم وهو ميزان العدل وبالجملة هو العاقلة أي المدركة النورية التي ظهرت بها صور العلوم المودعة في العقل الأول . انظر « المعجم الفلسفي » (١٨٦) .

(٤) العلة في اللغة اسم لعارض يتغير به وصف المحل بحلوله لا عن اختيار ومنه سمي المرض علة لأنه بحلوله يتغير حال الشخص من القوة إلى الضعف وكل أمر يصدر عنه أمر آخر بالاستقلال أو بانضمام الغير إليه فهو علة لذلك الأمر والأمر معلول له والعلة عند الحكماء ما يتوقف عليه وجود الشيء ويكون خارجًا ومؤثرًا فيه . انظر « المعجم الفلسفي » (٩٥) .

(٥) « مدخل إلى التصوف » للدكتور أبي الوفاء الغنيمي التفتازاني (٣٣ ـ ٣٤) .

« ولهذا لما سلك ابن عربي وابن سبعين وغيرهما هذه الطرق الفاسدة أورثهم ذلك الفناء المذموم عن الوجود السوي فجعلوا الموجود واحداً ووجود كل مخلوق هو عين وجود الحق وحقيقة الفناء عندهم أن لا يرى إلا الحق وهو الرائي والمرئي والعابد والمعبود والذاكر والمذكور والآمر خالقه والآمر المخلوق وهو المتصف بكل ما يوصف به الوجود من مدح وذم وعباد الأصنام ما عبدوا غيره وما ثم موجود مغاير له ألبتة عندهم وهذا منتهى سلوك هؤلاء الملحدين فحقيقة قولهم قول فرعون لأن فرعون كان في الباطن عالمًا بأن ما يقوله باطل وكان جاحداً مريداً للعدو والفساد ولهذا جحد وجود الصانع بالكلية وأما هؤلاء فجهال ضلال يحسبون أن ما يقولونه هو حقيقة إثبات الرب وتعظيمه وهو في الحقيقة قول فرعون فإن فرعون ما كان ينكر وجود هذا العالم ولا ينكر أن الموجودات تشترك في مسمى الوجود وإنما ينكر أن لهذا الوجود خالقًا مباينًا له ولهذا أمر ببناء الصرح ليكذب موسى بزعمه أن للعالم إلهًا فوقه كما حكى اللّه لنا في كتابه فقال : ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ﴾[1] .

وأكثر هؤلاء الملاحدة القائلين بوحدة الوجود يقولون إن فرعون أكمل من موسى . . .

ثم قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

« وهؤلاء ليسوا مسلمين ولا يهوداً ولا نصارى بل كثير من المشركين

---

(١) غافر : (٣٦ ـ ٣٧) .

أحسن حالاً منهم وهؤلاء أئمة نظار المتفلسفة وصوفيتهم وشيعتهم كان من أسباب تسلطهم وظهورهم هو بدع أهل البدع من الجهمية المعتزلة والرافضة ومن نحا نحوهم في بعض الأصول الفاسدة فإن هؤلاء اشتركوا هم وأولئك الملاحدة في أصول فاسدة يجعلونها قضايا عقلية صادقة وهي باطلة كاذبة مخالفة للشرع والعقل »[1].

ومن الكتاب الذين كتبوا عن التصوف وأكدوا تأثر المتصوفة بالفكر اليوناني الوثني الدكتور قاسم غني الفارسي فقد قال :

« وقد أثر في التصوف والعرفان ذيوع آراء أفلاطون وظهور الفلسفة الأفلاطونية الحديثة بين المسلمين أكثر من أي شيء وبعبارة أخرى أحرز التصوف الذي كان إلى ذلك الحين زهدًا عمليًا أساسًا نظريًا وعلميًا وإذا دققنا في آراء الأفلاطونية الحديثة وجدنا أن الصوفي الزاهد الذي غض الطرف عن الدنيا وما فيها بحكم أنها فانية وتعلق خاطره بما هو خالد يشعر بلذة الرضى في فلسفة أفلوطين بل يحصل على منتهى غايته في تلك الآراء وموضوع وحدة الوجود في الفلسفة الأفلاطونية الحديثة جذب أنظار الصوفية أكثر من أي شيء آخر لأن الذين يؤمنون بهذه العقيدة يرون أن العالم كله مرآة لقدرة الحق تعالى وكل موجود بمثابة مرآة تتجلى ذات اللّه فيها إلا أن المرايا كلها ظاهرة والوجود المطلق والوجود الحقيقي هو اللّه وينبغي على الإنسان أن يسعى حتى يمزق الحجب ويجعل نفسه محلاً لتجلي جمال الحق الكامل ويبلغ السعادة الأبدية على السالك أن يطير بجناح العشق نحو اللّه تعالى ويحرر نفسه من قيد وجوده الذي ليس إلا مظهر فحسب وينمحي ويفنى في ذات اللّه

(١) « الرد على المنطقيين » لشيخ الإسلام ابن تيمية (٥٢١ ـ ٥٢٢ ـ ٥٢٣) .

أي الموجود الحقيقي »[1] .

فهذه آراء بعض الكتاب الباحثين الذين كتبوا عن التصوف وكما هو واضح أمامنا فقد أثبتوا كلهم تأثر المتصوفة بالفكر اليوناني الوثني ومما ينبغي أن يعلم أن هؤلاء الكتاب الذين نقلت عنهم هذه الأقوال إما متصوفة بحت وإما من الموالين لهم والمدافعين عنهم إلا شيخ الإسلام ابن تيمية .

وقد صرح كثير من الكتاب الغربيين بتأثر المتصوفة بالفكر اليوناني الوثني ومنهم المستشرق نيكلسون فقد قال مقررًا تأثر المتصوفة بالفكر اليوناني :

« وقد كان لمصر والشام دائمًا الصدارة بين الأمم التي انتشرت فيها الحضارة اليونانية وهما البلدان اللذان ظهر فيهما التصوف لأول مرة بمعناه الدقيق . . . والرجل الذي اضطلع بأكبر قسط في تطور هذا النوع من التصوف هو ذو النون المصري الذي وصف بأنه حكيم كيمائي أو بأنه بعبارة أخرى أحد أولئك الذين نهلوا من منهل الثقافة اليونانية فإذا أضفنا إلى هذا أن المعاني التي تكلم فيها ذو النون هي في جوهرها المعاني التي نجدها في كتابات يونانية مثل كتابات « ديونيسيون » وليس عندي من شك في أن المذهب الغنوصي بعدما أصابه من التغيير والتحوير على أيدي مفكري المسيحية واليهودية وبعد امتزاجه بالنظريات اليونانية كان من المصادر الهامة التي أخذ عنها رجال التصوف وإن بين التصوف والغنوصية مواضع اتفاق كثيرة هامة ولا شك عندي أيضًا في أن دراسة هذه المسألة دراسة دقيقة وافية لما يأتي بأطيب الثمرات ولكني على يقين من أننا إذا نظرنا إلى الظروف

---

(١) « التصوف الإسلامي » للدكتور قاسم غني ترجمة عربية صادق نشأت (١٤٢ ـ ١٤٣) .

التاريخية التي أحاطت بنشأة التصوف استحال علينا أن نرد أصله إلى عامل هندي أو فارسي ولزم أن نعتبره وليداً لاتحاد الفكر اليوناني والديانات الشرقية أو بمعنى أدق وليد اتحاد الفلسفة الأفلاطونية الحديثة والديانة المسيحية والمذهب الغنوصي »[1] .

والخلاصة بعد أن أوردنا نصوصًا عديدة عن الصوفية أنفسهم التي مدحوا فيها فلاسفة اليونان وأوردنا أقوال بعض الباحثين الذين كتبوا عن التصوف قديمًا وحديثًا والذين أثبتوا كلهم تأثر الصوفية بالفكر الفلسفي اليوناني نقول إن تأثر الصوفية بالفكر اليوناني الوثني كان من أهم العوامل التي أدت إلى انحراف الصوفية عن الطريق القويم في العقيدة والعبادة والسلوك وذلك لأنهم ابتغوا الهدى في غير الكتاب والسنة فوقعوا في متاهات وضلالات وخرافات وبدع عقدية وسلوكية وتعبدية .

* * *

(١) « في التصوف الإسلامي وتاريخه » لنيكلسون (٧٣ ـ ٧٤) .

* * *

(١) تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، ج ٤ (٢٧ ـ ٣٧) .

الباب الثاني

انحرافات الصوفية في الإلهيات

وتحته فصلان :

الفصل الأول : انحراف الصوفية في التوحيد مع ذكر المفهوم الصحيح لتوحيد اللَّه.
(وتحته ثلاثة مباحث)

الفصل الثاني: انحـــراف الصوفية في المحبة واعتقادهم بأن اللَّه يحل في بعض مخلوقاته . (وتحته مبحثان)

الباب الثالث

الإجراءات في قضايا الأحداث

المبحث الأول

في الجهات المختصة :

المطلب الأول : في قضايا الأحداث في الأنظمة الوضعية

الفرع الأول : في الجهات المختصة بالتحقيق مع الأحداث.

(شرطة الأحداث المختصة)

الفرع الثاني : في قضايا الأحداث في الشريعة الإسلامية

(المحكمة المختصة) . حالة الحدث

الفصل الأول

انحراف الصوفية في التوحيد مع ذكر المفهوم الصحيح لتوحيد اللَّه

وتحته ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : تعريف التوحيد في اللغة والاصطلاح مع توضيح المفهوم الصحيح لتوحيد اللَّه الذي أرسل اللَّه به الرسل وأنزل به الكتب.

المبحث الثاني : موقف الصوفية من التوحيد.

المبحث الثالث : مفهوم التوحيد عند غلاة الصوفية والمضاعفات التي ترتبت على هذا المفهوم مع ذكر حكم من يعتقد بوحدة الوجود .

(وتحته ثلاثة مطالب)

الفصل الأول

وهو الذي خلق كل شيء فقدره تقديرا

الله عليه وسلم وصحبه

: قال الله تعالى

قسمنا بينهم معيشتهم : المبحث الأول

وهو الذي خلق كل شيء

بالحق إن الله عليه وسلم وصحبه

بعثوا في الناس إلا الله

عليه وسلم فقدره : المبحث الثاني

كانت سنة عليه وسلم : المبحث الثالث

فقدره تقديرا فقدره

خلق كل شيء وهو

عليه وسلم وصحبه

(صدق الله العظيم)

المبحث الأول

تعريف التوحيد في اللغة والاصطلاح

مع توضيح المفهوم الصحيح لتوحيد اللَّه

الذي أرسل اللَّه به الرسل وأنزل به الكتب

أولا : تعريف التوحيد في اللغة :

كلمة التوحيد مصدر للفعل الثلاثي المزيد بتضعيف عينه وهي تعني الوحدة والانفراد والتفرد يقال رأيته وحده وجلس وحده أي منفردًا وفلان لا واحد له وواحد دهره أي لا نظير له .

واللَّه الواحد الأحد المنفرد بالذات والصفات في عدم المثل والنظير ، واحد اللَّه تعالى ووحده أي نسبه إلى الوحدة والانفراد فهو سبحانه منفرد في ذاته وصفاته[1] .

وأما المدلول الشرعي لكلمة التوحيد فهو اعتقاد أنه إله واحد لا شريك له وإفراده عز وجل بالعبادة والتوجه إليه وحده بطلب المنافع ودفع المضار ونفي الكفء والمثل عن ذاته تعالى وصفاته فهو المتصف بصفات الكمال الذاتية ونفي الشريك له في الربوبية واعتقاد أنه وحده الخالق الرازق القادر المحيي المميت المعز المذل النافع الضار

---

(١) انظر مادة « وحد » في « الصحاح » (٢/ ٥٤٧) و« القاموس المحيط » (١/ ٣٤٣) و« المفردات في غريب القرآن » للأصبهاني (٥١٤) .

المتصرف في هذا الكون بمن فيه وما فيه[1] .

ثانيًا : المفهوم الصحيح لتوحيد اللَّه عز وجل :

إذا أردنا أن نعرف المفهوم الصحيح لتوحيد اللَّه عز وجل فلابد وأن نرجع إلى كتاب اللَّه عز وجل وسنة رسوله محمد ﷺ ونفهمهما الفهم الصحيح وقد تتبع علماء أهل السنة والجماعة نصوص الكتاب والسنة فخرجوا بالنتيجة التالية ألا وهي أن توحيد اللَّه سبحانه وتعالى يعني إفراد اللَّه سبحانه وتعالى في توحيد ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ، وقد قسموا التوحيد إلى ثلاثة أقسام وهي:

أولاً : توحيد الربوبية :

وتعريفه قال الراغب الأصفهاني في « المفردات » :

« الرب في الأصل التربية وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام يقال ربه ورباه ورببه وقيل : لأن يربيني رجل من قريش خير من أن يربيني رجل من هوازن يعني لأن يملكني »[2] .

قال الدكتور هراس رحمه اللَّه :

« فالرب مصدر مستعار مستعمل للفاعل ولا يقال الرب مطلقًا إلا للَّه تعالى المتكفل بمصلحة الموجودين نحو قوله : ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾[3] وعلى هذا قال : ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾[4] أي آلهة

---

(١) « رسالة توحيد الألوهية أساس الإسلام » (ص ٢) .

(٢) « المفردات في غريب القرآن » للراغب الأصفهاني (ص١٨٤) .

(٣) سبأ : (١٥) .

(٤) آل عمران : (٨٠) .

وبالإضافة يقال له ولغيره نحو : ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1] و﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾[2] ويقال رب الدار ورب الفرس لصاحبهما .

وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾[3] .

وقوله : ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾[4] .

قيل عني به اللَّه وقيل عني به الملك الذي رباه والأول أليق بقوله »[5].

وفي « النهاية » لابن الأثير :

« الرب يطلق في اللغة على المالك والسيد والمدبر والمربي واليتيم والمنعم ولا يطلق غير مضاف إلا على اللَّه تعالى وإذا أطلق على غيره أضيف فيقال رب كذا .

فأما قوله تعالى : ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ فإنه خاطبه على المتعارف عندهم وعلى ما يسمونهم به .

فأما الحديث في ضالة الإبل حتى يلقاها ربها فإن البهائم غير متعبدة ولا مخاطبة فهي بمنزلة الأموال التي يجوز إضافة مالكيها إليها وجعلهم أربابًا لها »[6] .

---

(١) الفاتحة : (٢) .

(٢) الشعراء : (٢٦) .

(٣) يوسف : (٤٢) .

(٤) يوسف : (٢٣) .

(٥) « دعوة التوحيد » لمحمد خليل هراس (ص٣١) .

(٦) « النهاية في غريب الحديث والأثر » لابن الأثير (٢/ ١٧٩) .

قال الهراس :

« من هذا يتبين أن للفظ الرب عدة معانٍ وهذه المعاني كلها مما يصح أن تراد بلفظ الرب إذا أطلق على اللَّه تعالى فهو المربي للأشياء الذي ينميها وينقلها في الأطوار المختلفة حتى يبلغ بها غاية كمالها وهو المالك لها والسيد عليها والمبدر لمصالحها والقائم بحفظها وكلاءتها لهذا كانت شئون الربوبية كلها من الخلق والرزق والملك والتدبير والتصريف مختصة به سبحانه لا يشاركه فيها أحد من خلقه وهذا أمر مركوز في الفطرة لا يكاد ينازع فيه أحد حتى أن المشركين الذين بعث فيهم رسول اللَّه ﷺ كانوا يقرون بذلك ولا ينكرونه ولا يجعلون أحداً من آلهتهم شريكًا للَّه في ربوبيته.

قال اللَّه تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾[2] .

وغير ذلك من الآيات التي تفيد إقرار المشركين من العرب بتوحيد الربوبية وانفراد اللَّه عز وجل بجميع شئونها من خلق ورزق وإحياء وإماتة وتدبير وتصريف ولم يعرف عن أحد من طوائف العالم نازع في هذا إلا

---

(١) يونس : (٣١) .

(٢) المؤمنون : (٨٤ ـ ٨٩) .

الدهرية الذين يجحدون الصانع ويزعمون أن العالم يسير بنفسه ويقولون ما حكى اللَّه عنهم في القرآن : ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾[1] .

ولكن لما وجد في الناس من ينازع في توحيد اللَّه بالربوبية ويجعل لغير اللَّه عز وجل شيئًا من الشركة معه في الخلق والرزق أو التدبير لم يهمل القرآن الكريم الاحتجاج له بل قرره أبدع تقرير في قوله من سورة المؤمنون حيث قال تعالى : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[2] .

قال شارح الطحاوية رحمه اللَّه بعد ذكره لهذه الآية :

« فتأمل هذا البرهان بهذا اللفظ الوجيز الظاهر فإن الإله الحق لابد أن يكون خالقًا فاعلاً يوصل إلى عابده النفع ويدفع عنه الضر فلو كان معه سبحانه إله آخر يشركه في ملكه لكان له خلق وفعل وحينئذ فلا يرضى تلك الشركة بل إن قدر على قهر ذلك الشريك وتفرده بالملك والإلهية دونه فعل وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب بذلك الخلق كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بملكه إذا لم يقدر المتفرد على قهر الآخر والعلو عليه فلابد من أحد ثلاثة أمور :

١ ـ إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه .

٢ ـ وإما أن يعلو بعضهم على بعض .

٣ ـ وإما أن يكونوا تحت قهر ملك واحد يتصرف فيهم كيف يشاء ولا

---

(١) الجاثية : (٢٤) .

(٢) المؤمنون : (٩١) .

يتصرفون فيه بل يكون وحده هو إلاله وهم العبيد المربوبون المقهورون من كل وجه .

وانتظام أمر العالم كله وإحكام أمره من أدل دليل على أن مدبره إله واحد وملك واحد ورب واحد لا إله للخلق غيره ولا رب لهم سواه . . . إلى أن يقول : فالعلم بأن وجود العالم عن صانعين متماثلين ممتنع لذاته مستقر في الفطرة معلوم بصريح العقل بطلانه فكذا تبطل إلهية اثنين فالآية الكريمة موافقة لما ثبت واستقر في الفطرة من توحيد الربوبية دالة مثبتة مستلزمة لتوحيد الإلهية »[1] .

بعض الآيات الدالة على توحيد الربوبية :

إن كل من يتلو القرآن الكريم بتدبر ويتأمل في معانيه يلاحظ بوضوح أن اللَّه سبحانه وتعالى دائمًا يلزم المشركين بما أقروا به من تفرد اللَّه سبحانه وتعالى بتوحيد الربوبية فيجعله برهانًا واضحًا على وجوب إفراده سبحانه بتوحيد الألوهية .

وذلك لأن الذي يستحق العبادة والخضوع له هو من كان ربًا خالقًا ومالكًا مدبراً بخلاف من لا يخلق ولا يدبر الأمور فإنه لا يصلح أن يكون إلها معبودًا إذا لم يصلح لأن يكون ربًا مقصودًا ولهذا نرى دائمًا يسوق اللَّه عز وجل الآيات والدلائل الشاهدة بربوبيته تعالى لكل شيء ثم ينتقل منها إلى الدعوة لعبادته وحده قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ

---

(١) « شرح العقيدة الطحاوية » لابن أبي العز الحنفي (ص٢٥) .

تَعْلَمُونَ ﴾[1] .

فهذا خطاب عام لجميع الناس أن يعبدوا اللَّه سبحانه وتعالى ويفردوه ويخصوه بالعبادة لأنه لا رب لهم سواه فهو الذي خلقهم وخلق آباءهم الأولين وهو الذي جعل لهم هذه الأرض مهادًا يتقلبون علهيا ويمشون في مناكبها وهو الذي أنزل لهم من السحاب ماءً فأجراه أنهارًا فسلكه ينابيع فأخرج لهم به من جميع الثمرات فلا تجعلوا للَّه أندادًا أي نظراء من خلقه تساوونهم به في استحقاق العبادة وأنتم تعلمون أنها لم تخلق شيئًا .

وقال تعالى : ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[2] .

وقال سبحانه : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ

---

(١) البقرة : (٢١ ـ ٢٢) .

(٢) البقرة : (١٦٣ ـ ١٦٤) .

وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[1] .

فالآيات المتقدمة كلها تنفي أن يكون إله معه ما دام هو الرب وحده .

ويقول جل شأنه في سورة النحل بعد أن ذكر آيات ربوبيته في الخلق والتدبير : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾[2] .

فنفى الإلهية عن كل ما يُدعى من دونه لأنه لا يخلق شيئًا بل هو مخلوق ولأنه ميت غير حي ولا يدري متى يبعث.

أما الأحاديث الدالة على توحيد الربوبية فكثيرة جدًا وإليك هذان الحديثان :

الحديث الأول : قوله ﷺ في سيد الاستغفار : « **اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**»[3] .

ففي هذا إقرار العبد واعترافه بأن اللَّه هو ربه الذي لا رب غيره وأنه لا معبود بحق في الوجود كله سواه فإنه هو الذي خلقه وسواه ثم يعاهده بأنه

---

(١) النمل : (٦٠ ـ ٦٤) .

(٢) النحل : (١٧ ـ ٢٢) .

(٣) « سنن الترمذي » مع التحفة (٩/ ٣٣٣٧) .

سيظل قائمًا على عهده ووعده ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ثم يلجأ إليه ويحتمي به من شر ما جنى على نفسه ثم يبوء ويرجع إليه بسبب إنعامه عليه ثم يرجع إليه من ذنبه طالبًا أن يغفر له لأنه هو الغفور الرحيم .

ومثل هذا قوله ﷺ : « **اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيء فالق الحب والنوى منزل التوراة والإنجيل والقرآن أعوذ بك من كل ذي شر أنت آخذ بناصيته أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عني الدين وأغنني من الفقر** »[1] .

النوع الثاني من أنواع التوحيد : توحيد الألوهية :

بعد أن عرفنا توحيد الربوبية وأوردنا الأدلة من الكتاب والسنة على أنه من أقسام التوحيد الذي جاء به الرسل عليهم الصلاة والسلام نريد أن ندخل في القسم الثاني من أقسام التوحيد ألا وهو توحيد الألوهية .

تعريفه :

هو إفراد الخالق جل وعلا بالعبادة وإخلاص الدين له وحده فإن الإلهية نسبة إلى الإله بمعنى المعبود : يقال أله يأله إلهة وألوهة وألوهية بمعنى عبد عبادة .

والإله اسم للمعبود مطلقًا بحق أو بغير حق فهو يطلق على اللّه عز وجل كما يطلق على غيره من المعبودات الباطلة وجمعه آلهة .

وأما اللّه فمختص بالمعبود بحق لا يطلق على غيره فهو يشبه أن يكون

---

(١) « صحيح مسلم » مع النووي (١٧/ ٣٦) والترمذي مع التحفة (٩/ ٣٤٣) .

علمًا عليه وإن كان الصحيح أنه مشتق كما قدمنا[1] .

وهذا التوحيد هو الذي بعث اللَّه الرسل وأنزل الكتب من أجله وهو الذي وقع فيه النزاع والخصام بين الرسل وأممهم وهذا واضح جلي في القرآن الكريم وذلك لأن المشركين من كل أمة كانوا يتخذون من دون اللَّه أندادًا يشركونهم مع اللَّه في العبادة وكانوا يقصدون بذلك التقرب بهم إلى اللَّه تعالى وجعلهم شفعاء ووسطاء عند اللَّه وذلك زعمًا منهم أنه لا تقضى لهم حاجة ولا يسمع لهم دعاء ولا تفتح لهم أبواب السماء إلا بشفاعة هؤلاء الوسطاء .

قال شارح الطحاوية متحدثًا عن منزلة توحيد الألوهية :

« اعلم أن التوحيد أول دعوة الرسل وأول منازل الطريق وأول مقام يقوم فيه السالك إلى اللَّه .

قال تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾[2] .

وقال هود عليه السلام لقومه : ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾[4] .

وقال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾[5] .

وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا

---

(١) « دعوة التوحيد » لمحمد خليل هراس (ص٣٧ ـ ٣٨) .

(٢) الأعراف : (٥٩) .

(٣) الأعراف : (٦٥) .

(٤) الأعراف : (٨٥) .

(٥) النحل : (٣٦) .

الطَّاغُوتَ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[2] .

وقال ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا اللَّه وأن محمداً رسول اللَّه »[3] .

ولهذا كان الصحيح أن أول واجب على المكلف شهادة أن لا إله إلا اللَّه وأن محمداً رسول اللَّه ، لا النظر ولا القصد إلى النظر ولا الشك كما هي أقوال لأرباب الكلام المذموم بل أئمة السلف كلهم متفقون على أن أول ما يؤمر به العبد الشهادتان . . إلى أن قال : فالتوحيد أول الأمر وآخره أعني توحيد الألوهية »[4] .

وقال الشيخ سليمان بن عبد اللَّه بن محمد بن عبد الوهاب متحدثًا عن مكانة توحيد الألوهية :

« وهذا التوحيد هو أول الدين وآخره وباطنه وظاهره وهو أول دعوة الرسل وآخرها وهو معنى قول لا إله إلا اللَّه فإن الإله هو المألوه المعبود بالمحبة والخشية والإجلال والتعظيم وجميع أنواع العبادة ولأجل هذا التوحيد خلقت الخليقة وأرسلت الرسل وأنزلت الكتب وبه افترق الناس مؤمنين وكفاراً وسعداء أهل الجنة وأشقياء أهل النار قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ

---

(١) النحل : (٣٦) .

(٢) الأنبياء : (٢٥) .

(٣) « صحيح مسلم » مع النووي (١/ ٢١٢).

(٤) « شرح العقيدة الطحاوية » لابن أبي العز الحنفي (ص١٤) .

اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1] فهذا أول أمر في القرآن .

وقال تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾[2] فهذه دعوة أول رسول بعد حدوث الشرك .

وقال النبي ﷺ لمعاذ : « **إنك تأتي على قوم من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة اللَّه عز وجل** »[3] .

وهذا التوحيد هو أول واجب وآخر واجب وأول ما يدخل به الإسلام وآخر ما يخرج من الدنيا قال ﷺ : « **من كان آخر كلامه لا إله إلا اللَّه دخل الجنة**»[4] وقال : « **أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا اللَّه وأن محمداً رسول اللَّه** »[5] .

ثم قال : « ويسمى هذا النوع من التوحيد توحيد الإلهية لأنه مبني على إخلاص التأله وهو أشد المحبة للَّه وحده وذلك يستلزم إخلاص العبادة وتوحيد العبادة لذلك .

وتوحيد الإرادة لأنه مبني على إرادة وجه اللَّه بالأعمال وتوحيد القصد لأنه مبني على إخلاص القصد المستلزم لإخلاص العبادة للَّه وحده وتوحيد العمل لأنه مبني على إخلاص العمل للَّه وحده » .

---

(١) البقرة : (٢١) .

(٢) الأعراف : (٥٩) .

(٣) « صحيح مسلم » مع النووي (١/ ١٩٩) .

(٤) « سنن أبي داود » مع بذل المجهود (١٤/ ٧٩) .

(٥) « صحيح مسلم » مع النووي (١/ ٢١٢) .

وقال أيضًا : « وهذا التوحيد هو حقيقة دين الإسلام الذي لا يقبل اللَّه من أحد سواه كما قال النبي ﷺ : « **بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت** »[1] .

فأخبر أن الإسلام مبني على هذه الأركان الخمسة وهي الأعمال فدل على أن الإسلام هو عبادة اللَّه وحده لا شريك له بفعل المأمور وترك المحظور والإخلاص في ذلك للَّه وقد تضمن ذلك جميع أنواع العبادة فيجب إخلاصها للَّه تعالى فمن أشرك بين اللَّه وبين غيره في شيء فليس بمسلم »[2].

وحق اللَّه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا كما في الحديث الصحيح الذي رواه معاذ عن النبي ﷺ أنه قال :

« كنت رديف رسول اللَّه على حمار يقال له عفير قال فقال : «**يا معاذ تدرى ما حق اللَّه على العباد وما حق العباد على اللَّه** »؟ قال : قلت : اللَّه ورسوله أعلم . قال : « **فإن حق اللَّه على العباد أن يعبدوا اللَّه ولا يشركوا به شيئًا وحق العباد على اللَّه عز وجل أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا** » . قال : قلت : يا رسول اللَّه أفلا أبشر الناس . قال : « **لا تبشرهم فيتكلوا** » »[3] .

---

(١) « صحيح البخاري » مع الفتح (١/ ٤٩) وكذلك « صحيح مسلم » مع النووي (١/ ١٧٧) .

(٢) « تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد » للشيخ سليمان بن عبد اللَّه (٣٦ ـ ٣٩) .

(٣) « صحيح مسلم » مع النووي (١/ ٢٣٢) .

النوع الثالث : من أنواع التوحيد توحيد الأسماء والصفات :

أولاً : تعريفه :

هو الإقرار بأن اللَّه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير وأنه الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم له المشيئة النافذة والحكمة البالغة وأنه سميع بصير رؤوف رحيم على العرش استوى وعلى الملك احتوى وأنه الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان اللَّه عما يشركون إلى غير ذلك من الأسماء الحسنى والصفات العلى[1] .

ثانيًا : الأسس التي يقوم عليها توحيد الأسماء والصفات :

يقوع هذا النوع من التوحيد على أسس ثلاثة وهي :

١ ـ **الأساس الأول** : أن أسماء اللَّه عز وجل وصفاته كلها توقيفية لا يجوز إطلاق شيء منها على اللَّه في الإثبات أو في النفي إلا بإذن من الشرع فلا نثبت للَّه سبحانه من الأسماء والصفات إلا ما أثبته هو لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ ولا ننفي عنه كذلك من الأسماء والصفات إلا ما نفاه هو عن نفسه أو نفاه عنه رسوله محمد ﷺ وما لم يصرح الشرع بإثباته ولا بنفيه يجب التوقف فيه حتى يعلم ما يراد به فإن أريد به معنى صحيحًا موافقًا لما جاء به النص قبل وإلا وجب رده .

الأصل في ذلك أن معرفة اللَّه عز وجل بأسمائه وصفاته وبما يجب له أو يمتنع أو يجوز عليه لا سبيل إلى إدراكها بالعقل وحده لأنها من شئون الغيب التي لا تدخل في نطاق قدرته وإنما كل وظيفة العقل في ذلك في أن يفهم ما تضمنته النصوص من معاني أسماء الرب وصفاته .

---

(١) « تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد » (ص٣٤) .

٢ـ **الأساس الثاني** : أن اللَّه عز وجل في كل ما ثبت من الأسماء والصفات لا يماثل شيئًا من خلقه ولا يماثله شيء بل كل ما ثبت له من صفات الكمال التي وردت بها النصوص الصريحة من الكتاب والسنة فهو مختص به لا يشركه فيه أحد من خلقه .

وليس معنى هذا أن ما يطلق على الرب أو على صفاته من أسماء لا يسمى به غيره فقد يكون الاسم مشتركًا بينه وبين غيره أو بين صفته وصفة غيره ولكن هذا الاشتراك في الاسم لا يوجب مماثلة المخلوقين فيما دلت عليه هذه الأسماء .

فتسميته تعالى عالمًا وتسمية العبد عالمًا لا يوجب مماثلة علم اللَّه لعلم العبد وكذلك تسميته تعالى مريدًا أو حيًا أو سميعًا وبصيرًا أو متكلمًا إلى غير ذلك من الأسماء التي قد تطلق على المخلوقين لا يوجب أن تكون إرادتهم كإرادته ولا حياتهم كحياته .

والأصل في ذلك أن ما يوصف اللَّه عز وجل به ويوصف به العباد إنما يوصف اللَّه به على ما يليق به ويوصف به العباد على ما يليق بهم فالاشتراك إنما هو في مفهوم الاسم الكلي وذلك إذا أخذ الاسم مطلقًا غير مضاف فإذا أضيف صار مختصًا لا يقبل الشركة فإذا قيل علم اللَّه وقدرة اللَّه وإرادة اللَّه ونحو ذلك كان المراد صفته الخاصة به التي لا يشاركه فيها المخلوق.

وإذا قيل علم العبد وقدرته وإرادته ونحو ذلك كان المراد صفته الخاصة به التي يتنزه عنها الخالق جل شأنه .

وإذا فهم هذا الأساس الثاني على هذا الوجه البين لم يكن هناك موجب أصلاً لنفي بعض الصفات الثابتة بالكتاب والسنة بحجة أن إثباتها يوهم

المماثلة بين اللَّه وبين خلقه وذلك لأنها إذا أطلقت على اللَّه عز وجل حملت ما يليق به مما لا يماثل صفة المخلوق وإذا أطلقت على المخلوق حملت على ما يليق به مما لا يماثل صفة الخالق ، وحينئذ لا نحتاج إلى التعسف في تأويل هذه النصوص وصرفها عن معانيها المتبادرة منها لا سيما وأن هذه النصوص في الكتاب والسنة من الكثرة والصراحة حيث لا يمكن تأويلها إلا إذا اعتبرنا الشارع كله أحاجي وألغاز لا يدل لفظ منه على معناه وهذا اتهام للشرع بأن خطابه غير مفهم ولا مبين ولا دال على الحق الذي يجب اعتقاده .

٣ ـ الأساس الثالث : أن صفاته كلها صفات كمال :

أن صفاته سبحانه صفات كمال كلها فهو موصوف بصفات الكمال التي لا غاية وراءها بريء من صفات النقص والاحتياج والحدوث والواجب أن يثبت له أقصى ما يمكن من الأكملية بحيث لا يكون هناك كمال عار عن النقص إلا وهو ثابت له يستحقه بكمال ذاته ويتنزه عن الاتصاف بضده وضابط ذلك أن أي كمال ثبت للمخلوق وأمكن أن يتصف به الخالق كان الخالق أولى به وكل نقص تنزه عنه المخلوق فالخالق أولى بالتنزه عنه ولكن ينبغي أن يعلم أن الكمال لا يكون إلا أمراً وجوديًا أما الأمور السلبية أو العدمية فلا تكون كمالاً إلا إذا تضمنت أمراً وجوديًا فإن العدم المحض ليس بشيء أصلاً فضلاً عن أن يكون كمالاً لهذا لم يرد في الكتاب ولا في السنة صفة سلب إلا وهي متضمنة إثبات ما يضادها من الكمال.

فنفي العجز مثلاً في قوله تعالى : ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ**﴾ متضمن لإثبات كمال قدرته .

ونفي السنة والنوم في قوله : ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾ لإثبات كمال حياته وقيوميته ونفي الشريك والند والصاحبة والولد لإثبات كمال غناه وعظمته[1] .

ثالثًا : الواجب على المسلم تجاه أسماء اللَّه وصفاته :

إن الواجب على أي مسلم هو أن يصف اللَّه بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله لا يتجاوز في ذلك ما جاء في القرآن والحديث مع الاعتقاد الجازم بأنه لا يوجد أي تشابه بين صفات اللَّه وصفات المخلوقين وإن توافقت بعض الصفات في مجرد الاسم فقط لأن اللَّه سبحانه موصوف بصفات الجلال والكمال كما يليق به سبحانه وتعالى والمخلوق موصوف بصفات هي لائقة به .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية متحدثًا عن صفات اللَّه سبحانه وتعالى وواجب المسلم تجاه هذه الصفات :

« ثم القول الشامل في جميع هذا الباب أن يوصف اللَّه بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله وبما وصفه به السابقون الأولون لا يتجاوز القرآن والحديث .

قال الإمام أحمد رحمه اللَّه : لا يوصف اللَّه إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ لا يتجاوز القرآن والحديث .

ومذهب السلف أنهم يصفون اللَّه بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل ونعلم أن ما

---

(١) « دعوة التوحيد » للشيخ الهراس (ص١٢) ونحوه في « القواعد المثلى » للشيخ العثيمين (ص١٣).

وصف اللَّه من ذلك فهو حق ليس فيه لغز ولا أحاجي بل معناه يعرف من حيث يعرف مقصود المتكلم بكلامه لا سيما إذا كان المتكلم أعلم الخلق بما يقول وأفصح الخلق في البيان والتعريف والدلالة والإرشاد وهو سبحانه مع ذلك ليس كمثله شيء لا في نفسه المقدسة المذكورة بأسمائه وصفاته ولا في أفعاله فكما نتيقن أن اللَّه سبحانه له ذات حقيقية وله أفعال حقيقية فكذلك له صفات حقيقية وهو ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وكل ما أوجب نقصًا أو حدثًا فإن اللَّه متنزه عنه حقيقة فإنه سبحانه مستحق للكمال الذي لا غاية فوقه ويمتنع عليه الحدوث لامتناع العدم عليه واستلزام الحدوث سابقة العدم ولافتقار الحدث إلى محدث والوجوب وجوده بنفسه سبحانه وتعالى .

ومذهب السلف بين التعطيل والتمثيل فلا يمثلون صفات اللَّه بصفات خلقه كما لا يمثلون ذات اللَّه بذت خلقه ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله فيعطلوا أسماءه الحسنى وصفاته العليا ويحرفوا الكلم عن مواضعه ويلحدوا في أسماء اللَّه وآياته.

وكل واحد من فريقي التعطيل والتمثيل فهو جامع بين التعطيل والتمثيل أما المعطلون فإنهم لم يفهموا من أسماء اللَّه وصفاته إلا ما هو اللائق بالمخلوق ثم شرعوا في نفي تلك المفهومات فقد جمعوا بين التعطيل والتمثيل مثلوا أولاً وعطلوا آخراً وهذا تشبيه وتمثيل منهم للمفهوم من أسماء اللَّه وصفاته بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم وتعطيل لما يستحقه هو سبحانه من الأسماء والصفات اللائقة باللَّه سبحانه وتعالى »[1] .

---

(١) « مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية » (٥/٢٦ ـ ٢٧) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية أيضًا :

« فما وصف اللَّه من نفسه وسماه على لسان رسول ﷺ سميناه كما سماه ولم نتكلف منه صفة ما سواه لا هذا ولا هذا لا نجحد ما وصف ولا نتكلف معرفة ما لم يصف »[1] .

وقال أيضًا : « والراسخون في العلم الواقفون حيث انتهى علمهم الواصفون لربهم بما وصف من نفسه التاركون لما ترك من ذكرها لا ينكرون صفة ما سمى منها جحدًا ولا يتكلفون وصفه بما لم يسمه تعمقًا لأن الحق ترك ما ترك وتسميته ما سمى ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ »[2] .

وقال أبو سليمان الخطابي إجابة لسائل سأله عن الموقف الواجب اتباعه تجاه صفات اللَّه عز وجل :

« فأما ما سألت عنه من الصفات وما جاء منها في الكتاب والسنة فإن مذهب السلف إثباتها وإجراؤها على ظواهرها ونفي الكيفية والتشبيه عنها وقد نفاها قوم فأبطلوا ما أثبته اللَّه وحققها قوم من المثبتين فخرجوا في ذلك إلى ضرب من التشبيه والتكييف وإنما القصد في سلوك الطريقة المستقيمة بين الأمرين ودين اللَّه تعالى بين الغالي فيه والجافي والمقصر عنه .

والأصل في هذا أن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات ويحتذي في ذلك حذوه ومثاله فإذا كان معلومًا أن إثبات الباري سبحانه إنما هو إثبات وجود لا إثبات كيفية فكذلك إثبات صفاته إنما هو إثبات وجود لا

---

(١) « مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية » (٥/ ٤٤) .

(٢) نفس المرجع (٥/ ٤٦) .

إثبات تحديد وتكييف فإذا قلنا يد وسمع وبصر وما أشبهها فإنما هي صفات أثبتها اللَّه لنفسه ولسنا نقول إن معنى اليد القوة أو النعمة ولا معنى السمع والبصر العلم ولا نقول إنها جوارح ولا نشبهها بالأيدي والأبصار والأسماع التي هي جوارح وأدوات الفعل ونقول إن القول إنما وجب بإثبات الصفات لأن التوقيف ورد بها ووجب نفي التشبيه عنها لأن اللَّه ليس كمثله شيء ، وعلى هذا جرى قول السلف في أحاديث الصفات »[1] .

وقال أبو عمر بن عبد البر :

« أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة والإيمان بها وحملها على الحقيقة لا على المجاز إلا أنهم لا يكيفون شيئًا من ذلك ولا يحدون فيه صفة محصورة »[2] .

وقال القاضي أبو يعلى[3] :

« لا يجوز رد هذه الأخبار ولا التشاغل بتأويلها والواجب حملها على ظاهرها وأنها صفات اللَّه لا تشبه صفات سائر الموصوفين بها من الخلق ولا يعتقد التشبيه فيها لكن على ما رُوي عن الأمام أحمد وسائر الأئمة » .

وقال عن التأويل :

« ويدل على إبطال التأويل أن الصحابة ومن بعدهم من التابعين

---

(١) « مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية » (٥/ ٥٨ ـ ٥٩) .

(٢) نفس المرجع (٥/ ٨٧) .

(٣) القاضي أبو يعلى : عالم العراق أبو يعلى محمد بن الحسين الفراء البغدادي الحنبلي كان آية في معرفة مذهب الإمام أحمد وقد صنف تصانيف فائقة توفي (٤٥٨هـ) .

انظر « الحاشية على الحموية » (ص٥٣) .

حملوها على ظاهرها ولم يتعرضوا لتأويلها ولا صرفوها عن ظاهرها فلو كان التأويل سائغًا لكانوا أسبق إليه لما فيه من إزالة التشبيه ورفع الشبهة » .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية :

« الصواب في كثير من آيات الصفات وأحاديثها القطع بالطريقة الثابتة كالآيات والأحاديث الدالة على أن اللَّه سبحانه وتعالى فوق عرشه وتعلم طريقة الصواب في هذا وأمثاله بدلالة الكتاب والسنة والإجماع على ذلك دلالة لا تحتمل النقيض وفي بعضها قد يغلب على الظن ذلك مع احتمال النقيض وتردد المؤمن في ذلك هو بحسب ما يؤتاه من العلم والإيمان ومن لم يجعل اللَّه له نورًا فما له من نور »[1] .

وقال الشيخ حافظ بن أحمد حكمي :

« وجميع آيات الأسماء والصفات وأحاديثها نمرها صريحة أي على ظواهرها كما أتت عن اللَّه وعن رسوله بنقل العدل عن العدل متصلاً إلينا كالشمس في وقت الظهيرة صحواً ليس دونها سحاب مع اعتقادنا إيمانًا وتسليمًا لما له اقتضت من أسماء ربنا تبارك وتعالى وصفات كماله ونعوت جلاله كما يليق بعظمته وعلى الوجه الذي ذكره وأراده من غير تحريف لألفاظها »[2] .

رابعًا : أركان الإيمان بأسماء اللَّه الحسنى :

والإيمان بالأسماء الحسنى له ثلاثة أركان :

الركن الأول : الإيمان بالاسم .

---

(١) « مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية » (٥/ ٨٧ ـ ٩٠) . وكذلك الفتوى الحموية الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص٥٣) .

(٢) « معارج القبول » لحافظ بن أحمد حكمي (١/ ٣١٩) .

الركن الثاني : الإيمان بما دل عليه الاسم .

الركن الثالث : الإيمان بما يتعلق به من الآثار .

فنؤمن بأن اللَّه رحيم ذو رحمة واسعة وسعت كل شيء ويرحم عباده ، قدير ذو قدرة وتقدير على كل شيء غفور ذو مغفرة ويغفر لعباده[1] .

خامسًا : دلالة الأسماء الحسنى : ثلاثة أنواع :

أسماء اللَّه كلها حسنى وكلها تدل على الكمال المطلق وكلها مشتقة من أوصافها فالوصف فيها لا ينافي العلمية والعلمية لا تنافي الوصف .

ودلالتها ثلاثة أنواع :

١ ـ دلالة مطابقة : إذا فسرنا الاسم بجميع مدلوله .

٢ ـ دلالة تضمن : إذا فسرناه ببعض مدلوله .

٣ ـ دلالة الالتزام : إذا استدللنا به على غيره من الأسماء التي يتوقف هذا الاسم عليها فمثلاً الرحمن دلالته على الرحمة والذات دلالة مطابقة وعلى أحدهما دلالة تضمن لأنه داخلة في الضمن ودلالته على الأسماء التي لا توجد الرحمة إلا بثبوتها كالحياة والعلم والإرادة والقدرة ونحوها دلالة التزام وهذه الأخيرة تحتاج إلى قوة فكر وتأمل ويتفاوت فيها أهل العلم فالطريق إلى معرفتها أنك إذا فهمت اللفظ وما يدل عليه من المعنى وفهمته فهمًا جيدًا ففكر فيما يتوقف عليه ولا يتم بدونه وهذه القاعدة تنفعك في جميع النصوص الشرعية فدلالتها الثلاث كلها حجة لأنها معصومة محكمة[2] .

---

(١) « شرح أسماء اللَّه الحسنى » لسعيد بن علي بن وهف القحطاني (ص١٦).

(٢) « توضيح الكافية الشافية » للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ص١٣٢) .

المبحث الثاني

موقف الصوفية من التوحيد

الذي أرسل اللَّه به رسله وأنزل به كتبه

لقد وقف الصوفية من التوحيد الذي أرسل اللَّه به رسله وأنزل به كتبه موقفًا معاديًا تمامًا ويتمثل ذلك :

أولاً : قال بعضهم أنه لا يمكن التعبير عن التوحيد بل هو شيء خيالي ومن عبر عنه فقد أشرك وكفر .

ثانيًا : لقد صرح الصوفية بأن التوحيد الذي أرسل اللَّه الرسل وأنزل الكتب من أجله توحيد العوام أما الخواص يعتبر هذا التوحيد عندهم شركًا .

ثالثًا : لقد قسم الصوفية التوحيد إلى أقسام لم ترد في الكتاب ولا في السنة .

وباختصار فإنهم وقفوا من التوحيد الصحيح موقفًا معاديًا وأتوا بتصورات جديدة من عند أنفسهم للتوحيد وإليك بيان هذا بنقل عباراتهم التي تدل على ما قلناه .

فمن مشائخ المتصوفة الذين تكلموا عن التوحيد الشبلي حيث سأله أحد الأشخاص عن التوحيد قائلاً له :

« أخبرنا عن توحيد مجرد وبلسان حق مفرد » .

فأجابه الشبلي قائلاً :

« ويحك من أجابك عن التوحيد بالعبارة فهو ملحد ومن أشار إليك فهو ثنوى ومن أومأ إليه فهو عابد وثن ومن نطق به فهو غافل ومن سكت عنه فهو جاهل ومن توهم أنه واصل فليس بحاصل »[1] .

وقال الشبلي أيضًا :

« ما شم روائح التوحيد من تصور عنده التوحيد »[2] .

فإذا تدبرنا في النصين السابقين اللذين أوردتهما عن الشبلي والذي يعتبر من الأئمة العظام عند المتصوفة نرى أن الشبلي استنكر على السائل سؤاله عن التوحيد وذلك لأنه يعتقد أن التوحيد غير معلوم ولذا فإنه لا يمكن التعبير عنه وأن كل من حاول التعبير عن التوحيد فهو ملحد لا محالة بل ادعى أن مجرد الإشارة إلى التوحيد أو الإيماء إليه تخرج الإنسان من الإسلام وتحوله إلى عابد الأوثان وأن النطق بالتوحيد يعتبر غفلة والسكوت عنه جهل وأن كل من توهم أنه وصل إلى معرفة توحيد اللّه فليس بواصل لأنه لا يمكن الوصول إلى معرفة توحيد اللّه نهائيًا وهذا حسب زعم الدجاجلة من المتصوفة وإلا فالتوحيد معروف ومعلوم وواضح عند المسلمين الذين جعلوا منهجهم كتاب اللّه وسنة رسوله وليس بمعقد بهذه الصورة التي صوره بها الشبلي وهذا يبين لنا مدى عداء المتصوفة لتوحيد اللّه عز وجل حيث أن الإنسان يخرج من هذا التصوير الذي صور به التوحيد الشبلي بأنه لا شيء في الوجود يسمى توحيداً نهائيًا والمتصوفة يصورون التوحيد بهذه الصورة

---

(١) « الرسالة القشيرية » (٢/ ٥٨٦) .

(٢) « الرسالة القشيرية » (٢/ ٥٨٧) .

ويعقدون معرفته مثل هذا التعقيد من أجل أن يبعدوا الناس عن معرفة توحيد اللَّه معرفة صحيحة وذلك حتى يسهل نقلهم إلى عقائد باطلة تدريجيًا حتى ينسلخوا نهائيًا عن العقيدة الإسلامية الصحيحة .

وفي النص الثاني قرر الشبلي أن مجرد التصور لتوحيد اللَّه سبحانه وتعالى تبعد الإنسان عن معرفة توحيد اللَّه بل حتى عن مجرد شمة توحيد اللَّه فضلاً أن يكون موحدًا ، ومن هنا نخرج بنتيجة ألا وهي أن المتصوفة يعتقدون أن التوحيد غير متصور نهائيًا بل هو شيء مجهول غير معلوم .

وهذا اعتقاد باطل مخالف للكتاب والسنة وذلك لأن اللَّه سبحانه وتعالى عبر عن التوحيد بأنواعه الثلاثة في كتابه وكذلك الرسول ﷺ عبر عن التوحيد في سنته ولذا فالتوحيد واضح كل الوضوح بل هو أوضح من الشمس في وضح النار.

وهذه العبارة التي صور بها الشبلي التوحيد ليس له عليها دليل يعتمد عليه لإثباتها من الكتاب والسنة بل هو تصوير أتى به من عند نفسه قصد من ورائه تضليل عوام المسلمين وإبعادهم عن توحيد اللَّه سبحانه وتعالى .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّه تعالى :

« قول المتصوفة : إنه لا تصح العبارة عن التوحيد ، كفر بإجماع المسلمين فإن اللَّه قد عبر عن توحيده ورسوله عبر عن توحيده والقرآن مملوء من ذكر التوحيد بل إنما أرسل اللَّه الرسل وأنزل الكتب بالتوحيد قال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾[1] .

---

(١) الزخرف : (٤٥) .

وقال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[1] .

ولو لم يصح عنه عبارة لما نطق به أحد .

وأفضل ما نطق به الناطقون هو التوحيد كما قال النبي ﷺ : « **أفضل الذكر لا إله إلا اللّه وأفضل الدعاء الحمد للّه**»[2] .

وفي حديث آخر قال رسول اللّه ﷺ : « **أشهد أن لا إله إلا اللّه وأني رسول اللّه لا يلقى اللّه بهما عبد غير شاك فيحجب عن الجنة** »[3] .

ومن المتصوفة الذين اعتبروا التوحيد الذي جاء في الكتاب والسنة شركًا وجحودًا لسان الدين الخطيب فقد قال هـذا الرجل معبـرًا عـن المعتقد الصوفي وموقفهـم من توحيد اللّه الذي جاء في كتابه وسنة رسوله محمد ﷺ :

« قالوا فمن وحد ونعت فقد عين قضية ثلاثية من موحِّد محدث هو نفسه وموحَّد قديم هو معبوده وتوحيد حديث هو فعل نفسه وقد تقدم أن التوحيد انتفاء عين الحدوث وعين الحدوث الآن ثابت متعدد والتوحيد مجحود والدعوى كاذبة كمن يقول لغيره وهمًا في بيت واحد ليس في البيت غيرك فيجيبه الآخر إنما يصح هذا إذا عدمت أنت ».

ونقل عن أحد الحكماء مستشهداً به لإثبات نظريته تجاه التوحيد ما يلي فقال :

---

(١) الأنبياء : (٢٥) .

(٢) « سنن ابن ماجة » (٢/١٢٤٩) .

(٣) « صحيح مسلم » مع النووي (١/٢٢٦) .

(قال الحكيم في قولهم : « خلق اللَّه الزمان » : هذه ألفاظ تناقض أصولها لأن خلق الزمان وهو فعل لابد من وقوعه في زمان وهذا اقتضاه ضيق العبارة عنه وعدم تأدية اللسان إلى الحق فيه فإذا تحقق فكان الموحد هو الموحد وعدم سواه وذهب الحدوث جملة صح التوحيد الذاتي وهو قولهم : «لا يعرف اللَّه إلا اللَّه »)[1] .

من خلال هاتين الحكايتين اللتين أوردتهما عن لسان الدين الخطيب يتضح لنا جليًا بأن هذا الرجل يعتبر التوحيد الذي أرسل اللَّه به الرسل وأنزل به الكتب ليس توحيدًا صحيحًا بل هو عين التعدد وذلك لأنه يتكون من شخص والذي يطلق عليه مُوَحِّد ومن اللَّه سبحانه وتعالى ويطلق عليه مُوَحَّد ومن توحيد .

ونحن أمة مسلمة مؤمنة باللَّه ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً لا نعتبر هذا تعددًا في المُوَحَّدِ بل هو عين التوحيد لأن اللَّه سبحانه وتعالى أرسل رسله وأنزل كتبه على خلقه من أجل أن يوحدوه وقد بلغ الرسل صلوات اللَّه وسلامه عليهم هذا التوحيد الذي أمرهم اللَّه بتبليغه فوحد المؤمنون ربهم بهذا التوحيد .

ولذا فإن اعتبار لسان الدين الخطيب هذا تعددًا إنما هو مغالطة واضحة منه قصد من ورائها القضاء على توحيد اللَّه سبحانه وتعالى الذي أرسل اللَّه به الرسل وأنزل الكتب من أجله ليسهل بعد ذلك نقلهم إلى اعتناق عقائد فاسدة التي نقلها المتصوفة من الفلسفات الوثنية القديمة والديانات المحرفة مثل القول بحلول اللَّه في مخلوقاته وهذا واضح في قول لسان الدين

---

(١) « روضة التعريف بالحب الشريف » للسان الدين الخطيب (ص٤٩٩) .

الخطيب السابق : « لا يعرف اللَّه إلا اللَّه » وقوله : « فكان المُوَحِّدُ هو الموحد » هذه العبارات تساوى القول بحلول اللَّه في مخلوقاته وهي عقيدة باطلة مخالفة لما جاء في الكتاب والسنة من الاعتقاد الواجب تجاه اللَّه سبحانه وتعالى حيث إن من العقائد المعلومة بالضرورة تجاه اللَّه سبحانه وتعالى هو الاعتقاد بأن اللَّه سبحانه وتعالى مباين لمخلوقاته في ذاته وصفاته وأفعاله كما في قوله تعالى :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[1] .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾[2] .

وقوله سبحانه : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾[3] .

وقد نقل لسان الدين عن أحد المتصوفة ولم يذكر اسمه أنه قال عن التوحيد :

« اعلم أن لطائف التوحيد أرق وألطف من أن تخرج بكثيف العبارة »[4].

وحكى عن منصور المغربي أنه قال :

« كنت بجامع بغداد والحصرى يتكلم في التوحيد فرأيت ملكين يعرجان إلى السماء فقال أحدهما لصاحبه : هذا علم والتوحيد غيره »[5] .

---

(١) الشورى : (١١) .

(٢) الإخلاص : (٤) .

(٣) مريم : (٦٥) .

(٤) « روضة التعريف بالحب الشريف » (ص٤٩٨) .

(٥) « روضة التعريف بالحب الشريف » (ص٤٩٨) .

وقال ابن عطاء أنه قال :

« حقيقة التوحيد نسيان التوحيد »[1] .

ونقل عن الواسطي أنه قال :

« لا تصح المعرفة وفي العبد استغناء باللَّه وافتقار إليه »[2] .

فالنصوص السابقة كلها منقولة عن كتاب متصوفة كبار معروفين وبالإضافة إلى ذلك قالها أناس متصوفة وألفاظها واضحة صريحة لا تحتاج إلى توضيح أو شرح .

ففي النص الأول : زعم هذا الصوفي أنه لا يمكن أن يعبر عن التوحيد لأن العبارة كثيفة والتوحيد رقيق ولطيف وهو افتراء على اللَّه بغير علم ولا هدى ولا كتاب مبين .

وفي النص الثاني : يقول هذا الصوفي أنه كان الحصري يتكلم في التوحيد واللَّه أعلم بنوع التوحيد الذي كان يتكلم عنه هذا الرجل وأنه سمع ملكين يقول أحدهما لصاحبه : إن ما يقوله هذا الرجل علم ولكن التوحيد غيره .

وفي النص الثالث : يزعم هذا الصوفي بأن حقيقة التوحيد هي نسيان التوحيد ولا أدري كيف يمكن الوصول إلى تحقيق التوحيد مع نسيانه ؟!! إن هذا لشيء عجاب بل هو استهزاء واستهتار وسخرية بعقول الناس وما هذه العبارة إلا دعوة إلى نسيان التوحيد حتى يسهل لهم غرس الشركيات في

---

(١) « الرسالة القشيرية » (٢/٥٨٨) .

(٢) « الرسالة القشيرية » (٢/٦٠٣) .

قلوب الناس بعد أن يفرغوها تمامًا من التوحيد الصحيح الذي جاء من عند اللَّه سبحانه وتعالى .

أما النص الرابع : فقد زعم فيه هذا الصوفي أنه لا يمكن أن يطلق على أحد أنه عارف باللَّه سبحانه وتعالى ومعرفة اللَّه سبحانه وتعالى حسب ما جاء في كتاب اللَّه وسنة رسول ﷺ عند أهل السنة والجماعة هي توحيد اللَّه في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وتحليل ما أحله اللَّه وتحريم ما حرمه اللَّه وطاعته الطاعة المطلقة وطاعة رسوله هذه هي معرفة اللَّه ومتطلباتها أما من شرط لمعرفة عدم الاستغناء باللَّه والافتقار إليه فهذه ليست معرفة اللَّه بل هي كفر باللَّه وتكبر عليه ولعل هذا الرجل يقصد القول بعقيدة الحلول .

ومن مشائخ الصوفية الذين تكلموا عن التوحيد جمال الدين محمد أبو المواهب الشاذلي[1] في كتابه « قوانين حكم الإشراق » فقد قال متحدثًا عن التوحيد عند الصوفية :

« توحيد هو تعداد وتوحيد أنا إفراد فإذا أردت أن تستغرق بحر الإفراد وتقف على الساحل مع الأفراد فاجعل توحيدك هو بلا هو فهناك تذهب بينونة البين »[2] .

ففي هذا النص يتضح لنا جليًا بأن هذا الصوفي اعتبر كلمة « هو » دالة على التعدد و« هو » وجود رب وعبد وأن هذا ليس بتوحيد صحيح لأنه يفهم

---

(١) هو جمال الدين محمد أبو المواهب الشاذلي كان من الظرفاء الأجلاء وكان له خلوة فوق سطحه وكان يغلب عليه السكر وكان كلامه ينشد في الموالد والاجتماعات والمساجد على رؤوس العلماء والصالحين فيتمايلون طربًا من حلاوته (ت ٨٠٠هـ) .

انظر « طبقات الشعراني » (٢/ ٦٧) .

(٢) « قوانين حكم الإشراق » لجمال الدين (ص ١٠) .

منه أن هناك مخلوقًا وخالقًا وأن التوحيد الصحيح حسب زعم المتصوفة هو أن يلقى هذا المعتقد ويصل إلى مرحلة يقول فيها « أنا » فإذا وصل هذه المرحلة فقد حقق التوحيد لأنه نفى وجود أي شيء إلا اللّه سبحانه وتعالى وبمعنى أدق يرمي هذا الرجل إلى عقيدة وحدة الوجود والتي هي أن كل ما في هذا الكون مجالي ومظاهر للّه سبحانه وتعالى وبالتالي يجوز عبادة كل ما في هذا الكون ولذا فالتوحيد الذي يدعو إليه المتصوفة هو القول بوحدة الوجود وهذا ليس توحيدًا بل هو الإلحاد بعينه وأي إلحاد أعظم من هذا الإلحاد الذي يجعل كل ما يدب على وجه الأرض أربابًا وآلهة سبحانك هذا بهتان عظيم وإفك مبين .

وقد قسم هذا الرجل المعرفة إلى أقسام ثلاثة فقال بعد ذكره للمرتبتين الأولى والثانية :

« . . . ومن المرتبة الثالثة مرتبة الإحسان وهي معرفة أهل العقول القدسية ومعرفتهم أن يشهدوا معروفهم في جميع المتفرقات كلها شيئًا واحدًا ويسمعوا نطقًا واحدًا ويشاهدوا تعريفًا واحدًا »[1] .

نلاحظ في النص السابق بأن الرجل صرح بأن نهاية معرفة اللّه سبحانه وتعالى وبلوغ الغاية القصوى فيها هي رؤية اللّه سبحانه وتعالى في جميع ما في هذا الكون وبالتالي أن يعتقدوا بأن كل ما يسمعونه ما هو إلا شيء ينطق به واحد بمعنى أن كل ما يشاهدونه يطلق عليه الرب وإلاله وأن كل ما في هذا الكون من مخلوقات ما هو إلا مجال ومظاهر للّه سبحانه وتعالى في نظر المتصوفة .

---

(١) « قوانين حكم الإشراق » لجمال الدين (٤٩) .

والمقصود من إيراد هذه العبارات هو الإثبات بأن المتصوفة يقفون من التوحيد الذي أرسل اللَّه به الرسل وأنزل به الكتب موقفًا معاديًا ويعتبرونه شركًا باللَّه سبحانه وتعالى وأن التوحيد الحقيقي عندهم هو الاعتقاد بوحدة الوجود وهو معتقد إلحادى كما هو معروف وسنفرد لهذه العقيدة الإلحادية مبحثًا خاصًا بعد هذا المبحث مباشرة فلا حاجة لمناقشتها هنا[1] .

ونقل أبو القاسم عن سهل بن عبد اللَّه أنه قال في « المعرفة » :

« المعرفة غايتها شيئان الدهش والحيرة »[2] .

وقال ذو النون المصري في وصفه لأعرف رجل باللَّه :

« أعرف الناس باللَّه أشدهم تحيراً فيه »[3] .

وقال الشبلي :

« بداية هذا الأمر حيرة ونهايته دهشة كالطفل أوله طفولة ثم يرد إلى علم ثم يرد إلى جهل »[4] .

والقصد من إيراد هذه النصوص هو أن هؤلاء الأئمة الكبار عند المتصوفة كلهم مدحوا الحيرة بل صرح أحدهم وهو ذو النون المصري والذي يعتبره المتصوفة قاطبة أنه أكثر من تكلم في المعرفة من أئمة التصوف بأن أعلى درجة يبلغها العارف باللَّه هو الذي يكون فيهم أكثر تحيراً فيه .

ولو نظرنا في كتاب اللَّه عز وجل سنجد بأن اللَّه سبحانه وتعالى قد ذم

---

(١) انظر : (٣٣٨ ـ ٣٨٤) .

(٢) « الرسالة القشيرية » (٢/ ٦٠٥) .

(٣) « الرسالة القشيرية » (٢/ ٦٠٥) .

(٤) « روضة التعريف بالحب الشريف » للسان الدين الخطيب (ص٤١٩) .

الحيرة وكيف يكون الحائر عارفًا باللَّه وهو جاهل وضال لا يعرف إلى أين يتجه لتحيره قال تعالى : ﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ﴾[1] .

ومن هنا نقول الحيرة تعتبر من جنس الجهل والضلال والتيه لأن الحائر هو الذي غلبه أمر من الأمور ولم يعرف إلى أين يتجه أو ماذا يفعل أو ماذا يعتقد فلا يمكن أن تكون الحيرة نهاية المعرفة بل هي جهل وضلال مبين ، صحيح أن الإنسان من الممكن أن يكون حائراً قبل معرفة اللَّه سبحانه وتعالى أما أن تكون الحيرة هي أقصى حد يبلغها العارف باللَّه فهذا ليس بصحيح بل هو كذب وافتراء.

ونحن نعتقد اعتقاداً جازمًا بأن الرسول ﷺ أعرف باللَّه على الإطلاق ولم نجد في القرآن الكريم ولا في السنة الصحيحة أنه كان متحيراً في اللَّه وكيف يكون متحيراً في اللَّه وهو الذي بعثه اللَّه لهداية البشرية والجن إلى الطريق القويم والصراط المستقيم ويدل على هذا قول اللَّه عز وجل : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[2] ومن وصفه اللَّه بهداية الخلق فلا يمكن أن يكون حائراً بل هو على بينة وبرهان من ربه .

قال تعالى : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾[4] .

---

(١) الأنعام : (٧١) .

(٢) الشورى : (٥٢) .

(٣) النجم : (١ ـ ٣) .

(٤) إبراهيم : (١) .

وقال تعالى : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّه تعالى رادًا على المتصوفة الذين مدحوا الحيرة :

« ولم يمدح الحيرة أحد من أهل العلم والإيمان ولكن مدحها طائفة من الملاحدة كصاحب الفصوص ابن عربي وأمثاله من الملاحدة الذين هم حيارى فمدحوا الحيرة وجعلوها أفضل من الاستقامة وادعوا أنهم أكمل الخلق وأن خاتم الأولياء منهم يكون أفضل في العلم باللَّه من خاتم الأنبياء وأن الأنبياء يستفيدون العلم باللَّه منهم وكانوا في ذلك كما يقال فيمن قال : ﴿ فخر عليهم السقف من تحتهم ﴾ لا عقل ولا قرآن فإن الأنبياء أقدم فكيف يستفيد المتقدم من المتأخر وهم عند المسلمين واليهود والنصارى أفضل من الأولياء فخرج هؤلاء عن العقل والدين دين المسلمين واليهود والنصارى »[2] .

ومن المتصوفة الذين صرحوا بأن كل من زعم أنه موحد للَّه سبحانه وتعالى فهو جاحد وأنه لا يمكن أن يوجد من يوحد اللَّه سبحانه وتعالى حقًا إلا اللَّه سبحانه وتعالى : الهروي[1] .

---

(١) الحديد : (٢٨) .

(٢) « الفتاوى الكبرى » لشيخ الإسلام ابن تيمية (٥/٥٩) .

(٣) الهروي هو عبد اللَّه بن محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن علي بن جعفر بن منصور الأنصاري الهروي أبو إسماعيل ولد بقندهار وحدث وتوفي بهراة في ذي الحجة ، من تصانيفه « منازل السائرين إلى الحق المبين » .

انظر « معجم المؤلفين » للكحالة (٦/١٣٣) .

وإليك الأبيات التي قالها الهروي معبراً بها عما قلناه فقد قال :

ما واحد الواحد مـن واحد إذ كل من وحده جاحد

توحيد من ينطق عن نعتـه تثنية أبطلها الواحـــد

توحيـده إيـــاه توحيـده ونعت من ينعته لاحد[1]

فأبو إسماعيل الهروي يقصد بهذه الأبيات التوحيد الذي جاءت به الرسل ونزلت به الكتب وبه بعث اللَّه الأولين والآخرين من الرسل قال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[4] .

وقد أخبرنا اللَّه سبحانه وتعالى عن الرسل مثل نوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم أنهم قالوا لقومهم جميعًا اعبدوا اللَّه ما لكم من إله غيره وهذا أول دعوة الرسل وآخرها .

قال النبي ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا اللَّه

---

(١) « منازل السائرين إلى الحق المبين » للهروي .

(٢) الزخرف : (٤٥) .

(٣) النحل : (٣٦) .

(٤) الأنبياء: (٢٥) .

وأني رسول اللَّه فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على اللَّه »[1] .

وفي حديث آخر قال رسول اللَّه ﷺ : « أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأني رسول اللَّه لا يلقى اللَّه بهما عبد غير شاك فيحجب عن الجنة»[2] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

« والقرآن كله مملوء من تحقيق هذا التوحيد والدعوة إليه وتعليق النجاة والفلاح واقتضاء السعادة في الآخرة به ومعلوم أن الناس متفاضلون في تحقيقه وحقيقته إخلاص كله للَّه والفناء في هذا التوحيد مقرون بالبقاء وهي أن تثبت إلهية الحق في قلبك وتنفي إلهية ما سواه فتجمع بين النفي والإثبات فتقول لا إله إلا اللَّه فالنفي هو الفناء والإثبات هو البقاء وحقيقته أن تفني بعبادته عما سواه ومحبته عن محبة ما سواه وبخشيته عن خشية ما سواه وبطاعته عن طاعة ما سواه وبموالاته عن موالاة ما سواه وبسؤاله عن سؤال ما سواه وبالاستعاذة به عن الاستعاذة بما سواه وبالتوكل عليه عن التوكل على ما سواه»[3] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في صفحة أخرى من نفس الكتاب في معرض رده على الهروي وأمثاله من المتصوفة :

« وهذا التوحيد كثير في القرآن وهو أول الدين وآخره وباطن الدين وظاهره وذروة سنام هذا التوحيد لأولي العزم من الرسل ثم للخليلين محمد

---

(١) « صحيح مسلم » مع النووي (١/ ٢١٢) .

(٢) « صحيح مسلم » مع النووي (١/ ٢٢٦) .

(٣) « منهاج السنة النبوية » لشيخ الإسلام ابن تيمية (٥/ ٣٤٧) .

وإبراهيم صلى اللَّه عليهما وسلم تسليمًا . . . وأفضل الرسل بعد محمد ﷺ إبراهيم فإنه قد ثبت في الصحيح أنه قال عن خير البرية أنه إبراهيم وهو الإمام الذي جعله اللَّه إمامًا وجعله أمة والأمة القدوة الذي يقتدى به فإنه حقق هذا التوحيد وهو الحنيفية ملته »[1] .

قال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[3] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّه في نفس الكتاب في صفحة أخرى :

« والمقصود هنا أن الخليلين هما أكمل خاصة الخاصة توحيدًا فلا يجوز أن يكون في أمة محمد ﷺ من هو أكمل توحيدًا من نبي من الأنبياء فضلاً عن الرسل فضلاً عن أولي العزم فضلاً عن الخليلين وكمال توحيدهما

---

(١) « منهاج السنة النبوية » لشيخ الإسلام ابن تيمية (٥/ ٣٤٩) .

(٢) الممتحنة : (٤ ـ ٦) .

(٣) الزخرف : (٢٦ ـ ٢٨) .

بتحقيق إفراد الألوهية وهو أن لا يبقى في القلب شيء لغير اللَّه أصلاً بل يبقى العبد مواليًا لربه في كل شيء يحب ما أحب ويبغض ما أبغض ويرضى بما يرضى ويسخط بما سخط ويأمر بما أمر وينهى عما نهى »[1] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب الهروى « منازل السائرين » :

« وقد ذكر في كتابه أشياء حسنة نافعة وأشياء باطلة ولكن هو فيها ينتهي إلى الفناء في توحيد الربوبية ثم إلى التوحيد الذي هو حقيقة الاتحاد ولهذا قال : باب التوحيد : قال اللَّه تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾[2] التوحيد تنزيه اللَّه عن الحدث ، قال : وإنما نطق بما نطقوا به وأشار المحققون إلى ما أشاروا إليه في هذا الطريق لقصد تصحيح التوحيد وما سواه من حال أو مقام فكله مصحوب العلل »[3] .

أقسام التوحيد عند الصوفية :

لقد قسم المتصوفة التوحيد إلى ثلاثة أقسام وهذه الأقسام الثلاثة وإن اختلفوا في العبارات التي ساقوها بها إلا أنهم يتفقون جميعًا في المضمون الذي يرمون إليه وكلهم متفقون على أن التوحيد الحقيقي الذي يجب أن يحققه الصوفي ليس التوحيد الذي أرسل به الرسل وأنزل به الكتب وهو إفراد اللَّه بالعبادة وحده لا شريك بل يعتبرون هذا التوحيد للعوام فقط أما الخاصة وخاصة الخاصة فليس هذا توحيدهم بل توحيد خاصة الخاصة هو القول بوحدة الوجود وهذا ليس وصولاً إلى حقيقة التوحيد بل هو وصول

---

(١) « منهاج السنة النبوية » لشيخ الإسلام ابن تيمية (٥/ ٣٥٥) .

(٢) آل عمران : (١٨) .

(٣) « الفتاوى الكبرى » لشيخ الإسلام ابن تيمية (٥/ ٣٤٢) .

إلى قمة الإلحاد الذي لم يسبقهم إليه أحد من أهل الديانات السماوية المحرفة كاليهودية والنصرانية .

وإلى جانب ذلك فهذه الأقسام التي قسمها المتصوفة للتوحيد تخالف تمامًا الأقسام التي قسمها أهل السنة والجماعة لتوحيد اللَّه عز وجل استقراءً من النصوص الشرعية .

وأبدأ بذكر نماذج من النصوص التي تثبت انحراف المتصوفة في تقسيم التوحيد .

فمن الأئمة الكبار عند المتصوفة الذين تكلموا عن التوحيد عند الصوفية وقسموه إلى أقسام ثلاثة أبو إسماعيل الهروي فقد تكلم عن التوحيد وقسمه إلى ثلاثة أقسام فقال :

والتوحيد على ثلاثة أوجه :

الأول : توحيد العامة الذي يصح بالشواهد .

والثاني : توحيد الخاصة وهو الذي يثبت بالحقائق .

والوجه الثالث : توحيد قائم بالقدم وهو توحيد خاصة الخاصة .

فأما التوحيد الأول فهو شهادة أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد هذا هو التوحيد الظاهر الجلي الذي نفى الشرك الأعظم وعليه نصبت القبلة وبه وجبت الذمة وبه حقنت الدماء والأموال وانفصلت دار السلام من دار الكفر وصحت به الملة للعامة وإن لم يقوموا بحسن الاستدلال بعد أن سلموا من الشبهة والحيرة والريبة بصدق شهادة صحتها قبول القلب.

هذا توحيد العامة الذي يصح بالشواهد والشواهد هي الرسالة .

قال : وأما التوحيد الثاني الذي يثبت بالحقائق فهو توحيد الخاصة وهو

إسقاط الأسباب الظاهرة والصعود عن منازلات العقول وعن التعلق بالشواهد وهو أن لا يشهد في التوحيد دليلاً ولا في التوكل سببًا ولا في النجاة وسيلة فيكون شاهدًا سبق الحق بحكمه وعلمه ووضعه الأشياء مواضعها وتعليقه إياها بأحايينها وإخفائه إياها في رسومها ويحقق معرفة العلل ويسلك سبيل إسقاط الحدث هذا توحيد الخاصة. . . . . .

ثم قال : وأما التوحيد الثالث فهو توحيد اختصه الحق لنفسه واستحقه وألاح منه لائحًا إلى أسرار طائفة من صفوته وأخرسهم عن نعته وأعجزهم عن بثه والذى يشاربه إليه على ألسن المشيرين أنه إسقاط الحدث وإثبات القدم على أن هذا الرمز في ذلك التوحيد علة لا يصح ذلك التوحيد إلا بإسقاطها .

ثم قال : هذا قطب الإشارة إليه على ألسن علماء أهل هذا الطريق وإن زخرفوا له نعوتًا وفصلوها تفصيلاً فإن ذلك التوحيد تزيده العبارة خفاءً والصفة نورًا والبسط صعوبة وإلى هذا التوحيد شخص أهل الرياضة وأرباب الأحوال وإليه قصد أهل التعظيم وإياه عني المتكلمون في عين الجمع وعليه تصطلم الإشارات ثم لم ينطق عنه لسان ولم تشر إليه عبارة فإن التوحيد وراء ما يشير إليه سكون أو يتعاطاه حين أو يقله سبب »[1] .

ثم قال : وقد أجبت في سالف الدهر سائلاً عن توحيد الصوفية بهذه القوافي الثلاث :

---

(١) « منازل السائرين » للهروي (ص٤٧) .

٢ ـ وكذلك « روضة التعريف » للسان الدين الخطيب (ص٤٩٧) .

٣ ـ وكذلك « قوانين حكم الإشراق » لجمال الدين (ص١٣) .

ما وحد الواحد من واحد إذ كل من وحده جاحد

توحيد من ينطق عن نعته عارية أبطلها الواحد

توحيده إياه توحيده ونعت من ينعته لاحد

من خلال هذه العبارات التي نقلتها عن أئمة التصوف يتضح لنا بأن المتصوفة أعرضوا عن الأقسام التي قسمها أهل السنة والجماعة للتوحيد عن طريق الاستقراء لنصوص الكتاب والسنة وأتوا بتقسيمات جديدة من عند أنفسهم للتوحيد ما أنزل اللَّه بها من سلطان لأن هذه الأقسام الثلاثة التي للتوحيد لم نجدها لا في كتاب اللَّه ولا في سنة رسول اللَّه محمد ﷺ بل هي تقسيمات أتوا بها من عند أنفسهم متبعين أهواءهم الضالة وأراءهم الفاسدة ولو رجعوا إلى كتاب اللَّه وسنة رسوله محمد ﷺ وفهموا معناهما لوصلوا إلى حقيقة التوحيد وأقسامه الصحيحة والذي يتلخص بأنه « هو إفراد اللَّه في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته ولما وقعوا في هذه المتاهات والخرافات والضلالات التي أوقعتهم في مزالق خطيرة وقعوا بسببها في كلام واعتقاد خطير جدًا يؤدي بصاحبه إلى الهلاك الأبدي إن لم يتب منه ألا وهو اعتبارهم التوحيد الذى جاءت به الرسل وأنزلت به الكتب بأنه خاص بالعوام الذين لا يدركون حقائق الأمور فقط أما الخواص الذين يدركون الحقائق فإنه بالنسبة لهم يعتبر شركًا وهذا كلام خطير جدًا فإن هذا التوحيد الذي يصفونه بهذه الأوصاف هو التوحيد الذي أنزل اللَّه الكتب وأرسل الرسل من أجله فكيف تجرءوا على أن يصرحوا قائلين إنه توحيد العوام وأن توحيدهم توحيد الحقائق وكذبوا واللَّه فإن توحيد الحقائق هو هذا التوحيد الذي أرسل اللَّه به الرسل وأنزل به الكتب وهو إفراد اللَّه في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته.

أما التوحيد الذي يدعيه دجاجلة المتصوفة فليس بتوحيد إنما هو إلحاد وخرافة وزندقة وبهتان وكذب وافتراء على اللَّه بغير علم ولا هدى ولا كتاب مبين .

والتقسيمات التي نعرفها عن أهل السنة والجماعة من خلال استقرائنا لنصوص الكتاب والسنة هي أقسام ثلاثة فقط وهي كلها تختلف مع هذه التقسيمات التي ذكرها المتصوفة للتوحيد :

فالقسم الأول : هو توحيد الألوهية .

والقسم الثاني : هو توحيد الربوبية .

والقسم الثالث : هو توحيد الأسماء والصفات .

ولا نريد أن نتعرض لتعريفها وتوضيحها هنا لأننا قد بيناه في المبحث السابق[1] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية متحدثًا عن تقسيمات المتصوفة هذه للتوحيد وقد تكلم عن كل الأقسام الثلاثة ونقضها ولكني أريد أن أورد كلامه عن القسم الثالث فقط خشية الإطالة قال رحمه اللَّه :

« وأما التوحيد الثالث فهو توحيد اختصه الحق لنفسه واستحقه بقدره . . . إلى آخر كلامه . فهؤلاء هم الذين أنكر عليهم أئمة الطريق الجنيد وغيره حيث لم يفرقوا بين القديم والمحدث وحقيقة قول هؤلاء الاتحاد والحلول الخاص من جنس قول النصارى في المسيح وهو أن يكون الموحد هو الموحد ولا يوحد اللَّه إلا اللَّه وكل من جعل غير اللَّه يوحد اللَّه فهو

---

(١) انظر : (١٨٥ ـ ٢٠٥) .

جاحد عندهم كما قال :

ما وحد الواحد « أي من واحد غيره » إذ كل من وحده جاحد .

فإنه على قولهم هو الموحد والموحد ولهذا قال :

توحيد من ينطق عن نعته عارية أبطلها الواحـــــد

يعني إذا تلكم العبد بالتوحيد وهو يرى أنه المتكلم فإنما ينطق عن نعت نفسه فيستعير ما ليس له فيتكلم به وهذه عارية أبطلها الواحد ولكن إذا فني عن شهود نفسه وكان الحق هوالمتكلم على لسانه حيث فنى من لم يكن وبقي من لم يزل فيكون الحق هو الناطق بنعت نفسه لا بنعت العبد ويكون هو الموحد وهو الموحد ولهذا قال توحيده إياه توحيده .

أي توحيد الحق إياه أي نفسه هو توحيده هو لا توحيد المخلوقين له » فإنه لا يوحده عندهم مخلوق بمعنى أنه هو الناطق بالتوحيد على لسان خاصة ليس الناطق هو المخلوق كما يقول النصارى في المسيح أن اللاهوت تكلم بلسان الناسوت .

وحقيقة الأمر أن كل من تكلم بالتوحيد أو تصوره وهو يشهد غير اللَّه فليس بموحد عندهم وإذا غاب وفني عن نفسه بالكلية فتم له مقام توحيد الفناء الذي يجذبه إلى توحيد أرباب الجمع صار الحق الناطق المتكلم بالتوحيد وكان هو الموحِّد وهو الموحَّد لا موحد غيره .

وحقيقة هذا القول لا يكون إلا بأن يصير الرب والعبد شيئًا واحدًا وهو الاتحاد فيتحد اللاهوت والناسوت كما يقول النصارى إن المتكلم بما كان يسمع من المسيح هو اللَّه وعندهم إن الذين سمعوا منه هم رسل اللَّه وهم عندهم أفضل من إبراهيم وموسي ولهذا تكلم بلفظ اللاهوت والناسوت طائفة

من الشيوخ الذين وقعوا في الاتحاد والحلول مطلقًا ومعينًا فكانوا ينشدون قصيدة ابن الفارض ويتحلون بما فيها من تحقيق الاتحاد العام ويرون كل ما في الوجود هو مجلى ومظهر ظهر فيه عين الحق .

ثم قال شيخ الإسلام ناقدًا لقول المتصوفة في النص السابق في وصفهم للقسم الثالث من أقسام التوحيد :

« وألاح منه لائحًا إلى أسرار طائفة من صفوته وأخرسهم عن نعته وأعجزهم عن بثه قال أفضل صفوته هم الأنبياء وأفضلهم الرسل أولو العزم وأفضل أولو العزم محمد ﷺ وما ألاحه اللَّه على أسرار هؤلاء فهو أكمل توحيد عرفه العباد وهم قد تكلموا بالتوحيد ونعتوه وبثوه وما يقدر أحد قط أن ينقل عن نبي من الأنبياء ولا وارث نبي أنه يدعي أنه يعلم توحيدًا لا يمكنه النطق به بل كل ما علمه القلب أمكن التعبير عنه لكن قد لا يفهمه إلا بعض الناس.

فأما أن يقال : إن محمدًا ﷺ عاجز عن أن يبين ما عرفه اللَّه من توحيده فهذا ليس كذلك .... ثم قال شيخ الإسلام في شرحه لقول المتصوفة في النص السابق وبالتحديد في القسم الثالث من أقسام التوحيد عندهم :

« والذي يشار إليه على ألسن المشيرين أنه إسقاط الحدث وإثبات القدم

يقال مرادهم بهذا نفي المحدث أي ليس هنا إلا القديم وهذا على وجهين فإن أيد به نفي المحدث بالكلية وأن العبد هو القديم فهذا شر من قول النصارى فإن اليعقوبية يقولون : إن اللاهوت والناسوت امتزجا واختلطا فصارا جوهرًا واحدًا وأقنومًا واحدًا وطبيعة واحدة .... فقول القائل :

إسقاط الحدوث إن أراد به أن المحدث عدم فهذا مكابرة وإن أراد به إسقاط المحدث من قلب العبد وأنه لم يبق في قلبه إلا القديم فهذا إن أريد به ذات القديم فهو قول النسطورية من النصارى وإن أريد به معرفته والإيمان به وتوحيده أو قيل مثله أو المثل العلمي أو نوره أو نحو ذلك فهذا المعنى صحيح فإن قلوب أهل التوحيد مملوءة بهذا لكن ليس في قلوبهم ذات الرب القديم وصفاته القائمة به وأما أهل الاتحاد العام فيقولون : ما في الوجود إلا الوجود القديم وهذا قول الجهمية »[1] .

والخلاصة التي توصلنا إليها من خلال دراستنا لموقف المتصوفة من التوحيد الذي أرسل اللَّه به الرسل وأنزل الكتب من أجله هي أن مواقفهم من التوحيد مواقف مخالفة ومضادة لما جاء في الكتاب والسنة عن توحيد اللَّه سبحانه وتعالى ويتلخص هذا :

أولاً : يعتقد المتصوفة بأنه لا يجوز التعبير عن التوحيد ومن عبر عنه فقد كفر وألحد لأنه شيء غامض غير متصور وقد بينا مخالفة هذا المعتقد لما جاء في الكتاب والسنة من التعبير عن التوحيد بشتى الصور .

ثانيًا : يعتقد المتصوفة بأن التوحيد الذى جاء في الكتاب والسنة ليس بتوحيد صحيح بل هو عين التعدد والشرك وأن الموحد الصحيح هو الذي يصل إلى مرحلة يحل فيه اللَّه فيقول : أنا اللَّه ـ حسب زعمهم ـ .

ثالثًا : يعتقد المتصوفة بأن هذا التوحيد الذي أرسل اللَّه به الرسل وأنزل الكتب من أجله إنما هو توحيد خاص بالعوام فقط أما الخواص وخواص الخواص فتوحيدهم غير هذا تمامًا حيث أن الوقوف عند التوحيد الذي جاء

---

(١) « منهاج السنة » لشيخ الإسلام ابن تيمية (٥/ ٣٧٠ ـ ٣٨٣) باختصار .

في الكتاب والسنة يعتبر عندهم شركًا.

وعلى هذا فالصوفية يقفون من التوحيد الذي أمر اللَّه به موقفًا معاديًا ويأليت المتصوفة يقفون عند هذا الحد بل ذهبوا بعد أن نفروا الناس عن التوحيد الصحيح إلى ابتداع عقائد إلحادية وسموها التوحيد الحقيقي الذي ينبغي أن يصل إليه الإنسان وهذا ما سنبينه في المبحث الآتي إن شاء اللَّه[1].

* * *

(١) انظر (ص٢٣٦ ـ ٢٦٥).

المبحث الثالث

مفهوم التوحيد عند غلاة الصوفية

هو القول بوحدة الوجود

وتحته ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : النصـــوص التي تثبت على أن التوحيد عند غلاة الصوفية هو القول بوحدة الوجود.

المطلب الثاني : المضاعفـــات التي ترتبت على القول بوحدة الوجود.

المطلب الثالث : حكـــم من يعتقد بعقيدة وحدة الوجود في ميزان الإسلام.

ثالثا: تطبيقا

قرأ يحيى قائلة ملتقه عليه بتاء وجهه

وجهي يا قلبي يا بيتي

بسائله قائلة متصنع :

نأ يله تثبتا بيتي يه يسعدنا : ناعثا بسلطما

يه قرأ يحيى قائلة ملتقه عليه بتاء

وجهي يا قلبي يا بيتي.

يله تثبتا بيتي تا لسفه لبطما : يالثا بسلطما

وجهي يا قلبي يا بيتي.

قلبي قلبتعب ملتقو ن يه وسلقه : ثالثا بسلطما

وكلسعا نا نيه يف وجهي.

المطلب الأول

ذكر النصوص التي تدل على أن الصوفية يعتقدون بأن حقيقة التوحيد هو القول بوحدة الوجود

لقد بينا في المبحث السابق موقف الصوفية ، من التوحيد الذي أرسل اللَّه به الرسل وأنزل به الكتب ورأينا هناك بأنهم يقفون من هذا التوحيد موقفًا معاديًا حيث صرح بعضهم بأنه لا يمكن التعبير عن التوحيد لأنه شيء غامض جدًا بل لا يمكن حتى مجرد تصوره هذا بل من عبر عنه أو تصوره فهو جاحد كافر مع أن اللَّه طلب من عباده أن يعبروا عن التوحيد في كتابه بشتى الصور وعبر عنه الرسول في سنته ولم يكتفوا بهذا بل قال بعضهم بأن التوحيد الذي جاء في الكتاب والسنة إنما هو توحيد يليق بالعوام فقط أما الخواص فإن هذا التوحيد بالنسبة لهم يعتبر شركًا ويقصد المتصوفة بالعوام كل الأمة الإسلامية ما عداهم .

وفي هذا المطلب نريد أن نبين بأن المتصوفة لم يقفوا عند هذه الضلالات التي سبق ذكرها بل ادعوا بأن حقيقة التوحيد التي ينبغي أن يصل إليها الإنسان هي القول بوحدة الوجود وهذا ليس وصولاً إلى حقيقة التوحيد وإنما هو وصول إلى حقيقة الإلحاد وقمته ونهايته .

ووحدة الوجود تعني في المعتقد الصوفي :

أنه ليس هناك موجود إلا اللَّه فليس غيره في الكون وما هذه الظواهر

التي نراها إلا مظاهر لحقيقة واحدة هي الحقيقة الإلهية ـ تعالى اللَّه عن ذلك علواً كبيراً ـ .

هذه الحقيقة التي تنوعت وجوداتها ومظاهرها في هذا الكون المشاهد وليس هذا الكون في هذه العقيدة الباطلة إلا اللَّه في زعمهم تعالى اللَّه عن ذلك علواً كبيراً »[1] .

والآن بعد أن عرفنا معنى وحدة الوجود إليك نصوص عن أئمة التصوف ومن بطون كتبهم تثبت لنا بأن المتصوفة بالفعل يعتنقون هذه العقيدة الإلحادية ويعتبرونها قمة التوحيد ونهايته رغم أن العكس هو الصحيح وهو أن هذه العقيدة هي قمة الإلحاد ونهايته وليس هناك في هذا الكون إلحاد أعظم منها.

* فمن الأئمة الكبار عند المتصوفة الذين قالوا بوحدة الوجود محيي الدين بن عربي :

وهذا الرجل يعتبر من المتصوفة الكبار الذين تفانوا في توضيح هذه العقيدة الإلحادية بشتى الأساليب حتى لقد حاول صرف معاني الآيات القرآنية عن معانيها الصحيحة التي تدل عليها من أجل تأييد عقيدة وحدة الوجود وهو بالفعل يعتبر الرجل الوحيد الذي فاق من سبقه ومن لحق به ومن عاصره في توضيح هذه العقيدة الإلحادية ويلاحظ هذا كل من يقرأ في كتبه مثل «فصوص الحكم » و « الفتوحات المكية » .

وإليك النصوص التي تثبت أن هذا الرجل كان يقول بوحدة الوجود بألفاظ صريحة وواضحة ودالة دلالة مباشرة على هذه العقيدة الكفرية الإلحادية الخالصة .

قال متحدثًا عن الإله في معتقده الصوفي الفاسد :

---

(١) انظر « الفكر الصوفي » لعبد الرحمن عبد الخالق (ص٦٩) .

« فالإله المطلق لا يسعه شيء لأنه عين الأشياء وعين نفسه والشيء لا يقال فيه يسع نفسه ولا يسعها فافهم »[1] .

فإذا نظرنا في هذا النص نجده يدل دلالة واضحة على اعتقاد الرجل بوحدة الوجود ويتضح لنا هذا في قوله : « فالإله المطلق لا يسعه شيء لأنه عين الأشياء » أي أن اللَّه سبحانه وتعالى عين كل الأشياء الموجودة في هذا الكون وإذا كان اللَّه عين كل الأشياء فإذًا كل ما في هذا الكون مجالي ومظاهر للَّه وبالتالي يطلق عليه اللَّه وهذه هي بعينها عقيدة القول بوحدة الوجود.

ويقول ابن عربي أيضًا معبراً عن عقيدته الإلحادية وموضحًا لها :

« . . . . وإذا كان الحق وقاية للحق بوجه والعبد وقاية بوجه فقل في الكون ما شئت إن شئت قلت : هو الخلق وإن شئت قلت : هو الحق وإن شئت قلت : هو الحق الخلق وإن شئت قلت : لا حق من كل وجه ولا خلق من كل وجه وإن شئت قلت بالحيرة »[2] .

فالنص واضح فيه عقيدة الرجل بوحدة الوجود حيث قال : إنه يصح إطلاق الربوبية على هذا الكون حيث أنه يعني بكلمة الحق اللَّه سبحانه وتعالى ، ثم قال : إنه يجوز أن يوصف هذا الكون بأنه حق وخلق أي مزدوج وهذه عقيدة الاتحاد والشاهد في النص هو قول ابن عربي في الكون:

« إن شئت قلت : هو الحق وإن شئت قلت : هو الحق الخلق » .

---

(١) « فصوص الحكم » لمحيي الدين بن عربي « فص فردية في كلمة محمدية » (٤٤٠) مع شرح بالي أفندي .

(٢) « فصوص الحكم » لابن عربي (ص١١٣) .

ويقول ابن عربي أيضًا معبراً عن عقيدته الوجودية :

فلولاه ولولانا لما كان الذي كانـــا فأنا أعبـــد حقًا وإن اللَّه مولانـــا
وأنا عينه فاعلـــم إذا ما قلت إنسانًـــا فلا تحجب بإنسان فقد أعطاك برهانـا
فكن حقًا وكن خلقًا تكن باللَّه رحمانـا وغذ خلقه منه تكن روحًا وريحـــانـا
فأعطيناه ما يبدو بـــه فينـــا وأعطانـــا فصار الأمر مقســـومًا بإياه وإيانـــا
فكنا فيه أكوانًا وأعيانًا وأزمانا[1]

ففي هذه الأبيات الشعرية عبر ابن عربي عن عقيدته الإلحادية وهو القول بوحدة الوجود فانظر مثلاً في البيت الثاني :

(وأنا عينه فاعلـم إذا ما قلـت إنسانًـــا فلا تحجب بإنسان فقد أعطاك برهانـا)

معنى هذا البيت يقول ابن عربي: إنه هو بنفسه عين اللَّه أي هو اللَّه ويحذر من أن تحجب صورته البشرية عن أنه عين اللَّه ويقول لا تحجب بإنسان فقد أعطاك برهانًا .

ومعنى البيت الثالث يأمر ابن عربي أن يكون أي مخلوق مخلوقًا وخالقًا في آن واحد أي ازدواجيين الخالق والمخلوق .

ومعنى البيت الرابع يقول ابن عربي: إن المخلوقات أعطت للَّه سبحانه وتعالى هذه الهياكل والأشكال ليظهر فيها ولهذا صار الأمر بين اللَّه وبين الخلق بمعنى أن كل المخلوقات هذه هي مظاهر ومجالي للَّه سبحانه وتعالى تعالى اللَّه عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

وفي البيت الأخير يصرح ابن عربي بأن كل ما يطلق عليه كون أو أعيان أو أزمان فهي كلها مظاهر مجالي للَّه سبحانه وتعالى ولا حقيقة لوجود أي

(١) « فصوص الحكم » لابن عربي الفص العيسوي (ص١٤٣) .

شيء سوى اللَّه سبحانه وتعالى وهذه بعينها هي القول بوحدة الوجود .

ويقول ابن عربي في كتابه « فصوص الحكم » موضحًا عقيدته الوحدوية أي عقيدة وحدة الوجود :

« ومن أسمائه الحسنى « العلي » على من . . . . وما ثم إلا هو فهو العلي لذاته أو عن ماذا وما هو إلا هو فعلوه لنفسه وهو من حيث الوجود عين الموجودات فالمسمى المحدثات هي العلية لذاتها وليست إلا هو فهو العلي لا علو إضافة لأن الأعيان التي لها العدم الثابتة فيه ما شمت رائحة من الوجود فهي على حالها مع تعداد الصور في الموجودات والعين واحدة من المجموع في المجموع فوجود الكثرة في الأسماء وهي النسب وهي أمور عدمية وليس إلا العين الذي هو الذات فهو العلي لنفسه لا بالإضافة فما في العالم من هذه الحيثية علو إضافة لكن الوجوه الوجودية متفاضلة فعلو الإضافة موجود في العين الواحدة من حيث الوجوه الكثيرة لذلك نقول فيه هو لا هو أنت لا أنت .

قال الخراز رحمه اللَّه تعالى :

وهو وجه من وجوه الحق ولسان من ألسنته ينطق عن نفسه بأن اللَّه تعالى لا يعرف إلا بجمعه بين الأضداد في الحكم عليه بها فهو الأول والآخر والظاهر والباطن فهو عين ما ظهر وهو عين ما بطن في حال ظهوره وما ثم من يراه غيره ثم من يبطن عنه فهو ظاهر لنفسه باطن عنه وهو المسمى أبا سعيد الخراز وغير ذلك من المحدثات »[1] .

ففي هذا النص عقيدة وحدة الوجود ظاهرة جدًا في عدة ألفاظ فمثلاً

---

(١) « فصوص الحكم » لابن عربي (ص٧٦) .

قوله «علىٌّ وما ثم إلا هو» هنا في هذا النص نفي أن يكون غير اللَّه موجوداً.

ثم في قوله : « وهو من حيث الوجود عين الموجودات » .

ففي هذا النص قول ابن عربي بوحدة الوجود واضح جداً لأنه قال : إن اللَّه عين الموجودات وكلمة الموجودات تشمل كل ما في هذا الكون من أرض وسماء وما فيهما وما بينهما ففي نظر ابن عربي أن هذه الموجودات كلها هي اللَّه ، تعالى اللَّه عن ذلك علواً كبيراً ، والنص فيه شواهد كثيرة للتدليل على أن هذا الرجل من القائلين بوحدة الوجود ولكن اكتفينا بذكر بعض الشواهد خشية الإطالة لأن المقصود هو ذكر دليل يثبت اعتناق ابن عربي لعقيدة وحدة الوجود وقد تم ذلك .

ولم يتورع ابن عربي مع ذلك أن ينسب ما في هذا الوجود كله من شر وقبائح وسفك دماء إلى اللَّه عز وجل بل جعل كله ذلك هو اللَّه سبحانه وتعالى وإليك نص كلامه الدال على ذلك .

فقد قال : « فالعلي لنفسه هو الذي يكون له الكمال الذي يستغرق به جميع الأمور الوجودية حيث لا يمكن أن يفوته نعت فيها وسواء كانت محمودة عرفًا وعقلاً وشرعًا أو مذمومة عرفًا وعقلاً وليس ذلك إلا لمسمى اللَّه خاصة »[1] .

فعلى قول ابن عربي هذا أن القائلين بوحدة الوجود يصفون اللَّه عز وجل بكل ما في هذا الكون من أوصاف سواء كانت هذه الأوصاف قبيحة أو حسنة بل يصفونه بكل موجود في هذا الكون من حيوان وإنسان وجن وغيرها من مخلوقات اللَّه وذلك لأنهم يعتقدون بأنه لا موجود في هذا الكون إلا اللَّه

(١) « فصوص الحكم » لابن عربي (ص٧٩) .

أما ما عداه فهي مجرد مجالي ومظاهر للّه سبحانه وتعالى وهذا كفر بواح بل ليس على الأرض كفر أكبر من هذا الكفر ولقد كرر مثل هذا المعنى في كتابه « الفصوص » مرات عديدة فقال :

« ألا ترى الحق يظهر بصفات المحدثات وأخبر بذلك عن نفسه وبصفات النقص وبصفات الذم »[1] .

ولم يكتف ابن عربي بهذا بل زعم أن الحق لا يشهد أتم شهود ولا يعرف حق المعرفة إلا في المرأة . . . حال اللذة والشهوة وإليك نص عبارته الوقحة البعيدة عن الأدب حيث قال :

« ولما أحب الرجل المرأة طلب الوصلة أي غاية الوصل التي تكون في المحبة فلم يكن في صورة النشأة العنصرية أعظم وصلة من النكاح ولهذا تعم الشهوة أجزاءه كلها ولذلك أمر بالاغتسال منه فعمت الطهارة كما عم الفناء فيها عند حصول الشهوة فإن الحق غيور على عبده أن يعتقد أنه يلتذ بغيره فطهره بالغسل ليرجع بالنظر إليه فيمن فني فيه إذ لا يكون إلا ذلك فإذا شاهد الرجل الحق في المرأة كان شهوداً في منفعل وإذا شاهد في نفسه من حيث ظهور المرأة عنه شاهده في فاعل وإذا شاهده في نفسه من غير استحضار صورة ما تكون عنه كان شهوده في منفعل عن الحق بلا واسطة فشهوده للحق في المرأة أتم وأكل . . . لأنه يشاهد الحق من حيث هو فاعل منفعل . . . ومن نفسه من حيث هو منفعل خاصة فلهذا أحب الرسول ﷺ النساء لكمال شهود الحق فيهن إذ لا يشهد الحق مجرداً عن المواد أبداً »[2] .

---

(١) « فصوص الحكم » لابن عربي (ص٨٠) .

(٢) « فصوص الحكم » لابن عربي (ص٢١٧) .

واستطرد ابن عربي مقررًا هذا المعنى شارحًا له فقال :

« فشهود الحق في النساء أعظم الشهود وأكمله » .

وقال أيضًا : « فمن أحب النساء على هذا الحد فهو حب إلهي » .

وقال أيضًا :

صح عند الناس أني عاشق غير أن لم يعرفوا عشقي لمن[1]

قال الشيخ عبد الرحمن الوكيل معلقًا على قول ابن عربي هذا :

« الرجل والمرأة عند ابن عربي صورتان من صور اللّه ، يعني حقيقة تتجلى في صورتي رجل وامرأة وفي حال المواقعة يسمى الرجل فاعلاً والمرأة منفعلة ويدين الزنديق بأن ربه فاعل منفعل معًا فهو فاعل لتعينه في صورة رجل وهو منفعل لتعينه في صورة امرأة مع رجل ولما كانت المرأة هكذا يصور الزنديق تعتبر فاعلة لشدة تأثيرها في الرجل في تلك الحال العاصفة بالشهوة فإن شهود الإله الصوفي في المرأة الهلوك أتم وأكمل إذ يشاهده فيها في صورة فاعل ومنفعل . وهنا يبدو خطر التصوف الجامح على الخلق والعرض والأمة ماذا يفعل الصوفي وهو يؤمن أن المرأة هي أتم وأكمل مجالي الإله ماذا سيحدث منه وهو يؤمن أن ربه امرأة يواقعها رجل . اعفني من الجواب لأنك ستدرك الجواب وستدرك أن التصوف دعوة ملحة إلى الإباحية الماجنة وهذا يؤكد لك ما قررته من قبل وهو أن لحيوان الشهوة المعربد في أعماق ابن عربي أثرًا بعيدًا في تصوفه فقد توله وهو بمكة حين زارها سنة (٥٩٨هـ) بحب غانية هي ابنة الشيخ مكين الدين الأصفهاني ولكنها لم تهدهد من نزواته الفواجر ولم ترو غلة ذئبه الظاميء إلى الدم

(١) « فصوص الحكم » لابن عربي (ص٢١٨) .

فنظم يستدرجها إلى الغواية فيها ديوان شعره المسمى « ترجمان الأشواق » وابن عربي نفسه يقر بأنه نظم ديوانه هذا بتلك الغانية القتول وحين عصفت الفضيحة بهواه فر هاربًا من مكة حتى لا يجابه عار الفضيحة بيد أن الهوى ظل يعصف به ويلهبه وثمة نفس عن جحيمه بخيلات زندقته فراح يصور به في صورة امرأة ويزعم أنه يتجلى أجمل وأحلى ما يتجلى في صورة امرأة تقترف كل هذا من أجل امرأة لم تستطع شهوته أن تضرس منها اللحم وتعرق العظم[1] .

* ومن المتصوفة الكبار الذين قالوا بوحدة الوجود وألفوا فيها كتبًا ابن سبعين[2] .

يعتبر ابن سبعين من كبار مشائخ الصوفية الملاحدة الذين قالوا بوحدة الوجود وإليك نماذج من مقالاته التي كتبها لتوضيح عقيدة وحدة الوجود.

---

(١) « مصرع التصوف » لبرهان الدين البقاعي هامش (ص١٤٤) .

(٢) هو عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن سبعين الإشبيلي المرسي أبو محمد من القائلين بوحدة الوجود وله كتب كثيرة في التصوف والفلسفة وقد كفره كثير من الناس له مريدون وأتباع يعرفون بالسبعينية .

قال ابن دقيق العيد : جلست مع ابن سبعين من ضحوة إلى قريب الظهر وهو يسرد كلامًا ما تعقل مفرداته ولا تعقل مركباته .

وقال الذهبي : أشهد عن ابن سبعين أنه قال : لقد تحجر ابن آمنة واسعًا بقوله : «لا نبي بعدي» وكان يعتقد في اللّه عز وجل أنه حقيقة الموجودات وقصد في مكة فنزل يجرى حتى مات نزفًا وقال محمد بن شاكر الكتبي بعد أن حكى كلمات الكفر عن ابن سبعين : فإن كان ابن سبعين قال هذا فقد خرج به من الإسلام مع أن هذا الكلام هو أخف وأهون من قوله في ربه أنه حقيقة الموجودات تعالى اللّه عن ذلك علوًا كبيرًا .

انظر « لسان الميزان » (٣/ ٣٩٢) و«دائرة المعارف الإسلامية » (١/ ١٨٨) و« الأعلام » للزركلي (٤/ ٥١) .

فقد قال في إحدي رسائله والتي تسمى بـ « الرسالة النورية » مخاطبًا أحد تلاميذه وموجهًا له إلى المعتقد الذي يجب أن يعتقده نحو ربه حيث أوصاه لكي يذكر ربه بأي شيء أراد وأن يسميه بأى اسم يخطر في باله وأخبره بأن كل ما في هذا الكون هو اللَّه سبحانه وإليك نص كلامه :

قال ابن سبعين :

« وجميع ما توجه الضمير إليه اذكره به ولا تبال وأي شيء يخطر ببالك سمه به من اسمه « الوجود » كيف بأسماء منحصرة هيهات ؟

اللَّه لا اسم له إلا الاسم المطلق أو المفروض فإن قلت نسميه بما سمى به أو نبيه يقال لك : من سمى نفسه « اللَّه » قال لك : إن كل شيء وجميع من تنادي أنا »[1] .

ففي هذا النص قول ابن سبعين بوحدة الوجود ظاهر في قوله لتلميذه : « إن كل شيء وجميع من تنادي أنا » .

وهذا نص آخر يزعم فيه ابن سبعين بأن الموجود في هذا الكون اللَّه فقط ولذا فهو عين الحامد والحمد وهو عين كل شيء ظاهر في هذا الوجود.

وإليك نص كلامه الدال على ما قلته .

فقد قال في إحدى رسائله معبراً عن عقيدته الوجودية وموضحًا لها :

« اللَّه فقط ، اللَّه المستعان والمستعين والإعانة معنى فيه في كونه معينًا ومستعينًا الحمد للَّه في الأزل والأبد والمجد ومن هو بهما عين الحامد

---

(١) « رسائل ابن سبعين » (ص١٨٤) .

والحمد ولا حول ولا قوة إلا بالساري بذاته في أفعاله عن أسمائه بصفاته أحب فتسمى بالحي وأحاط فتسمى بالعالم . . . هو عين كل ما ظهر فحق له أن يتسمى بالظاهر وهو معنى كل معنى فحق له أن يتسمى بالباطن »[1] .

ففي هذا النص صرح ابن سبعين بعقيدته الصوفية وحدة الوجدة ويظهر هذا في كل النص وبالتحديد يظهر جليًا في قوله : « عين الحامد والحمد » أي أن اللَّه سبحانه وتعالى عين كل أحد يحمده ولذا فكل من حمد اللَّه فقد حمد نفسه لأنه عين اللَّه وأن الحمد المحمود به اللَّه سبحانه وتعالى هو عين اللَّه وعلى هذا فليس هناك إله يحمد ويعبد لأن كل ما في هذا الكون «اللَّه».

ويظهر أيضًا في قوله : « هو عين كل ما ظهر » ومعنى هذا أن اللَّه سبحانه وتعالى عين كل شيء ظاهر في هذا الوجود ومعنى هذا أن كل الموجودات هي « اللَّه » ولذا فليس هناك عابد ولا معبود .

ويقول ابن سبعين أيضًا معبرًا عن عقيدته الوجودية وموضحًا لها :

« فإن الحق واحد وما عداه وهم والأوهام هي المستندة والمستند إليها بوجه ما ونحن تلك الأوهام بل نحن نحن بل هو هو بل لا يقال : نحن ولا هو من حيث الإشارة والميل ولكنها تشعر بالشيء الذي يجد ذلك الشيء من كل الجهات ويصرف هو والهو هو إلى أنا ويجد الإنية والهوية معًا[2] »[3] .

---

(١) « رسائل ابن سبعين » (ص١٩٠) .

(٢) الأنانية والأنينة عبارة عن الحقيقة التي يضاف إليها كل شر من العبد كقولك نفسي وروحي ويدي وتكون حقيقتك وباطنك غير الحق ونفي الأنينية هو عين معنى الإله ثم إثبات الحق سبحانه في باطنك .

ثانيًا : هو عين معنى إلا اللَّه انظر « معجم مصطلحات الصوفية » (ص٢٦) .

(٣) « رسائل ابن سبعين » رسالة الألواح (ص٢٧٦) .

فإذا نظرنا في هذا النص نجد أن ابن سبعين اعتبر أن الموجود في هذا الكون موجودًا واحدًا فقط وهو اللَّه وما عداه من الموجودات فهي أوهام لا حقيقة لها ألبتة ولذا لا يقال نحن ولا هو بل يقال الصحيح حسب زعمه أن يقال : أنا وذلك كما هو واضح في آخر النص يقول الإنسان هو هو هو إلى أن يصل إلى مرحلة يقول فيها أنا وحينئذ فقد وصل إلى نهاية المعرفة عند المتصوفة وذلك لأنه اعتبر نفسه إلهًا واعتقد أن كل الموجودات في هذا الكون آلهة لأنها مظاهر ومجالي للَّه سبحانه وتعالى وهذه هي عقيدة وحدة الوجود بعينها .

ويقول ابن سبعين في نص آخر أيضًا معبرًا عن عقيدته وحدة الوجود الوجودية في أحد الوصايا التي أوصى بها أصحابه معرفًا لهم بأن العلم الإلهي الصحيح هو معرفة وحدة الوجود وأنه لا يوجد في هذا الكون غير الوحدة المحضة وإليك نص كلامه .

فقد قال : « والذي تحتاج إليه أن تعلمه أن الأولى أن يطلق العلم الإلهي على معرفة الوحدة وأن المقصود منه هو التوحيد وأن الموحد صاحب النتيجة الماحية لكل معلوم فيه غير الوحدة المحضة والذي يبلغ هذه الدرجة أدرك المقصود »[1] .

فإذا نظرنا في هذا النص نجد أن ابن سبعين صرح بعقيدة وحدة الوجود في عدة ألفاظ منه فمثلاً في قوله : « والذي تحتاج إليه أن تعلمه أن الأولى أن يطلق العلم الإلهي على معرفة الوحدة » والمتصوفة يقصدون بكلمة الوحدة « وحدة الوجود » ويظهر أيضًا في قوله : « وأن الموحد صاحب

---

(١) « رسائل ابن سبعين » (ص٣١٤) .

النتيجة الماحية لكل معلوم فيه غير الوحدة المحضة » والمعنى أن الموحد يتدرج في التوحيد إلى أن يصل إلى الاعتقاد بوحدة الوجود وهذه هي غاية التصوف التي يسعون للوصول إليها وهي كما تعلم نهاية الإلحاد والكفر.

وقال الدكتور أبو الوفاء الغنيمي التفتازاني بعد أن ذكر جملة من عبارات ابن سبعين التي تدل على الوحدة المطلقة :

« إن ابن سبعين يريد أن يقول : إن العقول القاصرة تميز بين الذوات المجردة وغيرها وبين الواجب والممكن والمحال والحقيقة إن هذا التمايز باطل ووهم لأن الوجود واحد، والواحد لا يتعدد والرب المألوف الذي يتصوره البعض متميزًا عن وجود الممكنات قد يكون نقطة البداية التي يبدأ منها المسترشد فإذا ما وصل إلى نهاية تحقيقه تبين له أنه لا تمايز إطلاقًا بين الذوات وأن الممكن هو عين الواجب فيكون ما يدين به بعد وصوله أعلى مرتبة مما كان يدين به قبل الوصول ويكون فهمه للألوهية في الإسلام أرقى من فهم الواقفين عند حد الإثنينية بين الخالق والمخلوق وكأن ابن سبعين يريد أن يقول: إن عوام المسلمين لقصور عقولهم عن إدراك الوحدة المطلقة يفرضون تصورًا معينًا للألوهية على أنفسهم ولا كذلك الخواص الذين يتحررون عما فرضه أولئك العوام من قصور الألوهية فيثبتون الوحدة الوجودية المطلقة التي هي عين التوحيد الحقيقي الذي دعا إليه الإسلام »[1].

* ومن كبار أئمة التصوف الذين قالوا بوحدة الوجود عبد الكريم الجيلي ويظهر ذلك من خلال كلامه الآتي حيث أنشد الأبيات التالية معبرًا بها عن عقيدته وحدة الوجود حيث قال :

---

(١) « كتاب ابن سبعين وفلسفته الصوفية » للتفتازاني (ص٢٢٣) .

فما ثم شيء سوى اللَّه في الـورى وما ثم مسموع وما ثم سامع

هو العرش والكرسي والمنظر العلي هو السدرة اللاتي إليه المراجع

هو الأصل حقًا والرسوم مع الهـوى هو الفلك الدوار وهو الطبائع

هو النور والظلماء والماء والهـوى هو العنصر الناري وهو الطبائع[1]

ففي هذه الأبيات صرح عبد الكريم الجيلي بأنه لا يوجد شيء في هذا الكون غير اللَّه ولذا فليس هناك شيء يسمى مسموعًا وشيء آخر يسمى سامعًا لأن الكل حسب زعمه الباطل آلهة ثم بدأ في التفصيل فقال : إن اللَّه هو الكرسي وهو العرش وهو الفلك الذي يدور وهو الطبائع الأربع البرودة والحرارة وغيرها من أصناف الطبائع وهو النور المضيء وهو الظلمة الحالكة وهو الماء والهواء الذي نستنشقه بل هو النور أيضًا وهذه هي بعينها عقيدة وحدة الوجود حيث أن القاعدة التي تقوم عليها هي اعتبار بأن ما في هذا الكون كله رب معبود وما هذه الأشكال والهياكل إلا مظهر من مظاهر اللَّه كما يزعمون تعالى اللَّه عن ذلك علواً كبيراً .

وقال عبد الكريم الجيلي أيضًا موضحًا عقيدة وحدة الوجود :

« اعلم أن جميع حقائق الوجود وحفظها في مراتبها تسمى الألوهية وأعني بحقائق الوجود أحكام المظاهر مع الظاهر فيها أعني الحق والخلق فشمول المراتب الإلهية وجميع المراتب الكونية وإعطاء كل حقه من مرتبة الوجود هو معنى الألوهية »[2] .

ويقول أيضًا : « واعلم أن للرب في كل موجود وجهًا كاملاً وذلك

---

(١) « الإنسان الكامل » لعبد الكريم الجيلي (١/ ٦١م) و« فتوح الغيب » للجيلاني (ص٢٠٣) .

(٢) « الإنسان الكامل » للجيلي (١/ ٣٧) .

الوجه على صورة ذلك الموجود وروح ذلك الموجود على صورة محسوسة وجسد وهذا الأمر للرب أمر ذاتي »[1] .

ففي النصين السابقين اعتقاد الرجل بوحدة الوجود واضح جداً ويظهر لنا ذلك في قوله : « اعلم أن جميع حقائق الوجود وحفظها ومراتبها تسمى الألوهية » والمعنى أن كل الموجودات في هذا الكون يصح أن يطلق عليها لفظ الآلهه لأنها لا وجود لها في الحقيقة بل الموجود الوحيد في هذا الكون هو اللَّه سبحانه وتعالى وما عداه ما هو إلا مظاهر ومجالي للَّه سبحانه وتعالى وهذه هي عقيدة وحدة الوجود لا غير .

* ومن أئمة التصوف الذين قالوا بوحدة الوجود ابن عجيبة الحسني[2] ويتضح لنا هذا من خلال كلامه الآتي حيث قال معبراً عن عقيدة وحدة الوجود ووصف العارفين :

« وأما العارفون فقد ظفروا بنفوسهم ووصلوا إلى شهود معبودهم فهم يستأنسون بكل شيء لمعرفتهم في كل شيء يأخذون النصيب من كل شيء ويفهمون عن اللَّه في كل شيء فإذا مدحوا انبسطوا باللَّه لشهودهم المدح من اللَّه وإلى اللَّه ولا شيء في الكون سواه »[3] .

ففي هذا النص يظهر لنا بوضوح قول ابن عجيبة بوحدة الوجود ويظهر لنا هذا في قوله : « فإذا مدحوا انبسطوا باللَّه لشهودهم المدح من اللَّه ولا

---

(١) « الإنسان الكامل » للجيلي (١/ ٢٤) .

(٢) هو أحمد بن محمد المهدي بن عجيبة الحسني صوفي من أهل المغرب وله كتب كثيرة في التصوف انظر (ص٤٧) من هذا الكتاب .

(٣) « الفتوحات الإلهية » لابن عجيبة (ص٤١٣) .

شيء في الكون سواه » ومعنى هذا الكلام واضح جلي لا يحتاج إلى بيان ولكن من باب تحديد الشاهد في النص فقط للفصل ومعنى هذا الكلام أن العارفين باللَّه ينبسطون إذا مدحوا لأنهم يعتقدون أن المادح اللَّه وأن الممدوح اللَّه أيضًا وذلك لأن في هذا الكون لا يوجد سوى اللَّه شيء وما دام الأمر كذلك إذًا فكل ما يوجد في هذا الكون آلهة تمشي وعلى هذا فلا مانع من عبادة كل ما يدب على وجه الأرض.

* ومن أئمة التصوف الذين قالوا بوحدة الوجود أبو سعيد الحزاز[1] ويظهر لنا هذا في كلامه الآتي حيث قال شارحًا لقول ابن عربي الآتي :

« أنت لا أنت » قال أبو سعيد الحزاز أنه وهو وجه من وجوه الحق ولسان من ألسنته كما علمت [2] .

وقال أيضًا حين سئل فقيل له : « بم عرفت اللَّه » ؟ قال : بجمعه بين الأضداد وما هو إلا ظهور الحق في صورته بجميع أسمائه المتضادة فهو محكوم عليه بها كالحق بل هو حق من حيث الحقيقة وجه خاص من وجوهه من حيث تعينه وخصوصيته كسائر المحدثات إذ ليس في الوجود غيره إلا أن الوجود متفاوتة متفاضلة بحسب ظهور الأسماء فيها وبطونها وغلبة أحكام الوجوب والإمكان فيها بعضها على بعض كغلبة الروحانيات في بعضها والجسمانية في بعضها »[3] .

ففي النصين السابقين يتضح لنا قول الحزاز بوحدة الوجود صراحة

---

(١) أبو سعيد الحزاز هو أحمد بن عيسى قال عنه الجنيد لو طالبنا اللَّه بحقيقة ما عليه أبو سعيد الحزاز لهلكنا توفي (٢٧٧هـ) وقيل (٢٨٦هـ) انظر في « صفة الصفوة » لابن الجوزي(٢/ ٢٤٥) .

(٢) « شرح القاشاني على الفصوص » (ص٧٨) .

(٣) « شرح القاشاني على الفصوص » (ص٧٨) .

حيث قال في شرح قول ابن عربي « أنت لا أنت » : إن ابن عربي يقصد بهذا أنه واللَّه وجه من وجوه الحق ولسان من ألسنته لأنه لا موجود في هذا الكون غير اللَّه حسب عقيدة أهل وحدة الوجود وفي النص الثاني تظهر لنا عقيدة وحدة الوجود في أبي سعيد الحزاز في قوله : « إذ ليس في الوجود غيره إلا أن الوجود متفاوتة متفاضلة بحسب ظهور الأسماء فيها » إذًا ما دام لا يوجد شيء في هذا الكون غير اللَّه فكل ما يمشي على وجه هذه الأرض فهو مجالي ومظاهر للَّه سبحانه وتعالى تنزه اللَّه عما يقول الظالمون وتقدس.

* ومن أئمة التصوف الذين قالوا بوحدة الوجود ابن الفارض ومن النصوص الدالة على هذا قوله في الأبيات التالية قال :

تجلت في تجليها الوجود لناظري ... ففي كل مرئى أراها برؤية

وأشهدت غيبي إذ بدت فوجدتني ... هنالك إياها بجلوة خلوتي

وطاح وجودي في شهودي وبنت عن ... وجود شهودي ما حيا غير مثبت

وعانقت ما شاهدت في محو شاهده ... بمشهده للصحو من بعد سكري[1]

ففي هذه الأبيات صرح ابن الفارض بوحدة الوجود ويظهر لنا هذا جليًا في البيت الأول حيث صرح بأنه يرى اللَّه في كل شيء يراه ومعنى ذلك لا يوجد شيء سوى اللَّه في هذا الكون وما هذه الأشباح الموجودة إلا مظاهر ومجالي للَّه سبحانه وتعالى وليس لها وجود في الحقيقة وهذا حسب معتقد أهل وحدة الوجود الباطل.

قال الدكتور مصطفى حلمي تعليقًا على هذه الأبيات التي أوردتها عن

---

(١) « ابن الفارض والحب الإلهي » لمصطفى حلمي (ص١٩٠) .

ابن الفارض :

« لترى أن الشاعر هنا يذهب إلى ما يشتم منه رائحة وحدة الوجود فهو يقول إن المحبوبة في حال تجليها وظهورها قد أظهرت لعينه الوجود بحيث أصبح يراها في كل موجود وأنه حين كشف عن باطنه الحجاب شهد أن ذاته هي عين ذات المحبوبة وأن وجوده قد انمحى في شهوده ولترى فوق هذا كله أنه تمسك في صحوه الحاصل بعد سكره بما شاهده في باطنه وهو أن المحبوبة هي الوجود المطلق وهذا ينتهي بابن الفارض إلى أن يصبح فناؤه من فناء الملاحدة القائلين بوحدة الوجود وبأن الرب الذي هو عند ابن الفارض المحبوبة عين الوجود أي أن وجود الرب هو عين وجود العالم »[1] .

وقال الدكتور مصطفى حلمي أيضًا :

« يدور الاتحاد عند ابن الفارض حول فكرة الجمع »[2] .

وقال أبو سعيد الحزاز موضحًا معنى الجمع في المصطلح الصوفي :

قال : « الجمع عبارة عن إيجاد الحق نفسه في أنفس السالكين بل إعدامه لوجودهم لأنفسهم عند وجودهم له »[3] .

وقال القاشاني[4] في معنى الجمع في المصطلح الصوفي :

---

(١) « ابن الفارض والحب الإلهي » لمصطفى حلمي (ص١٩٠) .

(٢) « ابن الفارض والحب الإلهي » لمصطفى حلمي (ص١٩٨) .

(٣) « التعرف لمذهب أهل التصوف » (ص١٤٤) .

(٤) القاشاني هو عبد الرزاق القاشاني كمال الدين صوفي ومن تصانيفه « شرح منازل السائرين » للهروي و « شرح فصوص الحكم » لابن عربي وله كتب كثيرة في التصوف.
انظر ترجمته في « معجم المؤلفين » لكحالة (٥/ ٢١٥) .

« إن معني الجمع أنه تزول فيه التفرقة بين القدم والحدوث إذ لما انجذبت الروح إلى مشاهدة جمال الذات استتر نور العقل الفارق بين الأشياء في غلبة نور الذات القديمة وارتفع التمييز بين القدم والحدوث لزهوق الباطل عند مجيء الحق»[1] .

* ومن أئمة التصوف الذين قالوا بوحدة الوجود ابن عطاء اللَّه السكندري[2] .

ويظهر لنا معتقده هذا من خلال كلامه الآتي حيث قال معبرًا عن عقيدته الوجودية :

« الأولياء وليان :

١ ـ ولي يفنى عن كل شيء فلا يشهد مع اللَّه شيئًا .

٢ ـ وولي يبقى في كل شيء فيشهد اللَّه في كل شيء وهذا أتم لأن اللَّه سبحانه لم يظهر المملكة إلا كي يشهد فيها فالكائنات مرايا الصفات فمن غاب عن الكون غاب عن شهود الحق فيه فما نصبت الكائنات لتراها ولكن لترى فيها هو لا هي فمراد الحق منك أن تراها بعين من لا يراها : تراها من حيث ظهوره فيها ولا تراها من حيث كونيتها »

ثم أنشد الأبيات التالية :

---

(١) « ابن الفارض والحب الإلهي » لمصطفى حلمي (ص١٩٨) .

(٢) ابن عطاء اللَّه السكندري هو أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء اللَّه تاج الدين أبو الفضل الإسكندراني الشاذلي صحب الشيخ الشاذلي أبا العباس الشاذلي المرسي الشاذلي وصنف مناقبه ومناقب شيخه وكان المتكلم على لسان الصوفية في زمانه وهو من المتصوفة الذين قاموا على شيخ الإسلام ابن تيمية وقد بالغ في عدائه لشيخ الإسلام إلى أبعد الحدود (ت٧٠٧هـ) .

انظر ترجمته في « الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة » لابن حجر العسقلاني (١/ ٢٩١) .

مـــا أبينـــت لك العوالـــم إلا لتراها بعين من لا يراهـــا

فارق عنها رقي من ليس يرضـى حالة دون أن يرى مولاهـا

ثم قال : « فالناظر في الكائنات غير شاهد للحق فيها غافل والفاني عنها عبد بسطوات الشهود ذاهل والشاهد للحق فيها عبد مخصص كامل وإنما ترفع الهمة عن الكون من حيث كونيته لا من حيث ظهور الحق فيه وذلك لعدم نفوذهم إليه من كل شيء لا لعدم ظهوره في كل شيء فإنه ظاهر في كل شيء حتى إنه ظاهر فيما احتجب به فلا حجاب » .

ثم أنشد الأبيات التالية :

وأنت الذي أظهرت ثم ظهرت في جميع المبادي مثل ما شهد العرف

ظهر لكل الكون فالكون مظهر وفيه له أيضًا كما جاءت الصحف[1]

إذا نظرنا في النصوص السابقة سنجد أن القول بوحدة الوجود ظاهر فيها جدًا فمثلاً في قوله : « ولي يفنى عن كل شيء فلا يشهد مع اللَّه شيئًا » وفي قوله : « ولي يبقى في كل شيء فيشهد اللَّه في كل شيء وهذا أتم لأن اللَّه سبحانه لم يظهر المملكة إلا كي يشهد فيها فالكائنات مرايا الصفات » .

وابن عطاء السكندري يقصد بهـذا أن يقول : إن العارف الحقيقي هو « الذي لا يشهد في هذا الكون مع اللَّه شيئًا بل يرى اللَّه فقط وأن من يرى اللَّه فقط في هذا الكون أكمل منه ممن يرى اللَّه في كل شيء في هذا الكون وما خلق اللَّه هذه الكائنات إلا لكي يظهر فيها اللَّه سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا » .

---

(١) «لطائف المنن» لابن عطاء اللَّه السكندري تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود (٩٠ ـ ٩١) .

وهذه هي عقيدة وحدة الوجود بعينها .

* ومن أئمة التصوف الذين قالوا بوحدة الوجود إبراهيم الدسوقي .

وقد بالغ هذا الرجل في توضيح هذه العقيدة ويتضح لنا هذا من خلال أبياته التالية التي قالها معبراً عن عقيدته الوجودية حيث قال :

تجلى لي المحبوب في كل وجهة ... فشاهدته في كل معنى وصورة
وخاطبني مني يكشف سرائري ... فقال أتدري من أنا قلت منيتي
فأنت مناي بل أنا أنت دائمـًا ... إذا كنت أنت اليوم عين حقيقتي
وانظر في مرآة ذاتي شاهـــدًا ... لذاتي بذاتي وهي غايـــة بغيتي
وما شهدت عيني سوى عين ذاتها ... وإن سواها لا يلـــم بفكرتي
بذاتي تقوم الذات في كـل ذروة ... أجد فيها حلـــة بعـــد حلة
فليلى وهند والرباب وزينـــب ... وعلوى وسلمى بعدهـــا وبثينة
عبارات أسماء بغيـــر حقيقـــة ... وما لوحوا بالقصد إلا لصورتي[1]

ويقول أيضًا : « من أدخل دار الفردانية وكشف له عن الجلال والعظمة بقي هو بلا هو »[2] .

إذا نظرنا في الأبيات السابقة نجد بأن قول إبراهيم الدسوقي بوحدة الوجود واعتناقه لها ظاهر جلي ففي البيت الأول صرح بأن اللَّه ظهـر له في كل الجهات وأنه رآه في كل شيء سواء كان هذا الشـيء معنويًا أو حسيًا .

وفي البيت الثالث : يقول إبراهيم الدسوقي مخاطبًا اللَّه سبحانه وتعالى: « بل أنا أنت » .

---

(١) « الطبقات الكبرى » للشعراني (١/ ١٨٢) .

(٢) « الطبقات الكبرى » للشعراني (١/ ١٦٧) .

والمعنى أنه هو اللَّه وأن اللَّه عين حقيقة الدسوقي حسب زعمه وأن ذات اللَّه تقوم بذات الدسوقي في كل مرة وأنه يظهر فيها الله واحدة تلو الأخرى .

وأن كل ما يسمى بليلى وهند والرباب وزينب وعلوى وسلمى وبثينة ما هي إلا الأسماء مجردة عن الحقيقة .

فالكل يطلق عليه إله وأن الجميع ما لوحوا بالقصد إلا لصورة إبراهيم الدسوقي لأنه عين ذات اللَّه كما يزعم وهذه هي عقيدة وحدة الوجود بعينها.

* ومن أئمة الصوفية الذين قالوا بوحدة الوجود لسان الدين الخطيب ويتضح لنا هذا من خلال كلامه الآتي فقد قال معبراً عن عقيدة وحدة الوجود :

« وأول مراتب العلم الإلهي هو عين الذات المعبر عنه بحقيقة الحقائق الكلية وسريانه في كل اعتبار ففي الإلهية إلهيًا وفي الكونية كونيًا والكل مظاهره وهو قسمان ذاتي ووجداني يلازمه الغني معناه شهود الذات نفسه من حيث الوحدانية التي هي مظهر للأمرية بجميع الاعتبارات والشئون معنويها ومثاليها وحسيها دنيا وبرزخًا وآخرة دفعة واحدة من حيث الكل في شهود الحق عينًا واحدة[1]

وقال أيضًا حاكيًا عن المتصوفة مثله :

« قالوا وإذا شهد العارفون الحق على ما هو عليه بعدم ذواتهم من غير

---

(١) « روضة التعريف بالحب الشريف » للسان الدين الخطيب (ص٥٨١) .

حجاب تجلت لهم جميع الصور الموجودات ما رأيت شيئًا إلا رأيت اللَّه فيه»[1] .

فإذا نظرنا في النصين السابقين نجد قول لسان الدين الخطيب بوحدة الوجود ظاهراً . ويظهر لنا هذا في السطرين الأولين من النص الأول وبالذات في قوله « والكل مظاهره » أي أن جميع ما في هذا الكون مظاهر ومجالي للَّه سبحانه وتعالى وفي النص الثاني يظهر لنا قول لسان الدين بوحدة الوجود في قوله : « تجلت لهم جميع الصور الموجودات ما رأيت شيئًا إلا رأيت اللَّه فيه » أي أن اللَّه سبحانه وتعالى يتجلى ويظهر في جميع الصور الموجودة في هذا الكون وهذه هي عقيدة وحدة الوجود بعينها.

* ومن أئمة التصوف الذين قالوا بوحدة الوجود علي وفا[2] ويظهر ذلك من خلال تفسيره للآية الآتية حيث فسر قوله تعالى : ﴿**ألا أنه بكل شيء محيط**﴾ فقال : أي كإحاطة ماء البحر بأمواجه معنى وصورة فهو حقيقة كل شيء وهو ذات كل شيء وكل شيء عينه وصفته فافهم[3] .

إذا نظرنا في النص السابق نجد أن قول علي وفا واضح فيها وبالأخص في آخر النص ألا وهو قوله : « فهو حقيقة كل شيء وهو ذات كل شيء

---

(١) « روضة التعريف بالحب الشريف » للسان الدين الخطيب (ص٤٦٤) .

(٢) قال عنه الشعراني في ترجمته وهو يعدد أقطاب التصوف :

ومنهم العارف باللَّه سيدي محمد وفا ـ رضي اللَّه عنه ـ كان من أكابر العارفين وأخبر ولده سيدي علي أنه هو خاتم الأولياء صاحب الرتبة العلية وكان أميًا وله لسان غريب في علوم القوم ومؤلفاته كثيرة . . . ولما دنت وفاته خلع منطقته على الإبرازي صاحب الموشحات وقال هي وديعة عندك حتى تخلعها على ولدي علي . انظر « الطبقات الكبرى » للشعراني (٢/ ٢١) .

(٣) « الطبقات الكبرى » للشعراني (٢/ ٢٣) .

وكل شيء عينه وصفته فافهم » والشاهد من النص أن علي وفا صرح بأن اللَّه حقيقة وذات وعين وصفة كل شيء موجود في هذا الكون وعلى هذا فلا موجود في هذا الكون إلا اللَّه وهذه هي عقيدة وحدة الوجود .

* ومن أئمة التصوف الذين قالوا بوحدة الوجود أحمد الفاروقي

ويتضح لنا هذا في كلامه الآتي حيث قال معبراً عن عقيدته الوجودية وموضحًا لها :

« وجدت اللَّه عين الأشياء كما قاله أرباب التوحيد الوجودي من متأخري الصوفية ثم وجدت اللَّه في الأشياء من غير حلول ولا سريان ثم ترقيت في البقاء وهو ثاني قدم في الولاية فوجدت الأشياء ثانيًا فوجدت اللَّه عينها بل عين نفسي ثم وجدت اللَّه تعالى في الأشياء بل في نفسي ثم مع الأشياء بل مع نفسي »[1] .

إذا نظرنا في النص السابق نجد أن أحمد الفاروقي قال بوحدة الوجود صراحة ويتضح لنا هذا في السطر الأول من النص وهو قوله : « وجدت اللَّه عين الأشياء كما قاله أرباب التوحيد الوجودي من متأخري الصوفية » وأرباب التوحيد الوجودي يعني بهم أهل وحدة الوجود وبما أنه يؤكد هذه العقيدة ويشهد على أنه بالفعل وجد اللَّه عين الأشياء فهو من أهل وحدة الوجود.

* ومن أئمة التصوف الذين قالوا بوحدة الوجود عبيد اللَّه أحرار .

فقد قال مبينًا عقيدة وحدة الوجود :

« كمال الحمد أن يحمده العبد ويعرف أنه لا حامد إلا هو تعالى وأنه

---

(١) « المواهب السرمدية » (ص١٨٢) .

العبد عدم محض لا رسم له ولا اسم ولا فعل وإنما يبتهج سروراً بكونه تعالى جعله مظهراً لصفاته »[1] .

* ومن أئمة التصوف الذين قالوا بوحدة الوجود عبد الرزاق القاشاني ويتضح لنا ذلك من خلال كلامه الآتي حيث قال موضحًا عقيدته :

« فإن للحق في كل خلق ظهوراً بحسب استعداد ذلك الخلق فهو الظاهر في مفهوم بقدر استعداد الفاهم . . . فإن الحقيقة الإلهية المطلقة لم تكن هوية إلا باعتبار تقييدها ولو تقيد الإطلاق كقوله : « هو اللّه أحد » وأما من حيث هي هي فهي مطلقة مع تقيدها بجميع القيود الأسمائية فالعالم هويته أي حقيقته بقيد الظهور »[2] .

إذا نظرنا في النص السابق نجد أن القاشاني قال بوحدة الوجود صراحة ويظهر هذا في قوله : « فالعالم هويته أي حقيقته » والمعنى أن كل ما في هذا العالم حقيقة اللّه سبحانه وتعالى وهذه هي عقيدة وحدة الوجود .

وقال القاشاني أيضًا في شرح بيت ابن عربي الآتي :

وما حكمه في موطن دون موطن ولكنه بالحق للخلق سافر[3]

قال القاشاني :

« أي ليس حكمه في موطن أولى به من موطن آخر فإن المواطن كلها بالنسبة إلى الحق سواء ففي أي موطن تجلى كان حكم تجليه في سائر المواطن كذلك ولكنه تعالى بحقيقته يسفر عن وجه الحق للخلق قال وفيه إيماء إلى اللّه أنه يظهر بحقيقته للخلق في صورة الخلق فلم يظهر لأنه إنما

---

(١) « الأنوار القدسية » للشعراني (١٦١) .

(٢) « شرح القاشاني على الفصوص » (ص٥٧) .

(٣) « الفصوص مع شرح القاشاني » (ص١٠٧) .

يبرز في صورة العين الثانية لكل واحد من الخلائق فيعرفونه ويشهدونه بقدر ما تجلى لهم فيهم »[1] .

وقال أيضًا في شرح بيت ابن عربي الآتية :

ونزهـــــه وشبهـــــه وقم في مقعد الصدق[2]

قال القاشاني :

« ونزهه عن أن يكون متعينًا بتعين فيشبه متعينًا آخر فيلزم الشرك وشبهه بالخلق من حيث الحقيقة فيكون عين كل متعين إذ لا موجود سواه فهو هو أي فاجمع بين التنزيه والتشبيه بنفي ما سواه مطلقًا فتقوم في مقعد الصدق في مقام التوحيد الذاتي والجمع بين المطلق والمقيد »[3] .

وقال القاشاني في شرح قول ابن عربي : « أنت لا أنت » :

« ينطق عن نفسه بأن اللّه لا يعرف إلا بجمعه بين الأضداد في الحكم عليه بها فهو الأول والآخر والباطن فهو عين ما ظهر وهو عين ما بطن في حال ظهوره وما ثم من يراه غيره وما ثم من يبطن عنه فهو ظاهر لنفسه باطن عنه وهو المسمى أبا سعيد الحزاز وغير ذلك من أسماء المحدثات»[4] .

إذا نظرنا في النصوص السابقة نجد أن القول بوحدة الوجود ظاهر وواضح فيها ولا أظنها تحتاج إلى شرح .

* ومن أئمة التصوف الذين قالوا : بوحدة الوجود بالي أفندي[5] .

---

(١) « شرح القاشاني على الفصوص » (ص١٠٧) .

(٢) « فصوص الحكم مع شرح القاشاني » (ص ١٢٠) .

(٣) « شرح القاشاني على الفصوص » (ص١٢٠) .

(٤) « شرح القاشاني على الفصوص » (ص٧٨) .

(٥) هو بالي أفندي صوفي زمانه وشيخ عصره وهو المكنى بخليفة الصوفية (ت٩٦٠هـ).
انظر الصفحة الأولى من « شرح الفصوص » .

ومما يدل على أنه قال بوحدة الوجود كلامه الآتي الذي قاله معبراً به عن عقيدته حيث قال : مفسراً قول ابن عربي الآتي : « أنت لا أنت » :

« أي الموجودات عين الحق من حيث الأحدية « لا أنت » أي الموجودات ليست عين الحق من حيث التعينات الخليقية »[1] .

إذا نظرنا في النص السابق نجد أن بالي أفندي صرح بعقيدة وحدة الوجود ويظهر لنا هذا جليًا في قوله :

« أي الموجودات عين الحقيقة من حيث الأحدية » .

* ومن أئمة الصوفية الذين قالوا بوحدة الوجود أحمد الرفاعي

ومما يدل على أنه كان يعتقد عقيدة وحدة الوجود قوله الآتي :

« وراقبه في الخلوات والجلوات واحمده واشكره على الفقر والغنى واترك الأغيار فما في الذر غيره ديار وكن صوفيًا صافيًا »[2] .

ويقول أيضًا : « الذكر حفظ القلب من الوسواس وترك الميل إلى الناس والتخلي عن كل قياس وإدراك الوحدة بالكثرة وحسن ملاحظة المعنى »[3] .

ففي النصين السابقين قول أحمد الرفاعي بوحدة الوجود واضح فيهما أما النص الأول فالشاهد فيه هو قول الرفاعي :

« واترك الأغيار فما في الذر غيره ديار » أي لا يوجد شيء في هذه

---

(١) « هامش شرح الفصوص » للقاشاني (ص٧٨) .

(٢) « قلادة الجواهر » للصيادي (ص١٥١) .

(٣) « قلادة الجواهر » للصيادي (ص١٤٨) .

الحياة وكلمة «الأغيار» يعني بها الصوفية الغير أي اترك وجود اعتقاد شيء في هذا الكون غير اللَّه وإذا كان كذلك فكل ما يوجد في هذا الكون لا حقيقة لوجوده وإنما هو مظاهر ومجال للَّه سبحانه وتعالى .

أما في النص الثاني فقد صرح فيه الرفاعي بعقيدة وحدة الوجود ويتضح لنا هذا في قوله : « وإدراك الوحدة بالكثرة » .

ويعني بهذا أن ما في هذا الكون مع كثرته في الظاهر ينبغي أن يعتقد الإنسان الصوفي الواصل أو العارف أنه مظاهر ومجال للَّه سبحانه وتعالى وبالتالي فلا موجود إلا اللَّه .

ومن أوراد الطريقة الشاذلية الدالة على أنهم يقولون بوحدة الوجود الورد الآتي :

« وزج بي في بحار الأحدية وانشلني من أوحال التوحيد وأغرقني في عين بحر الوحدة حتى لا أرى ولا أسمع ولا أحس إلا بها »[1] .

ويقول أبو الحسن الشاذلي[2] معبراً عن عقيدة وحدة الوجود :

« إلهي لطفك الخفي ألطف من أن يرى وأنت اللطيف الذي لطفت بجميع الورى حجبت من سريان سرك في الأكوان فلا يشهده إلا أهل المعرفة والعيان »[3] .

---

(١) « النفحة العلية في الأوراد الشاذلية » (ص١٦) .

(٢) أبو الحسن الشاذلي هو عبد اللَّه بن عبد الجبار الشاذلي مؤسس الطريقة الشاذلية إحدى الطرق الصوفية الواسعة الانتشار في العالم نسبة إلى قرية اسمها شاذلة قرية من قرى أفريقيا وقد وصفه كثير من الصوفية بأنه قطب الزمان حجة الصوفية القطب الغوث الجامع حسب زعمهم (ت٦٥٦هـ) . انظر ترجمته في « طبقات الشعراني » (٢/ ٤) .

(٣)

* ومن أئمة التصوف الذين قالوا بوحدة الوجود الششتري[1] .

وقد ادعى هذا الصوفي بأن ربه قد ظهر في كل ما في هذا الكون من المخلوقات سواء كانت عاقلة أو غير عاقلة أو جمادات وإليك نص كلامه :

« محبوبي قد عم كل الوجود وقد ظهر في بيض وسود وفي النصارى مع اليهود وفي الخنازير مع القرود وفي الحروف مع النقط أفهمني قط أفهمني قط عرفته طول الزمان ظهر لي في كل أوان وفي المياه وفي الدلوان وفي الطلوع وفي الهبوط أفهمني قط أفهمني قط »[2] .

فقول هذا الرجل بوحدة الوجود ظاهر وواضح وجلي وما أظنه يحتاج إلى الشرح لأنه قد صرح بأن محبوبه ويقصد به اللّه سبحانه وتعالى قد ظهر في كل الموجودات .

ومن أوراد الطريقة القادرية التي تدل على أنهم يقولون بوحدة الوجود[3] الورد الآتي :

« الحمد للّه الذي كيف الكيف وتنزه عن الكيفية وأين الأين وتعزز عن الأينية ووجد في كل شيء وتقدس عن الظرفية وحضر عند كل شيء وتعالى عن العندية »[4] .

ومنها : « يا أول كل شيء ويا آخر كل شيء ويا ظاهر كل شيء ويا

---

(١) الششتري هو علي بن عبد اللّه المتوفي (٦٦٨هـ) انظر ترجمته في « الأعلام » للزركلي (٣/ ٢٣٩) .

(٢) « إيقاظ الهمم في شرح الحكم » لابن عجيبة (ص٤٣) .

(٣) الطريقة القادرية نسبة إلى عبد القادر الجيلاني وهي طريقة واسعة الانتشار على امتداد العالم الإسلامي .

(٤) « الفيوضات الربانية في المآثر والأوراد القادرية » (ص٤١ عقيدة الغوث) .

باطن كل شيء »[1] .

إذا نظرنا في هذين النصين نجد أن دندنة القادريين بوحدة الوجود واضحة فمثلاً في النص الأول يظهر لنا قولهم بوحدة الوجود في قولهم : « ووجد في كل شيء » والمعنى أن اللّه حالٌّ في كل ما في هذا الكون وأن الجميع مظاهره.

وفي النص الثاني : عقيدة وحدة الوجود ظاهرة فيه .

ونكتفي بهذا في إيراد النصوص عن مجموعة من أئمة التصوف لإثبات بأن المتصوفة بالفعل يعتقدون هذه العقيدة الإلحادية وننتقل إلى المطلب الثاني والذي سأذكر فيه بعض المفاسد التي ترتبت على القول بوحدة الوجود[2] .

المطلب الثاني

المضاعفات التي ترتبت على القول بوحدة الوجود

بعد أن بينت في المطلب السابق اعتناق المتصوفة لعقيدة وحدة الوجود وأثبت ذلك بإيراد مجموعة من النصوص عن أئمتهم العظام عندهم والذين يفتخرون بهم[3] أحب أن أذكر بعض العقائد الباطلة الخطيرة التي وقع فيها المتصوفة نتيجة اعتقادهم بوحدة الوجود رغم أن الاعتقاد بوحدة الوجود كاف جدًا لوحده لتحويل من يعتقد هذه العقيدة إلى ملحد كافر برب العالمين أريد أن أذكر نماذج من المضاعفات العظيمة التي وقعوا فيها زيادة في الإيضاح لبيان خطورة اعتناق هذه العقيدة الكفرية .

---

(١) « الفيوضات الربانية في المآثر والأوراد القادرية » (ص١٥ورد الصبح) .

(٢) انظر (ص٢٧٤ ـ ٢٨١) .

(٣) انظر (ص٢٣٦ ـ ٢٦٥) .

أولاً : من العقائد الفاسدة التي وقع فيها المتصوفة القائلون بوحدة الوجود : تجويز عبادة كل شيء موجود في هذا الكون :

لقد جوز المتصوفة القائلون بوحدة الوجود عبادة كل شيء موجود في هذا الكون وذلك انطلاقًا من عقيدتهم الباطلة التي تقول بأن كل ما في هذا الكون يعتبر مجالي ومظاهر للّه سبحانه وتعالى ولذا يجب على الإنسان أن يعبد كل شيء في هذا الوجود ويحب كل شيء لأن عبادته لأي شيء من الأشياء من هذا الكون يعتبر عبادة اللّه سبحانه وتعالى لأن الكل يطلق عليه عند القائلين بوحدة الوجود « اللّه » بل يعتقد المتصوفة بأن حصر العبادة على اللّه سبحانه وتعالى يعتبر نقصًا في التوحيد وحصرها في بعض أجزاء الإله لأن الكل في هذا الوجود يعتبر جزءًا من اللّه تعالى اللّه عما يقولون علوًا كبيرًا ولذا يجب عبادة كل شيء .

فمن الأمور الدالة على أنهم يجوزون عبادة كل شيء هو تصريحهم بأن عبدة الأوثان والأصنام تعتبر عباداتهم صحيحة وأنهم يعتبرون بعبادتهم للأوثان والأصنام من دون اللّه عبدوا اللّه سبحانه وتعالى وذلك انطلاقًا من معتقدهم الفاسد بأن الكل في هذا الكون يطلق عليه « اللّه » لأنه مظهر من مظاهر اللّه ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا .

فابن عربي يعتبر موقف السامري وصناعته للعجل من أجل أن يعبده بنو إسرائيل من دون اللّه صحيحًا وأن موقف هارون عليه السلام النبي المرسل من عند اللّه تعالى خطأ لأن السامري عرف الحق في نظر ابن عربي وهارون لم يعرف الحق ولذا أنكر على بني إسرائيل عبادة العجل لأن هارون ـ حسب زعم ابن عربي المفتري ـ لم يعرف هذا العقيدة الإلحادية التي يقول بها ابن

عربي والتي تعتبر كل ما في هذا الكون آلهة ولم يكتف بهذا بل زعم أن موسى عرف الحق وأنكر على السامري حصر الإله في شيء واحد فقط لأن كل شيء في هذا الكون يعتبر مجالي ومظاهر للّه سبحانه .

وإليك كلام ابن عربي نصًا حتى يتضح الأمر جيدًا فقد قال ابن عربي مصححًا موقف السامري ومنكرًا موقف هارون وزاعمًا أن موسى وقف مع السامري في دعوته إلى عبادة غير اللّه قال :

« ثم قال هارون لموسى عليه السلام : إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل . فتجعلني سببًا في تفريقهم فإن عبادة العجل فرقت بينهم فكان منهم من عبده اتباعًا للسامري وتقليدًا له ومنهم من توقف عن عبادته حتى يرجع إليهم موسى فيسألونه عن ذلك فخشي هارون أن ينسب ذلك الفرقان بينهم إليه فكان موسى أعلم بالأمر من هارون لأنه علم ما عبده أصحاب العجل لعلمه أن اللّه قضى أن لا يعبد إلا إياه . . . وما حكم اللّه بشيء إلا وقع فكان عتب موسى أخاه هارون لما وقع الأمر في إنكاره وعدم اتساعه فإن العارف من يرى الحق في كل شيء بل يراه عين كل شيء »[1] .

ثم يواصل ابن عربي توضيح عقيدته الباطلة فيحرف معنى قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴾[2] قائلاً :

« يعني فيما صَنعت من عدو لك إلى صورة العجل على الاختصاص » أي لماذا خصص العجل فقط بكونه إلهًا والحال في هذه العقيدة أن كل شيء هو اللّه ولذلك حرق موسى العجل حتى لا يحصر الإله في شيء واحد

---

(١) « فصوص الحكم » لابن عربي (ص١٩٢) .

(٢) طه : (٩٥) .

تعالى اللَّه عن ذلك علواً كبيراً ثم يستطرد ابن عربي قائلاً : « وقال له : ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَهِكَ﴾ فسماه إلهًا بطريق التنبيه للتعليم أنه بعض لمجال الإلهية »[1] .

فانظر كيف زعم أن قول موسى للسامري : ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَهِكَ﴾ أن هذا اعتراف من موسى بألوهية العجل لأنه بعض الأشياء التي يتجلى فيها الرب حسب زعم ابن عربي ، سبحانك هذا بهتان عظيم ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبًا.

ثم يعلل ابن عربي عدم تسلط هارون على نسف العجل وإحراقه وكون موسى هو الذي سلط على ذلك زاعمًا أن هذا كان ليعبد اللَّه في كل صورة والعجل هو إحدى هذه الصور التي يجب عنده أن يعبد اللَّه فيها ويتضح لنا هذا من خلال تحريفه لمعنى الآية الآتية وهي قوله تعالى : ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ حيث قال :

« فللَّه درجات يعبد فيها وكل صنم وإله عبد في الأرض فهو إحدى الدرجات وأسماها »

ثم قال : « فكان عدم قوة إرداع هارون بالفعل أن ينفذ في أصحاب العجل بالتسليط على العجل كما سلط موسى عليه حكمة من اللَّه تعالى ظاهرة في الوجود ليعبد في كل صورة وإن ذهبت تلك الصورة بعد ذلك فما ذهبت إلا بعد ما تلبست عند عابدها بالألوهية .

ثم قال : « وما عبد شيء من العالم إلا بعد التلبيس بالرفعة عند العابد والظهور بالدرجة في قلبه وكذلك تسمى الحق لنا برفيع الدرجات ولم يقل رفيع الدرجة فكثر الدرجات في عين واحدة فإنه قضى أن لا يعبد إلا إياه في

(١) « فصوص الحكم » لابن عربي (ص١٩٢) .

درجات مختلفة أعطت كل درجة مجلى إلهيًا عبد فيها وأعظم مجلى عبد فيه وأعلاه الهوى كما قال : ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ وهو أعظم معبود فإنه لا يعبد شيء إلا به ولا يعبد هو إلا بذاته وفيه أقول :

وحق الهوى أن الهوى سبب الهوى ولولا الهوى في القلب ما عبد الهوى[1]

ثم قال ابن عربي :

« والعارف المكمل من رأى كل معبود مجلى للحق يعبد فيه ولذلك سموه كلهم إلهًا مع اسمه الخاص بحجر أو شجر أو حيوان أو إنسان أو كوكب أو ملك »[2] .

ثانيًا : يعتقد المتصوفة القائلون بوحدة الوجود أن كل الذين يعبدون غير اللَّه مؤمنون حقًا :

لقد ذهب المتصوفة إلى القول بأن كل العباد في هذا الكون سواءً كانوا عابدين للَّه وحده أو عابدين لغيره من الأوثان والأصنام والأحجار والأشجار والحيوان وغيرها مما يوجد في هذا الكون مؤمنون حقًا لأن الكل يعتبر عابدًا للَّه في نظر المتصوفة وذلك بناءً على معتقدهم الباطل والقائل بأن كل ما في هذا الكون مجالي ومظاهر للَّه فقط وكل فيه جزء من الألوهية فإذا عبدت أي شيء مما يوجد في هذا الكون فكأنما عبد اللَّه ويتضح لنا هذا من خلال زعم ابن عربي بأن قوم نوح أجابوا نوحًا حقًا في دعوته وبما أن نوحًا مكر بهم فلذا هم أيضًا بالمقابل مكروا به وأن تمسك قوم نوح بمعبوداتهم الباطلة وهي الأصنام والأوثان التي كانوا يعكفون حولها ويعبدونها من دون اللَّه يعتبر حقًا

---

(١) « الفصوص » (ص ١٩٤) .

(٢) « الفصوص » (ص١٩٥) .

أراد نوح عليه السلام أن يزيحهم عنه ولكنهم صمدوا على معبوداتهم .

وإليك عبارته نصًا في هذا المجال حتى يتضح الأمر جليًا :

« علم العلماء باللَّه ما أشار إليه نوح عليه السلام في حق قومه من الثناء عليهم بلسان الذم وعلم أنهم إنما لم يجيبوا دعوته لما فيها من الفرقان والأمر قرآن لا فرقان ومن أقيم في القرآن لا يصغي إلى الفرقان وإن كان فيه . . . دعاهم ليغفر لهم لا ليكشف لهم وفهموا ذلك منه ﷺ لذلك جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وهذه كلها صورة الستر التي دعاهم إليها فأجابوا دعوته بالفعل لا بلبيك »[1] .

ثم قال ابن عربي :

« . . . ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ لأن الدعوة إلى اللَّه تعالى مكر بالمدعو، ﴿ ادعوا إلى الله ﴾ فهذا عين المكر ، فأجابوه مكرًا كما دعاهم »[2] .

فانظر كيف جعل الدعوة إلى اللَّه مكرًا بالمدعوين ، بل عين المكر ثم بين نوح المكر الذي قابل به قوم نوح نوحًا فيقول :

« فقالوا في مكرهم : ﴿ لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ فإنهم إذا تركوهم جهلوا من الحق على قدر ما تركوا من هؤلاء فإن للحق في كل معبود وجهًا يعرفه من يعرفه ويجهله من يجهله فما عبد غير اللَّه في كل معبود »[3] .

فمن النصوص المتقدمة يتضح لنا بأن ابن عربي يعتبر الدعوة إلى عبادة

---

(١) « فصوص الحكم » (ص ٧١) .

(٢) « فصوص » (ص٧٢) .

(٣) « فصوص » (ص ٧٢) .

اللَّه وحده مكر ومكيدة بالمدعو مع أن اللَّه عز وجل اعتبر الدعوة إلى اللَّه من أوضح وأشرف وأحسن الوظائف حيث قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[1] .

وقد أمر اللَّه رسوله محمداً ﷺ بالدعوة إلى اللَّه فقال تعالى : ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2] .

ومن هنا نقول أن الدعوة إلى اللَّه من أشرف الوظائف وهي وظيفة الأنبياء والمرسلين ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين وليست مكراً كما يزعم ابن عربي ولم يكتف ابن عربي بهذا بل اعتبر تمسك قوم نوح بعبادة أصنامهم حقًا وأنهم لو تركوا عبادة تلك الأوثان وعبدوا اللَّه وحده لاعتبروا بذلك جهالاً باللَّه تعالى لأن الكل في هذا الكون يطلق عليه « اللَّه » حسب زعم ابن عربي ولذا يعتبر العابد الكل في نظره كل من يصرف العبادات لجميع ما في هذا الكون لا من يحصر عبادته في اللَّه سبحانه وتعالى وهذه دعوة صريحة إلى الشرك الذي أرسل اللَّه الرسل وأنزل الكتب من أجل نهي الخليقة عنه ولا غرابة في ذلك فإن من يعتقد بوحدة الوجود يعتقد بأن كل ما في هذا الكون مجالي ومظاهر للَّه سبحانه وتعالى .

ثم واصل ابن عربي تحريفاته لمعاني الآيات القرآنية فاعتبر قوم نوح غرقى في بحار العلم باللَّه تعالى وأن اللَّه كان ناصرهم وأن المقصود بالضلال بالنسبة لقوم نوح إنما كان حيرة لمعرفتهم أسرار الربوبية واعتقادهم بأن كل موجود هو اللَّه فصاروا بذلك أربابًا عند أنفسهم حسب زعمه وإليك نص كلامه في هذا المجال حيث قال في تفسير قوله تعالى : ﴿مِّمَّا

(١) فصلت : (٣٣) .

(٢) النحل : (١٢٥) .

خَطِيئَاتِهِمْ﴾[1] .

« فهي التي خطت بهم فغرقوا في بحار العلم باللَّه تعالى . . . ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾ فكان اللَّه عين أنصارهم فهلكوا فيه إلى الأبد»[2] .

ثم واصل تحريفاته لمعاني الآيات فقال في تفسير قوله تعالى : ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾ قائلاً :

« أي يحرروهم فيخرجوهم من العبودية إلى ما هم فيه من أسرار الربوبية فينظرون أنفسهم أربابًا بعد ما كانوا عند أنفسهم عبيدًا فهم العبيد الأرباب »[3] .

واعتبر ابن عربي أيضًا كفار قريش الذين تمسكوا بآلهتهم الباطلة قائلين : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى اللَّه زلفى » غير منكرين للَّه بل متعجبين لأنهم وقفوا مع كثرة الصور ونسبوا الألوهية لها ثم يزعم أن الرسول محمدًا ﷺ قد جاء داعيًا لهم إلى إله يعرف ولا يشهد ثم يصف ابن عربي هذا الإله قائلاً :

« فدعا أي الرسول محمد ﷺ إلى إله يصمد إليه ويعلم من حيث الجملة . . . ولا يشهد ولا تدركه الأبصار اللطيفة وسريانه في أعيان الأشياء فلا تدركه الأبصار كما أنها لا تدرك أرواحها المدبرة أشباحها وصورها الظاهرة وهو اللطيف الخبير : والخبرة ذوق ، والذوق تجلي والتجلي في صور فلابد منها ولابد منه فلابد أن يعبده من رآه بهواه إن فهمت .

---

(١) نوح : (٢٥) .

(٢) « الفصوص » (ص٧٣) .

(٣) « الفصوص » (ص٧٤) .

ولم يكتف ابن عربي بتصحيح موقف قوم نوح وكفار قريش بل صرح بأن فرعون اللعين الذي لم تعرف الأرض أكفر منه ولا أظلم من المؤمنين الموحدين الفائزين بالجنة وإليك نص كلامه في هذا المجال فقد قال :

« ولما كان فرعون في منصب التحكم صاحب الوقت وأنه الخليفة بالسيف وإن جار بالعرف الناموسي لذلك قال : ﴿أنا ربكم الأعلىٰ﴾ أي وإن كان الكل أربابًا بنسبة ما فأنا ربكم الأعلىٰ بما أعطيته في الظاهر من التحكم فيكم ولما علمت السحرة صدقه في مقاله لم ينكروه بل أقروا له بذلك فقالوا: ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾[1] ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ فالدولة لك فصح قوله أنا ربكم الأعلىٰ »[2] .

ويقول ابن عربي متحدثًا عن فرعون أيضًا معقبًا على قوله تعالى : ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾[3] وحاكمًا بنجاة فرعون من عذاب الآخرة :

« فبه قرت عينها بالكمال الذى حصل لها وكان قرة عين لفرعون بالإيمان الذي أعطاه اللَّه عند الغرق فقبضه اللَّه طاهراً مطهراً ليس فيه شيء من الخبث » .

وقال عنه أيضًا : « فنجاه اللَّه من عذاب الآخرة في نفسه ونجى بدنه فقد عمته النجاة حسًا ومعنى »[4] .

ففي هذا النص حكم ابن عربي بنجاة فرعون من النار وأنه قبضه اللَّه مؤمنًا فمات طاهراً مطهراً وأن النجاة عمت بدنه حسًا ومعنى وهذا يعتبر

---

(١) طه : (٧٢) .

(٢) « الفصوص » (٢١٠ ـ ٢١١) .

(٣) القصص : (٩) .

(٤) « الفصوص » (٢٠١ ـ ٢١٢) .

تكذيبًا للَّه سبحانه وتعالى وكفرًا بكتابه وذلك لأن اللَّه عز وجل أخبرنا بأن فرعون مات كافرًا فمن نصدق أنصدق اللَّه أم نصدق ابن عربي الدجال المفتري؟ . . ولاشك أننا نؤمن بكلام ربنا ونعتقد بأن فرعون مات كافرًا ونكفر بكلام هذا الصوفي الذي يعتقد بأن كل الناس الموجودين في هذا الكون مؤمنون حقًا وأنه ليس هناك تقسيم الناس إلى مؤمنين وكافرين في نظره وهذا معتقد مخالف تمام المخالفة لما جاء في الكتاب والسنة المطهرة حيث قال اللَّه سبحانه وتعالى عن فرعون : ﴿ **النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ** ﴾[1] .

ثالثًا : من المضاعفات التي ترتبت على القول بوحدة الوجود القول بوحدة الأديان :

إن من أهم المفاسد الخطيرة التي ترتبت على القول بوحدة الوجود والتي يعني بها المتصوفة بأن اللَّه عين خلقه وما الأشياء الموجودة في هذا الكون إلا مظهر من مظاهر اللَّه عز وجل ترتبت على هذه العقيدة الإلحادية قول الصوفية بوحدة الأديان سواء كانت هذه الأديان الأديان الوثنية الباطلة من مجوسية وبوذية وغيرها من الأديان التي ليس لها صلة بالوحي السماوي لا من قريب ولا من بعيد أو الأديان التي لها أساس من الوحي السماوي إلا أنها حرفت وبدلت حتى انقلبت إلى أديان وثنية سَوَّىٰ المتصوفة بين هذه الأديان حتى وصل بهم الأمر إلى أن يساووا بين الإيمان والتوحيد والكفر والشرك وأن الإسلام دين الهدى والقدسية والطهر هو عين الأديان الباطلة التي تدعو إلى الضلال والباطل.

---

(١) غافر : (٤٦) .

يقول ابن عربي في تقرير هذه العقيدة وتوضيحها :

عقد الخلائق في الإله عقائد وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه[1]

وقال أيضًا :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
لقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائـــف وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهـــت ركائبه فالدين ديني وإيماني[2]

إذا نظرنا في الأبيات السابقة نجد أن ابن عربي قد صرح بأنه يعتقد جميع العقائد الموجودة في هذا الكون وكلمة جميع تعني أنه يعتقد كل العقائد التي يعتقدها البشر على اختلاف عقائدهم تجاه اللَّه سبحانه وتعالى وهذا طبعًا بناه على عقيدته الإلحادية الفاسدة وهي عقيدة وحدة الوجود التي تعتبر أن الكل في هذا الكون ما هو إلا مظاهر ومجالي للَّـه سبحانه فإذا عبد الإنسان أي نوع من هذه الأنواع الموجودة في هذا الكون فعبادته صحيحة لأنه عبد اللَّه في إحـدى صوره وعلى هذا فليس عند ابن عربي ومن يقول من المتصوفة بوحدة الوجود مؤمن ولا كافر بل الجميع مؤمنون حقًا.

ثم في الأبيات الثانية صرح ابن عربي بأنه كان ينكر صاحبه قبل أن يصل إلى هذا المعتقد الإلحادي صاحبه إذا اختلف معه في الدين ولكن بعد أن وصل إلى قمة الإلحاد والاعتقاد بأن كل ما يمشي على وجه الأرض آلهة

---

(١) « فصوص الحكم » لابن عربي (ص٣٤٥) .

(٢) « ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق » لابن عربي (ص٣٩) .

أصبح يحب أي مخلوق بقطع النظر عما يحمله من معتقد وذلك لأن قلبه أصبح متهيئًا لقبول أي صورة معبودة في هذا الكون وأن قلبه أصبح قابلاً لعبادة الرهبان النصارى وعبادة الأوثان وعبادة المسلمين وعبادة اليهود وأكد أنه يدين بدين الحب فقط وأنه يحب الكل وأن كل الديانات الموجودة في هذا الكون دينه وإيمانه بقطع النظر عن مصدر هذه الديانات أهي ديانة إلهية أم ديانة وثنية لأن كل الأديان في نظر أهل وحدة الوجود واحدة وليس هناك دين صحيح ودين باطل بل الجميع صحيح .

وحذر ابن عربي من الإيمان بدين خاص والكفر بما سواه فقال :

« فإياك أن تتقيد بعقد مخصوص وتكفر بما سواه فيفوتك خير كثير بل يفوتك العلم بالأمر على ما هو عليه فكن في نفسك هيولي[1] لصور المعتقدات كلها فإن اللّه تعالى أوسع وأعظم من أن يحصره عقد دون عقد فالكل مصيب وكل مصيب مأجور سعيد وكل سعيد مرضي عنه »[2] .

إذا نظرنا في النص السابق نجد أن ابن عربي حذر من أن يعتقد أحد بدين واحد فقط ويكفر بما سواه وذلك حتى لا يفوته الخير الكثير ودعا إلى أن يكون أي أحد قابلاً لكل المعتقدات على اختلافها لأن اللّه سبحانه وتعالى أوسع من أن يكون محصوراً في معتقد واحد فقط وصرح بأن كل عابد في هذه الدنيا مصيب أيًا كان معبوده وأن الكل سعداء مرضي عنهم وعلى هذا ففي معتقد أهل وحدة الوجود ليس هناك كافر قط بل الكل مؤمنون حقًا .

---

(١) الهيولي لفظ يوناني بمعنى الأصل والمادة وفي الاصطلاح هي جوهر في الجسم قابل لما يعرض لذلك الجسم من الاتصال والانفصال محل للصورتين الجسمية والنوعية .

انظر « المعجم الفلسفي » (ص٥٣٦) .

(٢) « فصوص الحكم » لابن عربي .

وهذا المعتقد الخبيث وصل بالصوفية إلى نفي عذاب الآخرة وصرحوا بأنه سمي عذاب الآخرة عذابًا لعذوبة طعمه وليس هذا القول بغريب فيمن يعتقد بأن كل ما في هذا الكون يطلق عليه « اللَّه » وما دام كل ما في هذا الكون يطلق عليه الرب إذًا فالمشرك والموحد أيضًا من جملة ما في هذا الكون يطلق عليهما الرب ولذا يستحيل أن يعذب الرب نفسه ولهذا يقول ابن عربي مقررًا بأن الجنة والنار متساوية وأن كلاً منهما فيه نعيم وراحة :

فلم يبق إلا صادق الوعد وحده ... وما لوعيد الحق عين تعاين
وإن دخلوا دار الشقاء فإنهم ... على لذة فيها نعيم مباين
نعيم جنان الخلد فالأمر واحد ... وبينهما عند التجلي تباين
يسمى عذابًا من عذوبة طعمه ... وذاك كالقشر والقشر صائن[1]

ولا غرابة في قول ابن عربي هذا ما دام يعتقد بأن الرب عين العبد وأن الإيمان صنو الكفر حقيقة وغاية فما الذي يمنعه من الإيمان بأن الوعد عين الوعيد وأن نعيم الجنة وكوثرها عين عذاب السعير وغسلينها فأي قضاء على الدين والأخلاق أشد طغيانًا من ذلك إذا كان العمل الصالح والعمل الخبيث يستويان وإذا كانت الفضيلة عين الرذيلة وإذا كان الخير قرين الشر وما مصير الإنسانية لو آمنت بهذه الصوفية إلا الهلاك والدمار.

وبناء على هذا المعتقد الباطل حكم ابن عربي بنجاة فرعون موسى حيث قال معقبًا على قوله تعالى : ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ :

« فبه قرت عينها بالكمال الذي حصل لها وكان قرة عين لفرعون بالإيمان الذي أعطاه اللَّه عند الغرق فقبضه طاهرًا مطهرًا ليس فيه شيء من الخبث »[2] .

---

(١) « فصوص الحكم » لابن عربي (١/ ٩٤) بتحقيق الدكتور عفيفي .

(٢) « فصوص الحكم » (ص٢٠١) .

ويقول عن فرعون أيضًا :

« نجاه اللَّه من عذاب الآخرة في نفسه ونجى بدنه فقد عمته النجاة حسًا ومعنى »[1] .

* ومن المتصوفة الذين قالوا بوحدة الأديان عبد الكريم الجيلي

وإليك نص كلامه فقد قال معبرًا عن عقيدة وحدة الأديان :

وأسلمت نفسي حيث أسلمني الهوى وما لي عن حكم الحبيب تنازع
فطورًا تراني في المساجد راكعًا وإني طورًا في الكنائس راتع
إذا كنت في حكم الشريعة عاصيًا فإني في علم الحقيقة طائع[1]

ففي النص السابق صرح عبد الكريم الجيلي بالقول بوحدة الأديان وأنه هو بنفسه مرة يركع في المساجد ومرة في الكنائس وذلك لأنه يعتقد أن الأديان كلها واحدة وإن اختلفت العقائد التي تقوم عليها هذه الأديان وسواء كانت هذه الأديان وثنية أو صليبية أو يهودية أو إسلامية قائمة على توحيد اللَّه عز وجل وعبادته وحده لا شريك له فالكل عنده سواسية ولذلك لا غرابة عنده في الجمع بين هذه الديانات.

ويقول عبد الكريم الجيلي مفسرًا « لا إله إلا اللَّه » :

« يعني الإلهية المعبودة ليست إلا أنا فأنا الظاهر في تلك الأوثان والأفلاك والطبائع وفي كل ما يعبده أهل كل ملة ونحلة فما تلك الآلهة كلها إلا أنا ولهذا أثبت لهم لفظ الآلهة وتسميته لهم بهذا اللفظ من جهة ما هم عليه في الحقيقة ، تسمية حقيقية لا مجازية إنه أراد أن يبين لهم أن تلك

---

(١) « فصوص الحكم » (ص٢١٢) .

(٢) « الإنسان الكامل » لعبد الكريم الجيلي (١/ ٢٣) .

الآلهة مظاهر وأن حكم الألوهية فيهم حقيقة وأنهم ما عبدوا في جميع ذلك إلا هو فقال: «لا إله إلا أنا» أي ما ثم من يطلق عليه اسم الإله إلا هو أنا.. لا إله إلا أنا أي ما ثم إلا أنا ، وكل ما أطلق عليه اسم الإله فهو أنا »[1] .

* ومن المتصوفة الذين قالوا بوحدة الأديان ابن الفارض

فقد قال معبراً عن معتقده بأن الأديان واحدة وأن بإمكان الإنسان أن يجمع بين هذه المعتقدات المتناقضة فيصلي في المساجد ومرة يذهب إلى بيع اليهود ومرة إلى كنائس النصارى وذلك من أجل أن يجمع بين هذه الأديان لأنه يعتقد أن كلها واحدة وكذلك يسجد للأشجار والأحجار والأصنام والأوثان ويسجد للّه أيضًا وأن الكل في نظره عبادة للّه سبحانه وتعالى لأن كل موجود في هذا الكون عند الصوفية الوجودية يطلق عليه الرب .

وإليك كلام ابن الفارض نصًا فقد قال في « تائيته الكبرى » :

مجلس الأذكار سمع مطالع ... ولي حانة الخمار عين طليعة
وما عقد الزنار حكمًا سوى يدي ... وإن حل بالإقرار بي فهي حلت
وإن نار بالتنزيل محراب مسجد ... فما يا رب الإنجيل هيكل تبيعة
وأسفار توراة الكليم لقومه ... يناجي بها الأحبار في كل ليلة
وإن خر للأحجار في البد عاكف ... فلا وجه للإنكار بالعصبية
وزاغت الأبصار من كل ملة ... وما زاغت الأفكار من كل نحلة
وما احتار من للشمس عن غرة صبا ... وإشراقها من نور أسفار غرتي
وإن عبد النار المجوس وما انطفت ... كما جاء في الأخبار في ألف حجة
فما قصدوا غيري وإن كان قصدهم ... سوايا وإن لم يظهروا عقد نية[1]

(١) « الإنسان الكامل » لعبد الكريم الجيلي (١/ ٢٣) .

(٢) « التائية الكبرى » لابن الفارض ضمن ديوانه المسمى بـ « ديوان ابن الفارض » (ص١١٤).

فمن خلال هذه الأبيات الشعرية يتضح لنا معتقد ابن الفارض الفاسد الباطل حيث صرح في هذه الأبيات بأن الحانات التي تشرب فيها الخمور والأماكن التي يتعبد فيها اليهود والكنائس التي يتعبد فيها النصارى وهياكل المجوس والصائبة وبيوت الأصنام ومجالس ذكر اللَّه ومساجد اللَّه التي يعبد فيها اللَّه سبحانه وتعالى كل هذه الأماكن عند ابن الفارض سواسية لا فرق بينها فهي أماكن يعبد فيها اللَّه عبادة يحبها ويرضاها ولا غرابة في هذا فكل من يعتقد بوحدة الوجود يرى أن العابد والمعبود شيء واحد ولذا يرى ابن الفارض أن البشرية على اختلاف دياناتها وعقائدها كلها على بينة من الهدى والفرقان ذلك لأن القائل بوحدة الوجود يرى أن كل ما في هذا الكون ما هو إلا الذات الإلهية متعينة في صور بشرية .

ويقول جوليد زيهر :

« مهما تظاهر الصوفيون بتقديرهم للإسلام فلغالبيتهم نزعة مشتركة إلى محو الحدود الفاصلة بين العقائد والأديان وعندهم أن هذه العقائد كلها لها نفس القيمة النسبية إزاء الغاية المثلى التي ينبغى الوصول إليها »[1] .

والخلاصة التي نخرج بها هي أن المتصوفة بالفعل قالوا : بوحدة الوجود وقد أثبت ذلك بإيراد نصوص من أئمة التصوف وأن هذا المعتقد الإلحادي جر المتصوفة القائلين به إلى تجويز عبادة كل شيء في هذا الكون وذلك انطلاقًا من عقيدتهم الباطلة التي تقول : إنه لا موجود في هذا الكون إلا اللَّه وأن جميع ما فيه ما هو إلا مظاهر ومجالي للَّه سبحانه وتعالى .

وجرهم أيضًا أن يقولوا : إن عباد الأوثان والأصنام عبادتهم صحيحة

---

(١) « العقيدة والشريعة » لجوليد زيهر (ص١٧٠) .

وأنهم كانوا أفقه من الأنبياء حينما رفضوا توحيد اللَّه وأصروا على عبادتها بل صرح كبيرهم وشيخهم الذي يعتبرونه الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر بأن فرعون مات مؤمنًا وقد قبضه اللَّه طاهرًا مطهرًا.

وجرهم أيضًا هذا المعتقد إلى القول بأن الأديان كلها واحدة سواء كانت هذه الأديان لها صلة بالوحي السماوي أم لم يكن لها فكل عابد فهو عابد للَّه ولو عبد الوثن والصنم لأن الصنم المعبود حسب معتقد أهل وحدة الوجود فيه وجه من الألوهية .

وهذه كلها عقائد باطلة كل منها كما نرى كاف لإخراج الإنسان من الإسلام وتحويله إلى ملحد كافر وسيتضح لنا هذا في المبحث الآتي بعد هذا مباشرة حينما نذكر موقف الإسلام من عقيدة وحدة الوجود إن شاء اللَّه[1] .

المطلب الثالث

حكم من آمن بوحدة الوجود في ميزان الإسلام

لقد اتضح لنا فيما سبق بأن عقيدة وحدة الوجود هي الاعتقاد بأنه لا موجود في هذا الكون إلا اللَّه وما هذه الأشياء التي نراها بأعيننا إلا مظاهر ومجالي للَّه سبحانه وتعالى[2] .

ومذهب أهل السنة والجماعة أن اللَّه سبحانه وتعالى بائن من خلقه لا يشبهه شيء من مخلوقاته متصف بصفات الكمال فله الأسماء الحسنى والصفات العلى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ فهو المتفرد بالجلال

---

(١) انظر (ص٢٨١ ـ ٢٩٥) .

(٢) انظر : (ص٢٣٦ ـ ٢٦٥) .

المتصف بصفات الكمال المنزه عن النقائص والعيوب فمن اعتقد أن اللّه تعالى متحد بمخلوقاته وأن العبد عين الرب ، والرب عين العبد فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ وخالف الفطر والشرائع وقد كفّر اللّه تعالى النصارى الذين قالوا : إن اللّه اتحد بعيسى عليه السلام فقال سبحانه : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم** ﴾ فكيف بمن يقول إن اللّه متحد مع جميع مخلوقاته فهو أولى بأن يكون كافراً لأنه يعتقد أن اللّه متحد بجميع ما في هذا الكون.

أما الآن فإليك أقوال العلماء في حكم من يعتقد بوحدة الوجود :

ولنبدأ بشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللّه تعالى رحمة واسعة فهو أكثر من كتب في الرد على هؤلاء الملاحدة وبيّن معتقدهم الخبيث ورد عليهم ردوداً مقنعة في كثير من كتبه وإليك نبذة من مقالاته التي كتبها في الرد عليهم :

فقد قال رحمه اللّه رادًا على الاتحادية تحت عنوان اتحاد الصوفية أشر من كفر أهل الكتاب :

« فهذه المقالات وأمثالها من أعظم الباطل وقد نبهنا على بعض ما يعرف معناها وأنه باطل والواجب إنكارها فإن إنكار هذا المنكر الساري في كثير من المسلمين أولى من إنكار دين اليهود والنصارى الذي لا يضل به المسلمون لا سيما وأقوال هؤلاء شر من قول اليهود والنصارى ومن عرف معناها واعتقدها كان من المنافقين الذين أمر اللّه بجهادهم بقوله تعالى: ﴿ **جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ** ﴾[1] والنفاق إذا عظم كان صاحبه شراً من كفار أهل الكتاب وكان في الدرك الأسفل من النار وليس لهذه المقالات

---

(١) التوبة : (٧٣) .

وجه سائغ ولو قدر أن بعضها يحتمل في اللغة معنى صحيحًا فإنما يحمل عليها إذا لم يعرف مقصود صاحبها وهؤلاء قد عرف مقصودهم كما عرف دين اليهود والنصارى والرافضة ولهم في ذلك كتب مصنفة وأشعار مؤلفة وكلام يفسر بعضه بعضًا وقد علم مقصودهم بالضرورة فلا ينازع في ذلك إلا جاهل لا يلتفت إليه ويجب بيان معناها وكشف مغزاها لمن أحسن الظن بها أو خيف عليه أن يحسن الظن بها أو أن يضل فإن ضرر هذه على المسلمين أعظم من ضرر السراق والخونة الذين لا يعرفون أنهم سراق وخونة فإن هؤلاء غاية ضررهم موت الإنسان أو ذهاب ماله وهذه مصيبة في دنياه قد تكون سببًا لرحمته في الآخرة وأما هؤلاء فيسقون الناس شراب الكفر والإلحاد في آنية أنبياء اللَّه وأوليائه ويلبسون ثياب المجاهدين في سبيل اللَّه وهم في الباطن من المحاربين للَّه ولرسوله ويظهرون كلام الكفار والمنافقين في قوالب ألفاظ أولياء اللَّه المحققين فيدخل الرجل معهم على أن يصير مؤمنًا وليًا للَّه فيصير منافقًا عدواً للَّه.

ولقد ضربت لهم مرة مثلاً بقوم أخذوا طائفة من الحجاج ليحجوا بهم فذهبوا بهم إلى قبرص فقال لي بعض من كان قد انشكف له ضلالهم من أتباعهم : لو كانوا يذهبون بنا إلى قبرص لكانوا يجعلوننا نصارى وهؤلاء يجعلوننا شرًّا من النصارى والأمر كما قال هذا القائل »[1] .

ولقد ذكر شيخ الإسلام رحمه اللَّه جملة من العلماء الذين قالوا : بتكفير أهل الوحدة والاتحاد فقال :

« من المشائخ الذين قالوا بتكفير الاتحادية : هم سعيد بن المسيب والحسن البصري وعمر بن عبد العزيز ومالك بن أنس والأوزاعي وإبراهيم

(١) « الرسائل والمسائل » لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ١٣٠) .

ابن أدهم وسفيان الثوري والفضيل بن عياض والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم » .

إلى أن قال : « كل هؤلاء متفقون على تكفير هؤلاء ومن هو أرجح منهم وأن اللَّه سبحانه ليس هو خلقه ولا جزءًا من خلقه وصفة لخلقه بل هو سبحانه وتعالى مميز بنفسه المقدسة بائن بذاته المعظمة عن مخلوقاته وبذلك جاءت الكتب الأربعة الإلهية من التوراة والإنجيل والزبور والقرآن وعليه فطر اللَّه تعالى عباده وعلى ذلك دلت العقول »[1] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في معرض حديثه عن ابن عربي وعقيدته الوجودية :

« ليس عند ابن عربي رب وعالم كما تقول الفلاسفة الإلهيون الذين يقولون بواجب الوجود وبالعالم الممكن الوجود بل عنده وجود العالم هو وجود اللَّه وهذا يطابق قول الدهرية الطبائعية الذين ينكرون وجود الصانع مطلقًا ولا يقرون بوجود واجب غير العالم كما ذكر اللَّه عن فرعون وذويه وقوله مطابق لقول فرعون لكن فرعون لم يكن مقرًا باللَّه وهؤلاء يقرون باللَّه ولكن يفسرونه بالوجود الذي أقر به فرعون لم يكن مقرًا باللَّه وهؤلاء يقرون باللَّه ولكن يفسرونه بالوجود الذي أقر به فرعون فهم أجهل من فرعون وأضل وفرعون أكفر منهم في كفره من العناد والاستكبار ما ليس في كفرهم كما قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾[2] .

وقال له موسى : ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ ﴾[3] .

---

(١) « الرسائل والمسائل » لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ١٨٦) .

(٢) النمل : (١٤) .

(٣) الإسراء : (١٠٢) .

وجماع أمر صاحب الفصوص وذويه هدم أصول الإيمان الثلاثة فإن أصول الإيمان :

الإيمان باللَّه والإيمان برسله والإيمان باليوم الآخر .

فأما الإيمان باللَّه فزعموا أن وجوده وجود العالم ليس للعالم صانع غير العالم .

وأما الرسول فزعموا أنهم أعلم باللَّه منه ومن جميع الرسل ومنهم من يأخذ العلم باللَّه الذي هو التعطيل ووحدة الوجود من مشكاته وأنهم يساوونه في أخذ العلم بالشريعة عن اللَّه .

وأما الإيمان باليوم الآخر فقد قال :

فلم يبق إلا صادق الوعد وحده وما لوعيد الحق عين تعاين
وإن دخلوا دار الشقاء فإنهم على لذة فيها نعيم مباين

وهذا يذكر عن بعض أهل الضلالة قبله أنه قال : إن النار تصير لأهلها طبيعة نارية يتمتعون بها وحينئذ فلا خوف ولا محذور ولا عذاب لأنه أمر مستعذب . ثم إنه في الأمر والنهي عنده الآمر والناهي والمأمور والمنهي واحد »[1] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية أثناء تقسيمه للقائلين بالاتحاد :

قال : « الرابع : الاتحاد العام : وهو قول هؤلاء الملاحدة الذين يزعمون أنه عين وجود الكائنات وهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى من وجهين :

---

(١) « الرسائل والمسائل » لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢/ ٨٢) .

الأول : من جهة أن أولئك قالوا إن الرب يتحد بعبده الذي قربه واصطفاه بعد أن لم يكونا متحدين وهؤلاء يقولون ما زال الرب هو العبد وغيره من المخلوقات ليس هو غيره .

والثاني : من جهة أن أولئك خصوا ذلك بمن عظموه كالمسيح وهؤلاء جعلوا ذلك ساريًا في الكلاب والخنازير والقذر والأوساخ وإذا كان اللَّه تعالى قال : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم** ﴾ فكيف بمن قال : إن اللَّه هو الكفار والمنافقون والصبيان والمجانين والأنجاس والأنتان وكل شيء، وإذا كان اللَّه قد رد قول اليهود والنصارى لما قالوا : ﴿ **نحن أبناء الله وأحباؤه** ﴾ وقال لهم ﴿ **قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق** ﴾ فكيف بمن يزعم أن اليهود والنصارى هم أعيان وجود الرب الخالق ليسوا غيره ولا سواه ولا يتصور أن يعذب إلا نفسه وأن كل ناطق في الكون فهو عين السامع كما في قوله ﷺ : « **إن اللَّه تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها** » وأن الناكح عين المنكوح . . . » .

ثم قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

« وهؤلاء الملاحدة الاتحادية ضلال أكثرهم لا يعقلون قول رؤوسهم ولا يفقهونه وهم في ذلك كالنصارى كلما كان الشيخ أحمق وأجهل كان للَّه أعرف وعندهم أعظم ولهم حظ من عبادة الرب الذي كفروا به كما للنصارى هذا ما دام أحدهم في الحجاب فإذا ارتفع عن قلبه وعرف أنه هو فهو بالخيار بين أن يسقط عن نفسه الأمر والنهي لحفظ المراتب وليقتدي به الناس المحجوبون وهم غالب الخلق ويزعمون أن الأنبياء كانوا كذلك إذ عدوهم كاملين »[1] .

---

(١) « الرسائل والمسائل » لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢/ ٢٩ ـ ٣١) .

وقد ناقش شيخ الإسلام ابن تيمية الاتحادية بالأدلة النظرية فقال رحمه اللَّه في بعض ما يظهر به كفرهم وفساد قولهم :

« . . . وذلك من وجوه :

أحدها : أن حقيقة قولهم أن اللَّه لم يخلق شيئًا ولا ابتدعه ولا برأه ولا صوره لأنه إذا لم يكن وجود إلا وجوده فمن الممتنع أن يكون خالقًا لوجود نفسه أو بارئًا لذاته فإن العلم بذلك من أبين العلوم وأبدهها للعقول إن الشيء لا يخلق نفسه ولهذا قال سبحانه : ﴿**أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون**﴾ فإنهم يعلمون أنهم لم يكونوا مخلوقين من غير خالق ويعلمون أن الشيء لا يخلق نفسه فتعين أن لهم خالقًا وعند هؤلاء الكفار الملاحدة الفرعونية أنه ما ثم شيء يكون الرب قد خلقه وبرأه أو أبدعه إلا نفسه المقدسة ونفسه المقدسة لا تكون مخلوقة مربوبة مصنوعة مبروءة لامتناع ذلك في بدائه العقول من ذلك من أظهر الكفر عند جميع أهل الملل وأما على رأى صاحب الفصوص فما ثم إلا وجوده والذوات الثابتة في العدم الغنية عنه ووجوده لا يكون مخلوقًا والذوات غنية عنه فلم يخلق اللَّه شيئًا .

الثاني : أن عندهم أن اللَّه ليس رب العالمين ولا مالك الملك أو ليس إلا وجوده وهو لا يكون رب نفسه ولا يكون الملك المملوك هو الملك المالك وقد صرحوا بهذا الكفر مع تناقضه وقالوا : أنه هو ملك الملك بناء على وجوده مفتقر إلى ذوات الأشياء وذوات الأشياء مفتقرة إلى وجوده فالأشياء مالكة لوجوده فهي ملك الملك .

الثالث : أن عندهم أن اللَّه لم يرزق أحدًا شيئًا ولا أعطى أحدًا شيئًا ولا رحم أحدًا ولا أحسن إلى أحد ولا هدى أحدًا ولا أنعم على أحد نعمة

ولا علم أحدًا علمًا ولا علم أحدًا البيان ، وعندهم في الجملة لم يصل منه إلى أحد لا خير ولا شر ولا نفع ولا ضرر ولا عطاء ولا منع ولا هدى ولا ضلال أصلاً وأن هذه الأشياء جميعها عين محض وجوده فليس هناك غير يصل إليه ولا أحد سواه ينتفع بها ولا عبد يكون مرزوقًا أو منصورًا أو مهديًا.

ثم على رأى صاحب « الفصوص » أن هذه الذوات ثابتة في العدم والذوات هي أحسنت وأساءت ونفعت وضرت وهذا عنده سر القدر.

وعلى رأى الباقين ما ثم ذات ثابتة غيره أصلاً بل هو ذات نفسه بنفسه ولا عن نفسه بنفسه وهو المرزوق المضروب المشتوم وهو الناكح والمنكوح والآكل والمأكول وقد صرحوا بذلك تصريحًا بينًا .

الرابع : أن عندهم أن اللَّه هو الذي يركع ويسجد ويخضع ويعبد ويصوم ويجوع ويقوم وينام وتصيبه الأمراض والأسقام وتبتليه الأعداء ويصيبه البلاء وقد صرحوا بذلك وصرحوا بأن كل كرب يصيب النفوس فإنه هو الذي يصيبه وأنه إذا أنفس الكرب فإنما يتنفس عنه ولهذا كره بعض هؤلاء الذين هم من أكفر خلق اللَّه وأعظمهم نفاقًا وإلحادًا وعتوًا على اللَّه وعنادًا أن يصبر الإنسان على البلاء لأن عندهم هو المصاب المبتلى وقد صرحوا بأنه موصوف بكل نقص وعيب فإنه ما ثم من يتصف بالنقائص والعيوب غيره فكل عيب ونقص وكفر وفسوق في العالم فإنه هو المتصف به لا متصف به غيره كلهم متفقون على هذا الوجود »[1] .

وقال الإمام أبو علي بن خليل السكوتي بعد أن حذر من ابن عربي واتباعه :

---

(١) « الرسائل والمسائل » لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢/ ٨٦) .

« . . . وليحذر مواضع كثيرة من كلام ابن عربي الطائي في فصوصه وفتوحاته المكية وغيرهما وليحترز أيضًا من مواضع كثيرة من كلام ابن الفارض الشاعر وأمثاله مما يشيرون بظاهره إلى القول بالحلول والاتحاد لأنه باطل بالبراهين القطعية فكل كلام أو إطلاق يوهم الباطل فهو باطل بالإجماع فأجدى وأولى بطلانه إذا كان صريحًا في الباطل »[1] .

وقال الإمام برهان الدين البقاعي :

« وقد تواتر نسبة ابن عربي وابن الفارض إلى الكفر تواترًا معنـويًا وشاع ذلك على ألسنة المؤمنين الصادقين وإذا كان اللَّه سبحانه حكم بالكفر في كتابه الكريم على من قال إن اللَّه هو المسيح فلم لا يحكم المسلمون على قطبي مذهب الحلول والاتحاد وكل منهما يقول : اللَّه عين كل شيء»[2] .

وقال الإمام محمد بن عبد السلام عن ابن عربي حين سئل عنه في مصر :

« إنه شيخ سوء مقبوح يقول بقدم العالم ولا يحرم فرجًا »[3] .

وقال الشيخ إبراهيم الجعبري :

« رأيت ابن عربي شيخًا مخضوب اللحية وهو شيخ نجس يكفر بكل كتاب أنزله اللَّه وكل شيء أرسله اللَّه »[4] .

---

(١) « مصرع التصوف » لبرهان الدين البقاعي (ص١٣٧) .

(٢) « مصرع التصوف » لبرهان الدين البقاعي (ص٢١٧) .

(٣) « مجموعة الرسائل والمسائل » لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢/ ٨٤) .

(٤) نفس المرجع (٢/ ٨٥) .

وقال الدكتور أنــور الجندي عن أهل وحدة الوجود وموقف المسلمين منها :

« وقد رد المسلمون قول ابن عربي الذي قال : إن ذاته وذات اللَّه قد أصبحتا ذاتًا واحدة أي أن مظاهر العالم المختلفة هي مظاهر للَّه تعالى أي ليس للَّه وجود إلا الوجود القائم بالمخلوقات والمسلمون يؤمنون بأن اللَّه صاحب كل شيء وخالق كل شيء ومالك كل شيء ولكن اللَّه ليس حالاً أو متحداً بهذه الأشياء كلها ولا بالإنسان ولا يقر الإسلام مذهبًا حلول اللَّه في جسد الإنسان أو الأشياء الأخرى »[1] .

وقال الشيخ محمود عبد الرؤوف القاسم عن عقيدة وحدة الوجود:

« وحدة الوجود كفر مبين ومعتقدها كافر مبين كافر حسب الشريعة وكافر حسب الحقيقة الحقة التي هي الشريعة الإسلامية له في الدنيا عقوبة المرتد عن الإسلام وله في الآخرة عذاب أليم إلا أن يتداركه اللَّه سبحانه بلطفه وعفوه والصوفي الحق هو الذي يبطن وحدة الوجود ويظهر التمسك بالشريعة وهو منافق حقًا بل هو شر أنواع النفاق وليكن مطمئنًا من مقام الطمأنينة أن مقامه الحقيقي هو في الدرك الأسفل من النار إن لم يتداركه اللَّه برحمته »[2] .

وقال أيضًا الدكتور محمود عبد الرؤوف القاسم رادًا على القائلين بوحدة الوجود وموضحًا بطلانها :

« يقول سبحانه : ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ

---

(١) « المؤامرة على الإسلام » لأنور الجندي (ص٥٣) .

(٢) « حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ » (ص٧١٠) .

لَمُحْضَرُونَ ﴾[1] طبعًا وحدة الوجود تجعل الجن جزءاً من اللّه تعالى وليس بعد هذا النسب ما هو أقوى منه لأنه نسب بعض الذات إلى الذات لكن الآية الكريمة تستهجن هذه الفكرة نفيًا لها ودحضًا وتنزه اللّه سبحانه وتعالى عما يصفه هؤلاء الواصفون والعبارة ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ واضحة الدلالة على أن الجن لو كانوا ينتسبون إلى اللّه سبحانه لما جعلهم من المحضرين وعدم وجود النسب بينه سبحانه وبين الجنة ينفي وحدة الوجود نفيًا كاملاً.

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾[2].

ويقول : ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾[3].

الآيتان واضحتان كل الوضوح أن اللّه سبحانه خلق الإنسان من لا شيء من العدم ولو كانت وحدة الوجود واقعة لكان الإنسان شيئًا قبل أن يوجد كما هو الآن شيء بعد وجوده فكون الإنسان خلق من لا شيء من العدم ينفي وحدة الوجود جملة وتفصيلاً لأن اللّه تعالى ليس عدمًا إنه الحي القيوم الخالق البارئ المصور. . . . » .

ثم قال : « ولو كان الخلق هو الحق كما يفترون وكانت المخلوقات جزءًا من اللّه سبحانه تعينت بهذه الأشكال المختلفة لما بقي أي معنى للأسماء الحسنى (الخالق البارئ الفاطر بديع السموات والأرض) التي تعني كلها الإيجاد من العدم ولو كانت وحدة الوجود صحيحة لكان الإنسان جزء من اللّه ولكانت الآية : ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ باطلة وكان الإنسان في ربح

---

(١) الصافات : (١٥٨) .

(٢) مريم : (٩) .

(٣) مريم : (٦٧)

سواء آمن أو لم يؤمن وعمل صالحًا أم لم يعمل وتواصى بالحق والصبر أم لم يتواصى لأنه جزء من اللَّه .

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تصبح شتمًا للَّه لو صحت عقيدة الصوفية بوحدة الوجود مثل قوله سبحانه : ﴿ **وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ** ﴾[1] لأن عادًا حسب زعمهم وعقيدتهم الباطلة هم جزء من اللَّه سبحانه حيث يصبح معنى الآية الكريمة : إن جزءًا من اللَّه ـ تعالى عما يصفون ـ أتبع في هذه الدنيا ويوم القيامة »[2] .

وقال الدكتور صابر طعمية بعد ذكره جملة من كلام ابن عربي الدال على اعتقاده بوحدة الوجود :

« فهل بقي أدنى شك أو ذرة أو حاجة إلى دليل لكي يعرف الناس جميعًا أن ابن عربي ومن على شاكلته أو على طريق منهجه وعقيدته في وحدة الوجود هم أكثر من كفار وأكفر من الكفار وأبعد ما يكونون عن نقاء الفطر السليمة وضوابط العقول المستنيرة »[3] .

وقال الدكتور صابر طعمية في مكان آخر من كتابه أيضًا :

« لما كان الإيمان بواحدة من هاتين العقيدتين وحدة الوجود أو وحدة الشهود يعتبر شركًا صريحًا وكفرًا بواحًا لا يحتاج إلى تبرير ولا إلى تأويل فقد كان من البداهة أن تكون المؤثرات في هاتين العقيدتين غير إسلامية ومن ثم أن يكون مردها غير إسلامي ذلك أن وثنية وحدة الوجود استلزمت عند

---

(١) هود : (٦٠) .

(٢) « حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ » (ص ٧٠٤ ـ ٧٠٦) باختصار .

(٣) « الصوفية معتقدًا ومسلكًا » للشيخ صابر طعمية (ص٢٣٦) .

الصوفية الإيمان بوحدة الأديان بل وقد ترتب على معتقد الذين اعتقدوا بالفناء وهذا تعطيل ما بعده تعطيل ومعتقد الذين آمنوا بأن اللَّه سبحانه هو عين خلقه: أن تساوى عندهم الكفر والشرك والمجوسية واليهودية والمسيحية وكل ضروب الضلال مع الإسلام. . . » .

ثم قال : « فأي كفر يكون ما عليه القوم إن كفر أبي جهل وأبي لهب يهون بجوار كفر أصحاب الشهود»[1] .

وقال الاستاذ عبد المنعم خلاف :

« لقد غزا مذهب وحدة الوجود عقول الفلاسفة والصوفية الذين آفتهم أن طلبوا أن يدركوا اللَّه وما وراء الطبيعة بالحواس التي يدركون بها الطبيعة وبالعقل البشري المخلوق لإدراك النسب بين الكائنات الطبيعية وحدها أولاً فلما عجزوا عن رؤيته تعالى وإدراكه كما هو المنتظر ذهبوا إلى أنه لابد أن يكون اللَّه هو هذا الوجود الظاهر وأنه يحل فيه وليس له وجود منفصل عنه وهكذا تجد الوثنية التي حاربتها الأديان والفلسفات سندًا عظيمًا من هذه الفلسفة الإلحادية » .

إلى أن قال : « وقول أصحاب مذهب وحدة الوجود بأن اللَّه والمادة وحدة لا تتجزأ هو خروج عن مفهوم الإسلام الحق الذي يقول بأن كل مسبب لابد له من سبب وكل معلول لابد له من علة والمسبب لا يقوم بنفسه وإنما يقوم بالسبب وكذلك المعلول فإنه لا يوجد بذاته وإنما يوجد بوجود العلة فإذا زال السبب أو العلة زال المسبب وزال المعلول واللَّه سبحانه وتعالى هو الأول وهو الآخر والحدوث مستحيل عليه باعتباره من صفات المعلولات والمادة معلولة وحادثة ولها خالق فإذا قيل بقدم المادة شاركت المادة اللَّه في قدمه »[2] .

---

(١) « الصوفية معتقدًا ومسلكًا » (ص٢٤٣ ـ ٢٤٥) .

(٢) « المؤامرة على الإسلام » لأنور الجندي (ص٥٣) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن تكلم عن أصول الفلاسفة :

« وكثير من ملاحدة المتصوفة كابن عربي وابن سبعين والقنوي والتلمساني وغيرهم يوافقونهم في أصولهم لكن يغيرون العبارات الإسلامية عما هو قولهم . . . وهؤلاء المتفلسفة ومتصوفوهم كابن سبعين وأتباعه يجوزون أن يكون الرجل يهوديًا أو نصرانيًا أو مشركًا يعبد الأوثان فليس الإسلام عندهم واجبًا ولا التهود والتنصر والشرك محرمًا لكن قد يرجحون شريعة الإسلام على غيرها وإذا جاء المريد إلى شيخ من شيوخهم وقال أريد أن أسلك على يديك ، يقول له : على دين المسلمين أو اليهود أو النصارى؟ فإذا قال له المريد : اليهود والنصارى أما هم كفار ؟ يقول : لا ولكن المسلمون خير منهم ، وهذا من جنس جدل التتر أول ما أسلموا فإن الإسلام عندهم خير من غيره وإن كان غيره جائزًا لا يوالون عليه ويعادون عليه »[1] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية أيضًا متحدثًا عن حكم أهل وحدة الوجود في نظر الإسلام :

« وهؤلاء ليسوا مسلمين ولا يهودًا ولا نصارى بل كثير من المشركين أحسن حالاً منهم وهؤلاء أئمة النظار المتفلسفة وصوفيتهم وشيعتهم كان من أسباب تسلطهم وظهورهم هو بدع أهل البدع من الجهمية المعتزلة والرافضة ومن نحا نحوهم في بعض الأصول الفاسدة فإن هولاء اشتركوا هم وأولئك الملاحدة في أصول فاسدة يجعلونها قضايا عقلية صادقة وهي باطلة كاذبة مخالفة للشرع والعقل »[2] .

---

(١) كتاب « الرد على المنطقيين » لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص ٢٨١ ـ ٢٨٢) .

(٢) نفس المرجع (ص ٥٢١ ـ ٥٢٣) .

والخلاصة التي نخرج بها من هذا المطلب أن عقيدة وحدة الوجود عقيدة إلحادية بحته ليست من الإسلام في شيء وأن علماء الإسلام وقفوا ضدها بكل حزم وعزم وألفوا في الرد على أصحابها كتبًا ووصفوا معتنقيها بأنهم ملاحدة كفرة وعلى هذا فكل من يعتقد بهذه العقيدة الإلحادية ليس من الإسلام في شيء بل الإسلام بريء منه كل البراءة كبراءة الذئب من دم يوسف عليه السلام .

* * *

الفصل الثاني

انحراف الصوفية في المحبة واعتقادهم بأن اللَّه يحل في بعض مخلوقاته

وتحته مبحثان :

المبحث الأول : انحراف الصوفية في المحبة

المبحث الثاني : اعتقاد الصوفية بأن اللَّه يحل في بعض مخلوقاته الذين يتفانون في الرياضة على الطريقة الصوفية (وتحته مطلبان).

ثالثا: الصفا

الله أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد
وهو على كل شيء قدير

ثلاث مرات

لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد
وهو على كل شيء قدير

ثم يقول:

الله أكبر الله أكبر الله أكبر

ثلاث مرات

ثم يقول:

لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد
وهو على كل شيء قدير

ثم يدعو بما شاء
(ثلاث مرات).

المبحث الأول

انحراف الصوفية في محبة اللَّه عز وجل

تمهيـــد :

إن حب اللَّه حبًا صحيحًا كما جاء في الكتاب والسنة أمر واجب وذلك لأنه شعبة من شعب الإيمان وقد ذكر الإمام البيهقي ذلك في كتابه « شعب الإيمان » فقال :

« العاشر من شعب الإيمان : وهو باب في المحبة للَّه عز وجل »[1] .

وقد أخبرنا اللَّه سبحانه وتعالى في كتابه الكريم بأن المؤمنين يحبون اللَّه حبًا شديدًا فقال سبحانه : ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا**﴾[2] وهذا يدل على أن حب اللَّه جل جلاله من الإيمان لأن قوله : ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ**﴾ إشارة إلى أن الإيمان يحرك على حب اللَّه جل جلاله ويدعو إليه جل ثناؤه .

وقد أخبرنا اللَّه سبحانه وتعالى في كتابه بأن من علامات المحبة الصادقة للَّه هو اتباع الرسول ﷺ وعدم مخالفته فقال سبحانه : ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ**﴾[3] .

---

(١) « شعب الإيمان » للإمام البيهقي .

(٢) البقرة : (١٦٥).

(٣) آل عمران : (٣١) .

وهذه الآية الكريمة تدل دلالة صريحة على أن علامة الحب الصادق هو اتباع الرسول ﷺ لأنه السبيل الوحيد للوصول إلى محبة اللَّه سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين وهذا يدل على أن الذين يدعون محبة اللَّه بدون متابعة الرسول ما هم إلا كذبة وذلك لأن اتباع الرسول شرط لكي يصل الإنسان إلى مرحلة يحبه اللَّه فيها وهذه غاية كل مسلم يسعى ليل نهار للوصول إليها .

وقال تعالى : ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[1] .

قال الإمام البيهقي رحمه اللَّه بعد إيراده ، لهذه الآية في كتابه « شعب الإيمان » :

« فأبان بهذه الآية أن حب اللَّه وحب رسوله والجهاد في سبيله فرض وأنه لا ينبغي أن يكون شيء سواه أحب إليهم منه وبمثل ذلك جاءت السنة النبوية »

فعن أبي قلابة عن أنس بن مالك رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال : « **ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون اللَّه ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا للَّه ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار** »[2] .

---

(١) التوبة : (٢٤) .

(٢) « صحيح البخاري » مع الفتح (١/ ٦٠) و« شعب الإيمان » للبيهقي (٢/ ٣٤٠) .

قال الإمام البيهقي بعد إيراده لهذا الحديث :

« فأبان المصطفى ﷺ بهذا أن حب اللَّه وحب رسوله من الإيمان وفي ذلك دلالة علي وجوب المحبة »[1] .

وقد ذكر الحليمي معانٍ كثيرة لمحبة اللَّه عز وجل ومن جملة هذه المعاني التي ذكرها :

« الحرص على أداء الفرائض والتقرب إليه بالنوافل »[2] .

ومن هنا نقول أن الطريق الوحيد للوصول إلى مرحلة يحب اللَّه فيها عباده المؤمنين هو الإيمان باللَّه ورسوله وبجميع ما جاء في الكتاب والسنة وأداء الفرائض المفروضة في أوقاتها وأداء ما كتبه اللَّه من النوافل وذلك لما جاء في الحديث الصحيح :

« من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ورجله التي يمشي بها ويده التي يبطش بها »[3] .

قال الشيخ محمد السفاريني الحنبلي تعليقًا على هذا الحديث :

« فدل هذا الحديث أنه لا طريق يوصل إلى التقرب إلى اللَّه وولايته ومحبته سوى طاعته التي شرعها على لسان رسوله ﷺ من أداء الفرائض واجتناب المحارم والاهتمام بنوافل العبادات الموصلة لمحبة اللَّه تعالى فمن

---

(١) « شعب الإيمان » للبيهقي (٢/ ٣٤٠) .

(٢) « المنهاج في شعب الإيمان » للحليمي (١/ ٤٩٦) .

(٣) « صحيح البخاري » مع الفتح (١١/ ٣٤٠) .

أحب اللَّه سبحانه رزقه محبته وطاعته والاشتغال بذكره »[1] .

والخلاصة من خلال الأدلة القرآنية والحديثية السابقة نخرج بأن الطريق الوحيد الذي يمكن أن يصل الإنسان عن طريقه إلى محبة اللَّه عز وجل هو الإيمان الصحيح والقيام بالفرائض وأداء المستطاع من النوافل أما أن يدعي الإنسان بأنه محب للَّه سبحانه وتعالى بدون الخضوع لأوامر اللَّه ورسوله فهذا مجرد زعم باطل فقط .

خطأ الصوفية في مفهوم الحب الإلهي :

وإذا نظرنا إلى الصوفية فإننا نجدهم لم يفهموا الحب الإلهي فهمًا صحيحًا بل فهموه فهمًا خاطئًا فلذلك وقعوا في ضلالات ومتاهات أوقعتهم في عقائد باطلة ومخالفة تمامًا للعقيدة الإسلامية .

وقد ظهرت أول نظرية في الحب الإلهي في المفهوم الصوفي المنحرف في مدرسة البصرة وكان ظهورها عند جماعة لقبوا بالزنادقة أو زنادقة الزهاد وهو اسم أطلقه عليهم أبو داود السجستاني المتوفى (٢٧٥هـ) ومن هؤلاء رابعة العدوية توفيت (١٨٥هـ) ورياح بن عمرو القيسي المتوفى سنة (١٨٨هـ) وجبان أو ابن جبان الحريري وأبو حبيب العجمي وقد أطلق هذا الاسم أيضًا على عبد الواحد بن زيد المتوفى سنة (١٧٧هـ) وكليب وعبدك الصوفي الشيعي وامرأة رباح القيسي وأبي العتاهية الشاعر.

ولا شك أن ظهور الكلام في الحب الإلهي في بيئة البصرة في صورة قوية ناضجة له مغزاه وإن كنا لا نعرف الكثير عن الظروف التي أحاطت برجال مدرستها ولكنا نعرف على الأقل أن منهم من كان متأثرًا بالفلسفة

---

(١) « شرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد » للسفاريني (ص١٤١) .

المانوية[1] التي عرفت بنظرية خاصة في الحب الإلهي خلاصتها أن أرواح الأبرار ذرات نورانية انبثقت من ينبوع النور الأعظم فهي دائمًا تنجذب إليه وتحن إلى العودة إليه وتحاول جاهدة الفرار من هياكلها المظلمة فغايتها الفرار من ربقة عبوديتها والانطلاق من سجنها الأرض[2] .

وأول من تغنى بنغمة الحب الإلهي من هذه الطبقة كانت رابعة العدوية التي أحبت اللَّه لذاته لا خوفًا من ناره ولا طمعًا في جنته وكان أقصى أمانيها أن يكشف اللَّه لها عن وجهه الكريم ويرفع عن قلبها الحجب التي تحول دون مشاهدته وفي هذا تقول مخاطبة الذات الإلهية :

أحبك حبين حـــب الهـــوى ... وحبًا لأنـــك أهـــــل لذاكا
فأما الذي هو حب الهـــــوى ... فكشفك لي الحجب حتى أراكا
وأما الذي أنت أهـــل لـــــه ... فلست أرى الكون حتـــى أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لـــي ... ولكن الحمـــــــد في ذا وذاكا

أدركت رابعة العدوية سر الحياة الصوفية وجوهرها وذلك السر هو إنكار الذات وفناء الحب في المحبوب إذ لا يعرف اللَّه حقًا ولا يحب الحب الحقيق وفي النفس أدنى شعور بذاتها وبالعالم المحيط بها[3] حسب زعمها.

ولم تكن رابعة العدوية وحدها القائلة بهذه النظرية بل يتفق معها كثير من المتصوفة الذين أتوا بعدها والذين تغنوا بنغمة الحب الإلهي كما يزعمون

---

(١) المانوية نسبة إلى رجل فارسي وثني اسمه ماني وهي مزيج من الزردشتية والنصرانية وعلى كل فهي ديانة وثنية وقد تأثر بها الصوفية انظر الفلسفة الصوفية في الإسلام للدكتور عبد القادر محمود.

(٢) « التصوف بين الحق والخلق » لمحمد فهر شقفة (ص٥٧) .

(٣) « التصوف بين الحق والخلق » لشقفة (ص٥٨) .

بل هذه نظرية سبق فيها المتصوفة من أصحاب الديانات الأخرى متصوفة الإسلام.

فهذا أبو عبد اللَّه القرشي[1] يقول في المحبة عند المتصوفة :

« حقيقة المحبة أن تهب كلك من أحببت فلا يبقى لك منك شيء »[2] ومعنى ذلك إذا لم يبق منك ففيه إشارة إلى القول بالفناء المذموم والذي يعني حلول اللَّه في خواص عباده كما يزعم المتصوفة.

ويقول الجنيد في معنى المحبة في المفهوم الصوفي :

«المحبة هي دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب»[3].

إذا نظرنا في تعريف الجنيد للمحبة في المفهوم الصوفي نجده قد عرفها بأن مفهوم المحبة الحقيقي عند المتصوفة هي التي يصل فيها المحب إلى استبدال صفاته بصفات المحبوب وسواء كان المحبوب إنسانًا أو أي مخلوق آخر في هذا الكون أو كان المحبوب اللَّه جل جلاله فإنه لا يمكن أن يطلق على أحد محب للَّه حتى يخلع صفاته الآدمية ويتحلى بالصفات الإلهية والإنسان لا يمكن أن يخلع صفاته البشرية التي خلقه اللَّه عليها والتي هي دائمًا صفات النقص مهما أحب اللَّه وأطاعه في أوامره ونواهيه وعبده حق عبادته مهما فعل ذلك فإنه سيبقى بشرًا ناقصًا ولذا أقول تعريف الجنيد للمحبة بهذا التعريف لم يسبقه إليه أحد من سلف الأمة الذين يقتدى بهم ولم يقله أحد بعده أيضًا لأن تعريف الجنيد هذا تشم منه القول بالحلول وهو

---

(١) « الرسالة القشيرية » (٢/ ٦١٥).

(٢) « الرسالة القشيرية » (٢/ ٦١٥).

(٣) « الرسالة القشيرية » (٢/ ٦١٥).

إمكانية حلول اللَّه في عباده الذين أحبهم واصطفاهم كما يزعم المتصوفة ذلك وهذا مفهوم منحرف لحب اللَّه عز وجل أدى بالمتصوفة إلى الاعتقاد بإمكانية حلول اللَّه في مخلوقاته .

وقال أبو يعقوب السوسي في تعريف المحبة :

« حقيقة المحبة أن ينسى العبد حظه من اللَّه وينسى حوائجه إليه »[1] .

وإذا نظرنا في هذا التعريف للمحبة نجده يصطدم مع ما جاء في القرآن الكريم لأنه قال : إن المحبة وحقيقتها هي نسيان العبد نصيبه من اللَّه واحتياجه إليه وكيف تكون نهاية المحبة الحقيقية هذه وقد قال اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** ﴾[2] ففي هذه الآية أخبرنا اللَّه سبحانه وتعالى بأن جميع الناس فقراء محتاجون إلى اللَّه سبحانه وتعالى فكيف تكون هذه نهاية المحبة وهي تتناقض مع ما جاء في القرآن الكريم .

وقد أمر اللَّه سبحانه وتعالى أن يدعوه عباده فقال سبحانه : ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ** ﴾[3] ولذا أقول : إن هذا التعريف الذي عرفه السوسي للمحبة إنما هو على المفهوم الصوفي الخاطيء أما على المفهوم الإسلامي الصحيح فإنه مصادم للكتاب والسنة وما دام كذلك فليس من الإسلام في شيء فضلاً عن أن يكون تعريفًا لحقيقة المحبة .

---

(١) « الرسالة القشيرية » (٢/٦١٦).

(٢) فاطر : (١٥) .

(٣) البقرة : (١٨٦) .

وقال الحسين بن منصور :

« حقيقة المحبة قيامك مع محبوبك بخلع أوصافك » [1] .

إذا نظرنا في تعريف الحسين بن منصور هذا لحقيقة المحبة نجده أنه عرفها بأن الوصول إلى حقيقة المحبة لا يمكن أن يصل إليه أحد إلا أن يقوم مع محبوبه بعد أن يخلع أوصافه ولا أدري ماذا يقصد بهذا أيقصد أن الإنسان الذي يدعي محبة اللَّه ينبغي أن يخلع أوصافه البشرية ويقوم مع اللَّه بعد ذلك فإذا كان يعني ذلك فإن خلع الإنسان أوصافه البشرية غير ممكن نهائيًا مهما كان محبًا للَّه فإنه لن يصل إلى أن ينخلع عن أوصافه البشرية وهل إذا تخلى عن أوصافه البشرية سيتصف بالصفات الإلهية وإذا كان مقصوده هذا فإن هذا هو عين القول بالحلول ولذا أقول إن هذا المفهوم للمحبة إنما هو مفهوم صوفي وهو مفهوم منحرف كما نرى يقصد به المتصوفة بأن نهاية حب اللَّه هو حلول اللَّه في المحب أما ما دون ذلك فلا يسمى حبًا عندهم وهذا غير صحيح فإن الرسول كان أكثر الناس حبًا للَّه وكذلك صحابته ولم نسمع أنهم ادعوا حلول اللَّه فيهم .

أقسام المحبة عند المتصوفة :

لقد قسم المتصوفة حب اللَّه عز وجل إلى قسمين وهما حب عام وحب خاص ، ويقصد المتصوفة بالحب العام امتثال أوامر اللَّه واجتناب نواهيه فهذا يعتبره المتصوفة حب اللَّه عز وجل ولكنه حب عام أي هو أدنى من الحب الخاص لأن هذا الحب لا يتوصل إليه الإنسان إلا بامتثال أوامر اللَّه واجتناب نواهيه وهذا الطريق عند المتصوفة طريق يسلكه العوام للوصول

---

(١) « الرسالة القشيرية » (٢/٦١٧).

إلى حب اللَّه العام أما هم فأرفع من هذا!!!

وأما الحب الخاص فهو الحب الذي يتحصل عليه الإنسان هبة من اللَّه عز وجل ولا يمكن الحصول عليه عن طريق طاعة اللَّه عز وجل وإنما يحصل عليه الإنسان عن طريق مشاهدة الروح حيث يتجلى نور اللَّه عز وجل على الكائنات حسب زعمهم ويسمي المتصوفة هذا الحب حب الخواص ويعنون بهذا أنفسهم .

وإليك النص الدال على هذا من بطون كتبهم :

فقد قال المنوفي في معرض حديثه عن أقسام حب اللَّه عند المتصوفة:

« والحب حبان : حب عام وحب خاص :

فالحب العام يفسر بامتثال الأمر ومن شرط المحب أن يكون مطيعًا وهذا الذي عناه بعض شيوخ الطريق حين وضع الحب في المقامات لا في الأحوال فيكون الحب هنا منظورًا إليه بعين الكسب بالأعمال وهو أيضًا صحيح ولكنه حب عام يدخل فيه كل أهل طاعة اللَّه كسبًا بطاعتهم ويدل على هذا قوله تعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ﴾[1] .

وأما الحب الخاص والذي هو من أعلى وأرقى الأحوال الموهوبة هو حب الذات للذات هبة من اللَّه وفضلاً وينشأ عن مطالعة الروح وهو من نور اللَّه إلى تجلي نور اللَّه على الكائنات والعوالم وهو من اصطفاء اللَّه ومنته على عبده كما قلنا وهذا الحب ليس للكسب فيه دخل ولذلك كان من أشرف الأحوال وأجل المذاهب الإلهية »[2] .

---

(١) آل عمران : (٣١) .

(٢) « جمهرة الأولياء » للمنوفي (١/ ٢٤١) .

ثم قال : « وذلك الحب الخالص هو حب الخواص من عباد اللَّه أهل المقامات الرضية والأحوال السنية »[1] .

إذا نظرنا في النص السابق نجد أن المنوفي قسم الحب إلى قسمين وهما حب عام وحب خاص وصرح بأن الحب العام هو الذي يتوصل إليه الإنسان عن طريق امتثال أوامر اللَّه ورسوله واجتناب نواهيهما وأن هذا الحب يجوز أن يطلق عليه حب ولكنه ليس حب المتصوفة المنحرفين حيث أنهم لهم طريق آخر يتوصلون عن طريقه إلى حب اللَّه تعالى وهذا الطريق ليس عن طريق طاعة اللَّه عز وجل وطاعة رسوله لأن الوصول إليه عن هذا الطريق طويلة وشاقة ولا تصلح إلا للعوام أما الخاصون من عباد اللَّه حسب زعم المنوفي فإنهم يتوصلون إلى حب اللَّه عن طريق أقصر من هذا هو حب الذات البشرية للذات الإلهية وهذا الحب هو هبة من اللَّه محضة ويتحصل عليه المتصوفة عن طريق مطالعة الروح وهو من تجلي نور اللَّه إلى تجلي نور اللَّه على هذه الكائنات الموجودة في هذا الكون والعوالم وأن هذا الحب ليس للكسب فيه أي شيء ويعني هذا أن هذا الحب لا يتوصل إليه المتصوفة عن طريق طاعة اللَّه وطاعة رسوله ولا عن طريق عبادة اللَّه بالصوم والصلاة والزكاة والحج وغير ذلك من العبادات التي شرعها اللَّه عز وجل لأن هذا الطريق هو طريق الكسب والمشقة وهو طريق طويل .

وقد أطلق المنوفي على هذا الحب بأنه هو حب الخواص من عباد اللَّه وكلمة الخواص يعني بها المتصوفة كل من انضوى تحت أي طريقة من الطرق الصوفية .

---

(١) « جمهرة الأولياء » للمنوفي (١/ ٢٤٣) .

ونحن نقول باختصار: إن الطريق الوحيد الذي يتوصل به العبد إلى محبة اللَّه ومرضاته هو الطريق الذي شرعه اللَّه في كتابه وعلى لسان رسوله وأن أى أحد يزعم بأنه يتوصل إلى حب اللَّه من غير امتثال أوامر اللَّه وأوامر رسوله كاذب مفتر فاللَّه سبحانه وتعالى قد أمر رسوله محمداً ﷺ أن يقول: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ﴾[1] فهنا في هذه الآية جعل اللَّه الشرط الأساسي لحب اللَّه لعباده المؤمنين متابعة الرسول ﷺ وطاعته فيما أمر واجتناب ما نهى عنه وبهذا تتحقق المتابعة وبما أن متابعة الرسول فيها أوامر ونواهٍ فهي التكليف للقيام بأعمال عدة منها إفراد اللَّه بالعبادة وحده والصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد وغير ذلك من أعمال الإسلام العظيمة التي يترقى فيها المسلم درجة درجة إلى أن يحبه اللَّه عز وجل وكما في الحديث الصحيح : « **من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلى مما افترضته عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها** » .

وقد قسم المنوفي مرة أخرى المحبة بنوعيها وهما المحبة العامة والخاصة إلى قسمين مرة أخرى حيث قسمها إلى ظاهر وباطن ويقصد بهذا التقسيم إلى أن المحبة الخاصة والعامة كل منهما ينقسم إلى محبة ظاهرة وباطنة .

وإليك النص من كلامه على هذا التقسيم حيث قال :

« اعلم أن المحبة بنوعيها ظاهر وباطن فظاهرها اتباع الشرع لبلوغ رضا

---

(١) آل عمران : (٣١) .

المحبوب وباطنها دوام مناجاة الحبيب السر بالسر والعلن بالعلن وكم وراء ذلك من أغوار وأسرار لا يكشفها الأصفياء الأمناء ولا لأهل المحبة والاجتباء »[1] .

إذا نظرنا في النص السابق نجد أن المنوفي زعم بأن كل قسم من أقسام المحبة وهما المحبة العامة والخاصة ينقسم إلى قسمين إلى محبة ظاهرة وباطنة وفسر الظاهرة بأنها هي التي يتبع فيها الشرع للبلوغ إلى حب اللَّه ورضاه وهذه ليست هي المحبة التي يطلبها المتصوفة لأنها من نصيب العوام.

وإنما المحبة التي يطلبها المتصوفة هي المحبة الباطنة وهي التي يناجون فيها اللَّه سبحانه وتعالى سرًا وعلنًا ويطلعون فيها على الأسرار والغيوب وأنهم لا يطلعون على هذه الأسرار والغيوب التي يطلعون عليها إلا الأمناء عليها وذلك حتى لا تفشى هذه الأسرار للعوام أو علماء الإسلام فينكروها عليهم لأنها غالبًا ما تخالف ما جاء به الشرع .

ونحن نقول للمنوفي في هذا التقسيم لحب اللَّه تقسيم باطل لا أساس له من الصحة وذلك لأنه لم يذكر أي دليل يستند إليه لكي يثبت بأن تقسيمه هذا تقسيم شرعي مما يدل على أنه أتى بهذا التقسيم من عند نفسه فقط متبعًا هواه وضاربًا بالشريعة عرض الحائط.

اعتقاد الصوفية بأن من أحب أي شيء في هذا الكون فقد أحب اللَّه:

يعتقد المتصوفة المنحرفون بأنه ليس هناك دين أرفع ولا أرقى من دين

---

(١) « جمهرة الأولياء » للمنوفي (١/ ٢٤٣) .

الحب والشوق إلى اللَّه بأي طريق كان هذا الحب مشروعًا أو غير مشروع لأن الحب عندهم هو الهدف الأسمى ولذا يرحب المتصوفة بدين الحب على أي صورة ظهر هذا الحب ولذا صرح كبار المتصوفة بأنهم يحبون جميع أهل الأديان على اختلاف عقائدهم لأنهم جميعًا ما عبدوا إلا اللَّه سبحانه حيث يعتقد هؤلاء المتصوفة بأن كل ما في هذا الكون ما هو إلا مظاهر ومجالي للَّه وأن عبادة أي شيء في هذا الكون جائزة لأن الكل مظهر من مظاهر اللَّه وتغنى بعض مشائخ المتصوفة الضالون بالعاهرات وزعم بأنه يتغنى بحب اللَّه سبحانه لأن هؤلاء العاهرات ما هن إلا مظهر من مظاهر اللَّه سبحانه وتغنى أحد المتصوفة الكبار بحب اللَّه وصرح بأنه يجمع كل الأديان والعقائد المختلفة .

وإليك النصوص الدالة على هذا من بطون كتبهم فقد قال محيي الدين ابن عربي والذي يصفه المتصوفة في العالم أجمع بأنه الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر مبينًا وموضحًا بأن قلبه أصبح صالحًا لقبول أي دين سواء كان هذا الدين إسلامًا أو وثنيًا أو يهوديًا أو مسيحيًا لأن المهم عنده هو الحب المطلق لأي شيء في هذا الكون لأنه يعتبر بأن كل ما في هذا الكون مظهر من مظاهر اللَّه ولا يهم ابن عربي وأمثاله أن يكون حب هذا الشيء محمودًا في الشريعة الإسلامية أو مذمومًا.

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة ... فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف ... وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ... ركائبه فالدين ديني وإيماني
لنا أسوة في بشر هند وأختها ... وقيس وليلى ثم في وغيلان[1]

---

(١) « ذخائر الإعلان » لابن عربي (ص٣٩) .

ففي هذه الأبيات الشعرية صرح ابن عربي بأن قلبه أصبح صالحًا لتقبل أي صورة وأنه يجمع في قلبه كل العقائد والأديان وأنه يدين بدين الحب فقط بقطع النظر عن توجه هذا الحب ثم ذكر بأن أسوته في هذا الحب هند وأختها وقيس وليلى وغيلان واتخذ ابن عربي هؤلاء أسوة له لأنه يعتبرهم محبين للّه لأن كلاً منهم أحب شخصًا وهذا الشخص الذي أحبه مظهر من مظاهر اللّه فهم محبون للّه وذلك حسب زعمه .

وقد شرح البيت الأخير بنفسه فقال :

« الحب من حيث هو حب لنا ولهم حقيقة واحدة غير أن المحبين مختلفون لكونهم تعشقوا بكون وإنا تعشقنا بعين والشروط والأسباب واللوازم واحدة فلنا أسوة بهم فإن اللّه تعالى ما هيم هؤلاء وابتلاهم بحب أمثالهم إلا ليقيم بهم الحجج على من ادعى محبته ولم يهم في حبه هيمان هؤلاء حين ذهب الحب بعقولهم وأفناهم عنهم »[1] .

وهذا ابن الفارض والذي يلقبه المتصوفة بسلطان العاشقين يقول متغنيًا بحب اللّه حسب زعمه :

ففي النشأة الأولى تراءت لآدم بمظهر حوا قبل حكم النبوة
وتظهر للعشاق في كل مظهر من اللبس في أشكال حسن بديعة
ففي مرة لبنى وأخرى بثينة وآونة تدعى بعزة عزت[2]

فإذا نظرنا في هذه الأبيات نجد أن ابن الفارض زعم أن ربه ظهر لآدم في صورة حواء ولقيس في صورة لبنى ولجميل في صورة بثينة ولكثير في صورة عزة.

---

(١) « ذخائر الإعلان » لابن عربي (ص٣٩) .

(٢) « ديوان ابن الفارض » (ص١٧٥).

وعلى هذا فما حواء أم البشر في نظر ابن الفارض إلا الحقيقة الإلهية وما أولئك العشاق سكرت على شفاههن خطايا القبل المحرمة وتهاوت بهن اللهفة الجسدية الثائرة تحت شهوات العشاق ما أولئك جميعًا سوى رب الصوفية تجسد في صورة غوان تطيش بهداهن نزوة ولهى أو نشوة سكرى أو رغبة تتلظى في عين عاشق[1] .

ويقول عبد الرحمن الوكيل بعد إيراده لأبيات عديدة عن ابن الفارض التي قالها متغنيًا بحب الله حسب زعمه :

« فليفهم كل عاشق يطويه الليل على خاطئة أنه حين يقترف الخطيئة مع أنثاه وتعربد في جسدها الرخص أنيابه وأظفاره ليفهم كل عاشق أن أنثاه هذه التي يعرف أنوثتها ليست إلا رب الصوفية الأعظم !! وليصحح مؤرخو الأدب تاريخه فابن الفارض يؤكد أن أولئك العشاق قيس ، جميل ، كثير ، وكل شعراء العشق لم يريقوا خمور الغزل إلا للذات الإلهية متجسدة في صور عشيقاتهن القواتل !!

أوعيت أذن علة إطلاق الصوفية علي أربابهم أسماء نسوة جلهن عواطل من الفضيلة عوار عن الشرف !! كهان الصوفية أو حواريهم أن أربابهم تتجلى دائمًا في صور إناث تجردن لخطايا العشق وآثم الليل في حان الغرام »[2] .

وقال الدكتور محمد فهر شقفة :

« ويرى ابن عربي أن المحبوب على الحقيقة في كل ما يحب إنما هو الحق الذي يتجلى فيما لا يتناهى من صور الجمال سواء أكانت حسية أم

---

(١) انظر « هذه هي الصوفية » لعبد الرحمن الوكيل (ص٣١) .

(٢) « هذه هي الصوفية » لعبد الرحمن الوكيل (ص٣٢) .

معنوية أم روحية وهو إذا تغنى بحب ليلى وسعدى وهند وغيرهن فإنما يرمز بالاسم إلى حقيقة المسمى وبالصورة إلى صاحب الصورة ولا يعنيه الرمز قدر ما يعنيه المرموز إليه وقد كتب ديوانًا بأكمله هو « ترجمان الأشواق » يتعزل فيه بالنظام ابنة الشيخ مكين الدين بن شجاع بن رستم الذي لقيه بمكة حين نزل بها ويصف فيه محاسن هذه الغادة الخلقية »[1] .

وهذا جلال الدين الرومي الصوفي يعبر في ديوانه عن حبه الإلهي بتعبيرات شركية رهيبة فيقول :

نفسي أيها لانور المشرق لا تنأ عني لا تنأ عني

حبي أيها المشهد المتألق لا تنأ عني لا تنأ عني

انظر إلى العمامة أحكمتها فوق رأسي بل أنظر إلى زنار زرادشت حول خصري أحمل الزنار وأحمل المخلاة لابل أحمل النور فلا تنأ عني لا تنأ عني

مسلم أنا ولكني نصراني وبراهمي وزرادشتى توكلت عليك أيها الحق الأعلى فلا تنأ عني لا تنأ عني

ليس لي سوى معبد واحد مسجد أو كنيسة أو بيت أصنام ووجهك الكريم فيه غاية نعمتي فلا تنأ عني لا تنأ عني[2] .

ولم يكتف كثير من المتصوفة على ادعاء الحب الإلهي بأساليبهم الغريبة بل راحوا يتلفظون بالعشق الإلهي ! جاء في كتاب « تلبيس إبليس» :

---

(١) « التصوف بين الحق والخلق » لمحمد فهر شقفة (ص٥٩) .

(٢) « التصوف بين الحق والخلق » لمحمد فهر شقفة (ص٥٩) .

« قال السراج : وبلغني أن أبا الحسين النوري شهد عليه غلام الخليل أنه سمعه يقول : أنا أعشق اللَّه عز وجل وهو يعشقني . فقال النوري : سمعت اللَّه يقول : ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ وليس العشق بأكثر من المحبة » .

وقد قال الإمام ابن الجوزي في الرد على ذلك :

« وهذا جهل من ثلاثة أوجه : أحدها : من حيث الاسم فإن العشق عند أهل اللغة لا يكون إلا لما ينكح . والثاني : أن صفات اللَّه عز وجل منقولة فهو يحب ولا يقال يعشق كما يقال يعلم ولا يقال يعرف . والثالث : من أين له أن اللَّه تعالى يحبه فهذه دعوى بلا دليل »[1] .

وراح المتصوفة أيضًا يذكرون الخمرة وكؤوسها والعشق ومغامراته ويدعون ذلك حبًا إلهيًا قال شاعرهم :

اسقني طـــاب الصبوح ... ما تـــرى النجـــم يلوح
اسقني كاســـات راح ... هـــــي للأرواح روح
غني لي باســـم حبيبـــي ... فلعلنـــي أستـــريـــح
نحن قوم فـــي سبيـــل الـ ... عشـــق نغـــدو ونـــروح
نحن قـوم نكتـــم الأراء ... والدمـــع يبـــوح[2]

والخلاصة التي نخرج بها أن المتصوفة انحرفوا في حب اللَّه عز وجل انحرافات عديدة وتتلخص هذه الانحرافات :

أولاً : اعتبروا أن الحب الإلهي الحقيقي هو الذي يصل فيه الإنسان إلى مرحلة ينخلع فيها عن صفاته البشرية ويتصف بالصفات الإلهية وهذا يؤدي

---

(١) « تلبيس إبليس » لابن الجوزي (ص١٧١) .

(٢) « العلم الشامخ » للإمام المقبلي (ص٣٧٧) .

إلى القول بالحلول وهو معتقد باطل بل هو الحلول بعينه وهو معتقد فاسد كفيل بإخراج من يعتنقه من الإسلام.

ثانيًا : قسم المتصوفة الحب الإلهي إلى قسمين حب العوام وحب الخواص واعتقدوا أن حب العوام هو الذي يتوصل فيه الإنسان عن طريق طاعة اللَّه وطاعة رسوله وأكدوا بأن الحب الحقيقي هو الحب الصوفي الذي يصل فيه المتصوفة عن طريق مطالعة الروح كما يزعمون.

وهذا مفهوم خاطئ لحب اللَّه عز وجل وذلك لأن الحب الحقيقي هو الذي يتوصل فيه الإنسان عن طريق امتثال أوامر اللَّه ورسوله واجتناب نواهيهما والإتيان بالفرائض والإكثار من النوافل أما الحب الذي يدعيه المتصوفة وهو الوصول إلى حب اللَّه بدون القيام بالأعمال الصالحة فهذا حب مزعوم وهو ادعاء فقط لا أساس له من الصحة وليس لديهم نص يؤيدهم على قولهم هذا .

ثالثًا : لقد تغنى المتصوفة بالغانيات وادعوا أنهم حينما يتغنون بهن فإنما يتغنون باللَّه وصرحوا بأنهن مظهر من مظاهر الذات الإلهية وقد ذكرنا من ذلك نماذج وهذا انحراف عقدي خطير يؤدي إلى القول بالحلول بل هو الحلول بعينه وانحراف المتصوفة في الحب الإلهي أدى بهم إلى القول بالحلول والذي سنتكلم عنه في المبحث القادم إن شاء اللَّه[1] .

وممن نقد مزاعم الصوفية ومسالكهم في مفهومهم المنحرف لحب اللَّه شيخ الإسلام ابن تيمية فقد قال رحمه اللَّه :

« ولهذا وجد في المتأخرين من انبسط في دعوى المحبة حتى أخرجه

---

(١) انظر : (٣٢٢ ـ ٤١٦) .

ذلك إلى نوع من الرعونة والدعوى التي تنافي العبودية وتدخل العبد في نوع من الربوبية التي لا تصلح إلا للّه ويدعي أحدهم دعاوى تتجاوز حدود الأنبياء والمرسلين أو يطلبون من اللّه ما لا يصلح بكل وجه إلا للّه لا يصلح للأنبياء والمرسلين وهذا باب وقع فيه كثير من الشيوخ وسببه ضعف تحقيق العبودية التي بينتها الرسل وحررها الأمر والنهي الذي جاءوا به بل ضعف العقل الذي به يعرف العبد حقيقته وإذا ضعف العقل وقل العلم بالدين وفي النفس محبته انبسطت النفس بحمقها في ذلك كما ينبسط الإنسان مع حمقه وجهله ويقول أنا محب فلا أؤاخذ بما أفعله من أنواع يكون فيها عذران وجهل فهذا عين الضلال وهو شبيه بقول اليهود والنصارى : ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴾[2] فإن تعذيبه لهم بذنوبهم يقتضي أنهم غير محبوبين ولا منسوبين إليه بنسبة النبوة بل يقتضي أنهم مربوبون مخلوقون.

فمن كان اللّه يحبه استعمله فيما يحبه محبوبه لا يفعل ما يبغضه الحق ويسخطه من الكفر والفسوق والعصيان ومن فعل الكبائر وأصر عليها ولم يتب منها فإن اللّه يبغض منه ذلك كما يحب منه ما يفعله من الخير إذ حبه للعبد بحسب إيمانه وتقواه ومن ظن أن الذنوب لا تضره لكون اللّه يحبه مع إصراره عليها كان بمنزلة من زعم أن تناول السم لا يضره مع مداومته عليه وعدم تداويه منه بصحة مزاجه »[3] .

---

(١) المائدة : (١٨) .

(٢) المائدة : (١٨) .

(٣) « الفتاوى الكبرى » لشيخ الإسلام ابن تيمية (٥/ ١٩٨) .

وقال شيخ الإسلام أيضًا :

« وكثير من السالكين سلكوا في دعوى حب اللَّه أنواعًا من أمور الجهل بالدين إما من تعدي حدود اللَّه وإما من تضييع حقوق اللَّه وإما من ادعاء الدعاوى الباطلة التي لا حقيقة لها »[1] .

وقال أيضًا : « وكثير ممن يدعي المحبة يخرج عن شريعته وسنته ويدعي من خيلات . . حتى يظن أحدهم سقوط الأمر وتحليل الحرام له وغير ذلك مما فيه مخالفة شريعة الرسول وسنته وطاعته »[2] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمة أيضًا رحمه اللَّه متحدثًا عن كلام بعض الصوفية في المحبة :

« وفي كلام بعض الشيوخ : المحبة نار تحرق في القلب ما سوى مراد المحبوب.

قال : أرادوا أن الكون كله قد أراد اللَّه وجوده ، فظنوا أن كمال المحبة أن يحب العبد كل شيء حتى الكفر والفسوق والعصيان ولا يمكن أحد أن يحب كل موجود بل يحب ما يلائمه وينفعه ويبغض ما ينافيه ويضره ولكن استفادوا بهذا اتباع أهوائهم فهم يحبون ما يهوونه كالصدور والرئاسة وفضول المال والبدع المضلة زاعمين أن هذا من محبة اللَّه ، ومن محبة اللَّه بغض ما يبغضه اللَّه ورسوله وجهاد أهله بالنفس والمال »[3] .

وقال رحمه اللَّه مقارنًا بين الذين يحبون اللَّه حقيقة وبين أدعياء المحبة

---

(١) « الفتاوى الكبرى » لشيخ الإسلام ابن تيمية (٥/ ١٩٩) .

(٢) نفس المرجع (٥/ ٢٠٠) .

(٣) نفس المرجع (٥/ ٢٠٠) .

كالمتصوفة وأمثالهم :

« فاتباع الشريعة والقيام بالجهاد من أعظم الفروق بين أهل محبة اللَّه وأوليائه الذين يحبهم ويحبونه وبين من يدعي محبة اللَّه ناظرًا إلى عموم ربوبيته أو متبعًا لبعض البدع المخالفة لشريعته فإن دعوى هذه المحبة للَّه من جنس دعوى اليهود والنصارى المحبة للَّه بل قد تكون دعوى هؤلاء شرًا من دعوى اليهود والنصارى لما فيهم من النفاق الذين هم به في الدرك الأسفل من النار »[1] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّه أيضًا متحدثًا عن المتصوفة الذين يدعون محبة اللَّه مع مخالفة أوامره :

« وكثير من المخطئين الذين اتبعوا أشياخًا في الزهد والعبادة وقعوا في بعض ما وقع فيه النصارى من دعوى المحبة للَّه مع مخالفة شريعته وترك المجاهدة في سبيله ونحو ذلك ويتمسكون في الدين الذي يتقربون به إلى اللَّه بنحو تمسك النصارى من الكلام المتشابه والحكايات التي لا يعرف صدق قائلها ولو صدق لم يكن قائلها معصومًا فيجعلون متبوعيهم شارعين لهم دينًا ثم إنهم يتنقصون العبودية ويدعون أن الخاصة يتعدونها كما يدعي النصارى في المسيح ويثبتون للخاصة من المشاركة في اللَّه من جنس ما تثبته النصارى في المسيح وأُمه »[2] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّه متحدثًا عن استدلال المتصوفة على محبة كل جميل بالحديث « **إن اللَّه جميل يحب الجمال**

---

(١) « الفتاوى الكبرى » لشيخ الإسلام ابن تيمية (٥/ ٢٠٠) .

(٢) نفس المرجع (٥/ ٢٠١) .

الكبر بطر الحق وغمط الناس »[1] :

« وهذا الحديث قد ضل قوم بما تأولوه عليه وآخرون رأوه معارضًا لغيره من النصوص ولم يهتدوا للجمع .

فالأولون قد يقولون كل مصنوع الرب جميل لقوله تعالى : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾[2] فنحب كل شيء وقد يستدلون بقول بعض الشيوخ: « المحبة نار تحرق في القلب كل ما سوى المحبوب » والمخلوقات كلها مرادة وهو ما يقوله قائلهم . فصرح بإطلاق الجمال ، وأقل ما يصيب هؤلاء أنهم يتركون الغيرة للَّه والنهي عن المنكر والبغض في اللَّه والجهاد في سبيله وإقامة حدوده وهم في ذلك متناقضون إذ لا يتمكنون من الرضا بكل موجود فإن المنكرات هي أمور مضرة لهم ولغيرهم ويبقى أحدهم مع طبعه وذوقه وهواه ينكر ما يكره ذوقه دون ما لا يكره ذوقه وينسلخون عن دين اللَّه وربما دخل أحدهم في الاتحاد والحلول المطلق ومنهم من يخص الحلول أو الاتحاد ببعض المخلوقات كالمسيح وعلي بن أبي طالب أو غيرهم من المشايخ والملوك والمردان فيقولون بحلوله في الصور الجميلة ويعدونها .

ومنهم من لا يرى ذلك لكن يتدين بحب الصور الجميلة من النساء الأجانب والمردان وغير ذلك ويرى هذا من الجمال الذي يحبه اللَّه ويحبه هو ويلبس المحبة الطبيعية المحرمة بالمحبة الدينية ويجعل ما حرمه اللَّه مما يقرب إليه : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾»[1] .

---

(١) مسلم مع النووي (٢/ ٨٩) وأحمد في « المسند » (٤/ ١٢٢، ٢٤ ، ١٥١) .

(٢) السجدة : (٧) .

(١) الأعراف : (٢٨) ، « الاستقامة » لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ٢٢٢ ـ ٢٢٥) .

المبحث الثاني

اعتقاد الصوفية بحلول اللَّه في خلقه

وتحت هذا المبحث مطلبان:

المطلب الأول : ذكر النصوص عنهم التي تثبت قولهم بالحلول.

المطلب الثاني : موقف أهل الإسلام من القائلين بالحلول

الفصل الثالث

تتكون هذه الوحدة من ثلاثة دروس هي:

الدرس الأول: الأعداد الصحيحة

الدرس الثاني: العمليات على الأعداد الصحيحة

الدرس الثالث: خواص العمليات على الأعداد الصحيحة

المطلب الأول

ذكر النصوص التي تثبت قول الصوفية بالحلول

لقد وقع المتصوفة في انحرافات عقدية خطيرة تجاه اللَّه عز وجل وذلك نتيجة لاتباع أهوائهم ونبذهم لكتاب اللَّه عز وجل وسنة رسوله محمد ﷺ وزعمهم بأن سلوك طريق الكتاب والسنة لمعرفة اللَّه إنما هو خاص للعوام فقط أما الخواص فينبغي أن يبحثوا عن الوصول إلى معرفة اللَّه بطريق أقصر من هذا الطريق ولذا وقع المتصوفة في هذه العقائد الإلحادية الباطلة ومن هذه العقائد الإلحادية التي وقع فيها المتصوفة هي اعتقادهم بإمكانية حلول اللَّه في مخلوقاته وقد صرح بذلك كبار مشائخهم وكل من يقرأ في كتب المتصوفة قديمًا وحديثًا سيجد بأن المتصوفة دائمًا يدندنون بهذه العقيدة ويعتبرونها هي الغاية التي يسعى أئمة التصوف للوصول إليها ويعتبرون أن الإنسان إذا لم يصل إلى هذه المرحلة فإنه لم يصل إلى معرفة اللَّه حقيقة فعليه أن يسعى إلى أن يصل إلى مرحلة يحل فيه اللَّه وحينئذ فقد تخلص من صفاته البشرية واتصف بالصفات الإلهية وهذا سيتضح لنا في النصوص الآتية التي سأوردها عن أئمة التصوف الكبار.

النصوص التي تثبت قول الصوفية بالحلول :

* إن من أئمة التصوف الكبار الذين قالوا بالحلول وكتبوا عنه الكثير شعرًا ونثرًا الحلاج

وإليك النصوص من أقواله التي تدل على أنه كان حلوليًا.

فقد نقل المنوفي عن أبي إسحاق إبراهيم بن عبد الكريم الحلواني وهو أقرب خدام الحلاج أنه سمع الحلاج يومًا يدعو بعد أن أدى الصلاة بالدعاء التالي :

يا إله الآلهة ويا رب الأرباب ويا من لا تأخذه سنة ولا نوم رد إليّ نفسي لئلا يفتنن بي عبادك يا هو أنا وأنا هو لا فرق بين آنيتي وهويتك إلا الحدث والقدم ثم رفع رأسه ونظر إليّ وضحك في وجهي ضحكات ثم قال : يا أبا إسحاق أما ترى أن ربي ضرب قدمه في حدثي حتى استهلك حدثي في قدمه فلم يبق لي صفة إلا صفة القدم ونطقي في تلك الصفة والخلق كلهم أحداث ينطقون عن حدث ثم إذا نطقت عن القدم ينكرون عليّ ويشهدون بكفري ويسعون إلى قتلي وهم بذلك معذورون وبكل ما يفعلون مأجورون[1] .

إذا نظرنا في النص السابق نجد أن الحلاج ادعى فيه بأنه لا فرق بينه وبين اللَّه وأنه هو اللَّه واللَّه هو الحلاج ويتضح لنا ذلك في قوله : « يا هو أنا وأنا هو » .

ثم ادعى الحلاج بأنه تجرد من صفاته البشرية الحادثة واتصف بالصفات الإلهية لأنه حل فيه اللَّه حسب زعمه ولذلك فهو يتكلم مع الناس كأنه اللَّه ويخاطبهم كأنه ربهم وهذا يتضح لنا في قوله : « ثم قال : يا أبا إسحاق أما ترى أن ربي ضرب قدمه في حدثي حتى استهلك حدثي في قدمه فلم يبق لي صفة إلا صفة القدم ونطقي في تلك الصفة والخلق كلهم أحداث ينطقون عن حدث ثم إذا نطقت عن القدم ينكرون عليّ ويشهدون بكفري ويسعون إلى قتلي » .

وعلى كل حال ففي هذا النص قول الحلاج بالحلول واضح وصريح

(١) « جمهرة الأولياء » للمنوفي (٢/ ١٧١) .

وليس فيه أي غموض . ويقول الحلاج أيضًا معبراً عن عقيدته الحلولية :

مزجت روحك في روحي كما تمزج الخمرة بالماء الزلال
فإذا مسك شيء مسني فإذا أنت أنا في كل حال[1]

ففي هذا النص يدعي الحلاج بأن روحه مزجت بروح اللَّه وشبه هذا الخلط كما تختلط الخمرة بالماء وذلك إذا اختلط الخمرة والماء فإنهما يصبحان شيئًا واحداً فكذلك الحلاج يدعي بأنه حل فيه اللَّه مثل هذا الحلول ويدعي بأنه إذا مس أي شيء للَّه سبحانه وتعالى فقد مس الحلاج وذلك لأنهما أصبحا شيئًا واحداً ويدعي أخيراً بأن اللَّه هو الحلاج في كل حال وهذا حلول واضح.

ويقول الحلاج أيضًا في صورة أوضح من ذلك وفي أبيات شعرية طويلة:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا ليس في المرآة شيء غيرنا
فدسها المنشد إذا أنشده نحن روحان حللنا بدنا
أثبت الشركة شركًا واضحًا كل من فرق فرقًا بيننا
لا أناديه ولا أذكره إن ذكري وندائي يا أنا
يا سر سرى تدق حتى تخفي على وهم كل حي
وظاهراً باطنًا تجلى في كل شيء بكل شيء
إن اعتذاري إليك جهل وعظم شكي وفرط عني
يا جملة الكل لست غيري فما اعتذاري إذن إلي
أنا أنت بلا شك فسبحاني سبحاني

(١) « ديوان الحلاج » (ص ٨٢) .

فتوحيدك توحيـــــدي وعصيانك عصيانـــــي
أنا الحق والحق للحق حق لابس ذاته فما ثم فرق
قد تجلت طوالع زهرات يتشعشعن في لومع برق
ما وحد الواحد من واحد إذ كل من وحده جاحد
توحيد من ينطق عن نعته عبارة أبطلها الواحد
توحيده إياه توحيده ونعت من ينعته لاحد[1]

إذا نظرنا في النص السابق نجد أن الحلاج صرح فيه بالحلول بكل وضوح ويتضح لنا ذلك من خلال أقواله التالية في النص السابق.

أولاً في قوله :

(لا أناديـــــه ولا أذكـره إن ذكري وندائي يا أنا)

ففي هذا البيت يقول الحلاج إنه لن ينادي اللَّه سبحانه وتعالى ولا يذكره لأنه يقول ما الفائدة من ذكر اللَّه وندائه بعد أن حل فيه حسب زعمه وهو زعم باطل طبعًا .

ويظهر لنا أيضًا في قوله :

(وظاهـــــرًا باطنًـــا تجلى في كل شيء بكل شيء)

ففي هذا البيت يزعم الحلاج بأن اللَّه ظهر في كل شيء موجود في هذا الكون وهذا حلول عام ويدعي أيضًا بأنه ظهر لكل شيء موجود في هذا الكون وهو زعم باطل ولكن قصدنا نحن هنا هو الإثبات بأنه من القائلين بالحلول.

---

(١) « أخبار الحلاج » (ص٧٨) نقلا عن « حقيقة الصوفية » (ص١١١) .

ويظهر لنا أيضًا في قوله :

يا جملة الكل لست غيري فما اعتذاري إذن إلي
أنا أنت بلا شك فسبحانك سبحاني

إذا نظرنا في البيتين السابقين نجد أن الحلاج زعم بأن اللّه جملة كل شيء موجود في هذا الكون وأن اللّه ليس غيره ولذا لا فائدة من تقديم الاعتذار والتوبة إليه بعد أن أصبح اللّه سبحانه وتعالى حالاً في الحلاج لأنهما أصبحا شيئًا واحدًا ثم يدعي بأنه اللّه بلا ريب وأن تسبيح اللّه هو تسبيحه بعينه لأنه يزعم بأنه لا فرق بينه وبين اللّه بعد حلوله فيه .

ويقول الحلاج أيضًا :

أدعوك بل أنت تدعوني فهل ناديت إياك أم ناجيت إياي
يا كل كلي ويا سمعي ويا بصري يا جملتي وتباعيضي وأجزائي[1]

إذا نظرنا في الأبيات السابقة نجد أن الحلاج صرح فيها بأنه حل فيه اللّه سبحانه وتعالى ويظهر لنا هذه في قوله :

يا كل كلي ويا سمعي ويا بصري يا جملتي وتباعيضي وأجزائي

والنص واضح في أن الحلاج ادعى بأن اللّه كله وسمعه وبصره وجملته وتباعيضه وأجزاؤه وهذا هو القول بالحلول بعينه ولا يوجد وصف لحلول اللّه في مخلوقاته أكثر وأوضح من هذا .

ويقول الحلاج :

---

(١) « ديوان الحلاج » (ص٧) .

اقتلوني يا تقاه إن في قتلي حياتي ومماتي في حياتي وحياتي في مماتي
كفرت بدين اللَّه والكفر واجب لدي وعند المسلميـــــن قبيـــــح
للناس حج ولي حج إلى مسكني تهدى الأضاحي وأهدى مهجتي ودمي
إذا بلغ الصب الكمال من الهوى وغاب عن المذكور في سطوة الذكر
فيشهد صدقًا حيث أشهده الهوى بأن صلاة العاشقين من الكفر[1]

إذا نظرنا في الأبيات السابقة نجد إنكار الحلاج لتوحيد اللَّه عز وجل وعبادته في مختلف صورها حيث صرح كما هو واضح أمامنا بأنه قد كفر بدين اللَّه بل لم يقف بالتصريح بهذا الكفر حيث قال بأن الكفر واجب عليه وذلك لأن الكفر هو الإيمان عنده ولو كان الكفر قبيحًا وغير مقبول عند المسلمين فهو لم يبال بهذا وذلك لأنه ليس منهم وخير شاهد على أنه ليس منهم الأبيات الآتية التي قالها بنفسه :

ألا أبلغ أحبائي بأني ركبت البحر وانكسر السفينة
على دين الصليب يكون موتي ولا البطحا أريد ولا المدينة[2]

إذا نظرنا في هذه الأبيات نرى بأن الحلاج صرح أن يجعل اللَّه موته على الصليبية وأكد بأنه لا يريد البطحاء التي توجد بمكة ولا المدينة أيضًا وذلك لأن مكة والمدينة من الأماكن المقدسة عند المسلمين وهو قد تمنى أن يكون موته على دين الصليبيين النصارى .

ويقول الحلاج أيضًا مؤكدًا بأن اللَّه يظهر حالاً في مخلوقاته :

سبحان من أظهر ناسوته سر مسني لاهوته الثاقب

---

(١) « ديوان الحلاج » (ص٣٤) .

(٢) « ديوان الحلاج » (ص٨٥) .

حتى بدا في خلقه ظاهرًا في صورة الآكل والشارب[1]

ففي البيتين السابقين صرح الحلاج كما نرى بأن اللَّه يظهر في مخلوقاته في صورهم الأصلية وفي طبيعتهم التي جبلوا عليها وهو الأكل والشرب وغيرهما من الطباع التي فطر اللَّه البشر عليها فالجميع قد حلت فيه الذات الإلهية .

وقال الدكتور نيكلسون مؤكدًا تأثر الحلاج بالمسيحية :

« والواقع الذي سندرك تفصيله أن كلمة : أنا الحق ، ليست شطحة جذب وإنما هي نظرية متكاملة في الإلهيات وهي تؤكد ثنائية الطبيعة الإلهية في اللاهوت والناسوت وهما الاصطلاحان اللذان أخذهما الحلاج عن الفلسفة المسيحية عن طريق السريان اللذين استعملوهما للدلالة على طبيعة المسيح . من هنا نرى أنه كان امتدادًا مسيحيًا ضخمًا في الفلسفة الصوفية الإسلامية لأنه على الرغم من إيمانه بقدم النور المحمدي كما سنرى ، ذلك النور الذي انبثقت منه جميع أنوار النبوة إلا أنه يجد في عيسى عليه السلام المثال الكامل لفلسفة الولاية الصوفية التي تسمو على درجة النبي في الأنبياء ولأنه يجد فيه الإنسان الذي وصل إلى مقام القربى فحل فيه روح اللَّه ومن هنا أراد الحلاج أن يعيشه ويحياه ويتحقق بحقيقته فالوحدة التي يدعو إليها الحلاج إذن وحدة الشهود لا وحدة الوجود »[2] .

والإنسان في نظر الحلاج هو في أصلـه وصفوة عنصره رباني فقد خلق اللَّه آدم على صورته ثم أبرز من ذاته تلك الصورة من حبه الخالد حتى

---

(١) « ديوان الحلاج » (ص٣١) .

(٢) « الصوفية في الإسلام » لنيكلسون (ص١٤٠) .

يرى نفسه كمن ينظر في مرآة مما يدل على أن الحلاج قال بما قال به المسيحيون بإمكانية حلول اللّه في المخلوقات هذه التي تتواجد في هذا الكون وإن كان المسيحيون يؤمنون بحلول خاص أما الحلاج فهو يؤمن بحلـول عام.

وقال الدكتور عبد القادر محمود :

« والحلاج في واقع مذهبه ينتمي لمذهب الخلاص المسيحي الذي يؤكد أنه لا سعادة إلا في خلاص الروح من حجابه وهو الجسد ولهذا سعى لتحطيم هذا الحجاب وكل حجب أخرى من الشعائر التي تقف حاجزاً بينها وبين حقيقتها المطلقة .

ومن هنا قال الحلاج :

بيني وبينك أني ينازعني فارفع بفضلك أني من البين »[1]

وقال نيكلسون تعليقًا على أبيات الحلاج :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا

« وهذا المذهب في التأله الشخصي على الشكل الخاص الذي طبعه به الحلاج بينه وبين المذهب المسيحي الأساسي نسب واضح ولذا كان هذا المذهب عند المسلمين كفراً من شر أنواع الكفر وقد قيض اللّه له أن يعيش دون تغيير فيه بين أتباعه الأقربين والحلوليين وهم الذين يقولون بالتجسيد يستوي الصوفية على وجه العموم وأهل السنة في نبذهم أشد النبذ والتشنيع عليهم »[2] .

---

(١) « الفلسفة الصوفية في الإسلام » للدكتور عبد القادر محمود (ص١٢٧) .

(٢) « الصوفية في الإسلام » لنيكلسون (ص١٤١) .

* ومن أقطاب الصوفية الذين قالوا بالحلول أبو يزيد البسطامي

وإليك النصوص الدالة على هذا :

يقول البسطامي :

« كنت اثنتي عشرة سنة حداد نفسي وخمس سنين كنت مرآة فقلبي وسنة أنظر فيما بينهما فإذا في وسطي زنار فعملت على قطعه خمس سنين أنظر كيف أقطعه فكشف لي فنظرت إلى الخلق فرأيتهم موتى فكبرت عليهم أربع تكبيرات » .

وقال أيضًا : « منذ ثلاثين سنة كان الحق مرآتي فصرت اليوم مرآة نفسي لأني لست الآن من كنته وفي قولي أنا والحق إنكار لتوحيد الحق لأني عدم محض فالحق تعالى مرآة نفسه به أنظر أن الحق مرآة نفسي لأنه هو الذي يتكلم بلساني أما أنا فقد فنيت » .

وذكر أن رجلاً دق الباب على أبي يزيد فقال له : من تطلب ؟ فقال : أطلب أبا يزيد قال : سر ويحك فليس في الدار غير اللَّه »[1] .

وقد اعتبر البسطامي إلى أن الإشارة من المشير شرك وأبعد الخلق من اللَّه أكثرهم إشارة إلى اللَّه[2] .

وقال البسطامي أيضًا :

« رفعني اللَّه مرة فأقامني بين يديه وقال لي : يا أبا يزيد إن خلقي يحبون أن يروك . فقلت : زيني بوحدانيتك وألبسني أنانيتك وارفعني إلى أحديتك حتى إذا رآني خلقك قالوا : رأيناك فتكون أنت ذاك ولا أكون أنا هنا »[3] .

---

(١) « الملحق بكتاب شطحات الصوفية » للدكتور عبد الرحمن بدوي (ص٦٥) .

(٢) « تاريخ بغداد » .

(٣) « اللمع » للطوسي (ص٤٦١) .

إذا نظرنا في النصوص السابقة نجد أن البسطامي بالفعل قال بالحلول ويظهر لنا هذا في أقواله الآتية :

أولاً : في قوله : « وفي قولي أنا والحق إنكار لتوحيد الحق لأني عدم محض » فهنا في هذا النص اعتبر البسطامي قوله « أنا والحق » إنكاراً لتوحيد اللَّه عز وجل وذلك لأن هذا القول يفهم منه الثنائية أي أن هناك عبداً وربًا أما التوحيد الكامل في نظر الحلوليين كالبسطامي فهو أن يقول الإنسان أنا فقط وذلك لأنهم يعتقدون أن اللَّه يحل في بعض مخلوقاته التي وصلت إلى قمة معرفة اللَّه حسب زعمهم وإن كان في الإسلام أن الإنسان الذي يصل إلى هذه المرحلة قد وصل إلى قمة الإلحاد.

ويظهر لنا قول أبي يزيد أيضًا بالحلول في قوله لمن أتى يطلبه ودق الباب عليه أنه قال له : « من تطلب ؟ فقال : أطلب أبا يزيد . فقال له : سر ويحك فليس في الدار غير اللَّه » .

ففي هذا النص صرح أبو يزيد بأنه لا يوجد في دار أبي يزيد غير اللَّه رغم أنه كان موجوداً فيها ومن هنا نقول إن أبا يزيد يعني بهذا أن اللَّه قد حل فيه فليس هناك في داره غير اللَّه أما شخصية أبي يزيد البشرية فقد محيت كما يزعم هو وإن كان هذا كلام عار عن الصحة ومحض افتراء قصد من ورائه تضليل عوام المسلمين وإفساد عقيدتهم .

ويظهر لنا أيضًا قول أبي يزيد بالحلول في قوله : « حتى إذا رآني خلقك قالوا رأيناك فتكون أنت ذاك ولا أكون أنا هنا » ففي هذا النص طلب أبو يزيد أن يرفعه اللَّه إلى أحديته بحيث إذا رأته المخلوقات في هذا الكون تصبح كأنها رأت اللَّه وبالتالي هو واللَّه سبحانه شيء واحد وهـذا هو الحلول.

وقد قال الطوسي وهو صوفي كبير ولكنه مع ذلك نطق بكلمة الحق وصرح بأن فرعون لم يقل ما قاله أبو يزيد البسطامي وإليك نص كلامه :

قال : « إن فرعون لم يقل ما قاله أبو يزيد رحمه اللّه لأن فرعون قال: أنا ربكم الأعلى ، والرب يسمى به المخلوق فيقال رب بيت ورب مال ولكن أبا يزيد رحمه اللّه قال : سبحاني سبوح ، وسبحان اسم من أسماء اللّه لا يجوز أن يسمى به غير اللّه »[1] .

وقال الدكتور عبد القادر محمود في كتابه الفلسفة الصوفية في الإسلام:

« والمهم البسطامي من يقصد بالاتحاد الاتحاد باللّه كاملاً وإلا انتفى معنى الاتحاد لأن هدف الشوق العارم هو أن يصير المحب والمحبوب شيئًا واحدًا سواء في الجوهر أو الفعل أي في الطبيعة والمشيئة والفعل الصادر منها فتكون الإشارة إلى الواحد عين الإشارة إلى الآخر ثم تختفي الإشارة لانعدام المشير »[2] .

وقال الدكتور عبد الرحمن بدوي :

« إن أحوال الوجد وطلب الاتحاد والسكر كلها توجد في أنواع التصوف الأخرى أما هذا التبادل في الأدوار بين العبد والحق والإذن له بالتعبير بصيغة المتكلم فهو الجديد حقًا عند صوفية الإسلام » .

ويتبجح عبد الرحمن بدوى ولم يستح من هذا الهراء الصوفي السافل فيقول مؤيدًا إمكانية حلول اللّه في المخلوق ، قال :

---

(١) « اللمع » للطوسي (ص٤٧٢) .

(٢) « الفلسفة الصوفية في الإسلام » للدكتور عبد القادر محمود (ص٣١٥) .

« وإن الشريعة إذا بالغت في التفريق بين اللَّه والإنسان فعلى الحقيقة أن تأتي بعقيدة مضادة لما جاء به الرسول ﷺ »[1] .

ويعني الصوفية بالحقيقة العلوم الوهمية التي يدعي مشائخهم تلقيها عن اللَّه كذبًا وزورًا .

وإليك نص كلام هذا الكاتب الذي يؤيد عقيدة تخالف عقيدة الإسلام تمامًا حتى تكون الحجة واضحة حيث قال مفسرًا نظرية الحلول عند المتصوفة :

« إذا كانت الشريعة قد جاءت بالغلو في الفارق بين اللَّه والإنسان فلتأت الحقيقة والطريقة بالغلو في التوحيد بين العبد والمعبود »[2] .

ويقول الدكتور عبد القادر محمود :

« إن ظاهرة الشطح عند البسطامي وأمثاله لا نجد لها مجالاً في الفلسفة الصوفية المسيحية والسبب أن فكرة التوسط تلعب منذ البداية دورها الخطير في التقريب بين اللَّه والمخلوقات والتجسد هو أظهر تعبير عند هذا التوسط بحيث كان من العقائد التقليدية في المسيحية اتحاد اللاهوت بالناسوت في شخص السيد المسيح عليه السلام من هنا لم يكن للصوفي المسيحي أن يتطرق في ذاته في جانب الاتحاد لأن اتحاده دائمًا يجيء عن طريق وسيط هو السيد المسيح وفي الوقت نفسه حالت فكرة الوسيط دون قيام صلة مباشرة بين العبد والرب بينما هي في الفلسفة الصوفية مباشرة بين اللَّه والعبد عن طريق الفناء لدى مدرسة البسطامي

---

(١) « شطحات الصوفية » لعبد الرحمن بدوي (ص١١) .

(٢) « شطحات الصوفية » لعبد الرحمن بدوي (ص١١) .

ومن تطور في طريقه »[1].

ثم قال الدكتور عبد القادر محمود :

« ونصل من هذا إلى أن هذا النوع من التوحيد عبر الاتحاد الذي لا إشارة فيه ولا مشار ولا مشير هذا النوع من التوحيد يتلقاه الصوفي حال السكر وهو فناء الذات الخاصة في ذات الألوهية وأنه ما ثم إلا اللَّه فوجود العبد وجود الرب والعكس ومن هنا ينسب للعبد ما نسب للرب»[2] .

ويقول الجرجاني :

« والحالات التي تعبر عن الشطح بعيدة عن التفكير المنطقي لأنها تعيش بمعزل عن الشعور وهي في نظر أصحابها كما قلنا أسرار مقدسة فضح أمرها وكشف عنها الحلاج فباح فصلب وقد طالب الشبلي بعدم البوح بالأسرار لأنه وقد كان صديقًا وتلميذًا للحلاج وشاهد مصيره القاسي العنيف آثر أن يدعو إلى عدم البوح طالبًا للسلامة وقد صرح الشبلي بأنه جن جنونه حين جبن عن التصريح بما شاهد بينما عقل الحلاج بما أذاع مما كاشفه به الحق ومن هنا خلص الجنون الشبلي وأهلك العقل الحلاج حيث قال الشبلي: « أنا والحلاج في شيء واحد خلصني جنوني وأهلكه عقله »[3] .

إذا نظرنا في هذا النص نجد أن الشبلي وهو صوفي كبير قد أقر بأن معتقده كان مثل الحلاج تمامًا ولكن كتمه عن الناس خوفًا من الإعدام لأنه رأى بأم عينيه مقتل الحلاج وكيف صار مصيره إلى الانتقال عن هذه الدنيا

---

(١) « الفلسفة الصوفية في الإسلام » للدكتور عبد القادر محمود (ص٣١٩) .

(٢) نفس المرجع (ص٣١٩) .

(٣) « التعريفات » للجرجاني.

نهائيًا ولذا لا يستطيع الإنسان أن يصدق أي صوفي بما يتظاهر به من تمسكه بالشعائر الدينية لأنهم يظهرون خلاف ما يبطنون وهذه صفة قبيحة بل هي من شر الصفات التي يتصف بها الإنسان لأنها صفة من صفات المنافقين التي يتميزون بها عن سائر الناس.

ومن أئمة التصوف الذين قالوا بالحلول محمد عبد الجبار النفري والنفري هذا يعتبر من المتصوفة المبالغين والمغالين في القول بحلول اللَّه في خلقه والنفري يسمي أعلى درجات الفناء بكلمة « الواقفة » ويسمي الثاني بـ «الواقف » ويعتبر أن العارف إذا وصل إلى أعلى درجة في الفناء انعدم كل تمايز بينه وبين اللَّه .

ولهذا نقول إن النفري يقصد بالواقف المنقطع عن الطلب من اللَّه لفنائه فيه حسب زعمه ومما يدل على هذا قوله الآتي :

« وإذا ذهبت الوقفة من عقله أضحى نورًا كله فثناؤه على اللَّه ثناؤه من اللَّه على نفسه ومعرفته هي عين معرفة اللَّه الذي يرى نفسه واحدًا كما كان من قبل »[1] .

ويقول أيضًا : « دخل الواقف كل بيت فما وسعه وشرب من كل مشرب فما روى فأفضى إلي وأنا قراره وعندي وقفه »[2] .

ويقول الدكتور عبد القادر محمود في شرح هذا الكلام :

« معنى هذا أن الواقف أدرك الصفات الربانية فلم يقنع بالأسماء دون المسمى ولا بالصفات دون الموصوف ولكنه طلبه وتفكر في ذات اللَّه فرآه

---

(١) « المواقف » للنفري (١٠ ، ١٤ ، ١٥) .

(٢) « المواقف » للنفري (١٠، ١٤ ، ١٥) .

بشخصه في ذاته فلا يدعو لأن الدعاء يكون مِن الإنسان للّه وليس في الوقفة أحد والواقف لا يدع وارثًا وراءه عن اللّـه ... لأن الواقـف تجرد عن بشريته »[1] .

* ومن أئمة التصوف الذين قالوا بالحلول عبيد اللّه أحرار النقشبندي

حيث قال معبرًا عن عقيدته الحلولية :

« فإذا تجلى الحق تعالى على قلبه « قلب السالك » بالتجلي القهري يمحو منه الغير والسوا فلا يبقى فيه إلا هو فلا جرم يسمع في هذا القلب : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ و« سبحاني ما أعظم شأني » و« أنا الحق» و« هل في الدار غيري» »[2] .

ومن أقواله الدالة على أنه كان حلوليًا أيضًا الآتي :

« إن العارف من فنيت ذاته وصفاته في ذاته تعالى وصفاته فلم يبق له اسم ولا رسم »[3] .

إذا نظرنا في النصين السابقين نجد أن عبيد اللّه أحرار قد صرح بالحلول ويتضح لنا هذا جليًا في النص الثاني بالذات في قوله : « إن العارف من فنيت ذاته وصفاته في ذاته تعالى وصفاته » حيث أن معنى هذا الكلام هو أن الإنسان العارف حقيقة في المفهوم الصوفي هو من وصل إلى مرحلة تفنى فيها ذاته وصفاته البشرية وتتحول إلى صفات إلهية بمعنى أنه يصل إلى مرحلة يحل فيه اللّه وبالتالي يصبح إلهًا وهذا هو الحلول بعينه فليس هناك

---

(١) « الفلسفة الصوفية في الإسلام » للدكتور عبد القادر محمود (ص٣٩٣) .

(٢) « المذاهب السرمدية في مناقب النقشبندية » (ص١٦٢) .

(٣) « الأنوار القدسية » للشعراني (ص١٦٣) .

تصريح بالحلول أكثر من هذا .

* ومن القائلين بالحلول من الصوفية محمد بارسال .

ويدل على هذا قوله :

«إن حقيقة الذكر عبارة عن تجليه سبحانه لذاته بذاته في عين العبد»[1] .

ويقصد بهذا أن الذاكر يصبح نفس المذكور والمذكور نفس الذاكر وليس هناك قول بالحلول أكثر وأوضح من هذا حيث صرح بأن اللَّه يتجلى بذاته في عين العبد والمعنى أن اللَّه يحل في العبد بذاته وما دام اللَّه قد حل في العبد فليس هناك ذكر وذاكر ومذكور فالكل أصبح شيئًا واحدًا وهذا حسب زعم المتصوفة الدجالين الذين تركوا كتاب اللَّه وراء ظهورهم وأصبحوا يبحثون عن الهدى والرشد خارج كتاب اللَّه وسنة رسوله محمد ﷺ فوقعوا في متاهات واعتناق عقائد إلحادية وثنية جاء الإسلام لمحاربتها فأحياها الصوفية من جديد في أوساط الأمة الإسلامية .

* ومن أئمة التصوف الذين قالوا بالحلول أبو الحسن الشاذلي شيخ الطريقة الشاذلية المعروفة[2] .

ومن الأدلة التي تثبت لنا لأنه كان حلوليًا النص الآتي :

حيث قال : « من أطاعني في كل شيء بهجرانه لكل شيء أطعته في كل شيء بأن أنجلي له في كل شيء حتى يراني أقرب إليه من كل شيء هذه

---

(١) « الأنوار القدسية » للشعراني (ص١٦٣) .

(٢) أبو الحسن الشاذلي هو عبد اللَّه بن عبد الجبار الشاذلي بالشين والذال المعجمتين وشاذلة قرية في أفريقيا الضرير الزاهق نزيل الإسكندرية وشيخ الطائفة الشاذلية وقد مات بصحراء عيذاب قاصدًا الحج وقد وصفه كثير من الصوفية بأنه قطب الزمان والحامل في وقته لواء أهل العيان حجة الصوفية القطب الغوث الجامع (ت٦٥٦هـ) .

انظر ترجمته في « طبقات الشعراني » (٢/ ٤) .

هي طريق أولى وهي طريق السالكين ، وطريق كبرى من أطاعني في كل شيء بإقباله على كل شيء لحسن إرادة مولاه في كل شيء أطعته في كل شيء بأن أنجلي له في كل شيء حتى يراني كأني عين كل شيء »[1] .

إذا نظرنا في النص السابق نجد أن الشاذلي يدندن حول القول بالحلول وكما هي عادة المتصوفة فقد حاول أن يلبس الأمر حتى لا يفهم منه القاريء بأن الشيخ يقول بالحلول لكن مع كل هذه المراوغة واللف والدوران فإن قوله بالحلول واضح جداً وخاصة في قوله : « بأن أنجلي له في كل شيء حتى يراني كأني عين كل شيء » فمن هذا النص نفهم بأن الرجل صرح بالفعل بالحلول حيث أن معنى هذا النص أن اللّه سبحانه وتعالى يظهر في كل شيء موجود في هذا الكون وهذا هو القول بالحلول بعينه وليس هناك للتعبير عن الحلول عبارة أكثر وضوحًا من هذا .

* ومن أئمة التصوف الذين قالوا بالحلول لسان الدين الخطيب

وإليك نص كلامه في هذا المجال :

« قال : المتصوفة في هذا المجال قسمان :

١ ـ قسم زعم أنه تلاشت رسومه وقسم تدرج في المراتب غير المكانية ولا الزمانية يبتغي القرب من اللّه حتى صح أن ذلك حقيقة العدم ، يعني أن خلق اللّه صفته فالأشياء سواه أفعاله وصفاته مع وجود اللّه عدم وإنه تيقن وجود وجوده بإدراكه وإدراكه باللّه لا بذاته »[2] .

ثم قال : « والقسم الثاني ومن زعم أنه تلاشت رسومه وفني عن

---

(١) كتاب « لطائف المنن » لابن عطاء اللّه السكندري (ص٨٩) .

(٢) « روضة التعريف بالحب الشريف » (ص٢٠٢) .

وجوده ثم فني عن فنائه وأدرك عند ذلك حقيقة ذاته وفني من لم يكن وبقي من لم يزل»[1] .

إذا نظرنا في النصوص السابقة نجد بأن لسان الدين الخطيب قسم المتصوفة القائلين بالحلول إلى قسمين :

القسم الأول من المتصوفة هو الذي يزعم بأنه تتلاشى وتذهب صفاته الأصلية البشرية نهائيًا وبالتالي يكون مهيئًا لحلول اللَّه فيه .

وأما القسم الثاني هو الذي يتقرب إلى اللَّه حتى يوقن بأنه عدم محض وأنه ما هو إلا صفة من صفات اللَّه خلق ليكون مظهرًا لذات اللَّه سبحانه وتعالى هذا هو مضمون الكلام الذي يدندن لسان الدين الخطيب حوله ولكن كما هو عادة المتصوفة فإنهم يحبون المراوغة وإخفاء معتقدهم واستعمال الألغاز حتى لا يتعرضوا للنقد من قبل المسلمين ولكن مهما فعلوا فإن معتقدهم وقولهم بالحلول واضح جدًا لأنه ما من كتاب صوفي إلا وتجد فيه الدندنة حول القول بعقيدة الحلول.

المطلب الثاني

موقف أهل الإسلام من القائلين بالحلول

بعد أن بينت ووضحت بأن المتصوفة قالوا بالفعل بحلول اللَّه في خلقه وذلك بإيراد نصوص من بطون كتبهم ومن مقالات مشائخهم الكبار وألزمتهم بأن هذا المعتقد بالفعل قالوا به أحب أن أذكر موقف الإسلام من هذه العقيدة الإلحادية التي جلبها المتصوفة من الأمم التي لا زالت تعبد

---

(١) « روضة التعريف بالحب الشريف » (ص٢٠٤) .

الأوثان والأصنام[1] .

وإذا أردنا أن نبين موقف الإسلام من الحلول نقول باختصار إن من الأمور الضرورية التي يعتقدها أي مسلم هو أن اللَّه سبحانه وتعالى مستوٍ على عرشه بائن عن خلقه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

إذًا فاللَّه سبحانه وتعالى لا يمكن أن يحل بحال من الأحوال في مخلوقاته بل هو الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد وإن المتصوفة القائلين بالحلول ليس لهم أي أدلة يستندون عليها وإنما قالوا هذا الكلام من مجرد أهوائهم وإن الإسلام بريء من هذه العقائد الباطلة ومما يدل على أن عقيدة الحلول ليست من الإسلام في شيء أقوال علماء الإسلام الآتية حيت وصفوا هذه العقيدة بأنها عقيدة دخيلة على الإسلام وأنها عقيدة إلحادية وأن من يعتنقها ليس من الإسلام في شيء :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّه :

« الحلول والاتحاد أربعة أقسام :

واعلم أن هذه المقالات لا أعرفها لأحد من أمة قبل هؤلاء على هذا الوجه ولكن رأيت في بعض كتب الفلسفة المنقولة عن أرسطو أنه حكى عن بعض الفلاسفة قول أن الوجود واحد ورد ذلك وحسبك بمذهب لا يرضاه متكلمة الصابئين.

وإنما حدثت هذه المقالات بحدوث دولة التتار وإنما كان الكفر الحلول العام أو الاتحاد أو الحلول الخاص.

---

(١) انظر (٣٢٠ ـ ٣٣٩) .

وذلك أن القسمة رباعية لأن من جعل الرب هو العبد حقيقة فإما أن يقول بحلوله فيه أو اتحاده به وعلى التقديرين فإما أن يجعل ذلك مختصًا ببعض الخلق كالمسيح أو يجعله عامًا لجميع الخلق فهذه أربعة أقسام:

الأول : هو الحلول الخاص : وهو قول النسطورية من النصارى ونحوهم ممن يقول إن اللاهوت حل في الناسوت وتدرع به كحلول الماء في الإناء وهؤلاء حققوا كفر النصارى بسبب مخالطتهم للمسلمين وكان أولهم في زمن المأمون وهو قول من وافق هؤلاء النصارى من غالبية هذه الأمة كغالية الرافضة الذين يقولون : إنه حل بعلي بن أبي طالب وأئمة أهل بيته وغالية النساك الذين يقولون بالحلول في الأولياء ومن يعتقدون فيه الولاية أو بعضهم كالحلاج ويونس والحاكم وغيرهم.

والثاني : هو الاتحاد الخاص : وهو قول يعقوبية النصارى وهم أخبث قولاً وهم للسودان والقبط ، يقولون : إن اللاهوت والناسوت اختلطا وامتزجا كاختلاط اللبن بالماء وهو قول من وافق هؤلاء من غالبية المنتسبين إلى الإسلام .

والثالث : هو الحلول العام : وهو القول الذي ذكره أئمة أهل السنة والحديث عن طائفة من الجهمية المتقدمين وهو قول غالب متعبدة الجهمية الذين يقولون : إن اللَّه بذاته في كل مكان ويتمسكون بمتشابه القرآن كقوله : ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ﴾[1] وقوله : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[2] .

---

(١) الأنعام : (٣) .

(٢) الحديد : (٤)

الرابع : الاتحاد العام : وهو قول هؤلاء الملاحدة الذين يزعمون أنه عين وجود الكائنات وهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى من وجهين :

الأول : من جهة أن أولئك قالوا : إن الرب يتحد بعبده الذي قربه واصطفاه بعد أن لم يكونا متحدين وهؤلاء يقولون : ما زال الرب هو العبد وغيره من المخلوقات ليس هو غيره .

والثاني : من جهة أن أولئك خصوا ذلك بمن عظموه كالمسيح وهؤلاء جعلوا ذلك ساريًا في الكلاب والخنازير والقذر والأوساخ وإذا كان اللَّه تعالى قال : ﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ** ﴾[1] فكيف بمن قال : إن اللَّه هو الكفار والمنافقون والصبيان والمجانين والأنجاس والأنتان وكل شيء .

وإذا كان اللَّه قد رد قول اليهود والنصارى لما قالوا : ﴿ **نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ** ﴾ وقال لهم : ﴿ **قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ** ﴾[2] فكيف بمن يزعم أن اليهود والنصارى هم أعيان وجود الرب الخالق ليسوا غيره ولا سواه ولا يتصور أن يعذب إلا نفسه ؟

وإن كل ناطق في الكون فهو عين السامع كما في قوله ﷺ : «**إن اللَّه تجاوز عن أمتي عما حدثت به أنفسها**»[3] وإن الناكح عين المنكوح »[4] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية أيضًا :

---

(١) المائدة : (١٧) .

(٢) المائدة : (١٨) .

(٣) « صحيح مسلم » مع النووي (٢/ ١٤٦) .

(٤) « مجموعة الرسائل والمسائل » لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢٨ ـ ٣٠) .

« إن الاتحاد بين الخالق والمخلوق ممتنع لأن الخالق والمخلوق إذا اتحدا فإما أن يكونا بعد الاتحاد اثنين كما كانا قبله وهذا تعدد وليس اتحاداً وإما أن يستحيلا إلى شيء ثالث كما يتحد الماء واللبن والنار والحديد فيلزم أن يكون الخالق قد استحال وتبدلت حقيقته كسائر ما يتحد مع غيره وهذا ممتنع على اللَّه إذ الاستحالة تقتضي عدم ما كان موجوداً واللَّه تعالى واجب الوجود بذاته وصفاته الملازمة له والتي هي كمال إذا عدمت كان ذلك نقصاً يتنزه اللَّه تعالى عنه »[1] .

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية أيضاً في معرض رده على الحلولية والاتحادية :

« وهؤلاء الحلولية والاتحادية منهم من يخصه بالصور الجميلة ويقول بمظاهر الجمال ومنهم من يقول بالاتحاد المطلق والحلول المطلق لكن هو يتخذ لنفسه من المظاهر ما يحبه فهو كما قال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾[3] »[4] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية أيضاً رحمه اللَّه :

« وأما اتحاد ذات العبد بذات الرب بل اتحاد ذات عبد بذات عبد أو

---

(١) « الفتاوى الكبرى » لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢/ ٣٣٩) .

(٢) الفرقان : (٤٣) .

(٣) الجاثية : (٢٣) .

(٤) كتاب « الاستقامة » لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢/ ١٩٦) .

حلول حقيقة في حقيقة كحلول الماء في الوعاء فهذا باطل قطعًا بل ذلك باطل في العبد مع العبد فإنه لا تتحد ذاته بذاته ولا تحل ذات أحدهما في ذات الآخر وهذا هو الذي وقعت فيه الاتحادية والحلولية من النصارى وغيرهم من غالية هذه الأمة وغيرها وهو اتحاد متجدد بين ذاتين كانتا متميزتين فصارتا متحدتين أو حلول أحدهما في الأخرى فهذا بيّن البطلان.

وأبطل منه قول من يقول ما زال واحداً وما ثم تعدد أصلاً وإنما التعدد في الحجاب فلما انكشف الأمر رأيت أني أنا وكل شيء هو اللَّه سواء قال بالوحدة مطلقًا أو بوحدة الوجود المطلق دون المعين أو بوحدة الوجود دون الأعيان الثابتة في العدم فهذا وما قبله مذاهب أهل الكفر والضلال »[1] .

وقال الدكتور عبد القادر محمود متحدثًا عن مذهب الحلاج الحلولي ومؤكداً بأن الحلاج أخذ هذا المعتقد الباطل من المسيحيين غير معتقدهم الصحيح بسبب تأثرهم بالفلسفات الوثنية التي كانت منتشرة وبمكيدة من اليهودي شاؤل .

قال الدكتور : « والحلاج في واقع مذهبه ينتمي لمذهب الخلاص المسيحي الذي يؤكد أنه لا سعادة إلا في خلاص الروح من حجابه وهو الجسد ولهذا سعى لتحطيم هذا الحجاب وكل حجب أخرى من الشعائر تقف حاجزاً بينها وبين حقيقتها المطلقة »[2] .

وتحدث الدكتور نيكلسون المستشرق الأوروبي أيضًا عن علاقة مذهب الحلول الصوفي بالحلول المسيحي فأثبت العلاقة الوثنية بينهما فقال :

---

(١) « مجموع فتاوى » شيخ الإسلام ابن تيمية (٢/ ٤٣٥) .

(٢) « الفلسفة الصوفية في الإسلام » للدكتور عبد القادر محمود (٣٥٥) .

« وهذا المذهب في التأله الشخصي على الشكل الخاص الذي طبعه به الحلاج بينه وبين المذهب المسيحي الأساسي نسب واضح ولذا كان هذا المذهب عند المسلمين كفراً من شر أنواع الكفر.

وقد قيض اللَّه له أن يعيش دون تغيير فيه بين أتباعه الأقربين والحلوليين وهم الذين يقولون بالتجسيد »[1].

وقال أنور الجندي :

« والحقيقة أن القول بالاتحاد بين الخالق والمخلوق يأباه العقل الذي سلم من الشبهات ويدل دلالة واضحة على أنها باطلة لأن أي إنسان تسمح له نفسه أن يدعي بأنه حل به الإله وصار مع اللَّه وحدة واحدة ولا يمكن أن يخرج مثل هذا الادعاء الباطل من إنسان له عقل سليم أو به ذرة من إيمان »[2].

والخلاصة التي نخرج بها من هذا المطلب أن القول بحلول اللَّه فيمن اصطفاهم اللَّه في مخلوقاته أو حلوله المطلق في كل ما في هذا الكون قول غير صحيح بل هو كذب محض أتى به المتصوفة من عند أنفسهم أو أخذوه من الوثنية القديمة وأن الإسلام بريء من عقيدة حلول اللَّه في مخلوقاته لأنها عقيدة إلحادية وقد جاء الإسلام لمحاربة الإلحاد والكفر والشرك ونشر توحيد اللَّه في هذه المعمورة بين العباد من توحيد الربوبية والألوهية وتوحيد الأسماء والصفات وأن اللَّه مستو على عرشه بائن من خلقه ولا يمكن بأي شكل من الأشكال أن يحل في شيء من الأشياء الموجودة في

---

(١) « الصوفية في الإسلام » لنيكلسون (ص١٤١).

(٢) « المؤمراة على الإسلام » لأنور الجندي (ص٥٢).

هذا الكون لأنه خالقها وهي مخلوقة ولا يمكن أن يحل الخالق بالمخلوق نهائيًا.

وبما أن بعض غلاة المتصوفة بالفعل وقعوا في القول بحلول اللَّه كما سبق ذكره فإن الإسلام يعتبر ذلك منهم انحرافًا عقديًا خطيراً كفيلاً بإخراج صاحبه من الإسلام نهائيًا وقد ذكرت ذلك عن طائفة من علماء الإسلام في هذا المطلب.

* * *

الباب الثالث

انحرافاتهم في الرسول ﷺ والخضر عليه السلام والأولياء رحمهم اللّه

وتحته ثلاثة فصول :

الفصل الأول : انحرافاتهم في الرسول ﷺ

الفصل الثاني : انحرافاتهم في الخضر عليه السلام .

الفصل الثالث : انحرافاتهم تجاه الأولياء .

ثالثا: الباب

والجلسة خيله يضغط ﷺ نايب له في وقوله يحدد
مثلا وهو ص دليل على ان

: رابعة تاخذ متحدي

ﷺ نايب له في وقوله يحدد : باي له يعطف

خيله يضغط في وسوقه يحدد : يمكن ان يعطف
والجلسة .

دليل له دليت وقوله يحدد : ثالثا يعطف .

الفصل الأول

انحرافاتهم في الرسول ﷺ

وتحته مبحثان :

المبحث الأول : انحرافاتهم في مبدإ خلقه والمادة التي خلق منها. (وتحته ثلاثة مطالب)

المبحث الثاني :اعتقاد الصوفية بجواز التوجه إلى الرسول ﷺ بالدعاء والاستغاثة وشبههم ومناقشتها وحكم التوجه إلى الرسول ﷺ بالدعاء والاستغاثة . (وتحته ثلاثة مطالب)

الفصل الأول

الإسلام في الهند

نشأة الإسلام في الهند

المبحث الأول

انحرافهم في مبدإ خلقه والمادة التي خلق منها

وتحت ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : اعتقادهم بأن الرسول أول مخلوق وأنه خلق من نور .

المطلب الثاني : اعتقادهم بأن الكون خلق من نور محمد ﷺ .

المطلب الثالث : اعتقادهم بأن الكون خلق من أجل محمد ﷺ وأن جميع العلوم جزء من علمه حتى علم اللوح والقلم.

الحكم الأول

لونه وقلة ريشه واختلافه إما بسبب في الوراثة أو بسبب تأثير العوامل البيئية :

الحكم الأول : استحالة أن يكون الببغاء الذي لونه أخضر هو نفس الببغاء الذي لونه أزرق .

الحكم الثاني : استحالة أن يكون الببغاء الذي له منقار كبير هو نفس الببغاء الذي له منقار صغير .

الحكم الثالث : استحالة أن يكون الببغاء الذي له منقار كبير وجسم كبير هو نفس الببغاء الذي له منقار صغير وجسم صغير .

المبحث الأول

انحرافهم في مبدإ خلقه والمادة التي خلق منها :

تمهيد :

لقد انحرف المتصوفة تجاه الرسول محمد ﷺ انحرافًا خطيرًا حتى تجاوزوا به المنزلة التي أنزله اللَّه فيها فادعوا بأنه أول مخلوق وأنه مخلوق من نور وأن جميع ما في هذا الكون تفرع عنه بعد ذلك وأن جميع علوم الرسل الذين أرسلوا من قبله فاضت عليهم من علمه بل ادعوا بأن علم اللوح والقلم من علمه ﷺ وأن الدنيا وما فيها والآخرة وما فيها من جوده ﷺ .

المطلب الأول

اعتقادهم بأن الرسول أول مخلوق وأنه مخلوق من نور

لقد انحرف الصوفية في الزمن الذي خلق فيه الرسول محمد ﷺ وفي المادة التي خلق منها فادعوا بأنه أول مخلوق وأنه مخلوق من نور وأن جميع مخلوقات اللَّه تفرعت عنه وإليك النصوص التي تثبت هذا من بطون كتبهم.

أولاً : ذكر النصوص التي تثبت معتقدهم هذا :

* فمن الصوفية الذين قالوا بأن محمدًا أول مخلوق محيي الدين بن عربي الذي يسميه الصوفية الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر ويعتبرونه العلامة الذي لا يساويه أحد في معرفة اللَّه عز وجل حسب زعمهم وإلا فما أبعده عن معرفة اللَّه .

فقد قال متحدثًا عن بدء العالم :

« بدأ العالم ومثاله الهباء والحقيقة المحمدية :

كان اللَّه ولا شيء معه ثم أدرج فيه أي في هذا الحديث وهو الآن على ما عليه كان لم يرجع إليه سبحانه من إيجاده العالم صفة لم يكن عليها بل كان موصوفًا لنفسه ومسمى قبل خلقه بالأسماء التي يدعوه بها خلقه فلما أراد تعالى وجود العالم وبدءه على ما علمه بعلمه بنفسه انفصل عن تلك الإرادة المقدسة بضرب تجلى من تجليات التنزيه إلى الحقيقة الكلية نقول انفصل عنها حقيقة تسمى الهباء هي بمنزلة طرح البناء الجص ليفتح فيها ما شاء من الأشكال والصور وهذا هو أول موجود في العالم . . . ثم إنه سبحانه تجلى بنوره إلى ذلك الهباء ويسميه أصحاب الأفكار الهيولي الكل والعالم كله فيه القوة والصلاحية فقبل منه كل شيء في ذلك الهباء على حسب قوته واستعداده كما تقبل زوايا البيت نور السراج وعلى قدر قربه من ذلك يشتد ضوءه وقبوله .

قال تعالى : ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ فشبه نوره بالمصباح فلم يكن أقرب إليه تعالى قبولاً في ذلك الهباء إلا حقيقة محمد ﷺ المسماة بالعقل فكان سيد العالم بأسره وأول ظاهر في الوجود فكان وجوده من ذلك النور الإلهي ومن الهباء ومن الحقيقة الكلية وفي الهباء وجد عينه وعين العالم من تجليه وأقرب الناس إليه علي بن أبي طالب وأسرار الأنبياء»[1] .

والشاهد في النص هو تصريح ابن عربي بأن محمدًا أول من ظهر في هذا الوجود وأنه من نور اللَّه وأن هذا العالم وجد من نور الرسول محمد ﷺ

---

(١) « الفتوحات المكية » لابن عربي (٢/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧) .

وهذا كذب وافتراء على اللَّه من ابن عربي فإن محمداً ليس بأول موجود ولا هو موجود من نور وبما أننا نريد أولاً إيراد الأدلة من بطون كتبهم لإثبات معتقدهم هذا ثم سنتبعه بالرد عليهم وإبطال معتقدهم فنترك الرد لحينه ولنأت بجملة من الأدلة عنهم .

* ومن المتصوفة الذين قالوا بأن محمداً أول مخلوق عبد الكريم الجيلي .

وإليك نص عبارته حيث قال :

« إن العقل المنسوب إلى محمد ﷺ خلق اللَّه جبريل منه في الأزل فكان محمد ﷺ أبًا لجبريل وأصلاً لجميع العالم وسمي العقل الأول بالروح الأمين لأنه خزانة علم اللَّه وأمينه ويسمى بهذا الاسم جبريل من تسمية الفرع باسم أصله . . . . »[1] .

ثم قال : « لما خلق اللَّه سبحانه وتعالى العالم جميعه من نور محمد ﷺ كان المحل المخلوق منه إسرافيل قلب محمد ﷺ »[2] .

وقال أخيراً : « اعلم أن الإنسان الكامل « الحقيقة المحمدية » هو الذي يستحق الأسماء الذاتية والصفات الإلهية استحقاق الأصالة والملك بحكم المقتضى الذاتي »[3] .

فهذه النصوص التي أوردتها عن الجيلي تدل دلالة صريحة بأن المتصوفة يعتقدون بأن محمداً ﷺ أول موجود وأصل لجميع ما في هذا العالم من إنسان وجن وحيوان وملائكة وغيرها من مخلوقات اللَّه وهذا طبعًا

---

(١) « الإنسان الكامل » (٢/ ٢٩) .

(٢) « الإنسان الكامل » (٢/) .

(٣) « الإنسان الكامل » (٢/ ٧٧) .

معتقد باطل جاء به المتصوفة من الديانات الوثنية أما الإسلام فبريء من هذا المعتقد الوثني فالرسول ﷺ ليس أول مخلوق ولا مخلوق من نور ولا هو أصل للعالم بل هو بشر مثلنا فضله اللَّه بالرسالة وإلا فتاريخ ميلاده معروف وهو مولود من أم وأب قرشيين معروفين وعلى هذا فدعوى الصوفية هذه ما هي إلا هراء وكذب ودجل قصدوا من ورائها إفساد عقائد المسلمين.

* ومن المتصوفة الذين قالوا بأن محمداً أصل الوجود محمد البكري[1] ويظهر لنا معتقده هذا في الصلاة التي ابتدعها من عند نفسه ليصلي بها المتصوفة على محمد رسول اللَّه ﷺ حيث قال :

« اللهم صل وسلم وبارك على من تشرفت به جميع الأكوان وصل وسلم وبارك على سيدنا محمد الذي ظهرت به معالم الفرقان وصل وسلم وبارك على عين الأعيان والسبب في وجود كل إنسان »[2] .

والشاهد في هذا النص أن البكري قال : إن محمداً رسول اللَّه ﷺ هو عين لجميع الأعيان أي هو الأصل لجميع ما في هذا الكون وهو السبب في وجود كل إنسان موجود في هذه الحياة .

ونحن نقول هذا معتقد باطل مخالف للمعتقد الذي جاء به محمد بن عبد اللَّه عليه الصلاة والسلام فإن محمداً ﷺ ليس بأصل لجميع ما في هذا

---

(١) قال عنه الشعراني : هو الإمام العامل الراسخ في العلوم اللدنية والمنح المحمدية الكامل ابن الكامل سيدي محمد البكري.. وقد أعطاه اللَّه التكلم على أحوال السموات والأرض نقلاً وكشفًا ويقينًا لا ظنًا وتخمينًا درس وأفتى في علم الظاهر والباطن «الطبقات الكبرى» للشعراني (ص١٢٣). قلت : وهذا مجرد زعم فقط لأن علم الغيب خاص باللَّه سبحانه وليس عندنا علمان باطن وظاهر بل العلم الذي عندنا هو العلم الظاهر الواضح ألا وهو كتاب اللَّه وسنة رسوله محمد ﷺ.

(٢) « مجموع الأوراد الكبير » (ص٢٥) .

الكون بل الأشياء الموجودة في هذا الكون كل منها له أصل مستقل فالبشر أصلهم من تراب والملائكة من نور والجن من نار كما ذكر اللَّه ذلك في كتابه .

وبالإضافة إلى ذلك فالرسول محمد ﷺ لم يتجاوز منذ خلقه اللَّه أربعة عشر قرنًا والعالم كان قبله موجودًا فكلام المتصوفة باطل عقلاً ونقلاً وتاريخًا .

ويقول محمد البكري متحدثًا عن الحقيقة المحمدية :

قبضة النور من قديم أرتنا ... في جميع الشئون قبضًا وبسطا
وهي أصل لكل أصل تبدى ... بسطت فضلها على الكون بسطا
وهي وتر قد أظهرت عدد الشفع ... بعلم فجل حصرًا وضبطا
ولدت شكلها فأنتج شكلاً ... بشريًا أقام للعدل قسطا
وهو عبد قد حررته لديها ... بيديها وكم أفاد وأعطى
هي ناسوت انسنا والهيولا ... شمس سر الوجود بكرًا وشمطا
كل والكل منه ... وعليه مبناه ما اختل شرطا[1]

فالأبيات السابقة قد قرر فيها البكري بأن محمدًا رسول اللَّه أصل لكل الأشياء التي ظهرت في هذا الوجود وأن حقيقة الرسول مركبة من الإنسانية والإلهية وأن كل شيء موجود في هذه الحياة من الرسول ﷺ وأن الرسول خلق من قبضة نورانية .

وهذه كلها اعتقادات باطلة مناقضة للعقيدة الصحيحة التي جاء بها الرسول ﷺ .

---

(١) « أوراد البكرى » (ص٧٤) نقلاً عن « التصوف » لشقفة (ص٨٢) .

فالرسول ﷺ ليس أصلاً لهذا الكون ولا هو مخلوق من نور ولا هو مركب من الإنسانية والإلهية بل هو بشر خالص كما قال تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[1] .

* ومن المتصوفة الذين قالوا بأن محمداً رسول اللّه ﷺ أصل الوجود ابن مشيش .

ويظهر معتقد هذا الرجل من خلال الصلاة التي اخترعها وابتدعها من عند نفسه ليصلي بها على الرسول محمد ﷺ ويصلي بها كل من انضوى تحت طريقته ويتلوها صباحًا ومساءً.

وإليك هذه الصلاة :

« اللهم صلِّ على من منه انشقت الأسرار وانفلقت الأنوار وفيه ارتقت الحقائق وتنزلت علوم آدم فأعجز الخلائق وله تضاءلت الفهوم فلم يدركه منا سابق ولا لاحق فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة ولا شيء إلا وهو به منوط إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط »[2] .

ففي هذه الصلاة صرح ابن مشيش بأن جميع الأسرار انشقت من الرسول ﷺ وأن جميع الأنوار انفلقت منه أيضًا وأن رياض الملكوت بجماله مونقة وأن أنوار الرسول تتدفق على كلّ ما في هذا الوجود وأن كل شيء في هذا الوجود متعلق بهذا النور وهذا معتقد باطل مخالف لما في الكتاب والسنة فالرسول ﷺ ليس محلاً لجميع الأسرار الإلهية ولا هو نور حتى

(١) الكهف : (١١٠) .

(٢) « مجموع الأوراد » للبكري (ص٢٢) .

تتوزع منه الأنوار وليست جميع الأشياء معلقة به كما يدعي ابن مشيش بل هو مخلوق كغيره فضله اللَّه بالرسالة الخاتمة وجعله خير الخليقة كلها ومع ذلك فهو عبد من عباد اللَّه تعالى .

ولكن نعم نقول إن الرسول جاء بالنور من عند اللَّه وهو كتاب اللَّه وسنته ﷺ .

* ومن المتصوفة الذين قالوا بأن محمدًا أصل الوجود وأول موجود عبد المنعم الحلواني.

ويظهر لنا ذلك في قصيدته التي سماها المستجيرة حيث قال فيها :

أنشاك نورًا ساطعًا قبل الورى فرد الفرد والبرية في العدم

ثم استمد جميع مخلوقاته من نورك السامي فيا عظم الكرم[1]

ففي البيتين السابقين صرح الحلواني بأن الرسول خلق من نور وأنه سبق جميع ما في هذا الكون في الخلق ثم خلق جميع ما في هذا الكون من نور الرسول محمد ﷺ وهذا معتقد باطل لا أساس له من الصحة لا شرعًا ولا عقلاً بل هو غلو محض واتباع للهوى فقط قصد من ورائه إفساد عقائد المسلمين ونشر العقائد الوثنية في أوساطهم .

* ومن المتصوفة الذين قالوا بأن محمدًا رسول اللَّه ﷺ أصل لجميع ما في هذا الكون الرفاعي

ويتضح لنا معتقده هذا من خلال صلاته التي ابتدعها واخترعها من عند نفسه ليصلي بها على الرسول ﷺ وإليك نص كلامه فقد قال :

« اللهم صلِّ وسلم على نورك الأسبق وصراطك المحقق من أبرزته رحمة شاملة لوجودك وأكرمته بشهودك واصطفيته لنبوتك ورسالتك وأرسلته

---

(١) رسالة لأحمد عبد المنعم الحلواني (ص١٤) نقلاً عن « التصوف » لشقفة (ص٨٥) .

بشيراً ونذيراً وداعيًا إليك بإذنك وسراجًا منيراً نقطة مركز بهاء الدائرة الأولية وسر أسرار الألف القطبية الذي فتقت به رتق الوجود وخصصته بأشرف المقامات لمواهب الامتنان والمقام المحمود وأقسمت بحياته في كلامك المشهود لأهل الكشف والشهود فهو سرك القديم الساري وماء جوهر الجوهرية الجاري الذي أحييت به الموجودات من معدن وحيوان ونبات فهو قلب القلوب وروح الأرواح وعلم الكلمات الطيبات القلم الأعلى والعرش المحيط روح جسد الكونين وبرزخ البحرين وثاني اثنين وفخر الكونين أبو القاسم سيدنا محمد بن عبد اللَّه بن عبد المطلب عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا بقدر عظمة ذاتك في كل وقت وحين سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد للَّه رب العالمين »[1] .

ففي هذه الصلاة صرح الرفاعي بأن الرسول ﷺ نور اللَّه السابق لجميع ما في هذا الكون ووصفه بأنه سر اللَّه القديم وأن اللَّه قد أحيا بمحمد الموجودات كلها من معادن وحيوانات ونباتات وعلى هذا يعتبر الرفاعي بأن محمدًا أول الموجودات ثم أحيا اللَّه به الموجودات الأخرى الموجودة في هذا الكون.

وطبعًا هذا اعتقاد فاسد وباطل مخالف لما جاء في الكتاب والسنة لأن اللَّه عز وجل وصف رسوله في كتابه بأنه بشر مثلنا فقال تعالى : ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾[2] .

---

(١) « مجموع الأوراد والأدعية والاستغاثات » للبكري (ص١٦٤) .

(٢) الكهف : (١١٠) .

ومن المتصوفة الذين قالوا بأن أصل الوجود محمد بن عبد اللّه عليه أفضل الصلاة والتسليم أحمد الدرديري [1] ويظهر لنا معتقده هذا من خلال صلاته التي ابتدعها من عند نفسه ليصلي بها على الرسول ﷺ حيث قال :

« اللهم اجعل أفضل صلواتك أبدًا وأنمى بركاتك سرمدًا وأزكى تحياتك فضلاً وعددًا على أشرف الخلائق الإنسانية ومجمع الحقائق الإيمانية وطور التجليات الإحسانية ومهبط الأسرار الرحمانية واسطة عقد النبيين ومقدم جيش المرسلين وقائد ركب الأنبياء المكرمين وأفضل الخلق أجمعين حامل لواء العز الأعلى ومالك أزمة المجد الأسنى شاهد أسرار الأزل وشاهد أنوار السوابق الأول وترجمان لسان القدم ومنبع العلم والحلم والحكم سر الجود الجزئي والكلي وإنسان عين الوجود العلوي والسفلي روح جسد الكونين وعين حياة الدارين . . . ».

إلى أن قال : « اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد شجرة الأصل النورانية ولمعة القبضة الرحمانية وأفضل الخليقة الإنسانية وأشرف الصور الجسمانية ومعدن الأسرار الربانية وخزائن العلوم الاصطفائية صاحب القبضة الأصلية والبهجة السنية والمرتبة العلية من اندرج النبيون تحت لوائه فهم منه وإليه »[2] .

فالصلاة الدرديرية نلاحظ فيها أولاً وصف الرسول ﷺ بأنه يعلم أسرار الأزل وأن حياة الدارين وهما الدنيا والآخرة هما عينه وأن محمدًا الأصل للشجرة النورانية وأنه خلق من قبضة النورانية وهذا قول جميع الصوفية حيث

---

(١) هو أحمد بن محمد بن أحمد الخلوتي الشهير بالدردير أبو البركات فقيه أصولي تولى مشيخة الطريقة الخلوتية وتوفي بالقاهرة ومن تصانيفه « تحفة الإخوان في آداب أهل العرفان » في التصوف . « معجم المؤلفين » لكحالة (٢/ ٦٧) .

(٢) « مجموع الأوراد » للبكري (ص١٩ ـ ٢١) .

يعتقدون بأن اللَّه تعالى قبض قبضة من نوره فقال لها : كوني محمـد بن عبد اللَّه فكانت ووصفه أيضًا بأنه معدن أسرار اللَّه وخزائن لعلوم اللَّه .

وهذا اعتقاد فاسد فالرسول ﷺ لا يعلم من أسرار اللَّه تعالى إلا بقدر ما علمه اللَّه سبحانه وتعالى عن طريق الوحي وليس محمد حياة الدارين بل مخلوق بشري فضَّله اللَّه بالرسالة وليس مخلوقًا من قبضة نورانية بل هو مخلوق من نطفة كما يخلق غيره من البشر قال تعالى : ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا** ﴾[1] .

ولا يحط هذا من منزلته فهو أفضل جميع المخلوقات على الإطلاق وأمته أفضل الأمم وله خصائص يختص بها دون غيره من الأنبياء كما سنذكرها في حينها إن شاء اللَّه .

ويعتقد المتصوفة بأن النور المحمدي كان ينتقل من أصلاب أجداده الطاهرين إلى أرحام جداته الطاهرات إلى أن وصل أباه وأمه الطاهرين ﷺ .

وقد ذكر النبهاني القصة التالية عن كعب الأحبار حيث قال :

« روي عن كعب الأحبار قال : لما أراد الجليل جل جلاله أن يخلق محمدًا ﷺ أمر جبريل عليه السلام أن يأتيه بالطينة البيضاء التي هي قلب الأرض وبهاء الأرض ونور الأرض ، قال : فهبط جبريل عليه السلام في ملائكة الفردوس وملائكة الرفيق الأعلى فقبض قبضة رسول اللَّه ﷺ من موضع قبره وهي يومئذ بيضاء فعجنت بماء النسيم وجعلت كالدرة البيضاء وغمست في كل أنهار الجنة وطيف بها في السماوات والأرض والبحار فعرفت الملائكة محمدًا قبل أن تعرف آدم عليه السلام وفضله فلما خلق آدم عليه السلام سمع من تخطيط أسارير وجهه نشيشًا كنشيش الطير فقال :

---

(١) الإنسان : (٢) .

سبحانك ما هذا ؟ قال اللَّه عز وجل : يا آدم هذا تسبيح خاتم النبيين وسيد ولدك من المرسلين . قال : فكان نور محمد ﷺ يرى في دائرة غرة آدم عليه السلام كالشمس في دوران فلكها وكالقمر في ديجور ليلة ظلماء وقال اللَّه لآدم عليه السلام : خذه ـ يعني النور النبوي ـ بعهدي وميثاقي على أن لا تودعه إلا في الأصلاب الطاهرة والمحصنات الزاهرة . قال : نعم يا إلهي وسيدي قد أخذته بعهدك على أن لا أدعه إلا في المطهرين من الرجال والمحصنات من النساء . قال : وكانت الملائكة يقفون صفوفًا خلفي فقال اللَّه سبحانه وتعالى : ينظرون إلى نور خاتم الأنبياء الذي أخرجه من ظهرك. قال : رب أرنيه . فأراه اللَّه تعالى إياه عليه السلام فآمن به وصلى عليه مشيراً بأصبعه »[1] .

فهذه القصة التي أوردها النبهاني عن كعب الأحبار فيها عدة ملاحظات:

الملاحظة الأولى : قوله : « إن اللَّه أمر جبريل أن يأتي بالطينة البيضاء ليخلق منها محمداً ﷺ » وهذا افتراء على اللَّه تعالى بغير برهان وذلك لأن الرسول ﷺ لم يخلق من طين وإنما خلق من نطفة كما يخلق غيره من البشر وعلى هذا تعتبر هذه فرية منه لأنها تصطدم مع حقيقة أثبتها القرآن الكريم.

الملاحظة الثانية : قوله :« إن الملائكة عرفت محمداً قبل أن تعرف آدم وهذه أيضًا فرية ثانية لأن آدم عليه السلام خلق قبل محمد ﷺ وذلك لأن آدم جد جميع البشرية ومحمد من ذرية آدم عليه السلام كسائر البشر ولا يمكن أن يولد الفرع قبل الأصل كما هو الواقع في القدر والشرع والعقل والفطرة».

---

(١) « حجة اللَّه على العالمين » للنبهاني (ص٢١٦) .

وكذلك الملائكة ما كانت تعرف البشر قبل خلق آدم عليه السلام ولذلك قالت الملائكة كما حكى اللّه لنا قصتهم حينما أخبرهم بخلق آدم عليه السلام : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[1] .

فلو أمعنا النظر في معاني الآيات السابقة فسنجد بأن الملائكة كانوا يجهلون تمامًا النوع البشري وأن أول بشر عرفوه هو أبونا آدم عليه السلام وعلى هذا تعتبر دعوى النبهاني وإيراده القصة عن كعب الأحبار دعوى عارية عن الصحة تمامًا وما ساق النبهاني هذه القصة إلا لإثبات معتقده الفاسد الذي هو القول بخلق محمد قبل جميع المخلوقات وأنه خلقه اللّه من النور الإلهي وليعلم النبهاني ومن يسير على نهجه من المتصوفة بأن العقائد لا يمكن أن تثبت بسرد قصص مكذوبة ونقل أقوال الخرافيين الذي يقولون بأولية خلق محمد قبل جميع ما في هذا الكون وإنما العقائد تثبت بنصوص قرآنية وأحاديث نبوية صحيحة ولا مجال فيها لأراء الرجال ونقل القصص من بطون كتب أهل الكتاب الذين أخبرنا اللّه سبحانه وتعالى بأنهم حرفوا كتبهم.

ومن الصلوات التي ابتدعها المتصوفة للصلاة بها على الرسول ويظهر

---

(١) البقرة : (٣٠ ـ ٣٤) .

فيها هذا المعتقد :

« اللهم صل بجميع الشئون في الظهور والبطون على من منه انشقت الأسرار الكامنة في ذاته العلية ظهوراً وانفلقت الأنوار المنطوية في سماء صفاته السنية . . . ورياض الملك بزهر جماله مونقة وحياض معالم الجبروت بفيض أنوار سره الباهر متدفقة ولا شيء إلا وهو به منوط وبسره السارى محوط »[1] .

ويقول أحد المتصوفة والذي يسمى بمحمد نور وهو يتحدث عن حقيقة الرسول في المعتقد الصوفي :

« اعلم أن الروح الأعظم هو الروح الإنساني الذي هو من أمر ربي سر عظيم ولطيفة ربانية لا يعلم كنهها إلا اللّه وله في العالم الكبير أسماء ومظاهر وله في العالم الصغير أعني عالم الإنسان أسماء ومظاهر فأسماؤه ومظاهره في العالم الكبير العقل الأول والقلم الأعلى واللوح والحقيقة المحمدية والروح المحمدي أول موجود أبدعه اللّه تعالى وأوجده وهو الخليفة الأكبر والسر الأعظم »[2] .

ومن المتصوفة الذين يقولون بأن محمداً أول مخلوق عبد العزيز الدباغ حيث قال في كتابه « الإبريز » في معرض حديثه عن الرسول ﷺ :

« وأنه أول ما خلق اللّه تعالى وسقى المخلوقات والأنبياء والأولياء والمؤمنين من نوره عليه الصلاة والسلام كل على قدر طاقته » .

وقال أيضًا : « وكذلك سائر المخلوقات سقيت من النور المكرم

---

(١) « سعادة الدارين » للنبهاني (٢٧٢ ـ ٢٧٣) .

(٢) « منهاج الراغبين » لمحمد نور (ص٤١) .

ولولا النور الكريم الذي فيها ما انتفع أحد منها بشيء » .

وقال أيضًا : « ولولا نوره ﷺ الذي في ذوات الكافرين فإنها سقيت به عند تصويرها في البطن وعند الخروج وعند الرضاعة لخرجت إليهم جهنم وأكلتهم أكلاً ولا تخرج إليهم في الآخرة وتأكلهم حتى ينزع منهم ذلك النور الذي صلحت به ذواتهم »[1] .

ففي هذا النص صرح عبد العزيز الدباغ بأن الرسول أول مخلوق خلقه اللَّه وأن جميع المخلوقات سقيت من هذا النور النبوي عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم وهذا كذب وافتراء ودجل منه فقط وليس له أي دليل يستند عليه لإثبات هذه الدعوى .

ومن المتصوفة الذين قالوا بأن محمدًا ﷺ أول موجود أبو المواهب الشاذلي[2] حيث قال في شرح قول البدوي « ولمعة القبضة الرحمانية » :

« واعلم أن الرحمة رحمتان رحمة خاصة وهي التي تدارك اللَّه بها عباده في أوقات مخصوصة ورحمة عامة وهي حقيقة محمد ﷺ وبها رحم اللَّه حقائق الأشياء كلها فظهر كل شيء في مرتبته في الوجود فلذلك أول ما خلق اللَّه روح محمد ﷺ فرحم به الموجودات الكونية . . . » ثم قال : « إذ لولا أسبقية وجوده ما وجد موجود ولولا نوره في ضمائر الكون إلى أن

---

(١) « الإبريز » لعبد العزيز الدباغ (ص٢٥٣) .

(٢) هو محمد أبو المواهب الشاذلي قال عنه الشعراني : كان من الظرفاء الأجلاء وكانت له خلوة فوق سطحه وكان يغلب عليه السكر وكان كلامه ينشد في الموالد والاجتماعات والمساجد على رؤوس العلماء والصالحين فيتمايلون طربًا من حلاوته . انظر «الطبقات الكبرى» للشعراني (٢/ ٦٧).

قلت : لعله يقصد بالعلماء والصالحين الصوفية أما العالم الذي يعرف الكتاب والسنة فلا يمكن أن يطرب له .

برز لتهدمت دعائم الوجود فهو الذي وجد أولاً وتبعه الوجود وصار مرتبطًا به لا استغناء عنه » [1] .

ففي هذا النص أتى الشاذلي بكلمة جديدة انفرد بها دون غيره من المتصوفة الذين نقلنا عنهم النصوص قبله حيث قال : « إن أول مخلوق روح محمد ﷺ » بينما المتصوفة الذين ذكرناهم قبله كانوا يقولون : إن أول مخلوق نور محمد ﷺ .

وذكر في النص أيضًا أن اللَّه يرحم الموجودات بمحمد ﷺ وصرح أيضًا بأن محمدًا لو لم يكن أول موجود لما وجد أي أحد في هذا الكون وقال أيضًا لولا وجود الرسول في ضمائر كل موجود في هذا الكون لتهدم الكون وتساقط .

وذكر أيضًا بأن الكون خلق بعد محمد ﷺ فهو مرتبط به ولا يمكن أن يستغني عنه بأي حال من الأحوال .

وأنا أقول : إن كلام الشاذلي هذا محض افتراء ودجل وإلا فبأي برهان يستطيع أن يثبت هذا الكلام الذي قاله .

فروح الرسول ليست أول من وجد كما يدعي هو وليس وجود هذا الكون مرتبطًا بأسبقية وجود محمد بل هذا الكون أوجده اللَّه سبحانه وتعالى قبل أن يوجد محمد ﷺ بسنوات عديدة نعجز عن عدها لأن الرسول ﷺ تاريخ ميلاده معروف للجميع حيث ولد في القرن الميلادي السادس .

والخلاصة التي خرجت بها من خلال إيرادي لهذا النصوص من كتبهم أنفسهم هو أنني استطعت أن أثبت بأن المتصوفة يعتقدون في الرسول محمد

---

(١) « حجة اللَّه على العالمين » للنبهاني (ص٤٨) .

ﷺ العقيدتين التاليتين وهما :

أولاً : اعتقادهم بأن محمداً أول مخلوق .

ثانيًا : اعتقادهم بأن محمداً مخلوق من نور اللَّه .

ثانيًا : الشبه التي تعلق بها المتصوفة لإثبات هذا المعتقد الفاسد :

إذا نظرنا في الشبه التي تعلق بها المتصوفة لإثبات معتقدهم الباطل هذا تجاه الرسول محمد ﷺ فسنجدها كلها أحاديث موضوعة فقط وضعها الخرافيون عمداً لإفساد عقائد المسلمين وتحويل الأمة الإسلامية إلى أمة وثنية مشركة تعبد الأشخاص من دون اللَّه وإلا فما الدافع للمتصوفة إلى هذه المحاولات الخسيسة سوى نيتهم السيئة التي بيتوها للأمة الإسلامية وبالفعل استطاع المتصوفة بث هذا المعتقد الفاسد في أوساط كثير من أفراد الأمة الإسلامية حيث أن كل من يأخذ جولة في أنحاء العالم الإسلامي يجد الأمة غارقة في أوحال هذه الخرافات المنتنة التي تتزعمها الصوفية العالمية ومن ورائها الدول الاستعمارية الكبرى لإدراك هذه الدول بأن الطرق الصوفية أحسن معول هدم للقضاء على عقيدة الأمة الإسلامية الصافية ولذا تجد الدول الاستعمارية الكبرى تقف دائمًا إلى جانب هذه الطرق وتدعهما بكل ما تريد والأحاديث التي اعتمد عليها المتصوفة تتمثل في الأحاديث الآتية :

أولاً : الحديث الموضوع الذي ينسبونه إلى الرسول محمد ﷺ ولفظه: « **كنت نبيًا وآدم بين الماء والطين** » قال الشيخ ناصر الدين الألباني عن هذا الحديث : إنه حديث موضوع[1] .

---

(١) « سلسة الأحاديث الضعيفة » للألباني رقم (٣٠٢) (ج١/ ٣١٦) المكتب الإسلامي الطبعة الثالثة .

ثانيًا : من أدلتهم أيضًا الحديث الموضوع التالي الذي ينسبونه إلى الرسول ﷺ كذبًا وزورًا وهذا لفظه : « **كنت نبيًا وآدم ولا ماء ولا طين** » قال عنه ناصر الدين الألباني : إنه حديث موضوع[1] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية عن هذا الحديث الأخير في رده على البكرى :

« لا أصل له لا من نقل ولا من عقل فإن أحدًا من المحدثين لم يذكره ومعناه باطل فإن آدم عليه السلام لم يكن بين الماء والطين قط فإن الطين ماء وتراب وإنما كان بين الروح والجسد »[2] .

ثالثًا : من أدلتهم أيضًا الحديث الموضوع التالي ولفظه : « **كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث** » وهذا الحديث أيضًا حديث موضوع ذكره ملا علي القاري في « الموضوعات الكبرى »[3] .

رابعًا : من أدلتهم أيضًا الحديث التالي الموضوع ولفظه :

عن عطاء بن السائب عن مرة الهمداني عن ابن عباس قال : قلت يا رسول اللّه أين كنت وآدم في الجنة قال : « **كنت في صلبه وأهبط إلى الأرض وأنا في صلبه وركبت السفينة في صلب أبي نوح وقذفت في النار في صلب أبي إبراهيم لم يلتق لي أبوان قط على سفاح** »[4] .

---

(١) « سلسة الأحاديث الضعيفة » للألباني رقم (٣٠٣) (ج١/ ٣١٦) المكتب الإسلامي الطبعة الثالثة .

(٢) « الرد على البكرى » لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص٩) .

(٣) انظر « الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة » لملا علي القاري تحقيق محمد الصباغ (ص٢٧٢ ـ ٢٧٣) ط دار الأمانة ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ لبنان .

(٤) انظر « اللآليء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة » للسيوطي (ج١/ ٢٦٤) ط دار المعرفة .

وهذا الحديث قد ذكره السيوطي في « اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ».

وذكر هذا الحديث أيضًا أبو الحسن علي بن محمد الكناني في كتابه « تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة »[1] .

وعلى هذا فإن الأحاديث التي استدل بها المتصوفة لإثبات قدم ذات النبي محمد ﷺ وأنه أول مخلوق أحاديث موضوعة لا تصلح لكي تكون أدلة لإثبات أمر مستحب أو مندوب فضلاً عن أن تكون أدلة يعتمد عليها لإثبات أمر عقدي ولذا أقول ما جاء المتصوفة بهذه الفرية وهي قولهم بأن محمدًا أول مخلوق وأنه خلق من نور إلا من عند أنفسهم .

فالرسول محمد ﷺ ليس أول مخلوق ولا هو مخلوق من نور كما يزعم المتصوفة بل الرسول ﷺ مخلوق بشري خلق مما يخلق منه البشر ومر بنفس الأدوار التي يمر بها البشر في بطن أمه ثم وضعته أمه كما تضع الأمهات ثم توفي عنه أبوه وتربى يتيمًا مع أعمامه ومع هذا أقول : كوننا نقول إنه بشر مثلنا لا يحط هذا من مكانة الرسول ﷺ بل الكل يقر بأن الرسول أفضل الخليقة على الإطلاق من إنس وجن وملائكة وله خصائص كثيرة خصه اللّه بها دون غيره من الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وبما أن الرسول محمدًا ﷺ من ذرية آدم عليه السلام كغيره من البشر وآدم أصله من تراب فإن أصل الرسول محمد أيضًا من تراب ومما يدل على أن أصل البشر من تراب الآيات التالية :

---

(١) انظر « تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة » لأبي الحسن علي بن محمد الكناني (ج١/ ٣٢١) نشر مكتبة القاهرة الطبعة الأولى .

أولاً : قول اللَّه تعالى : ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[1] .

ومن الأدلة في هذا المجال أيضًا قول اللَّه عز وجل : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[2] .

وعلى هذا نقول إن أول مخلوق بشري هو آدم عليه السلام وبما أن الرسول من ذرية آدم عليه السلام فهو بشر إذًا وقد خلق مما يخلق منه البشر وهو الماء كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾[3] .

والرسول بشر فهو مخلوق إذًا من نطفة كغيره من البشر وقد أمره اللَّه أن يقول إنه بشر بقوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾[4] .

ومعلوم أن الرسول ﷺ ولد من أبوين قرشيين معروفين في القرن السادس الميلادي ولذا أقول إن اعتقاد المتصوفة بأن الرسول ﷺ أول مخلوق وأنه مخلوق من نور اعتقاد باطل يصطدم مع النصوص القرآنية والحديثية القاطعة التي تثبت بشرية الرسول محمد ﷺ .

---

(١) ص : (٧١ ـ ٧٤) .

(٢) المؤمنون : (١٢ ـ ١٤) .

(٣) الإنسان : (٢) .

(٤) الكهف : (١١٠) .

وبعد إبطال دعوى الصوفية بأن محمداً أول مخلوق وأنه خلق من نور والرد على شبههم التي اعتمدوا عليها استحسن إتباع ذلك بذكر الأشياء التي خلقها اللَّه أولاً إكمالاً الفائدة .

ثالثًا : أول ما خلق اللَّه :

لقد اختلف العلماء في تحديد أول شيء خلقه اللَّه سبحانه وتعالى وذلك لاختلاف النصوص الواردة في تحديد أول مخلوق.

فمنهم من قال : إن أول ما خلق اللَّه العرش.

ومنهم من قال : إن أول ما خلق اللَّه القلم.

ومنهم من قال : إن أول ما خلق اللَّه الماء .

ولكل واحد من هؤلاء نصوصه التي يعتمد عليها .

وإليك الأقوال واحداً واحداً مع ذكر دليل كل قول .

أولاً : القائلون بأن العرش أول مخلوق .

من أدلة هؤلاء الأحاديث الآتية :

الحديث الأول : حديث عمران بن حصين رضي اللَّه عنهما قال : جاء نفر من بني تميم إلى النبي ﷺ فقال : « **يا بني تميم أبشروا** » فقالوا : بشرتنا فأعطنا فتغير وجهه فجاء أهل اليمن فقال : « **يا أهل اليمن اقبلوا البشرى إذ لم يقبلها بنو تميم** » فقالوا : قبلنا فأخذ الرسول ﷺ يحدث عن بدء الخلق والعرش فجاء رجل فقال يا عمران راحلتك تفلتت ، ليتني لم أقم[1] .

---

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ٢٨٦) .

وروى البخارى الحديث من طريق آخر قال : حدثنا عمران بن حصين ابن غياث حدثنا أبي الأعمش حدثنا جامع بن شداد عن صفوان بن محرز أنه حدثه عن عمران بن حصين رضي اللَّه عنهما قال : دخلت على النبي ﷺ وعلقت ناقتي بالباب فأتاه ناس من بني تميم فقال : « **أبشروا يا بني تميم** » قالوا : بشرتنا فأعطنا (مرتين) ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن فقال : « **اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إن لم يقبلها بنو تميم** » قالوا : قبلنا يا رسول اللَّه قالوا : قد جئناك نسألك عن هذا الأمر قال : « **كان اللَّه ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السماوات والأرض**» فنادى مناد : ذهبت ناقتك يا ابن الحصين ، فانطلقت فإذا هي يقطع دونها السراب فواللَّه لوددت أني كنت تركتها[1] .

فالحديث السابق نستفيد منه الفوائد التالية :

أولاً : أن اللَّه سبحانه وتعالى كان موجوداً ولم يكن معه غيره .

ثانيًا : أن العرش كان موجوداً على الماء.

ثالثًا : الحديث لم يذكر فيه أن القلم كان موجوداً في ذاك الوقت ولذا يستفاد من هذا الحديث بأن العرش خلق قبل القلم .

ومن الأدلة التي استدل بها القائلون بخلق العرش أولاً حديث عبد اللَّه ابن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « **كتب اللَّه مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة قال وكان عرشه على الماء** » رواه مسلم[2] .

---

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ٢٨٦) .

(٢) « صحيح مسلم بشرح النووي » (١٦/ ٢٠٣) .

وهذا الحديث نستفيد منه بأن العرش خلق قبل القلم لأنه أي العرش كان موجوداً على الماء وقت كتابة المقادير ولم يذكر وجود القلم .

ومن الأدلة التي استدل بها القائلون بأن العرش خلق قبل القلم ما ذكره الحافظ ابن حجر عن أبي حازم من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: « **خلق اللَّه اللوح المحفوظ مسيرة خمسمائة عام فقال للقلم قبل أن يخلق الخلق وهو على العرش : اكتب ، فقال : وما أكتب ؛ قال علمي في خلقي إلى يوم القيامة** »[1] .

ثم قال ابن حجر : وليس في هذا سبق خلق القلم على العرش بل فيه سبق العرش وهو كما قال ابن حجر.

ثانيًا : أدلة القائلين بأن القلم خلق قبل العرش :

الدليل الأول الحديث الذي أخرجه الترمذي في جامعه حيث قال : حدثنا يحيى بن موسى أخبرنا أبو داود الطيالسي أخبرنا عبد الواحد بن سليم قال : قدمت مكة فلقيت عطاء بن أبي رباح فقلت : يا أبا محمد إن ناسًا عندنا يقولون في القدر فقال عطاء لقيت الوليد بن عبادة بن الصامت فقال : حدثني أبي قال سمعت رسول اللَّه يقول : « **إن أول ما خلق اللَّه القلم فقال : اكتب فجرى بما هو كائن إلى الأبد** » قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب[2] .

وهذا الحديث صرح فيه الراوي بأن الرسول ﷺ قال : « **أول ما خلق اللَّه القلم** » وذلك على العكس تمامًا لما ذكر في الأحاديث السابقة .

---

(١) « فتح الباري بشرح صحيح البخاري » لابن حجر (٦/ ٢٨٩) .

(٢) « جامع الترمذي بشرح تحفة الأحوذي » المجلد الرابع (ص٢٣٢) .

ومن الأدلـة التي استـدل بها هؤلاء الحديث الذي أخرجه البيهقي في « الأسماء والصفـات » من طريق الأعمـش عن أبي ظبيان عن ابن عباس قال : « **أول ما خلق اللَّه القلم فقال له : اكتب فقال : يا رب وما أكتب؟ قال : اكتب القدر فجرى بما هو كائن من ذلك اليوم إلى قيام الساعة** »[1] .

فهذا الحديث أيضًا ورد فيه بأن القلم خلق قبل العرش .

وقال أبو العلاء الهمداني أن للعلماء قولين في أيهما خلق أولاً العرش أو القلم قال والأكثر على سبق خلق العرش واختار ابن جرير ومن تبعه على أن القلم خلق قبل العرش[2] .

وقال الطيبي في قوله ﷺ : « **وكان عرشه على الماء** » .

أشار بقوله : « **وكان عرشه على الماء** » إلى أن الماء والعرش كانا مبدأ هذا العالم لكونهما خلقا قبل خلق السماوات والأرض ولم يكن تحت العرش إذ ذاك إلا الماء[3] .

ومما تقدم نخلص على أن للعلماء ثلاثة أقوال في هذه المسألة .

فقوم قالوا : إن أول مخلوق العرش .

وقوم قالوا : إن أول مخلوق القلم .

وقوم قالوا : إن أول مخلوق الماء والعرش.

وقد حاول الإمام ابن حجر رحمه اللَّه أن يجمع بين هذه النصوص فقال:

---

(١) « الأسماء والصفات » للبيهقي (ص٣٢٨) .

(٢) « فتح الباري » (٦/ ٢٨٩) .

(٣) « فتح الباري » (٦/ ٢٨٩) .

« إن أولية القلم بالنسبة إلى ما عدا الماء والعرش أو بالنسبة إلى ما منه صدر من الكتابة أي أنه قيل اكتب أول ما خلق »[1] .

وبما أن الجمع بين النصوص أفضل إذا أمكن الجمع بينهما أرى جمع ابن حجر بين هذه النصوص وجيهًا ولهذا أقول واللَّه أعلم بالصواب : إن العرش والماء خلقا قبل القلم ثم خلق القلم فكتب المقادير .

وهذه النصوص مع ما فيها من اختلاف في تحديد أول ما خلق اللَّه تثبت لنا بأن أول مخلوق العرش أو القلم أو الماء وليس أول مخلوق محمد ابن عبد اللَّه عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ولا نوره لأنه ليس مخلوقًا من نور وإنما هو مخلوق من نطفة كسائر البشر ومع أنه بشر مثلنا فهو أفضل من خلق اللَّه على الإطلاق.

وعلى هذا تصبح دعوى الصوفية بأن أول مخلوق نور محمد دعوى كاذبة فارغة عارية عن الصحة وليس لها أي دليل تستند عليه لا عقلي ولا نقلي بل هي دعوى مبنية على اتباع الهوى والكذب على اللَّه وعلى رسوله ﷺ .

المطلب الثاني

اعتقادهم بأن الكون خلق من نور محمد ﷺ

إن اعتقاد المتصوفة بأن جميع ما في هذا الكون من أرض وسماء خلق من نور محمد ﷺ واضح وجلي جدًا ويظهر هذا المعتقد لكل من يقرأ في كتب أئمة التصوف وخاصة في الصلوات التي ابتدعتها المتصوفة من عند

---

(١) « فتح الباري » (٦/ ٢٨٩) .

أنفسهم لإفساد عقائد المسلمين وإبعادهم عن تلاوة كتاب اللَّه عز وجل وذلك لأن كثيراً من عوام المسلمين الذين انخرطوا في الطرق الصوفية أصبحوا يتلون هذه الصلوات المملوءة بالباطل تاركين تلاوة كتاب اللَّه عز وجل .

وإليك نماذج من النصوص منقولة من كتب المتصوفة أنفسهم التي تؤكد لنا وتوضح بأن المتصوفة بالفعل قالـوا : إن الكون خلق من نور محمد ﷺ .

فمن مشائخ التصوف الذين قالوا بأن جميع ما في هذا الكون خلق من نور محمد ﷺ عبد العزيز الدباغ .

والحقيقة أن عبد العزيز الدباغ هذا قد صرح بأن جميع ما في هذا الكون من أرض وسماء وما فيهما وما بينهما بل وما فوق السموات السبع خلق من نور محمد ﷺ وقد أطال وفصل ووضح هذا الرجل هذا المعتقد الصوفي الباطل بألفاظ صريحة واضحة كل الوضوح حيث ادعى بأن أول مخلوق هو النور المحمدي ثم خلق اللَّه منه جميع ما في هذا الكون بما في ذلك القلم والملائكة واللوح المحفوظ والعرش والأرواح والجنة والبرزخ وأن جميع هذه المخلوقات الموجودة في هذا الكون سقيت من نور النبي محمد ﷺ مع تفاوت نسبة السقيا فيما بينها وأن أرواح الكفار كرهت الشراب من النور المحمدي وامتنعت منه فلما رأت ما وقع للأرواح التي شربت منه من السعادة الأبدية والارتقاءات السرمدية ندمت وطلبت سقيا فسقيت من الظلام وأن الطفل في بطن أمه يسقى من نور النبي لتلين مفاصله وتنفتح أسماعها وأبصارها وكذلك يسقى من النور عند خروجه من بطن أمه من أجل أن يلهم الأكل وإلا لما أكل من فمه ويسقى من النور أيضًا عند التقامه ثدي أمه في أول وضعه ويسقى من النور المحمدي عند نفخ الروح ولولا ذلك لما دخلت فيه الروح .

وإليك نص كلامه في هذا المجال حتى تتضح العقيدة الصوفية تجاه الرسول محمد ﷺ حيث قال متحدثًا عن معتقد الصوفية تجاه الرسول محمد ﷺ :

حيث قال أحمد بن مبارك أحد تلامذة عبد العزيز الدباغ راويًا عنه :

« قال : وسمعته رضي اللَّه عنه يقول في قوله : « وانفلقت الأنوار » إن أول ما خلق اللَّه تعالى نور سيدنا محمد ﷺ ثم خلق منه القلم والحجب السبعين وملائكتها ثم خلق اللوح ثم قبل كماله وانعقاده خلق العرش والأرواح والجنة والبرزخ .

أما العرش فإنه خلقه تعالى من نور وخلق ذلك النور من النور المكرم نور نبينا ومولانا محمد ﷺ وخلقه أي العرش ياقوتة عظيمة لا يقاس قدرها وعظمها وخلق في وسط هذه الياقوتة جوهرة فصار مجموع الياقوتة والجوهرة كبيضة بيضها هو الياقوتة وصفارها هو الجوهرة ثم إن اللَّه تعالى أمد تلك الجوهرة وسقاها بنوره ﷺ فجعل يخرق الياقوته ويسقي الجوهرة فسقاها مرة ثم مرة ثم مرة إلى أن انتهى إلى سبع مرات فسالت الجوهرة بإذن اللَّه تعالى فرجعت ماءً ونزلت إلى أسفل الياقوتة التي هي العرش فخلقهم من صفائه وخلق من ثقله الريح وله قوة وجهد عظيم فأمرها تعالى أن تنزل تحت الماء فسكنت تحته فحملته ثم جعلت تخدم وجعل البرد يقوى في الماء فأراد الماء أن يرجع إلى أصله ويجمد فلم تدعه الرياح بل جعلت تكسر شقوقه التي تجمد وجعلت تلك الشقوق تتعفن ويدخلها الثقل والنتون وشقوق تزيد على شقوق ثم جعلت تكبر وتتسع وذهب إلى جهات سبع وأماكن سبع فخلق اللَّه منه الأرضين السبع ودخل الماء بينها والبحور وجعل الضباب يتصاعد من الماء لقوة جهد الريح ثم جعل يتراكم فخلق اللَّه منه السموات

السبع ثم جعلت الريح تخدم حدقة عظيمة على عادتها أولاً وآخرًا فجعلت النار تزيد في الهواء من قوة حرق الريح للماء والهواء وكلما ازداد لهب النار أخذتها الملائكة وذهبت بها إلى محل جهنم اليوم فذلك أصل جهنم اليوم فالشقوق التي تكونت منها الأرضون تركوها على حالها والضباب التي تكونت منه السموات تركوه على حاله والنار التي زندت في الهواء أخذوها ونقلوها إلى محل آخر لأنهم لو تركوها لأكلت الشقوق التي فيها الأرضون السبع والضباب الذي منه السموات السبع بل وتأكل الماء وتشربه بالكلية لقوة جهد الريح ثم إن اللّه تعالى خلق ملائكة الأرضين من نوره ﷺ وأمرهم أن يعبدوه عليها .

وأما الأرواح والجنة إلا مواضع منها فإنها أيضًا خلقت من نور وخلق ذلك النور من نوره ﷺ .

وأما البرزخ فنصفه الأعلى من نوره ﷺ فخرج من هذا أن القلم واللوح ونصف البرزخ والحجب السبعين وجميع ملائكتها وجميع ملائكة السموات والأرضين كلها خلقت من نوره ﷺ بلا واسطة وأن العرش والماء والجنة والأرواح خلقت من نور خلق من نوره ﷺ ثم بعد هذا فهذه المخلوقات أيضًا سقيت من نوره ﷺ أما القلم فإنه سقي سبع مرات سقيًا عظيمًا وهو أعظم المخلوقات بحيث أنه لو كشف نوره لجرم الأرض لتدكدكت وسارت رميمًا وكذلك الماء فإنه سقي سبع مرات ولكن ليس كسقي القلم.

وأما الحجب السبعون فإنها في سقي دائم.

وأما العرش فإنه سقي مرتين مرة في بدء خلقه ومرة عند تمام خلقه كي

تستمسك ذاته وكذا الجنة فإنها سقيت مرتين مرة في بدء خلقها ومرة بعد تمام خلقها لتستمسك ذاتها وأما الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكذا سائر المؤمنين من الأمم السابقة ومن هذه الأمة فإنهم سقوا ثمان مرات.

الأولى: في عالم الأرواح حين خلق اللَّه نور الأرواح جملة فسقاه.

الثانية : حين جعل يصور منه الأرواح فعند تصور كل روح سقاها بنوره ﷺ .

الثالثة : يوم ﴿ ألست بربكم ﴾ فإن كل من أجاب اللَّه تعالى من أرواح المؤمنين والأنبياء عليهم الصلاة والسلام سقي من نوره ﷺ لكن منهم من سقي كثيراً ومنهم من سقي قليلاً فمن هنا وقع التفاوت بين المؤمنين حتى كان منهم أولياء وغيرهم وأما أرواح الكفار فإنها كرهت شرب ذلك النور وامتنعت منه فلما رأت ما وقع للأرواح التي شربت منه من السعادة الأبدية والارتقاءات السرمدية ندمت وطلبت سقيًا فسقيت من الظلام والعياذ باللَّه .

الرابعة : عند تصويره في بطن أمه وتركيب مفاصله وشق بصره فإن ذاته تسقى من النور المكرم لتلين مفاصله وتنفتح أسماعها وأبصارها ولولا ذلك ما لانت مفاصلها .

الخامسة : عند خروجه من بطن أمه فإنه يسقى من النور المكرم ليلهم الأكل من فمه ولولا ذلك ما أكل من فمه أبدًا.

السادسة : عند التقامه ثدي أمه في أول وضعه فإنه يسقى من النور الكريم أيضًا .

السابعة : عند نفخ الروح فيه فإنه لولا سقيا الذات بالنور الكريم ما دخلت فيها الروح أبدًا ومع ذلك فلا تدخل فيها إلا بكلفة عظيمة وتعب

يحصل للملائكة معها ولولا أمر اللّه تعالى لها ومعرفتها به ما قدر ملك على إدخالها بالذات »[1] .

ويقول الدباغ في مكان آخر واصفًا نور الرسول ﷺ :

« اعلم أن أنوار المكونات كلها من عرش وفرش وسموات وأرضين وجنات وحجب وما فوقها وما تحتها إذا جمعت كلها وجدت بعضًا من نور النبي وأن مجموع نوره لو وضع على العرش لذاب ولو وضع على الحجب السبعين التي فوق العرش لتهافتت ولو جمعت المخلوقات كلها ووضع ذلك النور العظيم عليها لتهافتت وتساقطت »[2] .

إذا أمعنا النظر في النصوص التي أوردتها عن عبد العزيز الدباغ فسنجد بأن هذا الصوفي الدجال قد صرح تصريحًا واضحًا بأن كل ما في هذا الكون من أرض وسماء وما فيهما وما بينهما خلق من نور محمد ﷺ ولو سألنا عبد العزيز الدباغ عن دليله الذي يعتمد عليه لإثبات دعواه هذه فلن يجد دليلاً واحداً يثبت به هذا المعتقد الفاسد الذي أتى به من عند نفسه أو أوحاه إليه الشيطان لأن شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض ويدل على هذا قوله تعالى : ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ** ﴾[3] .

وبما أننا أبطلنا في المطلب الأول من هذا المبحث كون الرسول

---

(١) « الإبريز » للدباغ (ص٢٥٢) .

(٢) « الإبريز » للدباغ (ص٢٦٠) .

(٣) الأنعام : (١١٢) .

مخلوقًا من نور فهنا تسقط دعوى الدباغ في قوله : إن الرسول خلق من نور وإن الكون كله خلق من نوره وذلك لأننا أثبتنا في المطلب الأول بأن الرسول بشر مثلنا خلق كغيره من البشر من نطفة ولم يخلق من نور ولذا فلا حاجة إلى التطويل وتكرار الرد مرة أخرى[1] .

ومن المتصوفة الذين قالوا بأن الكون خلق من نور محمد ﷺ أحمد التيجاني[2] حيث ادعى هذا الرجل أن اللّه سبحانه وتعالى لما خلق نور محمد جمع فيه جميع أرواح الأنبياء والأولياء .

وإليك نص كلامه حتى تتضح الصورة جيداً.

قال التيجاني :

« لما خلق النور المحمدي جمع في هذا النور المحمدي جميع أرواح الأنبياء والأولياء جمعًا أحديًا قبل التفضيل في الوجود العيني وذلك في مرتبة العقل الأولي »[3] .

وهكذا ادعى التيجاني بأن جميع أرواح الأنبياء والأولياء تم توزيعها من النور المحمدي وهي دعوى مجردة عن أي دليل تستند عليه لأن شأن الروح حتى الرسول ﷺ لم يعلمه فضلاً عن أن يكون مركزاً لتوزيع الأرواح على غيره وقد أمر اللّه رسوله محمداً ﷺ إذا سئل عن الروح أن يقول إنها من أمر ربي ويدل على هذا قول اللّه عز وجل : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ

---

(١) انظر (ص٣٦٩ ـ ٣٧٠) من هذا البحث.

(٢) هو أحمد بن محمد بن المختار بن أحمد التيجاني شيخ الطائفة التيجانية بالمغرب إحدى الطرق الصوفية المنتشرة هناك انتشاراً واسعًا وقد استقر بمدينة فاس إلى أن توفي .

(١٢٣٠هـ) ولبعض أصحابه كتب في سيرته منها « جواهر المعاني » و« السيرة القدسية في السيرة الأحمدية » . انظر « الأعلام » للزركلي (١/ ٢٣٢) .

(٣) « الرماح » لعمر بن سعيد التيجاني (١/ ١٤٧) .

أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾[1] . والتيجاني ما قال هذا الكلام عن علم ومعرفة وإنما قصد من وراء ذلك إفساد عقائد المسلمين وقلبهم إلى أمة وثنية تعبد الأشخاص والأحجار من دون اللَّه وإلا فما الدافع لأحمد التيجاني أن يأتي لنا بأقوال تتناقض مع ما جاء في كتاب اللَّه وسنة رسوله محمد ﷺ وقد أكد اللَّه عز وجل في كتابه بأن الرسول بشر وأكد رسوله في سنته بأنه بشر لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا.

ولكن المتصوفة لا يتورعون عن الكذب فهم الأركان الأساسية للكذب على اللَّه وعلى رسوله بعد أسيادهم الشيعة .

ويظهر لنا معتقد المتصوفة بأن كل ما في هذا الكون خلق من نور محمد ﷺ في الصلوات التي ابتدعوها للصلاة بها على الرسول ﷺ وهي صلوات مملوءة بالباطل من أولها إلى آخرها وقد فرضوها على أتباعهم فأصبحوا يتلونها ليلاً ونهارًا تاركين كتاب اللَّه عز وجل .

وإليك نماذج من هذه الصلوات التي صرح فيها المتصوفة بأن جميع ما في هذا الكون خلق من نور محمد ﷺ .

فالصلاة الأولى التي يتعبد بها المتصوفة ويتلونها صباحًا ومساءً الصلاة الآتية وهي :

« اللهم صل على مولانا محمد نورك اللامع ومظهر سرك الجامع الذي فتحت ظهور العالم من نور حقيقته ولولاه ما ظهرت لصورة عين من العدم الرميم »[2] .

---

(١) الإسراء : (٨٥) .

(٢) « أفضل الصلوات » (ص١٦٧) .

ففي هذه الصلاة نلاحظ بأن هذا الصوفي الذي اخترع وابتدع هذه الصلاة من عند نفسه صرح فيها بأن محمداً نور اللّه وأنه مظهر سر اللّه الجامع وأن اللّه خلق هذا العالم من نوره وأنه لولا محمد لما وجد شيء واحد مما في هذا الكون.

وهذا الصوفي لو سئل عن الحجة والبرهان لإثبات هذه الدعوى لن يستطيع أن يأتي بدليل من كتاب اللّه أو من سنة رسول اللّه ﷺ لأنه ما قال هذا الكلام إلا اتباعاً لهواه ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[1].

والذي يهمنا من إيراد هذا النص هو الإثبات بأن المتصوفة يقولون بأن الكون خلق من نور محمد ﷺ وهذا واضح وجلي لكل من ينظر بعين فاحصة في هذه الصلاة.

ومن الصلوات التي يتعبد بها المتصوفة ويتلونها ليلاً ونهاراً هذه الصلاة وهي معروفة بالصلوات البكرية وهي:

« اللهم إني أسألك بنير هدايتك الأعظم وسر إرادتك المكنون من نورك المطلسم مختارك منك لك قبل كل شيء ونورك المجرد بين مسالك اللقى كنزك الذي لم يحط به سواك وأشرف خلقك الذي بحكم إرادتك كونت من نوره أجرام الأفلاك وهياكل الأملاك فطافت به الصافون حول عرشك تعظيماً وتكريماً وأمرتنا بالصلاة والسلام عليه وزجيت به في نور ألوهيتك العظمى . . . خليفتك بمحض الكرم على سائر مخلوقاتك وشيدت به قوائم عرشك المحوط بحيطتك الكبرى بحر فيضك المتلاطم بأمواج الأسرار »[2].

---

(١) القصص : (٥٠).

(٢) « أفضل الصلوات » (ص١٣١ ـ ١٣٢).

فالبكرى في هذه الصلاة قد صرح بأن الرسول نور اللَّه وأن الرسول لم يحط به أحد إلا اللَّه تعالى وأن اللَّه كوَّن من نور الرسول جميع الأجرام الفلكية وهياكل الملائكة وأن اللَّه زج بالرسول في نور ألوهيته وأنه شيد به قوائم عرشه .

وهذه كلها معتقدات باطلة وفاسدة مخالفة تمامًا للمعتقد الذي جاءنا به رسول اللَّه ﷺ من عند ربه .

ففي كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ ما هو إلا بشر وأنه ليس مخلوقًا من نور ولا العالم مخلوق من نوره وليس للمتصوفة أي دليل يعتمدون عليه لا من كتاب اللَّه ولا من سنة رسول اللَّه لإثبات هذا المعتقد الوثني الباطل وإنما جاءوا بهذا المعتقد من عند أنفسهم وهم على علم بأن هذا باطل ولكنهم بيتوا للإسلام وأهله المكيدة لإخراج المسلمين من عقيدتهم الصحيحة الصافية والقيام بنشر عقائد وثنية قديمة بينهم مثل عقائد البوذية والهندوسية والمسيحية واليهودية المحرفة وقد فعلوا بكثير من المسلمين ذلك .

ومن الصلوات التي يتلوها المتصوفة ليلاً ونهارًا ويتعبدون بها ، الصلاة المسماة بالصلوات الزاهرة وهي :

« اللهم صل وسلم على الجمال الأنفس والنور الأقدس والحبيب من حيث الهوية والمراد في اللاهوتية مترجم كتاب الأزل والمتعالي بالحقيقة عن حقيقة الأثر .

والمخصوص الأول والحكمة السارية في كل موجود . . .روح صور الأسرار الملكوتية محمدك وأحمدك وتر العدد ولسان الأبد العرش القائم بتحمل كلمة الاستواء الذاتي فلا عارض المتجلي بسلطان تحصرك على ظلم

الأغيار لمحق كل معارض النقطة التي عليها مدار حروف الموجودات بجميع الاعتبارات . . . لوح الأسرار ونور الأنوار ومظهر أنوار اللاهوت في ناسوت المثل القائمْ بكل حقيقة سريانًا وتحكيمًا . . . المتجلي بملابس الحقائق الفردانية الحافظ على الأشياء قواها المحد لذرات الكائنات بما به برزت من العدم إلى الوجود بقدرتك كعبة الاختصاص الرحماني . . . أقنوم الوحدة ولا أقنوم إنما نورك بنورك موصول »[1] .

ففي هذا الصلاة وصف هذا الصوفي الرسول ﷺ بأوصاف عديدة تتناقض هذه الأوصاف مع الأوصاف التي وصف بها الرسول ﷺ في كتاب اللَّه .

فقد وصفه بأنه النور وأنه لسان الأبد وبأنه عرش قائم وأن الموجودات كلها تدور حوله وأنه لوح الأسرار ونور الأنوار وأنه المظهر الحقيقي لأنوار الألوهية حالة فيه وهنا جاءت عقيدة الحلول التي أخذها المتصوفة من المسيحية والبوذية .

ووصفه بأنه حافظ قوى جميع الأشياء ووصفه أيضًا بأنه نور اللَّه وهو موصول باللَّه بمعنى أن الرسول جزء من اللَّه .

وهذه كلها معتقدات باطلة أتى بها المتصوفة من الديانات الوثنية القديمة وإلا فالرسول ﷺ ليس بنور كما يزعم المتصوفة بل هو بشر وليس بلسان الأبد ولا هو عرش قائم ولا تدور الموجودات حوله فهو من جملة خلق اللَّه فما العلة التي تدور بها الموجودات حوله وليس هو لوح أسرار اللَّه بل هو رسول اللَّه أوحى اللَّه إليه وحيًا وأمره بإبلاغ هذا الوحي إلى الإنس

---

(١) « أفضل الصلوات » (ص١٣٤) .

والجن وقد بلغه أتم تبليغ وليس الرسول مظهراً من مظاهر اللّه كما يزعم المتصوفة لأن الرسول مخلوق وبين الخالق والمخلوق فرق بعيد لا يمكن أن يحصل بينهما حلول بأي حال من الأحوال.

وليس الرسول بحافظ قوى هذه المخلوقات بل الحافظ لهذه المخلوقات كلها هو اللّه عز وجل وحده لا شريك له فالرسول مخلوق وهو بنفسه في حاجة إلى حفظ اللّه له وليس الرسول بنور اللّه كما تزعم الصوفية بل هو عبد من عباد اللّه المقربين إليه فكل المعاني التي أوردها صاحب هذه الصلاة باطلة ومناقضة لما في كتاب اللّه وسنة رسول اللّه ﷺ.

ومن المتصوفة الذين قالوا بأن كل ما في هذا الكون خلق من النور المحمدي وأنه أصل لكل موجود ابن قضيب البان الصوفي الشهير.

فقد قال: « موقف الحقيقة المحمدية: أوقفني الحق على مرتبة بيان الحقيقة المحمدية وكشف لي عن حقائق الأسماء في مسمياتها العلوية ثم قال لي: انظر إلى كل اسم من حيث صورته ومعناه فرأيت الأسماء الإلهية قامت في الأعين الثابتة « أي في المخلوقات » وقال لي هي أربابها وقال لي رب الأرباب: الاسم الأعظم وسر الحقيقة المحمدية هو سر قلبك وقطب وجودك. ثم كشف لي عن جملة التجلي الأول ومظاهر التجليات ومجمع صور المربوبات... ثم كشف لي عن صور العقل الأول فإذا هو شيء لا يكيف عند النظر وكليات الوجود مندرجة تحت إشراقه ورأيته قد قابل شيئًا مثله في الصورة وقد اشتمل على الجزئيات فقال لي هو لوح القضاء والدرة البيضاء وقال لي الحقيقة المحمدية هي الرحمة التي وسعت كل شيء وهي أم الكتاب وحضرة العلم الجامع وإنسان العين السامع ومنها كشف لي عن أسرار

النور والوجود والعلم فقال لي كل ذلك مظاهرها وكلمتها الجامعة وصحيفتها الكاملة ثم كشف لي منها عن ناد العشق الأزلي والاتحاد العيني وأراني تعلقه في الهمم الإنسانية وقال لي هو إنشاء الإرادات وبه توجه الحب وقال لي هو أصل كل موجود وعدته .

ثم كشف لي عن سر عرش الحقيقة المحمدية وقال لي هو القلب الذي هو بيت عزتي ومخزن سري ومنبع نوري ومظهر سعة علمي وسرير سلطة اسمي وقال لي قالبه الهيكل الذي بنيته بيدي وهو مجمع البحرين وقاب قوسين وكشف لي فيه عن خزائن الرحمة وتنزلت الآيات وكيفية حلولها من غير ممازجة وسريانها في الأسماع والأبصار بسر التجريد في قوالبها ورأيت حكم سريانها في مرآة الخيال وقيامها في مظاهر النبوات »[1] .

وإذا نظرنا في هذا النص الذي أوردناه عن ابن قضيب ألبان نلاحظ فيه انحرافات عديدة منها وصفه للرسول بأنه سر قلبه وأنه قطب وجوده ووصف الرسول أيضًا بأنه الرحمة التي وسعت كل شيء ووصفه بأنه أم الكتاب وأنه حضرة العلم الجامع وإنسان العين السامع وذكر بأنه كشف له عن أسرار النور والوجود والعلم وذكر بأن اللَّه أخبره بأن كل ما في هذا الوجود ما هو إلا مظاهر الحقيقة المحمدية .

ثم وصف الرسول بأنه أصل الوجود وعدته ثم ذكر في النص بأن هناك عرشًا يسمى عرش الحقيقة المحمدية ووصفه بأنه بيت عزة اللَّه ومخزن سر اللَّه ومنبع نور اللَّه ومظهر سعة علم اللَّه .

وهذه أوصاف لم يصفه اللَّه بها في كتابه ولا ذكرها الرسول في سنته

---

(١) « الإنسان الكامل في الإسلام » (ص١٩٥) .

بل كلها أوصاف فيها تجاوز وغلو أتى بها المتصوفة من عند أنفسهم وإلا فالرسول ﷺ ليس هو أصل الموجودات بل هو خلق من خلق اللَّه خلقه اللَّه كغيره من البشر وفضله على الجميع بالرسالة الجامعة الخاتمة المهيمنة على جميع الرسالات السماوية التي نزلت قبلها .

وقد وضح الشيخ محمود عبد الرؤوف القاسم مقصود الصوفية بالحقيقة المحمدية فقال :

« وملخص أقوالهم أن اللَّه سبحانه وتعالى عما يصفون عندما أراد أن يجعل قسمًا من ذاته متعينًا بشكل مخلوقات كان أول شيء فعله هو أنه قبض قبضة من نور وجهه وقال لها كوني محمداً فكان محمد هو أول التعينات وهذه القبضة من النور هي التي يطلقون عليها اسم الذات المحمدية ومن هذه الذات المحمدية انبثقت السماوات والأرض والدنيا والآخرة التي يسمونها فيما يسمونها « تعينات » فهي كلها تصدر عن الذات المحمدية ثم تعود إليها وهذا هو ما يسمونه الحقيقة المحمدية ولننتبه إلى الشبه التام بينهم وبين الهنادكة الذين يقولون إن الخلائق صدروا من وجه براهمان ومن يديه ومن فخذيه ثم من قدميه (حسب الطبقات الهندوكية) »[1] .

ويقول الدكتور زكي مبارك :

« إن الحقيقة المحمدية ترجع في أصولها إلى العقائد النصرانية وعلى ذلك تكون نظرية الحقيقة المحمدية عند غلاة الصوفية مأخوذة من أصول نصرانية فعيسى هو ابن اللَّه ومعنى ذلك فيما افترض أنه الصلة بين اللَّه وبين الوجود ومحمد هو أول التعينات وليس فوقه إلا الذات الأحدية كما لم يكن

---

(١) « حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ » (ص٢٨٠) .

فوق عيسى إلا الأب والنصارى يتمثلون إليه حين يخاطبون عيسى فلولا عيسى لانعدم الوجود والصوفية يتمثلون اللَّه حين يخاطبون محمدًا فلولا محمد لانعدم الوجود وعيسى هو ابن اللَّه ولكنه يتمثل في صورة بشرية أو هو الموجد في صورة بشرية فعيسى لولاه لامتنعت الصلاة بين اللَّه وبين الوجود فانعدم الوجود ومحمد حسب زعم المتصوفة :

لولاه ما كان أرض ولا أفق ولا زمان ولا خلق ولا جيل

وعيسى هو الكلمة وأتباعه من الرسل الذين بلغوا دعوته كلمات ومحمد عند الصوفية هو الكلمة وجميع الأنبياء كلمات لهم خصوصية وبعض أتباع محمد لهم خصوصية » .

ثم قال الدكتور زكي مبارك :

« والواقع أن الحقيقة المحمدية أسطورة من الأساطير وهي في رأينا مأخوذة من النظرية النصرانية كما أن النظرية النصرانية مأخوذة من الفلسفة اليونانية إلى تقسيم القوى إلى عقول وهذا في رأينا أيضًا صحيح خصوصًا إذا علمنا أن ابن عربي وهو من القائلين بهذه النظرية يقول أنه هضم ما درس من الفلسفة اليونانية ومن أصول الديانة اليهودية والديانة النصرانية والديانة الإسلامية ثم أحال ذلك كله إلى مزاج من الفكر الفلسفي الدقيق يعز على من رامه ويطول »[1] .

فهذه المقارنة التي عقدها الدكتور زكي مبارك بين النظرية النصرانية تجاه عيسى عليه السلام والنظرية الصوفية تجاه محمد ﷺ أراها مقارنة في

---

(١) انظر « التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق » د . زكي مبارك (١/ ٢١٠ ، ٢٧٩ ، ٢٠١) .

محلها فقد استطاع أن يثبت بأن المتصوفة أخذوا هذا المعتقد الباطل من المسيحية المحرفة والتي أخذته هي بدورها من الفلسفة اليونانية .

وعلى هذا فقول الصوفية بالحقيقة المحمدية وأنه أول مخلوق وأنه مخلوق من النور وأن جميع الكون خلق من نوره وأنه لولا محمد لما وجد شيء من هذا الكون عقائد وثنية بحتة أتى بها المتصوفة من الديانات المحرفة كالمسيحية والوثنيات القديمة كاليونانية ولهذا نقول للمتصوفة ومن يسير على دربهم أن الإسلام بريء من هذا المعتقد الوثني وأهله .

ويقول الدكتور زكي مبارك :

« إن ما ادعاه النصارى لعيسى عين ما ادعاه الصوفية لمحمد فعيسى عند النصارى رب ولكن له أب هو رب الأرباب وكذلك محمد هو عند الصوفية رب له أصل هو الذات الأحدية .

ومن العجيب أن نظرية التثليث لا تبدو شيئًا خطرًا عند الصوفية فهم يقولون بها في غير تهيب ولا إشفاق . . . بل يذهبون في التسامح إلى أبعد من ذلك فيحكمون بأن الديانات كلها حق »[1] .

ويقول في مكان آخر بعد أن ذكر مذهب الصوفية تجاه الرسول :

« لا يهمنا كما قلت : أن نطمئن إلى صحة تلك المذاهب وإنما يهمنا أن نعرف أن الصوفية يجعلون محمدًا أصل الوجود لأنه أول التعينات للذات الأحدية ومن هنا صح لمادحي الرسول أن يقضوا بأنه لولاه ما كان شمس ولا قمر ولا نجم ولا أرض ولا سماء ولا جماد ولا حيوان ولا إنسان ولا بحار ولا أنهار ولا جبال .

---

(١) « التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق » (ص٢٧٧) .

ومن هنا أيضًا صح لهم أن يحكموا بأن جميع الأنبياء إنما هم من نور ذلك الرسول كما قال البوصيري في البردة :

وكل آي أتى الرسل الكرام بها فإنما اتصلت من نوره بهم[1]

المطلب الثالث

اعتقادهم بأن الكون خلق من أجل محمد وأن جميع العلوم جزء من علمه

لقد غلا المتصوفة في الرسول ﷺ غلواً شديداً حتى وصل بهم هذا الغلو إلى اعتناق معتقدات باطلة تتصادم مع المعتقد الصحيح الذي جاء به محمد بن عبد اللَّه عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

فمن المعتقدات الباطلة التي يعتقدها المتصوفة تجاه الرسول محمد ﷺ هو قولهم بأن جميع العلوم التي أوحيت إلى الرسل وأن جميع المعجزات التي صدرت منهم إنما أوحيت إليهم من علم الرسول محمد ﷺ .

ولم يقف المتصوفة عند هذا الحد بل ادعوا بأن علم اللوح المحفوظ وعلم القلم أيضًا جزء من علم الرسول ﷺ وواصلوا في غلوهم حتى قالوا بأن الدنيا والآخرة من جود الرسول محمد ﷺ ولم يقفوا عند هذا الحد بل قالوا : إن الكون خلق من أجل محمد ﷺ .

وإليك النصوص من بطون كتب القوم للإثبات على أن القوم بالفعل يعتقدون هذا المعتقد :

---

(١) « التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق » (٢٧٦) .

فالبوصيري الشاعر الصوفي الا شهور والذي يتغنى المتصوفة بأشعاره صباحًا ومساءً قال مقررًا عقيدة المتصوفة تجاه محمد ﷺ :

وكل آي أتى الرسل الكـــرام بهـا فإنمـــا اتصلت من نـــوره بهـــم

فإنه شمس فضيل هم كواكبهـــــا يظهرن أنواها للناس في الظلم[1]

فهذا البيت عبر فيه البوصيري عن معتقد الصوفية تجاه الرسول ﷺ حيث صرح في البيت بأن جميع العلوم التي أوحيت إلى الرسل وجميع المعجزات التي وقعت على أيديهم إنما جاءتهم من نور الرسول ﷺ وذلك بناءً على معتقد الصوفية بأن الرسول مخلوق من النور وهو معتقد باطل كما سبق والمعتقد الذي بنوه عليه أيضًا باطل لأنه مبني على الباطل والمبني على الباطل ليس له إلا أن يكون باطلاً .

ولم يقف المتصوفة عند هذا الحد بل وصل بهم الغلو إلى أن ادعوا بأن علم اللوح المحفوظ والقلم جزء من علم الرسول محمد ﷺ ويظهر ذلك في بيت البوصيري الآتي :

وإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم[2]

ففي هذا البيت قد قرر البوصيري عقيدة من معتقدات الصوفية الباطلة وهو اعتقاد المتصوفة بأن الدنيا والآخرة وما فيهما من جود الرسول محمد ﷺ وأن علم اللوح المحفوظ والقلم الذي كتبت به ما هي إلا جزء من علم الرسول محمد ﷺ .

وهذا معتقد باطل وفاسد لأنه فيه رفع الرسول فوق منزلته وتجريد اللّه

---

(١) « بردة المديح » للبوصيري (ص١٤) ط . مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني .

(٢) نفس المرجع (ص٣٥) .

عن ملكه وذلك إذا كانت الدنيا والآخرة من جود الرسول ﷺ فماذا بقي للّه من ملكه أم ستقول الصوفية إن الكون كله ملك لمحمد وذلك على معتقدهم الفاسد بأن محمداً مظهر من مظاهر اللّه وهو القول بوحدة الوجود.

فاعتقاد المتصوفة بأن الكون كله من جود محمد كفر وإلحاد في اللّه وإذا قالوا أيضًا بأن محمداً مظهر من مظاهر اللّه فهو إلحاد آخر أيضًا.

والمعتقد الصحيح هو أن الدنيا والآخرة وما فيهما ملك للّه سبحانه وتعالى وأن الرسول مخلوق كغيره من المخلوقات فهو ملك للّه أيضًا وذلك كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَىٰ ﴾[1] .

ويقول اللّه عز وجل : ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾[2] .

ويقول اللّه عز وجل : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[3] .

وكذلك ليس علم اللوح والقلم جزءاً من علم الرسول كما يدعي المتصوفة بل علم الرسول ﷺ الذي آتاه اللّه إياه ما هو إلا جزء قليل جداً بالنسبة إلى علم اللّه سبحانه وتعالى وذلك كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾[4] .

فعلم اللّه أوسع بكثير جداً من هذا العلم الذي أوحاه اللّه إلى رسوله

---

(١) الليل : (١٣) .

(٢) البقرة : (٢٨٤) .

(٣) المائدة : (١٧) .

(٤) الكهف : (١١٠) .

محمد ﷺ فدعوى الصوفية بأن علم اللوح والقلم جزء من علم الرسول دعوى باطلة خالية تمامًا عن الصحة وليس لها دليل تستند عليه إلا اتباع الهوى ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من اللَّه إن اللَّه لا يهدى القوم الظالمين .

وكيف يدعي المتصوفة بأن الدنيا والآخرة من جود الرسول وهو قد قال في سنته : إنه لا يملك لنفسه ولا لأقاربه من اللَّه نفعًا ولا ضرًا بل هو عبد من عباد اللَّه اصطفاه اللَّه بالرسالة الخاتمة وجعله خير الخليقة .

وقد أمره اللَّه أن يقول في كتابه بأنه لا يملك شيئًا لنفسه من النفع والضر وذلك كما في قوله تعالى : ﴿ **قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾[1] .

وفي الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي اللَّه عنه أخبر الرسول قريشًا وأقاربه من الأعمام والعمات وحتى بناته بأنه لا يملك لهم من اللَّه شيئًا وأمرهم أن يعتقوا أنفسهم من النار بالإيمان والعمل الصالح وإليك نص الحديث .

عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال : قام رسول اللَّه ﷺ حين أنزل اللَّه عليه ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ** ﴾[2] قال : « **يا معشر قريش أو كلمة نحوها اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من اللَّه شيئًا يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من اللَّه شيئًا يا صفية عمة رسول اللَّه ﷺ لا أغني عنك من اللَّه شيئًا ويا**

---

(١) الأعراف : (١٨٨) .

(٢) الشعراء : (٢١٥) .

فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من اللَّه شيئًا » [1] .

ففي هذا الحديث أخبر الرسول ﷺ بأنه لا يملك من اللَّه شيئًا وأن كل فرد مسئول عن عمله وأنه ليس مسئولاً عن أحد بل كل أحد سيجازي بعمله إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر ولذا نقول : إن دعوى الصوفية بأن الدنيا والآخرة من جود الرسول دعوى باطلة لا أساس لها من الصحة بل هي دعوى مبنية على اتباع الهوى فقط .

وقال صاحب كتاب « تيسير العزيز الحميد » الشيخ سليمان بن عبد اللَّه بن محمد بن عبد الوهاب بعد ذكره لهذا الحديث :

« فإذا صرح وهو سيد المرسلين لأقاربه المؤمنين وغيرهم خصوصًا سيدة نساء العالمين وعمه وعمته وآمن الإنسان أنه لا يقول إلا الحق ثم نظر إلى ما وقع في قلوب كثير من الناس من الاعتقاد فيه وفي غيره من الأنبياء والصالحين إنهم ينفعون ويضرون ويغنون من عذاب اللَّه حتى يقول صاحب البردة :

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

تبين له التوحيد وعرف غربة الدين فأين هذا القول من قول صاحب البردة السابق والبرعي وأضرابهما من المادحين له صلى اللَّه عليه وسلم بما يتبرأ منه ليلاً ونهارًا وبين اختصاصه بالخالق تعالى وتقدس كما قال تعالى : ﴿ **قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [2] .

---

(١) « صحيح مسلم » مع النووي (٣/ ٨٠) .

(٢) الأعراف : (١٨٨) .

وقوله تعالى : ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ..﴾[1] .

تاللَّه لقد تاهت عقول تركت كلام ربها وكلام نبيها لوساوس وما ألقاه الشيطان في نفوسها ومن العجيب أن اللعين كادهم مكيدة أدرك بها مأموله فأظهر لهم هذا الشرك في صورة محبته ﷺ وتعظيمه ومحبة الصالحين وتعظيمهم ولعمر اللَّه إن تبرئتهم من هذا التعظيم والمحبة هو التعظيم لهم والمحبة وهو الواجب المتعين وأظهر لهم التوحيد والإخلاص في صورة بغض النبي ﷺ وبغض الصالحين والتنقص بهم وما شعروا أنهم تنقصوا الخالق سبحانه وتعالى وبخسوه حقه وتنقصوا النبي ﷺ والصالحين بذلك .

أما تنقصهم للخالق تعالى فلأنهم جعلوا المخلوق العاجز مثل الرب القادر في القدرة على النفع والضر.

وأما بخسهم حقه تعالى فلأن العبادة بجميع أنواعها حق للَّه تعالى فإذا جعلوا شيئًا منها لغيره فقد بخسوه حقه .

وأما تنقصهم للنبي ﷺ وللصالحين فلأنهم ظنوا أنهم راضون منهم بذلك أو أمروهم به وحاشا للَّه أن يرضوا بذلك أو يأمروا به كما قال تعالى[2] : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[3] .

وهذا النبهاني قد أورد في كتابه « رحمة اللَّه على العالمين » مثبتًا على أن جميع الآيات والمعجزات التي حصلت للرسل عليهم الصلاة والسلام قبل الرسول ما هي إلا من الرسول وإليك الأبيات :

وكلهم من رسول اللَّه ملتمس غرفًا من البحر أو رشفًا من الديم

---

(١) يونس : (٣٢) .

(٢) « تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد » (ص٢٦١ ـ ٢٦٢) .

(٣) الأنبياء : (٢٥) .

فإنه شمس هم فضل كواكبها يظهرن أنوارها للناس في الظلم[1]

وأورد أيضًا الأبيات التالية عن العلوي الحسيني :

فإلى المرسلين أنت رسول منك حقًا غشتهم الأضواء

أنت أصل لكل أصل فكل عنك فرع وإنهم آباء

ففي هذه الأبيات يقول الحسيني: إن الرسول محمد ﷺ أرسل إلى جميع الرسل من اللَّه وأن جميع الأضواء التي حصل عليها الرسل إنما جاءتهم من الرسول محمد ﷺ ، ثم قرر في البيت الثاني أن الرسول أصل لكل شيء في هذا الكون وأن الكل بالنسبة للرسول يعتبر فرعًا.

وهذا معتقد باطل فالرسول ﷺ لم يرسل إلى الرسل وذلك لأن الرسل الذين كانوا قبله قد أرسلوا برسالات من اللَّه إلى أقوامهم وأبلغوها كما أمرهم اللَّه تعالى ولم يقصروا شيئًا تجاه تبليغ هذه الرسالة وقد أوحى اللَّه إليهم وحيًا كما أوحى إلى رسوله محمد ﷺ ولم يأتهم الوحي من نور الرسول كما تدعي الصوفية والدليل القاطع للإثبات بأن الرسل أوحي إليهم كما أوحي إلى رسوله محمد ﷺ قوله تعالى :

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[2] .

---

(١) « رحمة اللَّه على العالمين » للنبهاني (ص٥١) .

(٢) النساء : (١٦٣ ـ ١٦٥) .

ولذا نقول إن دعوى الصوفية بأن علوم الرسل جزء من علم الرسول محمد وأنهم فاضت عليهم من نوره كذب محض ودجل وافتراء وتقول على اللَّه فقط لأنه مصادم لما جاء في كتاب اللَّه وسنة رسوله محمد ﷺ وذلك لأن الرسول آخر من خلق من الرسل فكيف يكون أصلاً لهم وهو آخر من بعث منهم فكيف تفيض عليهم العلوم منه سبحانك هذا بهتان عظيم .

وهذا أحد المتصوفة يزعم أيضًا بأن جميع العلوم والمعجزات التي حصل عليها الرسل إنما تحصلوا عليها من نور الرسول وفي هذا يقول في شرح بيت البوصيري :

وكل آي أتى الرسل الكرام بها فإنما اتصلت من نوره بهم

قال : « إن كل معجزة أتى بها كل واحد من الرسل فإنما اتصلت لكل واحد منهم من نور محمد ﷺ وما أحسن قوله : « فإنما اتصلت من نوره بهم » فإنه يعطي أن نوره لم يزل قائمًا به ولم ينتقص منه شيء وإنما كانت آيات كل واحد منهم من نوره ﷺ لأنه شمس ففضل كواكب تلك الشمس يظهرن أن تلك الكواكب أنوار تلك الشمس للناس في الظلم فالكواكب ليست مضيئة بالذات وإنما هي مستمدة من الشمس فهي عند غيبة الشمس تظهر نور الشمس فكذلك الأنبياء قبل وجوده عليه الصلاة والسلام كانوا يظهرون فضله فجميع ما ظهر على أيدي الرسل عليهم الصلاة والسلام من الأنوار فإنما هي من نوره الفائض ومدده الواسع من غير أن ينتقص منه شيء وأول ما ظهر ذلك في آدم عليه السلام حيث جعله اللَّه خليفة وأمده بالأسماء من مقام جوامع الكلم التي لمحمد ﷺ فظهر بعلم الأسماء كلها على الملائكة القائلين : ﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا** ﴾ الآيات . . . وأن نور الرسول أول ما ظهر ظهر في آدم عليه السلام وتعلم آدم الأسماء كلها من الرسول

محمد ﷺ »[1] .

وهذا اعتقاد فاسد وباطل ومخالف لما في كتاب اللَّه تمامًا فآدم عليه السلام لم يتعلم علم الأسماء من نور الرسول كما تزعم الصوفية وإنما علمه اللَّه إياها ويدل على هذا قول اللَّه تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾[2] .

وقال عبد العزيز الدباغ :

« إن أرباب الكشف والعيان يشاهدون سيد الوجود ﷺ ويشاهدون ما أعطاه اللَّه عز وجل وما أكرمه به ربه مما لا يطيقه غيره ويشاهدون غيره من المخلوقات الأنبياء والملائكة وغيرهم ويشاهدون ما أعطاهم اللَّه من الكرامات ويشاهدون المادة سارية من سيد الوجود ﷺ إلى كل مخلوق في خيوط من نوره فائضة من نوره ﷺ ممتدة إلى ذوات الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام وذوات غيرهم من المخلوقات فيشاهدون عجائب ذلك الاستمداد وغرائبه قال رضي اللَّه عنه : ولقد أخذ بعض الصالحين طرف خبزة ليأكله فنظر فيه ومن النفخة التي رزقها بنو آدم قال فرأى في ذلك الخبز خيطًا من نوره فتبعه بنظره فرآه متصلاً بخيط نوري الذي اتصل بنوره ﷺ فرأى الخيط المتصل بالنور الكريم واحدًا ثم بعد أن امتد قليلاً جعل يتفرع إلى خيوط كل خيط متصل بنعمة من نعم تلك الذوات »[3] .

وهذا النص واضح حيث ادعى فيه الدباغ أن المادة سارية من الرسول

---

(١) « حجة اللَّه على العالمين » للنبهاني (ص١٤) .

(٢) البقرة : (٣١ ـ ٣٢) .

(٣) « حجة اللَّه على العالمين » للنبهاني (ص٥٢) .

إلى كل ما في هذا الكون بما فيهم الملائكة والأنبياء وحتى الخبز وهو افتراء على اللَّه بغير علم لا يحتاج إلى مناقشة وردود ويكفي ما سبق في الرد عليه فكلهم قد قالوا هذا الكلام وعقيدتهم واحدة مهما اختلفت طرقهم وتباعدت أزمانهم وأماكنهم .

ادعاء المتصوفة بأن الكون خلق من أجل محمد ﷺ :

لم يكتف المتصوفة بادعائهم بأن الرسول أول مخلوق وأنه خلق من نور وأن جميع الكون خلق من نوره وأن الدنيا والآخرة كليهما وما فيهما وما بينهما من جوده وأن العلوم كلها من اللوح المحفوظ والقلم وعلوم الرسل كلها جزء من علمه ﷺ بل ادعوا أيضًا بأن هذا الكون خلق من أجل محمد ﷺ مخالفين بذلك النصوص الواردة في هذا المجال والتي تحدد غاية خلق الخلق وهي عبادة اللَّه وحده لا شريك له .

أولاً : ذكر النصوص التي تثبت بأن المتصوفة يعتقدون هذا المعتقد:

من النصوص التي تثبت بأن المتصوفة يقولون بأن جميع ما في هذا الكون خلق من أجل محمد ﷺ قول ابن نباته المصري[1] والذي قاله معبراً عن معتقده :

لولاه ما كان أرض ولا أف ق ولا ... ولا زمان ولا خلق ولا جيل
مناسك فيها للهدي شهب ... ولا ديار بها للوحي تنزيل[2]

---

(١) هو عبد العزيز بن عمر بن محمد بن نباته أبي الحاج التميمي السعدي توفي ببغداد (٤٠٥) انظر ترجمته في « وفيات الأعيان » لابن خلكان (١/ ٢٩٥).

(٢) « التصوف بين الحق والخلق » لشقفة (ص٧٧) .

فالأبيات السابقة ادعى فيها ابن نباته المصري بأن جميع ما في هذا الكون من أرض وسماء وما فيهما وما بينهما خلق من أجل محمد ﷺ ولو نظرنا إلى هذا المعتقد بعين فاحصة ناقدة فسنجده بأنه معتقد باطل ومخالف تمام المخالفة لما جاء في الكتاب والسنة كما سأوضحه أثناء الرد عليهم في معتقدهم هذا بعد قليل إن شاء اللَّه [1] .

ومن النصوص التي تثبت بأن المتصوفة يعتقدون بأن الكون خلق من أجل محمد قول أحد المتصوفة حيث قال معبراً عن هذا المعتقد :

« لولاك لولاك ما خلقت الأفلاك »[2] .

فالنص السابق صرح فيه هذا الصوفي بأنه لولا محمد بن عبد اللَّه عليه أفضل الصلاة والتسليم ما خلقت هذه الأفلاك كلها من أرض وسماء .

وهو معتقد باطل بين البطلان فاللَّه عز وجل لم يخلق الإنس والجن والملائكة وكل شيء في هذا الكون إلا لعبادته سبحانه وتعالى .

ثانيًا : شبههم :

إن الشبه التي وقع بسببها المتصوفة في هذا المعتقد الفاسد تتلخص فيما يأتي :

أولاً : الحديث الذي أخرجه الحاكم في مستدركه عن عبد اللَّه بن مسلم الفهري عن إسماعيل بن مسلمة عن عبد الرحمن بن زيد عن أبيه عن عمر ابن الخطاب رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ : **«لما اقترف آدم**

---

(١) انظر : (٤١٠ ـ إلى نهاية الباب) .

(٢) انظر « سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة » للألباني (ص٢٩٩) وهو موضوع.

الخطيئة قال : يا رب بحق محمد لم غفرت لي ؟ قال : وكيف عرفت محمداً ؟ قال : لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت في من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوبًا « لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه » فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك ، قال : صدقت يا آدم ولولا محمد ما خلقتك »[1].

ووجه الاستشهاد بهذا الحديث هو قوله : « **ولولا محمد ما خلقتك** » وبهذا يستدل المتصوفة فيقولون : إن الكون خلق من أجل محمد ﷺ .

ثانيًا : من الشبه التي استدل بها المتصوفة على أن الكون خلق من أجل محمد ﷺ الحديث الموضوع الآتي : « **لولاه ما خلقت الأفلاك** »[2] .

ففي هذا الحديث الموضوع تصريح بأن الكون خلق من أجل محمد ﷺ .

هذه هي الشبه التي يستدل بها المصرفة لإثبات هذا المعتقد الباطل .

إبطال هذه الشبه :

أولاً : أقوال العلماء على الحديث الأول :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

« ورواية الحاكم لهذا الحديث مما أنكر عليه فإنه نفسه قد قال في كتابه « المدخل إلى معرفة الصحيح من السقيم » : عبد الرحمن بن زيد بن أسلم

---

(١) « مستدرك الحاكم على الصحيحين » (٢/ ٦١٥) وكذلك « معجم الطبراني الصغير » (٢/ ٨٢ ـ ٨٣) والبيهقي في « دلائل النبوة » (٥/ ٤٨٩) .

(٢) « سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة » للألباني (ص٢٩٩ رقم ٢٨٢) .

روى عن أبيه أحاديث موضوعة لا تخفى على من تأملها من أهل الصنعة أن الحمل فيها عليه .

قلت : وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف باتفاقهم يغلط كثيراً ضعفه أحمد بن حنبل وأبو زرعة وأبو حاتم والنسائي والدارقطني وغيرهم .

وقال أبو حاتم بن حبان : كان يقلب الأخبار وهو لا يعلم حتى كثر ذلك من روايته من رفع المراسيل وإسناد الموقوف فاستحق الترك .

وأما تصحيح الحاكم لمثل هذا الحديث وأمثاله فهو مما أنكره عليه أئمة العلم بالحديث وقالوا : إن الحاكم يصحح أحاديث وهي موضوعة مكذوبة عند أهل المعرفة بالحديث . . . ولهذا كان أهل العلم بالحديث لا يعتمدون على مجرد تصحيح الحاكم وإن كان غالب ما يصححه فهو صحيح لكن هو في الصحيحين بمنزلة الثقة الذي يكثر غلطه وإن الصواب أغلب عليه وليس فيمن يصحح الحديث أضعف من تصحيحه . . . » .

ثم قال شيخ الإسلام :

« وهذا الحديث المذكور في آدم يذكره طائفة المصنفين بغير إسناد وما هو من جنسه مع زيادات أخر كما ذكر القاضي عياض قال : وحكى أبو محمد المكي وأبو الليث السمرقندي وغيرهم أن آدم عند معصيته قال : اللهم بحق محمد اغفر لي خطيئتي . قال : ويروى : تقبل توبتي . فقال اللّه له : من أين عرفت محمداً ؟ قال : رأيت في كل موضع من الجنة مكتوب : «لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه » قال : ويروى : « محمد عبدي ورسولي » فعلمت أنه أكرم خلقك عليك . فتاب عليه وغفر له » .

قال شيخ الإسلام :

« ومثل هذا لا يجوز أن تبنى عليه الشريعة ولا أن يحتج به في الدين

باتفاق المسلمين فإن هذا من جنس الإسرائيليات ونحوها التي لا يعلم صحتها إلا بنقل ثابت عن النبي ﷺ وهذه لو نقلها مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه وأمثالهما ممن ينقل أخبار المبتدأ وقصص المتقدمين عند أهل الكتاب لم يجز أن يحتج بها في دين المسلمين باتفاق المسلمين فكيف إذا نقلها من لا ينقلها لا عن أهل الكتاب ولا عن ثقات علماء المسلمين بل إنما ينقلها عمن هو عند المسلمين مجروح ضعيف لا يحتج بحديثه واضطرب عليه اضطرابًا يعرف به أنه لم يحفظ ذلك ولا ينقل ذلك ولا ما يشبه أحد من ثقات علماء المسلمين الذين يعتمد على نقلهم وإنما هي من جنس ما ينقله إسحاق بن بشر وأمثاله في كتب المبتدأ وهذه لو كانت ثابتة عن الأنبياء لكانت شرعًا لهم وحينئذ فكان الاحتجاج بها مبنيًا على أن شرع من قبلنا هل هو شرع لنا أم لا؟ والنزاع في ذلك مشهور ، لكن الذي عليه الأئمة وأكثر العلماء أنه شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه وهذا إنما هو فيما ثبت أنه شرع لمن قبلنا من نقل ثابت عن نبينا محمد ﷺ أو بما تواتر عنهم لا بما يروى على هذا الوجه فإن هذا لا يجوز أن يحتج به في شرع أحد من المسلمين »[1] .

وقال الحافظ ابن عبد الهادي في رده على السبكي في الصارم المنكي متعجبًا في تقليد السبكي للحاكم في تصحيح هذا الحديث[2] :

« وإني لأتعجب منه كيف قلد الحاكم في تصحيحه مع أنه حديث غير صحيح ولا ثابت بل هو حديث ضعيف الإسناد جدًا وقد حكم عليه بعض الأئمة بالوضع وليس إسناده من الحاكم إلى عبد الرحمن بن زيد بصحيح بل مفتعل على عبد الرحمن كما سنبينه ولو كان صحيحًا إلى عبد الرحمن لكان

---

(١) « التوسل والوسيلة » لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص٨٥ ـ ٨٧) باختصار .

(٢) « الصارم المنكي في الرد على السبكي » (ص٢٦) .

ضعيفًا غير محتج به لأن عبد الرحمن في طريقه وقد أخطأ الحاكم وتناقض تناقضًا فاحشًا كما عرف له ذلك في مواضع فإنه قال في كتاب « الضعفاء » بعد أن ذكر عبد الرحمن منهم : فهؤلاء الذين قدمت ذكرهم قد ظهر عندي جرحهم لمن طالبني بهم فإن الجرح لا أستحله تقليدًا والذي أختاره لطالب هذا الشأن أن لا يكتب حديث واحد من هؤلاء الذين سميتهم فالراوي لحديثهم داخل في قوله ﷺ : « **من حدث عني حديثًا وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكذابين** »[1] .

وقال الشيخ محمد خليل هراس معلقًا على هذا الحديث :

« هذا الحديث باطل واللَّه لم يخلق آدم ولا غيره من أجل أحد وإنما خلق الكل لعبادته كما قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ كما لا يجوز أن يسأل اللَّه بحق أحد من خلقه فلا حق لأحد على اللَّه »[2] .

وقد تعقب الذهبي الحاكم في تصحيحه لهذا الحديث فقال :

« قلت : بل موضوع وعبد الرحمن واه »[3] .

وقال في الميزان في ترجمة عبد اللَّه بن مسلم الفهري :

(روى خبرًا باطلاً فيه « يا آدم لولا محمد ما خلقتك »)[4] .

وقد حكم ابن حجر أيضًا ببطلان هذا الحديث في «لسان الميزان»[5] .

---

(١) « سنن الترمذي » مع التحفة (٧/ ٤٢٢) .

(٢) « الخصائص الكبرى » للسيوطي في الهامش (١/ ١٧) .

(٣) « تلخيص المستدرك » (٢/ ٦١٥) .

(٤) « الميزان » (٢/ ٥٠٤) .

(٥) « لسان الميزان » (٣/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠) .

وأما الحديث الثاني الذي استدل به المتصوفة وهو : « لولاك لما خلقت الأفلاك » قال عنه الشيخ الألباني : « إنه حديث موضوع » كما قاله الصنعاني في « الأحاديث الموضوعة » (ص٧) .

وأما قول الشيخ القاري (ص٦٧ ـ ٦٨) :

« ولكن معناه صحيح فقد روي الديلمي عن ابن عباس مرفوعًا أتى جبريل فقال : يا محمد لولاكِ لما خلقت الجنة ولولاك ما خلقت النار . وفي رواية ابن عساكر : لولاك ما خلقت الدنيا . فأقول : يجزم بصحة معناه لا يليق إلا بعد ثبوت ما نقله عن الديلمي وهذا مما لم أر أحدًا تعرض لبيانه وأنا وإن كنت لم أقف على سنده فإني لا أتردد في ضعفه وحسبنا في التدليل على ذلك تفرد الديلمي به وأما رواية ابن عساكر فقد أخرجها ابن الجوزي أيضًا في حديث طويل عن سلمان مرفوعًا وقال : إنه موضوع . وأقره السيوطي في « اللآلي » (١/ ٢٧٢) [١] .

وعلى هذا فاستدلال المتصوفة بهذين الحديثين لا يصح لأن الحديثين كليهما موضوعان كما هو واضح أمامنا وإلى جانب ذلك فإن معناهما يخالف ما جاء في كتاب اللَّه عز وجل وذلك إذا تدبرنا في كتاب اللَّه عز وجل فسنجد فيه الجواب الشافي الكافي وهو أن كل ما في هذا الكون من إنس وجن وحيوان وكافة الموجودات خلقت لغاية واحدة ألا وهي إفراد اللَّه بالعبادة الذي لا مثيل له ولا شريك له سبحانه وتعالى كما في قوله تعالى : ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [٢] وقد صرح القرآن بهذا في

---

(١) « سلسلة الأحاديث الضعيفة » للألباني (ص٢٩٩) .

(٢) الإخلاص : (٣ ـ ٤) .

أوضح عبارة وأجلى بيان إذ قال سبحانه : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[2] .

والرسول محمد ﷺ بشر وهو من جملة مخلوقات اللَّه خلقه اللَّه لعبادته كما خلق غيره وفضله بالرسالة الخاتمة وجعله أفضل الخليقة على الإطلاق، ومع ذلك فليس الكون مخلوقًا من أجله بل هو مخلوق من أجل عبادة اللَّه سبحانه وتعالى .

ولا حاجة للإطالة في الرد عليهم لأنهم ليس لهم دليل يعتمدون عليه لإثبات هذه العقيدة الباطلة سوى الشبه التي قد سبقت وقد بينت بطلانها ولأن مثل هذه العقيدة التي تخالف الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ظاهرة البطلان لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

وقال الشيخ خالد محمد علي الحاج بعد أن ذكر الأدلة على أن الجن والإنس خلقا لعبادة اللَّه وحده :

« نعم خلق اللَّه الجن والإنس وكل دابة في الأرض لتدين له وحده بالولاء والطاعة والعبودية . . . » ثم قال : « ولا ندري كيف يزعمون أن الكون مخلوق من أجل محمد نحن نطالب دعاة الضلال وأصحاب الإفك والبهتان أن يأتوا بسبب واحد يدعمون به باطلهم.

نقول إن محمدًا بشر ممن خلق اللَّه وسبقه كثير من إخوانه الرسل

---

(١) الذاريات : (٥٦ ـ ٥٨) .

(٢) الإسراء : (٤٤) .

والأنبياء جميعًا صلوات اللَّه عليهم وقد أمرنا اللَّه سبحانه أن لا نفرق بين أحد من رسله »[1] .

* * *

(١) « الكشاف الفريد عن معاول الهدم ونقائض التوحيد » لخالد محمد علي الحاج (٢/ ٢٤٦).

المبحث الثاني

اعتقاد الصوفية بجواز التوجه إلى الرسول ﷺ بالدعاء والاستغاثة وشبههم وحكم التوجه إلى الرسول ﷺ بالدعاء والاستغاثة

وتحت ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : ذكر النصوص عنهم التي تدل على أنهم يتوجهون إلى الرسول ﷺ بالدعاء والاستغاثة.

المطلب الثاني : أهم الشبه التي يوردها الصوفية لتجويز دعاء الرسول ﷺ والاستغاثة به ومناقشتها .

المطلب الثاث : حكم التوجه إلى الرسول ﷺ بالدعاء والاستغاثة .

ئالتىنچى باب

ئالتىنچى بابنى ئۆگەنگەندىن كېيىن، سىز تۆۋەندىكىلەرنى بىلىۋالالايسىز:

- ئالگورىتىم ۋە ئالگورىتىمنىڭ ئاساسلىق خاراكتېرلىرى
- ئالگورىتىمنى لايىھەلەش ۋە ئالگورىتىمنى ئىپادىلەش

بۇ باب تۆۋەندىكى تۈرلەرگە بۆلۈنىدۇ:

- بىرىنچى بۆلۈم ئالگورىتىمغا كىرىش: بۇ بۆلۈمدە ئالگورىتىم ۋە ئالگورىتىمنىڭ ئاساسلىق خاراكتېرلىرى تونۇشتۇرۇلىدۇ.
- ئىككىنچى بۆلۈم ئالگورىتىمنى لايىھەلەش ۋە ئىپادىلەش: بۇ بۆلۈمدە ئالگورىتىمنى لايىھەلەش ۋە ئىپادىلەش ئۇسۇللىرى تونۇشتۇرۇلىدۇ.
- ئۈچىنچى بۆلۈم ئالگورىتىمنىڭ مىسالى: بۇ بۆلۈمدە ئالگورىتىمنىڭ مىسالى كۆرسىتىلىدۇ.

المبحث الثاني

اعتقاد الصوفية بجواز التوجه إلى الرسول بالدعاء والاستغاثة من دون اللَّه وشبههم ومناقشتها وحكم التوجه إلى الرسول بالدعاء والاستغاثة

لقد غلا المتصوفة تجاه الرسول ﷺ غلواً شديداً حتى وصل بهم هذا الغلو إلى رفع الرسول ﷺ من منزلة العبودية إلى منزلة الألوهية فتوجهوا إليه بالدعاء والاستغاثة طالبين منه غفران الذنوب وتفريج الهموم والكروب ناسين اللَّه عز وجل الذي قال في كتابه : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[2] .

ومع أن الدعاء عبادة من أجل العبادات التي يتعبد الإنسان بها ربه سبحانه وتعالى دعوا الأنبياء والأولياء بحجة أنهم مقربون إلى اللَّه ليكون لهم وسطاء بينهم وبين اللَّه سبحانه وتعالى وهذه هي نفس الحجة التي كان يحتج بها عباد الأوثان والأصنام الذين بعث إليهم الرسول محمد ﷺ سنة اللَّه ولن تجد لسنة اللَّه تبديلا ولن تجد لسنة اللَّه تحويلا .

---

(١) البقرة : (١٨٦) .

(٢) غافر (٦٠) .

وسأقسم هذا المبحث إلى ثلاثة مطالب :

أما المطلب الأول : فسأخصصه لإيراد مقالات كبار المتصوفة التي تثبت توجههم إلى الرسول بالدعاء والاستغاثة .

وأما المطلب الثاني : فسأخصصه لذكر أهم الشبه التي يستدل بها المتصوفة لتجويز التوجه إلى الرسول بالدعاء والاستغاثة .

وأما المطلب الثالث : فسأذكر فيه حكم التوجه إلى الرسول بالدعاء والاستغاثة من دون اللَّه .

المطلب الأول

نماذج من مقالات الصوفية التي تثبت توجههم إلى الرسول بالدعاء والاستغاثة

إن غلو الصوفية في الرسول محمد ﷺ وتوجههم إليه بالدعاء والاستغاثة من دون اللَّه عز وجل يظهر لنا في الأناشيد التي قالها أئمة التصوف لمدح الرسول ﷺ بها وكل قارىء لهذه الأناشيد يرى فيها الغلو الشديد حيث أن المتصوفة نسوا اللَّه عز وجل وصرفوا وجوههم نحو الرسول ﷺ مع أن الرسول لم يبعثه اللَّه إلا لمحاربة أمثال هذه الشركيات التي وقع فيها الصوفية .

وقبل أن أذكر نصوصًا عنهم تثبت وقوعهم في دعاء الرسول ﷺ سأعرف الدعاء في اللغة والاصطلاح وذلك حتى أبين معنى الدعاء .

أولاً : تعريف الدعاء في اللغة والاصطلاح :

١ ـ معنى الدعاء اللغوي :

أطلقت هذه المادة (دع) في الكتاب والسنة وكلام العرب وأهل العلم على معان شتى ولكن تلك المعاني بينها تفاوت فمنها ما استعملت فيه كثيراً وهو المراد عند الإطلاق ومنها ما استعملت فيه نادراً هذا مع ورود تلك المعاني وصحتها .

ويمكن عند التأمل إرجاع تلك المعاني إلى أصل واحد تدور عليه وهو إمالة الشيء قال ابن فارس رحمه اللَّه :

« دعوا الدال والعين والحرف المعتل أصل واحد وهو أن تميل الشيء إليك بصوت وكلام فيكون منك » .

ثم بين رحمه اللَّه كيف أن المعاني المتعددة ترجع إلى ذلك فبين أن قولهم دعا اللَّه فلانًا يمكره أي أأنزله به يرجع إلى ذلك لأنه إذا فعل ذلك به أماله إليه وأن قولهم تداعت الحيطان إذا سقط واحد وآخر بعده صار كان الأول دعا الثاني وأماله إلى نفسه ودواعي الدهر صروفه كأنها تميل الحوادث[1] .

فمن المعاني التي يدل عليها لفظ الدعاء : الطلب والسؤال

قال الحافظ أبو بكر بن العربي المالكي (ت٥٤٣هـ) :

« الدعاء في اللغة والحقيقة هو الطلب »[2] .

---

(١) « معجم مقاييس اللغة » لابن فارس (٢/ ٢٧٩) وكذلك (٢/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠) .

(٢) « أحكام القرآن » لابن العربي (٢/ ٨١٥) .

وقال محمد بن علي الشوكاني (ت١٢٥٠هـ) :

« معنى الدعاء حقيقة وشرعًا هو الطلب »[١] .

ثم إن هذا المعنى هو أكثر استعمالاً من المعاني الأخرى في الكتاب والسنة واللغة ولسان الصحابة ومن بعدهم من العلماء[٢] .

ومما ورد من الآيات التي تدل على أن الدعاء من معانيه الطلب والسؤال الآيات التالية :

١ ـ قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾[٣] .

٢ ـ وقوله عز وجل : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾[٤] .

٣ ـ وقوله عز وجل : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾[٥] .

٤ ـ وقوله سبحانه : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ ﴾[٦] .

---

(١) « فتح القدير » (٤/٤٩٨) .

(٢) « فتح المجيد » (ص١٨٠) .

(٣) الأعراف : (١٣٤) .

(٤) البقرة : (٦١) .

(٥) آل عمران : (٣٨) .

(٦) الأنعام : (٤٠ ـ ٤١) .

٥ ـ وقوله : ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[١] .

٦ ـ وقوله : ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾[٢] .

٧ ـ وقوله : ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾[٣] .

٨ ـ وقوله : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً﴾[٤] .

٩ ـ وقوله : ﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾[٥] .

وقد تبين من هذه الآيات أن الدعاء معناه الطلب وليس هو مطلق الطلب بل طلب خاص وهو طلب الأدنى من الأعلى تحصيل شيء بلا غضاضة من الأعلى[٦] .

وذلك لأن صيغة الطلب والاستدعاء تختلف بحسب الطالب والمطلوب منه فإذا كانت ممن يقدر على قهر المطلوب منه فإنها تقال على وجه الأمر وإذا كانت من الفقير من كل وجه للغني من كل وجه فإنها تقال على وجه السؤال بتذلل وافتقار[٧] .

---

(١) الأنعام : (٦٣)

(٢) يونس : (١٢) .

(٣) النمل : (٦٢) .

(٤) الإسراء : (٥٦) .

(٥) الإسراء : (١١) .

(٦) « نزهة النواظر في علم الوجوه والنظائر » لابن الجوزي (ص٢٤٤) .

(٧) « الفتاوى » (١٠/٢٤٦) .

فيسمى ما كان من الأدنى للأعلى دعاءً وما كان من أعلى لأدنى أمراً وما كان من الأقران بعضهم من بعض التماسًا .

ومن المعاني التي يشتمل عليها لفظ « الدعاء » العبادة .

وهذا المعنى ورد بكثرة في استعمالات القرآن الكريم والسنة النبوية وكلام أهل العلم وممن صرح بهذا المعنى أبو إسحاق الزجاج فقد قال في قوله تعالى : ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[1] قال :

« معنى الدعاء للّه عز وجل على ثلاثة أضرب : فضرب منها توحيده والثناء عليه كقولك : يا اللّه لا إله إلا أنت ، وقوله : ربنا ولك الحمد »[2].

وقال الزجاج أيضًا عن قوله تعالى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ في تفسير خفية :

« أي اعتقدوا عبادته في أنفسكم لأن الدعاء معناه العبادة »[3] .

وقال الإمام أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري اللغوي المشهور (ت ٣٧٠هـ) .

« وقد يكون الدعاء عبادة ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾[4] أي الذين تعبدون من دون اللّه » .

ثم قال : « وروي مثل ذلك عن سعيد بن المسيب في قوله : ﴿ لَن

---

(١) البقرة : (١٨٦) .

(٢) « معاني القرآن وإعرابه » للزجاج (٢/ ٣٤٤) .

(٣) نفس المرجع (٢/ ٣٤٤) .

(٤) الأعراف : (١٩٤) .

﴿نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا﴾[1] أي لن نعبد إلهًا من دونه » .

وقال عز وجل : ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً﴾[2] أي أتعبدون ربًا سوى اللَّه .

وقال : ﴿فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾[3] أي لا تعبده[4] .

وفوق هذا كله بيان الرسول ﷺ هذا المعنى بقوله : « الدعاء هو العبادة »[4] .

ومن استعماله في هذا المعنى قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[5] .

وقوله : ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾[6] .

وقوله سبحانه : ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾[7] .

المعنى الشرعي للدعاء والمناسبة بينه وبين اللغوي :

لقد تنوعت عبارات العلماء في تعريف الدعاء وتعددت كلماتهم وكلها تهدف إلى الكشف عن حقيقة معناه الشرعي وإليك نماذج من هذه التعريفات.

---

(١) الصافات : (١٢٥) .

(٢) الشعراء : (٢١٣) .

(٣) « تهذيب اللغة » (٣/ ١١٩ ـ ١٣٤) .

(٤) « جامع الترمذي » (٥/ ٣٧٤) .

(٥) الأنعام : (٥٦) .

(٦) النساء : (١١٧) .

(٧) الكهف : (٢٨) انظر « معاني القرآن » للفراء (١/ ١٩) و« غريب القرآن » لابن قتيبة (ص٤٣) و« تهذيب اللغة » للأزهري (٣/ ١١٩) .

قال أبو سليمان الخطابي في تعريف الدعاء :

« الدعاء استدعاء العبد ربه عز وجل العناية واستمداده إياه المعونة وحقيقة إظهار الافتقار إليه والتبرؤ من الحول والقوة »[١] .

وقال القاضي أبو بكر بن العربي في تعريف الدعاء :

« حقيقة الدعاء مناداة اللّه تعالى لما يريد من جلب منفعة أو دفع مضرة من المضار والبلاء بالدعاء فهو سبب لذلك واستجلاب لرحمة المولى »[٢] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية :

« إن دعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي وطلب كشف ما يضره ودفعه »[٣] .

وقال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب :

« هو الطلب بياء النداء لأنه ينادي به القريب والبعيد وقد يستعمل في الاستغاثة أو بأحد أخواتها »[٤] .

من كل ما تقدم من تعريف الدعاء في اللغة والاصطلاح نخلص إلى أن الدعاء يأتي بمعنى السؤال والطلب ويأتي بمعنى العبادة وكلا النوعين من أنواع الدعاء يعتبران عبادة لا يجوز صرفهما لغير اللّه ومع ذلك فإن الصوفية صرفوا هذه العبادة للرسول ﷺ .

ثانيًا : ذكر نماذج من مقالات الصوفية التي تثبت توجههم إلى الرسول ﷺ بالدعاء والاستغاثة :

فمن المتصوفة الذين يعتبروا وصلوا القمة في المدائح النبوية وغلوا فيه غلوًا مفرطًا زائدًا عن الحد عبد الرحيم البرعي[٥] .

---

(١) « شأن الدعاء » للخطابي (ص٤) .

(٢) « نبذة في الدعاء » لليافعي (ص٢٢) .

(٣) « الفتاوى » (١٥/ ١٠) .

(٤) « الرسائل الشخصية » من مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص٤) .

(٥) عبد الرحيم البرعي هو عبد الرحيم بن علي البرعي الهاجري اليمني . انظر ترجمته في =

وإذا نظرنا في القصائد التي مدح بها الرسول ﷺ نرى أنه قد غلا فيها غلواً شديداً زائداً عن الحد حيث تجاوز بالرسول منزلة العبودية ورفعه إلى منزلة الألوهية .

ومع الأسف الشديد فإن القصائد التي أنشدها عبد الرحيم البرعي يتغنى بها المتصوفة ليلاً ونهاراً على امتداد العالم الإسلامي وقد سمعناها في بلاد شتى فما من مناسبة كبيرة أو صغيرة يجتمع فيها المتصوفة إلا ويتلون فيها أمثال هذه القصائد المليئة بالشركيات .

وإليك نماذج من هذه المدائح البرعية :

فقد قال مادحًا للرسول ﷺ ومتوجهًا إليه بالدعاء والاستغاثة سائلاً إياه أن يأخذ بيده وينجيه مما هو فيه من الكرب والمصائب :

فخذ بيدي وجد بالعفو يا من ... إذا ناديتـــه لبـــى سريعـــا
وقل عبد الرحيم غدًا رفيقي ... وما يخشى رفيقك أن يضيعـــا
يا سيدي يا رسول اللّه خذ بيدي ... في كل هول من الأهوال ألقاه
إن كان زارك قوم لم أزر معهـــم ... فإن عبـــدك عاقتـــه خطايـــاه
والعفو أوسع عن تقصير من قعدت ... به الذنوب فلم تنهض مطاياه
يا صاحب القبر المقيم بيثرب ... يا منتهى أملي وغاية مطلبي
يا من نرجيه لكشف عظيمة ... ولحل عقد ملتو متصعب
يا من يجود على الوجود بأنعم ... خضر تعم عموم صوب الصيب
يا غوث من في الخافقين وغيثهم ... وربيعهم في كل عام مجدب
يا رحمة الدنيا وعصمة أهلها ... وأمان كل مشرق ومغرب[1]

= « البدر الطالع » للشوكاني (٢/ ٢١٢) .

(١) « ديوان عبد الرحيم البرعي » (ص١٤) .

إذا نظرنا في هذه الأبيات التي قالها البرعي مادحًا بها الرسول ﷺ نرى أنه قد غلا في مدح الرسول غلوًا شديدًا حتى وصل به هذا الغلو إلى أن يصرف عبادات لا يجوز صرفها لغير اللَّه عز وجل حيث توجه إلى الرسول بالدعاء والاستغاثة وطلب منه أن يأخذ بيده وصرح بأنه إذا نادى الرسول فإنه ينفذ له مطلوبه وطلب من الرسول أن ينجيه من كل الأهوال التي تصيبه في هذه الدنيا ووصفه أيضًا بأن الرسول ﷺ هو الذي يجود بالنعم لكل ما في هذا الكون وأخيراً وصف الرسول بأنه مغيث كل من في الخافقين وأنه أمان لكل من في المشرق والمغرب.

وهذه الأوصاف كلها لا تليق إلا باللَّه عز وجل ولكن الغلو الزائد أوقع البرعي في هذه الشركيات التي نراها واضحة في هذه الأبيات التي أوردناها عنه وهي لا تحتاج إلى الإيضاح والبيان لأن التوجه إلى الرسول بالدعاء والاستغاثة واضح فيها من أولها إلى آخرها .

وهذه أبيات أخرى عن البرعي يتوجه فيها إلى الرسول بالدعاء والاستغاثة فيقول :

ماذا نعامل يا شمس النبوة من ... أضحى إليك من الأشواق في كبدي
فامنع جناب صريع لا صريخ له ... نائي المزار غريب الدار مبتعد
حليف ودك وه الصبر منتظر ... لغارة منك يا ركني ويا عضدي
أسير ذنبي وزلاتي ولا عمل ... أرجو النجاة به إن أنت لم تجد

* * *

وحل عقدة كربي يا محمد من ... هم على خطرات القلب مطرد
أرجوك سكرات الموت تشهدني ... كما يهون إذا الأنفاس في صعد
وإن نزلت ضريحًا لا أنيس به ... فكن أنيس وحيد فيه منفرد

وارحم مؤلفها عبد الرحيم ومن يليه من أجله وانعشه وافتقد
وإن دعاك فأجبه واحم جانبه من حاسد شامت أو ظالم نكد

* * *

يا رسول اللَّه يا ذا الفضل يا بهجة في الحشر جاهًا ومقامًا
عد على عبد الرحيم الملتجي بحمى عزك يا غوث اليتامى
وأقلني عثرتي يا سيدي في اكتساب الذنب في خمسين عامًا

* * *

يا سيدي يا رسول اللَّه يا أملي يا موئلي يا ملاذي يوم يلقاني
هبني بجاهك ما قدمت من زلل جودًا ورجح بفضل منك ميزاني
واسمع دعائي واكشف ما يساورني من الخطوب ونفس كل أحزاني
فأنت أقرب من ترجى عواطفه عندي وإن بعدت داري وأوطاني
إني دعوتك من نيابتي برع وأنت أسمع من يدعوه ذو شان
فامنع جنابي وأكرمني وصل نسبي برحمة وكرامات وغفران[1]

إذا نظرنا في الأبيات السابقة نرى فيها الشرك واضحًا وصريحًا وأظن إذا لم تكن مثل هذه الألفاظ شركًا فليس هناك شيء يسمى شركًا وذلك لأن الأبيات من أولها إلى آخرها فيها التوجه إلى الرسول ﷺ بالدعاء والاستغاثة ولا يمكن أن تجد فيها ولو بيتًا واحدًا فيه التوجه إلى اللَّه سبحانه وتعالى وذلك لأن المتصوفة أعرضوا عن اللَّه كلية وولوا وجوههم نحو الرسول والأولياء بحيث إذا رأينا أحوال المتصوفة في العالم فإننا نراهم دائمًا يدعون الأنبياء والأولياء وقل أن ترى صوفيًا يتوجه إلى اللَّه وحده بالدعاء والاستغاثة.

(١) « ديوان عبد الرحيم البرعي » (ص٢٥).

ومن المتصوفة الذين بلغوا القمة في مدح الرسول ﷺ عند المتصوفة وغلوا فيه غلواً شديداً أدى بهم إلى أن يخرجوا الرسول من منزلة العبودية إلى منزلة الألوهية فتوجهوا إليه بأنواع من العبادات التي لا يجوز صرفها لغير اللَّه شرف الدين أبو عبد اللَّه البوصيري[1] وهذه القصائد البوصيرية يتلوها المتصوفة العوام منهم والخواص على حد سواء في المناسبات العامة التي يقيمونها طوال السنة ويحفظونها حفظًا متقنًا ويتغنون بها .

وإليك نماذج من هذه المدائح فقد قال البوصيري في بردة المديح متوجهًا إلى الرسول ﷺ بالدعاء والاستغاثة طالبًا منه غفران الذنوب ومعترفًا له بأنه إن لم يأخذ الرسول يوم القيامة بيده فقد هلك وأنه ليس له أي شيء يلوذ به ويلتجيء ويدعوه ويستغيث به عند حلول الحوادث والكرب والمصائب إلا الرسول محمد ﷺ .

قال البوصيري :

إن آت ذنبًا فما عهدي بمنتقضي ... من النبي ولا حبلي بمنصرم
فإن لي ذمة منه بتسميتي ... محمدًا وهو أوفى الخلق بالذمم
إن لم يكن في معادي آخذ بيدي ... فضلاً وإلا فقل يا زلة القدم
حاشاه أن يحرم الراجي مكارمه ... أو يرجع الجار منه غير محترم[2]

وقال أيضًا :

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم
ولن يضيق رسول اللَّه جاهك بي ... إذا الكريم تجلى باسم منتقم[3]

---

(١) هو الأديب البليغ والشاعر المجيد والصوفي المتحقق شرف الدين أبو عبد اللَّه محمد بن سعيد بن حماد بن محسن بن عبد اللَّه وقد تلقى علومه ومعارفه على طائفة من علماء عصره كأبي حيان وهو من تلاميذ أبي العباس المرسي . انظر ترجمته في « أبو العباس المرسي » (٨٩) .

(٢) « بردة المديح » للبوصيري (ص٣٣) .

(٣) « بردة المديح » للبوصيري (ص٣٥) .

وقال البوصيري أيضًا في القصيدة الهمزية في مدح خير البرية :

قد تمسكت من ودادك بالحبل ... الذي استمسكت به الشفعاء
وأبى اللَّه أن يمسني السوء ... بحال ولي إليك التجاء
قد رجوناك للأمور التي ... أبردها في قلوبنا رمضاء
وأتينا إليك أنضاء فقر ... حملتنا إلى الغنى أنضاء
وانطوت في الصدر حاجات نفسي ... ما لها عن نديدك انطواء
فأغثنا يا من هو الغوث ... والغيث إذا أجهد الورى اللأواء
والجواد الذي به تفرج الغمة ... عنا وتكشف الحوباء
يا بني الهدى استغاثة ملهوف ... أضرت بحالة الحوباء[1]

إذا نظرنا في الأبيات السابقة التي أوردتها عن البوصيري نرى فيها الغلو الشديد الذي أدى به إلى أن يتجاوز بالرسول منزلة العبودية إلى منزلة الألوهية حيث توجه إليه بالدعاء والاستغاثة ووصفه بأنه هو الذي ينجيه يوم القيامة من الهلاك وأنه ليس له غيره منجى له ويظهر هذا الغلو في الأبيات الآتية :

أولاً : في قوله :

إن لم يكن في معادي آخذ بيدي ... فضلاً وإلا فقل يا زلة القدم

وفي قوله :

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

وفي قوله :

---

(١) « قصيدة الهمزية في مدح خير البرية » للبوصيري (ص٢٧ ـ ٢٨) .

واسمع دعائي واكشف ما يساورني من الخطوب ونفس كل أحزاني
وفيك يا ابن خليل اللَّه يوم غد ألوذ من سوء زلاتي وعصياني

ففي البيت الأول صرح البوصيري بأنه إن لم يأخذ الرسول بيده وينجيه من العذاب يوم القيامة فإن مصيره الهلاك لأنه ليس هناك منجى من العذاب إلا الرسول ﷺ ونحن نقول : وأين اللَّه يا بوصيري ؟!!

وفي البيت الثاني صرح بأنه لا يوجد أحد يلتجيء إليه ويتعلق به غير الرسول ﷺ ونحن نقول : وأين اللَّه يا بوصيري ؟!!

وفي البيت الثالث لقد توجه البوصيري إلى الرسول بالدعاء والاستغاثة وسأله أن يكشف عنه المصائب وأن يزيل عنه أحزانه التي أصابته .

وفي البيت الرابع أكد البوصيري بأن ملجأه الوحيد يوم القيامة هو الرسول ﷺ لكي يغفر له ذنوبه ومعاصيه التي ارتكبها .

وهذه الأبيات كلها الشرك باللَّه عز وجل واضح فيها كل الوضوح وإذا لم تكن هذه الألفاظ وأمثالها شركًا فليس هناك شرك .

ومن المتصوفة الذين مدحوا الرسول ﷺ أحمد عبد المنعم الحلواني فقد قال في قصيدته المستجيرة مخطابًا فيها الرسول ﷺ وواصفًا له بأنه مفزع جميع المخلوقات في الدنيا والآخرة ومفرج كربهم وواصفًا له بأن جميع خزائن الرحمن في يده .

وإليك الأبيات التي تثبت ذلك ، قال :

أنشاك نورًا ساطعًا قبل الورى فرد الفرد والبرية في العدم
ثم استمد جميع مخلوقاته من نورك السامي فيا عظم الكرم
فلذا إليك الخلق تفزع كلهم في هذه الدنيا وفي اليوم الأهم
وإذا دهتهم كربة فرجتها حتى سوى العقلاء في ذاك منتظم

جد لي فإن خزائن الرحمن في يدك اليمنى وأنت أكرم من قسم[1]

إذا نظرنا في الأبيات السابقة نرى فيها الغلو الزائد في الرسول ﷺ واضحًا فيها حيث ادعى فيها الحلواني بأن الرسول أول مخلوق وأنه مخلوق من نور وأن جميع المخلوقات استمدت من نوره .

وأما البيت الثالث والرابع والخامس فإن الشرك فيها واضح حيث أن عبد المنعم الحلواني زعم أن جميع الخلائق يفزعون إلى الرسول يوم القيامة وفي هذه الدنيا أيضًا لإنجائهم من المهالك ولتحقيق المطالب وهذا رفع للرسول ﷺ عن منزلة العبودية إلى منزلة الألوهية والربوبية .

وزعم أيضًا بأن الرسول هو المفرج لجميع الكرب التي تصيب البشرية ثم سأل الرسول أن يجود له من الخزائن التي في يده لأنه حسب زعم الحلواني إن خزائن الرحمن كلها في يد الرسول ﷺ وكل هذا يعتبر شركًا باللَّه سبحانه وتعالى فإن خزائن اللَّه في يده سبحانه وتعالى وليست في يد غيره ويدل على هذا قوله تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[2] .

ومن المتصوفة الذين لهم الباع الطويل في مجال مدح الرسول ﷺ وغلوا فيه غلوًا شديدًا حتى تجاوزوا به حدود البشرية ورفعوه إلى منزلة الألوهية فتوجهوا إليه بالدعاء والاستغاثة جعفر الصادق الميرغني[3] في ديوانه المسمى برياض المديح متوجهًا إلى الرسول بالدعاء والاستغاثة :

---

(١) رسالة لأحمد عبد المنعم الحلواني (ص١٤) نقلاً عن « التصوف بين الحق والخلق » لشقفة (ص٨٥) .

(٢) الحجر : (٢١).

(٣) جعفر الصادق الميرغني هو أحد أبناء محمد عثمان الميرغني الختمي مؤسس الطريقة الختمية بالسودان والتي تنتشر انتشاراً واسعًا في السودان وأرتيريا.

من استجار به ينجيه من كرب ... فجاه طه وسيع لا بمنحصر
رب استجرت به في كل حادثة ... وكل نائبة ما عشت من عمري
وفي القيام وفي حشر لينقذني ... من كل ما أخشى من سيء القدر
كم جاء ذو ترح فعاد ذا فرح ... يرعى لذي قرح قصد لذي خطر
شفاء ذي وصب نجاة ذي عطب ... غياث ذي نصب في السهل والوعر
من راح قاصده يلقى مقاصده ... كالبحر في كرم والغيث والمطر
يا ذا النوال وذا الإحسان يا أملي ... يا سيدي سندي ذخري ومدخري
قد صرت في حالة حيران مكتئبًا ... بباكم ملتج يا سيد البشر
فلا تخيب رجائي أنت أرأف بي ... من لي سواك مزيل الغم والضرر
وأحسن ختامي إذا وافى الحمام وصل ... حبلي بحبل رجاء منك مستتر[1]

ويقول جعفر صادق الميرغني أيضًا في قصيدة أخرى مستغيثًا بالرسول ﷺ وداعيًا له من دون اللّه :

يا رسول اللّه غوثًا عجلا ... فعظيم الخطب فينا نزلا
يا رسول اللّه دارك سيدي ... أبدل العسر بيسر حصلا
يا رسول اللّه فرج سندي ... أصلح الشأن وسد الخللا
أنت حصن اللّه من لاذ به ... أمن الخوف ونال الأملا
أنت سر اللّه يا نور الهدى ... أنت غوث الخلق من كل البلا
يا رفيع القدر يا كهف الورى ... يا منيع الفخر يا غيث الملا
يا مزيل الخطب إن خطب دها ... سيدي أنت لها غث عجلا
فأغثني سيدي الأبناء من ... فرجًا للناس كلا ارسلا

(١) « الديوان الكبير » لجعفر صادق الميرغني (ص٥٠ ـ ٥١) .

أبدل الحال بحـــال حســـــن ... واجبر الكسر وبلغ أمـــــلا
يا رجائي يا رجائـــي أملـــــي ... أحسن العقبى وأصلح عمـــــلا
حاشا من لاذ بكم يسعى لكـــم ... قاصداً يرجع من غير مـــــلا
فاكشف الغماء عني عجـــــلا ... يا مغيثًا يا عظيمًا بطـــــلا
عبدك الموثوق ذنبًا جعفـــــر ... كن به في كل أمر حفـــــلا[1]

ويقول جعفر الصادق الميرغني أيضًا في قصيدة أخرى متوجهًا إلى الرسول ﷺ بالدعاء والاستغاثة :

أمان الكون في علو وسفـــل ... نجاة الآبـق العبـــد الذليـــل
رسول اللَّه داركنا فإنـــا ... بشوءم الذنب فـي هـــم طويـــل
حبيب اللَّه إنا منك نرجـــو ... فيوضا منك تشفي للغليـــل
وسرا منك يسرى في فـــؤادي ... دواء الجسم والقلب العليـــل
وخذلانا لنا وينـــا بســـوء ... يلاقي الذل مع خزى وبيـــل
وليس لنا سواك يغيث فـــادرك ... بهذا الدهر من قال وقيـــل
فعليك جعفر قد ضـــاق ذرعـا ... فعجل بالغياث إلى السبيـــل
وأنت دواء روحي بـــل وروحـي ... ملاذي ناصري عوني كفيلـــي

إذا نظرنا في الأبيات السابقة التي قالها جعفر الصادق الميرغني الختمي الذي يعتبر من ذرية مؤسس الطريقة الختمية المنتشرة في السودان انتشاراً واسعًا وكذلك في أرتيريا نرى فيها كلها من أولها إلى آخرها الشرك الصريح حيث أنه أعرض عن اللَّه كلية وتوجه إلى الرسول ﷺ وطلب منه أموراً لا يقدر عليها إلا اللَّه سبحانه وتعالى وقطعًا إن الرسول لو كان حيًّا وسمع مثل

---

(١) « الديوان الكبير » لجعفر الصادق الميرغني (ص٨٨ ـ ٨٩) .

هذا الكلام لأمره بالتوبة وشهادة أن لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه من جديد.

ومع الأسف الشديد فإن مثل هذه الأبيات هي التي يتلوها المتصوفة ليل نهار في أنحاء العالم الإسلامي.

ويقول جعفر الصادق الميرغني في قصيدة أخرى مادحًا للرسول ﷺ ومتوجهًا إليه بالدعاء والاستغاثة :

أغثني يا حبيب اللَّه دارك ... بسر منك يسري للفؤاد
ووصل يغني عن زيد وعمرو ... وهند ثم علوي مع سعاد
رسول اللَّه باب اللَّه فرج ... وأصلح حالتي يا خير هادي
وكن لي ناصرًا في كل حال ... بسيف قاطع كبد الأعادي
أتاك الميرغني يرجو نوالا ... أنله الفيض يا بحر الجواد[1]

هذه الأبيات التوجه إلى الرسول بالدعاء والاستغاثة واضح فيها وكما هو معلوم فإن التوجه إلى غير اللَّه يعتبر شركًا باللَّه سبحانه وتعالى .

ومن المتصوفة الذين مدحوا الرسول ﷺ بقصائد كثيرة وتجاوز فيها الحد بالغلو في الرسول ﷺ حتى أدى بهم هذا الغلو إلى رفع الرسول إلى منزلة الألوهية فتوجهوا إليه بالدعاء والاستغاثة ووصفوه بأنه كاشف الكرب والمنقذ من المصائب والمهالك بجميع أنواعها لمن دعاه عبد الرحمن بن عبد اللَّه المشهور بالشيخ حاج صوفي الصومالي القادري نسبة إلى الطريقة القادرية فقد قال :

---

(١) « الديوان الكبير المسمى برياض المديح » (ص٢٧) .

ومنجي البرايا بصرفه البلا ملاذ الخلائق
إمام الهدى سيد الأولياء ومن فوقهم فهو غيث العلا[1]

إذا نظرنا في البيتين السابقين نرى أن الشرك فيهما واضح كل الوضوح حيث وصف الرسّول ﷺ بأنه المنجي للخلائق وملاذهم ومغيث من في العلا وهذه أوصاف لا تليق بالرسول ﷺ لأنه بشر لا يملك نفعًا ولا ضرًا وإنما الذي يستحق هذا هو اللّه سبحانه وتعالى الذي بيده كل شيء والذي يستطيع أن يغيث من استغاث به وينجي من الهلاك من لاذ به أما غيره من المخلوقات كائنًا من كان فإنه لا يملك لا لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًا فالكل عبيد اللّه سبحانه وتعالى يتصرف فيهم كيف يشاء وكل تحت قبضته وتصرفه .

ومن المتصوفة الذين مدحوا الرسول ﷺ بقصائد كثيرة وتجاوزوا فيها الحد حتى رفعوه إلى منزلة الألوهية فتوجهوا إليه بالدعاء والاستغاثة محيي الدين بن محمد بن جمعال المعروف بصوفي القادري (نسبة إلى الطريقة القادرية) فقد قال متوجهًا إلى الرسول بالدعاء والاستغاثة :

رسول اللّه مولانا محمد أغثني أنت يا نور الفؤادي
طبيبي يا حبيب اللّه دارك عبيدًا خائفًا واء البعاد
ألا يا خير خلق اللّه يا من يلوذ به الخلائق في الشداد
ألا يا سيد السادات كن لي ظهيرًا دائمًا في كل ناد
ألا يا زين الوجود ويا مجيري فجد بالسلامة وازدياد
وهب منك عزا يا عمادي ويا عوني ويا عين المراد[2]

(١) « جلاء العينين » (ص٦٤) .

(٢) « تذكرة أهل اليقين في مناقب الشيخ محيي الدين » (ص١٣٣ ـ ١٣٤) .

وقال الشيخ محيي الدين الصوفي أيضًا بعد أن ذكر سلسلة مشائخه في الطريقة القادرية مادحًا للرسول ﷺ ومتوجهًا إليه بالدعاء والاستغاثة لغفران الذنوب وكشف الكروب :

هو المصباح منبع كل خير ... هو المقصود مختار الجياد
هو البحر المحيط جميع در ... هو المحمود في كل الأيادي

* * *

ملاذ المؤمنين محل خير ... مذاكرة فشت في كل واد
كريم أكرم الكرما جميعًا ... وكاشف كربتي كنزي وزادي
بمدح المصطفى سر عظيم ... أناديه وأجعله عمادي
سميع مادحيه ومن يصلي ... عليه أو يسلم والمنادي
يصلي دائمًا صلوات خمس ... ويمشي في البلاد وفي البوادي
يحج البيت حج كل عام ... ويعتمر بإذن اللَّه هادي
يصوم وتعرض الأعمال عرضًا ... لأمته عليه في الأبادي
يولي من شاء من الخيار ... ويعليهم على أهل الفساد
بذا ورد الدليل فلا تمار ... كزنديق ونـاء بالعناد
رسول اللَّه مولانا محمد ... أغثني أنت يا نور الفؤاد[1]

إذا نظرنا في الأبيات السابقة نرى أن الشرك فيها واضح حيث ادعى هذا الصوفي بأن الرسول ﷺ هو المحمود في كل النعم التي يتنعم بها العباد في هذا الكون .

ثم إنه وصف الرسول بأنه ملاذ المؤمنين وملجأهم الوحيد .

---

(١) « تذكرة أهل اليقين » (ص١٢٩) .

ثم قال إن الرسول ﷺ هو الذي يكشف كربه وينجيه من المهالك والمصائب.

وهذه كلها شركيات واضحة فإن الذي يستحق الحمد في كل النعم التي يتنعم بها العباد هو اللَّه سبحانه وتعالى لأنه هو الذي أوجدها أما الرسول فليس موجدها بل هو يحمد اللَّه سبحانه وتعالى على نعمه التي أنعم اللَّه بها عليه ومن أكبرها نعمة الرسالة أما أن يكون الرسول هو المقصود المحمود فهذا شرك باللَّه سبحانه وتعالى :

وكذلك كاشف الكرب هو اللَّه وحده أما غيره فليس باستطاعتهم ذلك كما قال تعالى : ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[1] .

أما ادعاء هذا الصوفي بأن الرسول ﷺ بعد انتقاله من هذه الحياة الدنيا إلى الدار الآخرة يصلي الصلوات الخمس ويسبح في كل البلاد ويحج البيت ويعتمر ويصوم وتعرض أعمال أمته عليه ويولي من يشاء فهذه كلها افتراءات وكذب صريح على اللَّه وعلى رسوله محمد ﷺ وليس له أي دليل يعتمد عليه لإثبات هذه الادعاءات والصوفية يقصدون من وراء نشر مثل هذه الأكاذيب توجيه الناس إلى عبادة الرسول ﷺ من دون اللَّه .

وإلا فالرسول ﷺ قد مات كما يموت غيره من البشر وانقطع عمله بموته كما ينقطع عمل غيره قال تعالى : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾[2] .

---

(١) النمل : (٦٢) .

(٢) آل عمران : (١٤٤) .

وقال تعالى : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾[1] .

ويقول الرسول ﷺ : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له »[2] .

والرسول ﷺ لم يخبرنا بأنه سيؤدي الصلوات الخمس وسيحج البيت ويعتمر ويطوف في البلاد وتعرض عليه أعمال أمته في حديث صحيح وعلى هذا فهذا الحديث يشمله لأنه من بني آدم وإن كان له الفضل الكبير والمكانة العظيمة التي لا يملكها غيره من هذه المخلوقات.

ومن المتصوفة الذين مدحوا الرسول ﷺ وغلوا فيه غلواً شديداً حتى تجاوزوا به حدود البشرية ورفعوه إلى منزلة الألوهية فصرفوا له أنواعًا من العبادات كالدعاء والاستغاثة أويس الصومالي القادري فقد قال مادحًا للرسول ﷺ ومتوجهًا إليه بالدعاء والاستغاثة :

أغثني يا محمد باسمك محمد ... أنا أويس أحمد
مالي سواك شافع ليوم الناس جامع ... عند المكان طامع رجائي فيك أحمد
الحبيب ذخرنا عين الكمل كنزنا ... ونصرة ليومنا ملاذ الخلق أحمد
المهتدي بنا سبيل لإرشادنا ... اغفر لما أصابنا مما جنينا باليد[3]

وقال أويس الصومالي أيضًا مادحًا للرسول ﷺ ومتوجهًا إليه بالدعاء :

---

(١) الزمر : (٣٠ ـ ٣١) .

(٢) « صحيح مسلم » مع النووي (١١/ ٥٤ ـ ٥٨) .

(٣) « تذكرة أهل اليقين في مناقب الشيخ محيي الدين » (ص١٤٦) .

يا ابن عبد اللَّه يا علم الهدى يا نور عرش اللَّه أنت محمد
يا من بنا غوثًا وغيثًا للورى يا بهجة الكونين أنت محمد
يا من به شقت البدور بأمره والشمس قد ردت لأجل محمد
طوبى لمن حج وزار قبة خضر وفيها أحمد ومحمد[1]

وقال الشيخ أويس مادحًا للرسول ﷺ ومستجيرًا مستغيثًا به :

ألا يا رسول اللَّه قلبي مهيم ونفسي بكت في وجهك المتلمع
ألا يا حبيب اللَّه أنت شرابنا وأنت غذاؤنا عند كل مشبع
ألا يا رسول اللَّه أنت ملاذنا وأنت رجانا عند كل مشفع
أغثنا أغثنا يا حبيبي وكن لنا رؤوفا رحيمًا عند خفض ومرفع[2]

إذا نظرنا في الأبيات السابقة التي أوردتها عن الشيخ أويس يتضح لنا بجلاء أنها تحتوي على دعاء الرسول والتوجه إليه بالدعاء والاستغاثة من دون اللَّه سبحانه وتعالى وهذا يعتبر شركًا باللَّه سبحانه وتعالى لأنه فيه إخراج للرسول من درجته البشرية إلى درجة الألوهية وذلك لأن الدعاء عبادة ولذا فهو لا يستحقها إلا اللَّه سبحانه وتعالى الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء أما غيره من مخلوقاته فلا يستحق العبادة كائنًا من كان لا ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلاً .

ونقل لنا النبهاني أبياتًا عديدة عن كثير من الذين غلوا في الرسول ﷺ وتجاوزوا به حد البشرية والعبودية إلى منزلة الألوهية بتوجههم إليه بالدعاء والاستغاثة ووصفه بأوصاف لا تليق إلا باللَّه سبحانه وتعالى وقد أورد

---

(١) « تذكرة أهل اليقين في مناقب الشيخ محيي الدين » (ص١٤٨) .

(٢) « الجوهر النفيس في خواص الشيخ أويس » (ص٥٨) .

النبهاني هذه الأبيات عن هؤلاء الغلاة لكي يدلل بها على جواز التوجه إلى الرسول بالدعاء والاستغاثة وفات النبهاني أن الذي يصح أن يكون حجة هو نص من كتاب اللَّه أو من سنة رسول اللَّه ﷺ فقط لا غير ولا يمكن كلام أحد كائنًا من كان أن يكون حجة في دين اللَّه في أي شيء كان من أمور الشريعة الإسلامية حتى في المندوبات والمستحبات فضلاً عن أن يكون حجة لإثبات أمر عقدي أمرت الشريعة أن يكون للَّه فقط والدعاء يعتبر من العبادات التي أمر اللَّه أن يعبد بها فقال في كتابه : ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[1] .

وقال الرسول ﷺ : « **الدعاء هو العبادة** »[2] .

ومع وجود هذه الأدلة القطعية من الكتاب والسنة أراد يوسف النبهاني الصوفي الشاذلي أن يثبت مشروعية دعاء غير اللَّه فأورد عدة أبيات عن من ابتلوا بالغلو ومجاوزة الحد وهذه الأبيات كلها تفوح منها رائحة الشرك بل هي كلها مليئة بألفاظ صريحة تدل دلالة لفظية واضحة على الشرك باللَّه سبحانه وتعالى وإليك الآن نماذج من تلك الأبيات التي أوردها النبهاني عمن سبقوه من أسلافه الذين ابتلوا بتعظيم الرسول التعظيم المبتدع الذي وصل بهم إلى أن يشركوه مع اللَّه في عبادته .

قال النبهاني : قال شرف الدين الأبوصيري المتوفي سنة (٦٩٦هـ) :

يا أبا القاسم الذي ضمن أقسا ... مي عليه مدح له وثناء
الأمان الأمان إن فؤادي ... من ذنوب أتيتهن هواء
قد تمسكت من ودادك بالحب ... الذي استمسكت به الشفعاء
وأبي اللَّه أن يمسني السوء ... بحال ولي إليك التجاء
قد رجوك للأمور التي ... أبردها في فؤادنا رمضاء

---

(١) غافر : (٦٠) .

(٢) « سنن الترمذي » (٥/٤٢٦) .

فأغثنـــا يا مـــن هـــو الغوث والغيث إذا أجهد الـــورى اللأواء
والجواد الذي به تفرج الغمة عنا وتكشـــف الحـــوباء[1]

ونقل عن شمس الدين النواحي المصري المتوفي سنة (٨٥٩هـ) الأبيات التالية :

يا رسول الإله إنـــي غريـــب فأغثنـــي يا ملجـــأ الغرباء
يا رسول الإله إنـــي فقيـــر فأعنـــي يـــا منجـــد الفقراء
يا رسول الإله إني ضعيـــف فاشفني أنـــت مقصـــد للشفاء
يا رسول الإله إن لم تغثنـــي فإلى من ترى يكون التجائي
أنت ذخري وعـــدتي وملاذي وغياثي وعمدتي ورجائي[2]

ونقل النبهاني عن الشيخ عبد العزيز بن علي الزمزمي المكي المتوفى سنة (٩٦٣هـ) أنه قال متوجهًا إلى الرسول بالدعاء والاستغاثة راجيًا منه تفريج الكرب والهموم وقد افتتح الأبيات بقوله :

يا حبيب الإله يا أعظم الخلق اختصاصًا ورفعـــة واجتبـــاء
يا منيع الحمى إليك التجائي من عني ما جـــددت منـــه لجاء
من به الملتجيء يؤول لخير ويعـــود ابتآســـه نعمـــاء
نفحة لمحـــة غياثًا عيـــاذًا عطفة جذبـــة جـــوابًا نـــداء
ضقت ذرعًا وسوح بابك رحب يسع المقتريـــن والأغنيـــاء
كم هموم من الديون علتني أنا في فكرها صبـــاح مساء
ثقلت عند حملها غير أني بك أرجو وضعًا لهـــا أو وفـــاء
أنت في كل مطلب نصب عيني لا أرى لي إلى سواك التجاء

---

(١) « شواهد الحق » للنبهاني (ص ٣٥٠) .

(٢) « شواهد الحق » للنبهاني (ص٣٥٢) .

يا مرجى الخطوب أنت المرجى عندما ترجى الخطوب الرجاء
عظمت كربتي فجئتك قاصداً قاصداً للعظائم العظماء
وأجزني على الصراط إذا ما صح هول الجواز أن لا نجاء
يا ملاذي إذا الموازين وازت عملي وهو لا يوازي الهباء
يا عياذاً إذا تطايرت الصحف يميناً ويسرة ووراء
يا أماني من خيفتي هد روعي إن روعي أغرى به العرواء
يا غياثي إذا دنا لهب الشمس وأذكى لعابها الرمضاء
أنت لي جنة هناك ودرع سابغ أتقي به اللأواء[1]

ونقل النبهاني أيضاً عن محمد الجمال الحلبي أنه قال متوجهاً إلى الرسول ﷺ مستغيثاً به ولائذاً ومستنصراً :

يا ملاذي يا منجدي يا منائي يا معاذي يا مقصدي يا رجائي
يا نصيري يا عمدتي يا مجيري يا خفيري يا عدتي يا شفائي
أدرك أدرك أغث أغث يا شفيعي عند ربي واعطف وحبه الرضاء
أنت عوني وملجأي وغياثي وجلا كربتي وأنت غنائي[2]

ونقل النبهاني عن مصطفي البابي الحلبي أنه قال متوجهاً إلى الرسول ﷺ بالدعاء والاستغاثة وناصحاً لكل الناس أن يتوجهوا إليه بجميع مطالبهم قال :

وإن ضقت ذرعاً من تعاظم ما مضى فلا تنس عفواً اللّه فالعفو أرحب
ولذ بجانب الفاتح الخاتم الذي به يطمئن الخائف المترقب

---

(١) « شواهد الحق » للنبهاني (ص٣٥٣) .

(٢) « شواهد الحق » للنبهاني (ص٣٥٥) .

إذا الخطب أبدى ناجذيه فناده تجد خير جار في الملمات يندب
وإن لدغتك الموبقات فداوها به فهو ترياق الخطوب المجرب
به تكشف الغمى به يدفع البلا به الداء يستشفى به الصدع
إليك رسول اللَّه قد جاء ضارعًا أخو عثرة يرجو الإقالة مذنب
فبابك باب اللَّه ما عنه مذهب وطالبه من غير بابك يحجب
أغثني تداركني أجرني فإنني لقى أن تراخي عنه لطفك يعطب
غريق ذنوب خانه الحول فاغتدى بملتطم الأمواج يطفو ويرسب
ذنوب يحتل المعذب فالخوف غالب ولكني رجائي في جنابك أغلب[1]

ونقل عن عبد الغني النابلسي أنه قال متوجهًا إلى الرسول بالدعاء والاستغاثة :

يا بهجة الكونِ يا طه الرسول ومن له مقام عظيم كله أدب
يدعوك مسكينك العبد الذي بطشت أيد العباد به والقلب مكتئب
فاكشف له كربة أودت بمهجته يا خير من كشفت عنا به الكرب
وما دعوناك في تفريج شدتنا إلا لأنك في تفريجها سبب[2]

ونقل النبهاني أيضًا عن عبد اللَّه الشبراوي المصري المتوفي سنة (١١٧٢هـ) حين زيارته للنبي ﷺ :

يا أخا الأشواق هذا المصطفى بث شكواك له وانتحـــــب
واكحل الآمـــاق مـــن تربته ينجلي عنك جميع النصـــب
وتذلل وتضـــرع وابتهـــل وتوسع في الأماني واطلـــب

(١) « شواهد الحق » للنبهاني (ص٣٦٣) .
(٢) « شواهد الحق » للنبهاني (ص٣٦٤) .

فهو بحر زاخـــــــر مـــن جاءه طالبًـــــا فاز بأسنـــى مطلب[1]

ونقل النبهاني عن مصطفي البكري شيخ الطريقة الخلوتية أنه حكى عن محمد الحنفي الحكاية التالية :

أن محمد الحنفي فرش سجادته على البحر وقال لمريده : قل يا حنفي وامش . فمشى المريد خلفه فخطر له لم تقول يا حنفي هلا قلت يا اللَّه ؟ فلما قالها غرق فأمسك الشيخ بيده وقال له : أنت الحنفي تعرفه فكيف باللَّه فإذا عرفت اللَّه فقل يا اللَّه[2] .

وهذه القصة وأمثالها توضح لنا مدى الوقاحة التي وصل إليها المتصوفة حيث إنهم ارتفع عنهم خوف اللَّه عز وجل وأعرضوا عنه بالكلية حتى وصل بهم الأمر إلى أن يقولوا: إن من توجه إلى اللَّه بالدعاء والاستغاثة فإن مصيره الهلاك بخلاف من استغاث بغير اللَّه من الأنبياء والأولياء فإن النجاة لهم حتمية وهذا يدل على مدى انحطاط المتصوفة وإيغالهم في الشرك باللَّه حيث جعلوه دينهم الذي يدينون به واعتبروا توحيد اللَّه من موارد الهلاك والدمار كما هو واضح أمامنا في هذه القصة التي فيها الجرءة على اللَّه والاستهانة به، وبالفعل مثل هذا الكلام لا يمكن أن يخرج من إنسان فيه مثقال ذرة من إيمان وإنما يمكن أن يخرج من إنسان انسلخ قلبه من الإيمان باللَّه وبرسوله محمد ﷺ .

والخلاصة بعد إيرادنا تلك المقالات الشعرية عن المتصوفة ومن سار

---

(١) « شواهد الحق » للنبهاني » (ص٣٦٥) .

(٢) « شواهد الحق » للنبهاني (ص٧٤٧) وانظر كذلك في استغاثات المتصوفة بالرسول : الكتب التالية : كتاب « منتخب التصوف لماء العينين » (ص٤) ، وكذلك كتاب « قصيدة زاد القيامة » لمحمد أبي الهدى الرفاعي (ص١٧) ، وكذلك « الدرة الخريدة شرح الياقوتة الفريدة » لمحمد فتحا (١/ ٧١، ٨٠ ، ٨١) ، وكذلك « شرح منحة الصفا » (ص١١٠) .

على نهجهم من القبوريين التي مدحوا فيها الرسول وتجاوزوا فيه الحد حيث غلوا في الرسول ورفعوه إلى منزلة الألوهية والربوبية نستطيع أن نقول : إن المتصوفة قد وقعوا في انحراف عقدي خطير جداً حيث توجهوا إلى الرسول بالدعاء والاستغاثة طالبين منه غفران الذنوب وتفريج الكروب وغير ذلك من المطالب تاركين اللَّه عز وجل وراء ظهورهم معرضين عن دعائه سبحانه وتعالى الذي قال في كتابه : ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1] .

وقال سبحانه : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[2] .

وبما أن الدعاء يعتبر عبادة من أجل العبادات فإن صرفه للرسول ﷺ يعتبر شركًا باللَّه سبحانه وتعالى وذلك لأن الرسول عبد من عباد اللَّه ولا يستحق شيئًا من حقوق الألوهية بل هو ﷺ كان يعبد ربه ويصلي الليل حتى تتفطر قدماه وكان يستغفر اللَّه كثيراً ﷺ .

ولأن غفران الذنوب وتفريج الكروب والإنجاء من المهالك في الدنيا والآخرة خاص باللَّه سبحانه وتعالى قال تعالى : ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾[3] والجواب لا أحد يغفر الذنوب إلا اللَّه سبحانه وتعالى لا نبيًا مرسلاً ولا ملكًا مقربًا ولا وليًا.

وعلى هذا فالمتصوفة بتوجههم بالدعاء إلى الرسول والاستغاثة به وطلب غفران الذنوب منه يعتبروا قد وقعوا في الإشراك باللَّه غيره لأن الدعاء عبادة فصرفه لغير اللَّه يعتبر شركًا باللَّه سبحانه وتعالى .

---

(١) غافر : (٦٠) .

(٢) البقرة : (١٨٦) .

(٣) آل عمران : (١٣٥) .

المطلب الثاني

أهم الشبه التي يستدل بها الصوفية لتجويز التوجه إلى النبي ﷺ والأولياء بالدعاء والاستغاثة من دون اللَّه

إن الشبه التي يوردها الصوفية ليحتجوا بها على جواز التوجه إلى النبي ﷺ والأوليـاء كثيرة جدًا يصعب حصرها وأهم الشبه تنحصر في الأشياء التالية :

أولاً : سوء فهم المتصوفة للأحاديث الواردة في التوسل بالنبي ﷺ وعدم تفريقهم بين التوسل بالنبي ﷺ وبين دعائه والاستغاثة به من دون اللَّه حيث إننا إذا نظرنا في كتب المتصوفة نرى أنهم دائمًا يوردون الأحاديث الواردة في التوسل المشروع ليحتجوا بها على جواز التوجه إلى النبي ﷺ بالدعاء والاستغاثة وعلى جواز التوسل بذاته مع أننا إذا نظرنا في الأحاديث التي تتكلم عن توسل الصحابة بالنبي ﷺ فإننا نراها لا تخرج عن شيء واحد ألا وهو التوسل بدعاء النبي ﷺ حيث إن الصحابة كانوا يأتون إلى النبي ويطلبون منه الدعاء فيدعو لهم الرسول وهنا لا نزاع بيننا وبين المتصوفة في هذا التوسل ولكن هذا الآن غير ممكن لأن الرسول قد مات ثم إن الاستدلال بأحاديث التوسل المشروع على جواز التوسل الممنوع ألا وهو التوسل بذات النبي يعتبر استدلالاً بنص ليس نصًا في محل النزاع بل هو خارج عنه ولذا فلن أناقش المتصوفة في الأحاديث التي وردت في توسلات الصحابة بدعائه في حياته لأن هذا ليس محل النزاع بيننا وبينهم واستدلالهم بهذه الأحاديث على جواز التوسل بذات النبي وجاهه ومكانته عند اللَّه والتوجه إليه بالدعاء والاستغاثة كما يفعل المتصوفة هذا يعتبر استدلالاً باطلاً

لأنه ليس هناك ولو نصًا واحدًا من كتاب اللَّه ولا من سنة رسول اللَّه يجيز التوجه إلى النبي بالدعاء والاستغاثة بل العكس كل النصوص تحذر من صرف العبادات لغير اللَّه كائنًا من كان .

ثانيًا : النصوص التي تثبت لنا على أن المتصوفة يخلطون بين التوسل بالنبي ﷺ وبين دعائه والاستغاثة به وأنهم يرون الكل بمعنى واحد .

فقال قال النبهاني :

« وينبغي للزائر أن يكثر من الدعاء والتضرع والاستغاثة والتشفع والتوسل والتوجه به ﷺ فجدير بمن استشفع به أن يشفعه اللَّه تعالى فيه فإن كلاً من الاستغاثة والتوسل والتشفع والتوجه للنبي كما في تحقيق النصرة ومصباح الظلام وغيرهما واقع في كل حال قبل خلقه وبعده في مدة حياته في الدنيا وبعد موته في مدة البرزخ وبعد البعث في عرصات القيامة » .

واستدل النبهاني في الاستشفاع به قبل خلقه بقصة آدم وفي حياته بحديث الضرير[1] .

مما تقدم يتضح لنا أن النبهاني لا يرى فرقًا نهائيًا بين التوسل بالنبي ﷺ وبين التوجه إليه بالدعاء والاستغاثة حيًا وميتًا ومما يدل على هذا قول النبهاني في مكان آخر من نفس الكتاب وهو يصف الرسول ﷺ بأوصاف لا تليق إلا باللَّه حيث قال :

« فهو الوسيلة إلى نيل المعالي واقتناص المرام والمفزع يوم الجزع والهلع لكافة الرسل الكرام واجعله أمامك فيما نزل بك من النوازل وأمامك

---

(١) « الأنوار المحمدية » للنبهاني (ص٦٠٤) .

فيما تجادل من القرب والمنازل فإنك تظفر من المراد بأقصاه وتدرك رضا من أحاط بكل شيء علمًا وأحصاه »[1] .

وقال النبهاني أيضًا :

« لقد اتفق العلماء العارفين على جواز التوسل به عليه الصلاة والسلام إلى اللَّه لقضاء الحاجات في حياته وبعد الممات وقد صار من المجربات أن من استغاث به ﷺ بإخلاص وصدق التجاء تقضى حاجته مهما كانت ولم يحصل التخلف لأحد إلا من ضعف اليقين وحصول التردد وعدم صدق الالتجاء »[2] .

ومن المتصوفة الذين خلطوا بين التوسل بالنبي ﷺ وبين دعائه والاستغاثة به نور الدين علي بن أحمد السمهودي المتوفي (٩١١هـ) فقد قال :

« اعلم أن الاستغاثة والتشفع بالنبي ﷺ وبجاهه وبركته إلى ربه تعالى من فعل الأنبياء والمرسلين وسير السلف الصالح واقع في كل حال قبل خلقه وبعد خلقه في حياته الدنيوية ومدة البرزخ وعرصات القيامة »[3] .

وقد استدل بنفس الأدلة التي استدل بها النبهاني :

ومن المتصوفة الذين خلطوا بين التوسل بالنبي ﷺ وبين التوجه إليه بالدعاء والاستغاثة سلامة العزامي .

فقد قال بعد أن أورد حديث خطيئة آدم :

« وفي هذا الحديث التوسل برسول اللَّه ﷺ قبل أن يتشرف هذا العالم

---

(١) «الأنوار المحمدية » للنبهاني (ص٦٠٥) .

(٢) « رحمة اللَّه على العالمين » للنبهاني (ص٨١٤ ـ ٨١٥).

(٣) « وفاء الوفاء بأخبار المصطفى » للسمهودي (٤/ ١٣٧١) .

بوجوده فيه وأن المدار في صفة التوسل على أن يكون للمتوسل به القدر الرفيع عند ربه وأنه لا يشترط كونه حيًّا في دار الدنيا ومنه يعلم أن القول بأن التوسل لا يصح إلا وقت حياته في دار الدنيا قول من اتبع هواه بغير هدى من اللَّه »[1] .

واستدل العزامي أيضًا على جواز التوسل بالنبي ﷺ وندائه في مغيبه في حياته وبعد مماته بحديث الضرير حيث قال بعد إيراده لحديث الأعمى:

« وهو صريح في أمره ﷺ لذوي الحاجات بالتوسل به وندائه في مغيبه في حياته وبعد وفاته ﷺ وقد فهم الصحابة منه ذلك »[2] .

ومن المتصوفة الذين خلطوا بين التوسل بالنبي ﷺ والتوجه إليه بالدعاء والاستغاثة زيني دحلان حيث قال :

« فالتوسل والتشفع والاستغاثة كلها بمعنى واحد وليس لها في قلوب المؤمنين معنى إلا التبرك بذكر أحباء اللَّه تعالى لما ثبت أن اللَّه يرحم العباد بسببهم سواء كانوا أحياء أو أمواتًا »[3] .

ويقول زيني دحلان :

« ولا فرق في التوسل بين أن يكون بلفظ التوسل أو التشفع أو الاستغاثة أو التوجه لأن التوجه من الجاه وهو علو المنزلة وقد يتوسل بذي الجاه إلى من هو أعلى منه جاهًا والاستغاثة معناها طلب الغوث والمستغيث

---

(١) « البراهين الساطعة » للعزامي (ص٣٩٤) .

(٢) « البراهين الساطعة » للعزامي (ص٣٩٦) .

(٣) « الدرر السنية في الرد على الوهابية » (ص١٤) .

يطلب من المستغاث به أن يحصل له الغوث من غيره وإن كان أعلى منه فالتوجه والاستغاثة به ﷺ وبغيره ليس لها معنى في قلوب المسلمين إلا طلب الغوث حقيقة من اللَّه تعالى ومجازًا بالتسبب العادي من غيره ولا يقصد أحد من المسلمين غير ذلك المعنى فالمستغاث به حقيقة هو اللَّه وأما النبي ﷺ فهو واسطة بينه وبين المستغيث »[1] .

المناقشـــة

إن التوسل بالنبي ﷺ منه ما هو مشروع ومنه ما هو مبتدع فالتوسل المشروع هو التوسل بالإيمان بالنبي ﷺ وبطاعته ومحبته وكذلك التوسل بدعائه كما كان الصحابة يأتون إليه ويطلبون منه الدعاء .

وأما التوسل الممنوع هو التوسل بذات النبي ﷺ كما يفعل كثير من المتصوفة .

وإليك التفصيل في هذا :

أما التوسل بالإيمان بالنبي ﷺ وبطاعته ومحبته فهو من الأعمال الصالحة والأعمال الصالحة من الوسائل المشروعة التي يتقرب بها الإنسان إلى ربه .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّه :

« وهذا التوسل بالإيمان به وطاعته فرض على كل أحد في كل حال باطنًا وظاهرًا في حياة رسول اللَّه ﷺ وبعد موته في مشهده ومغيبه لا يسقط

---

(١) « الدرر السنية في الرد على الوهابية » (ص١٧) وانظر كذلك نحوه في كتاب « سعادة الدارين في الرد على الفرقتين » للسمنودي (ص٢٧٥) .

التوسل به بالإيمان به وبطاعته عن أحد من الخلق في حال من الأحوال بعد قيام الحجة عليه إلا بعذر من الأعذار ولا طريق إلى كرامة اللَّه ورحمته والنجاة من هوانه وعذابه إلا التوسل بالإيمان به وبطاعته وهو ﷺ شفيع الخلائق صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون فهو أعظم الشفعاء قدرًا وأعلاهم جاهًا عند اللَّه وقد قال تعالى عن موسى : ﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾[1] .

وقال عن المسيح : ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[2] ومحمد ﷺ أعظم جاها من جميع الأنبياء والمرسلين لكن شفاعته ودعاؤه إنما ينتفع بهما من شفع له الرسول ﷺ ودعا له فمن دعا له الرسول وشفع له توسل إلى اللَّه بشفاعته ودعائه كما كان الصحابة يتوسلون إلى اللَّه بدعائه وشفاعته وكما يتوسل الناس يوم القيامة إلى اللَّه تبارك وتعالى بدعائه وشفاعته صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم تسليمًا.

ولفظ التوسل في عرف الصحابة كانوا يستعملونه في هذا المعنى والتوسل بدعائه وشفاعته ينفع مع الإيمان به وأما بدون الإيمان به فالكفار والمنافقون لا تغني عنهم شفاعة الشافعين في الآخرة »[3] .

ومما يدل على مشروعية التوسل بدعاء النبي ﷺ ما رواه شريك بن عبد اللَّه بن أبي غر أنه سمع أنس بن مالك يذكر أن رجلاً دخل يوم الجمعة من باب كان وجاه المنبر ورسوله ﷺ قائم يخطب فاستقبل رسول اللَّه ﷺ قائمًا فقال : يا رسول اللَّه هلكت المواشي وانقطعت السبل فادع اللَّه يغثنا

---

(١) الأحزاب : (٦٩) .

(٢) آل عمران : (٤٥) .

(٣) « التوسل والوسيلة » لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص٥) .

قال فرفع رسول اللَّه ﷺ يديه فقال : « **اللهم اسقنا اللهم اسقنا** » قال أنس : ولا واللَّه ما نرى في السماء من سحاب ولا قزعة ولا شيئًا وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار قال فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت قال واللَّه ما رأينا الشمس ستًا ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة ورسول اللَّه ﷺ قائم يخطب فاستقبله قائمًا فقال يا رسول اللَّه : هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع اللَّه يمسكها قال فرفع رسول اللَّه ﷺ يديه ثم قال : « **اللهم حوالينا ولا علينا اللهم على الآكام والظراب والأودية ومنابت الشجر** » قال قال فانقطعت وخرجنا نمشي في الشمس قال شريك : فسألت أنسًا أهو الرجل الأول ؟ قال : لا أدري »[1] .

ووجه الاستدلال بهذا الحديث هو أن هذا الصحابي الجليل جاء إلى الرسول ﷺ وطلب منه أن يدعو اللَّه عز وجل من أجل إنزال المطر وقد دعا الرسول ﷺ ربه فاستجاب له فسقى البلاد والعباد وهذا يدل على مشروعية التوسل بدعاء النبي ﷺ وذلك بأن يأتي الإنسان إلى الرسول كما أتى هذا الصحابي إليه ويطلب منه الدعاء وبما أن الرسول ﷺ قد مات فإن هذا التوسل الآن غير ممكن ولذا فالتوسل الباقي الآن بالنبي ﷺ هو التوسل إلى اللَّه بطاعته وحبه والإيمان به أما التوسل بدعائه فغير ممكن ومن زعم هذا فليس له أي دليل يستند عليه إلا اتباع الأهواء فقط لا غير .

وأما التوسل الممنوع هو التوسل بذات النبي ﷺ وقد قال بذلك المتصوفة وغيرهم من عباد القبور كما سبق ذكره .

---

(١) « صحيح البخاري » مع الفتح (١/ ٥٠١) .

ثالثًا : شبه الصوفية على جواز التوسل بالذوات :

وقد احتج المتصوفة لتجويز هذا التوسل بالحديثين الآتيين وهما :

أولاً : حديث الضرير الذي رواه عثمان بن حنيف أن رجلاً ضريراً أتى النبي ﷺ فقال : ادع اللَّه أن يعافيني قال : « **إن شئت دعوت لك وإن شئت أخرت ذاك فهو خير**» وفي رواية : «**وإن شئت صبرت فهو خير لك**» فقال : ادعه فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه فيصلي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء : « **اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه فتقضي لي اللهم فشفعه في وشفعني فيه** » قال ففعل الرجل فبرأ »[1] .

وقد استدل المتصوفة كالنبهاني والعزامي وزيني دحلان والعلوي والسمهودي[2] بهذا الحديث على جواز التوسل بذات النبي ﷺ وبنوا على ذلك على أن التوسل به باق ولو بعد موته ولم يقفوا عند الرسول بل قالوا : يجوز التوسل بذوات الأولياء أحياءً وأمواتًا وذلك لأن النبي ﷺ علم الأعمى أن يتوسل به في دعائه وفعل الأعمى ذلك فعاد بصيراً هذا هو وجه استدلال المتصوفة بهذا الحديث وياليتهم وقفوا عند الاستدلال به على جواز التوسل بذات النبي والصالحين وذلك حتى يهون الشر وإن كان التوسل بالذوات هو الباب الذي وقع عن طريقه كثير من الأمة الإسلامية في الإشراك باللَّه .

بل تجاوزوا ذلك فأجازوا التوجه إلى الرسول وغيره من الصالحين

---

(١) « جامع الترمذي » مع شرح تحفه الأحوذي (١٠/ ٣٢) .

(٢) انظر « البراهين الساطعة » للعزامي (ص٣٩٤هـ) و « مفاهيم يجب أن تصحح » للعلوي (ص٥٢) و« الدرر السنية في الرد على الوهابية » لدحلان (ص٨) و« وفاء الوفاء بأخبار المصطفى » للسمهودي و« الأنوار المحمدية » للنبهاني (ص٦٠٤) .

بالدعاء والاستغاثة كما سبق ذكره في المطلب الأول من هذا المبحث .

ولو نظرنا إلى هذا الحديث وفهمنا معناه الفهم الصحيح سنرى أنه لا حجة فيه للمتصوفة وغيرهم الذين استدلوا به على جواز التوسل بذات النبي وغيره من الأولياء والصالحين بل الحديث دليل على التوسل المشروع بالنبي ﷺ وهو التوسل بدعائه وذلك لأنه لو كان التوسل بذات النبي كاف بدون التوسل بدعائه صلى اللَّه عليه وسلم لما جاء ذاك الصحابي الجليل إلى النبي، وطلب منه الدعاء وإنما لاكتفى بتوسله بذات النبي ﷺ والتوجه إليه بالدعاء والاستغاثة كما يفعل المتصوفة هذا اليوم ولكن لما كان التوسل المشروع إلى اللَّه هو التوسل بدعاء النبي ﷺ أتى إلى الرسول ﷺ وطلب منه أن يدعو اللَّه له وعلى هذا فالحديث دليل عليهم لا لهم كما وهم المتصوفة والقبوريون عامة .

وإليك أقوال العلماء في تحليل ألفاظ هذا الحديث والأحكام التي تستفاد منه :

فمن العلماء الذين حللوا ألفاظ هذا الحديث تحليلاً دقيقًا الشيخ محمد نسيب الرفاعي فقد قال رادًا على الذين يستدلون بهذا الحديث على مشروعية التوسل بذات النبي ﷺ :

« إن قول الأعمى : « ادع اللَّه أن يعافيني » فيه بيان واضح جلي لقصد الأعمى من المجيء وهو أنه ما جاء إلا من أجل أن يدعو له رسول اللَّه ﷺ بالشفاء من ضره وإن قوله ﷺ مجيبًا للأعمى : « **إن شئت دعوت وإن شئت صبرت وهو خير** » لدليل آخر على أن الأعمى ما جاء إلا من أجل الدعاء وفيه تخيير من رسول اللَّه ﷺ بالدعاء أو الصبر حتى إذا شاء الأعمى الدعاء دعى

له وفي تخييره هذا وعد بالدعاء إن شاءه .

وإن إصرار الأعمى على الدعاء بقوله : « فادعه » لدليل ثالث على أن مجيئه لم يكن إلا من أجل الدعاء ومن إصراره يفهم أن رسول اللَّه ﷺ دعا له لأنه وعده بذلك إذا شاء الدعاء وقد شاء بقوله : « فادعه » على أن رسول اللَّه ﷺ أحب أن يكون للأعمى كذلك مشاركة في الدعاء ولكنه لم يترك الأعمى أن يدعو ربه بما شاء بل علمه دعاءً خاصًا وأمره أن يدعو اللَّه به بالإضافة إلى دعائه ﷺ .

وإن قول الأعمى في آخر الدعاء الذي علمه إياه رسول اللَّه ﷺ : «اللهم شفعه فيّ » لدليل رابع على الدعاء .

والشفاعة من رسول اللَّه ﷺ لا تسمى شفاعة ولا تكون إلا بدعاء الشافع للمشفوع له فدعاء الأعمى أن يقبل اللَّه شفاعة رسوله فيه يدل على أن رسول اللَّه قد دعا له فعلاً والأعمى يطلب من اللَّه قبول دعاء رسول اللَّه ﷺ »[1] .

ثم قال الشيخ نسيب الرفاعي :

« فإذا استجمعنا هذه الأدلة على ثبوت دعاء رسول اللَّه ﷺ للأعمى توحي لنا أمرًا هامًا يدور عليه مآل الحديث ونستكشف معناه بشكل واضح وهو أن معنى « اللهم إني أسألك بنبيك » أي بدعاء نبيك ولا يفهم منه التوسل بذاته ﷺ ولا كان هذا مراد الأعمى من مجيئه إلى الرسول ﷺ حتى وإن معنى التوسل المتبادر إلى أذهان الصحابة رضي اللَّه عنهم في ذلك الوقت كان محصورًا فيها في طلب الدعاء من المتوسل به وليس له المعنى

(١) « التوصل إلى حقيقة التوسل المشروع والممنوع » لمحمد نسيب الرفاعي (ص٢٢٩) .

المتعارف عليه عند البعض في زمننا الحاضر أي التوسل بذات المتوسل به فقد كان مثل هذا التوسل ينفر منه الصحابة لأنه من مفاهيم الجاهلية التي من أجل وجودها بعث اللَّه رسوله إلى الناس كافة »[1] .

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّه مرجحًا أن الأعمى توسل بدعاء النبي ﷺ ليرد إليه بصره ولم يتوسل بذاته كما يزعم الكثيرون من المتصوفة وغيرهم :

« إن دعاء الموتى والغائبين من الأنبياء والملائكة والصالحين والاستغاثة بهم والشكوى إليهم لم يفعله أحد من السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ولا رخص فيه أحد من أئمة المسلمين.

وحديث الأعمى هو من القسم الثاني من التوسل بدعائه فإن الأعمى قد طلب من النبي ﷺ أن يدعو له بأن يرد اللَّه عليه بصره فقال له : « **إن شئت صبرت وإن شئت دعوت لك** » فقال : « بل ادعه » فأمره أن يتوضأ ويصلي ركعتين ويقول : « **اللهم إني أسألك بنبيك نبي الرحمة يا محمد يا رسول اللَّه إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه ليقضيها اللهم فشفعه فيّ** » فهذا توسل بدعاء النبي ﷺ وشفاعته ودعا له النبي ﷺ ولهذا قال : « وشفعه فيّ » فسأل اللَّه أن يقبل شفاعة رسوله فيه وهو دعاؤه .

وهذا الحديث ذكره العلماء في معجزات النبي ﷺ ودعائه المستجاب وما أظهر اللَّه ببركة دعائه من الخوارق والإبراء من العاهات فإنه ﷺ ببركة دعائه لهذا الأعمى أعاد اللَّه عليه بصره »[2] .

---

(١) « التوصل إلى حقيقة التوسل المشروع والممنوع » لمحمد نسيب الرفاعي (ص٢٣١) .

(٢) « التوسل والوسيلة » لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص٩٢) .

ويقول الشيخ ناصر الدين الألباني بعد أن رد على الذين يحتجون بهذا الحديث على جواز التوسل بذات النبي ﷺ وغيره من الصالحين :

« إذا تبين للقاريء الكريم ما أوردناه من الوجوه الدالة على أن حديث الأعمى إنما يدور حول التوسل بدعائه ﷺ وأنه لا علاقة له بالتوسل بالذوات فحينئذ يتبين له أن قول الأعمى في دعائه « اللهم إني أسألك وأتوسل إليك بنبيك محمد ﷺ » إنما المراد به « أتوسل إليك بدعاء نبيك » أي حذف المضاف وهذا أمر معروف في اللغة كقوله تعالى : ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أي أهل القرية وأصحاب العير ونحن ومخالفونا متفقون على ذلك أي على تقدير مضاف محذوف. . . ».

ثم قال الشيخ الألباني :

« وثمة أمر آخر جدير بالذكر وهو أنه لو حمل حديث الضرير على ظاهره وهو التوسل بالذات لكان معطلاً لقوله فيما بعد : « اللهم فشفعه فيّ وشفعني فيه » وهذا لا يجوز كما لا يخفى فوجب التوفيق بين هذه الجملة والتي قبلها وليس ذلك إلا على ما حملناه من أن التوسل كان بالدعاء فثبت المراد وبطل الاستدلال به على التوسل بالذات المحمدية والحمد للّه »[1] .

والخلاصة أن حديث الضرير ليس فيه أي دليل للذين يقولون بجواز التوسل بذات النبي ﷺ حيًّا وميتًا وإنما هو دليل عليهم لأنه لا يدل إلا على جواز التوسل بدعاء الرسول ﷺ كما كان يفعل كثير من الصحابة في حياته حيث كانوا يأتون إلى النبي ويطلبون منه الدعاء ومن جملة الصحابة هذا الصحابي الجليل الذي عمي بصره فأتى إلى النبي ﷺ وطلب منه أن يدعو

---

(١) « التوسل أنواعه وأحكامه » للشيخ محمد ناصر الدين الألباني (ص٧٦) .

اللَّه له فدعا له فبريء وعلى هذا فلا حجة للمتصوفة في هذا الحديث.

وبالإضافة إلى ذلك فإن المتصوفة يستدلون بهذا الحديث على جواز التوجه بالدعاء والاستغاثة إلى النبي ، والأولياء كما اتضح لنا ذلك في الأناشيد الشعرية التي قالها المتصوفة والتي من أولها إلى آخرها شرك صريح باللَّه عز وجل وتأليه الرسول ﷺ .

ولو نظرنا إلى حديث الأعمى فإننا لا نجد فيه ولو لفظًا واحدًا من قريب أو بعيد فيه إشارة إلى جواز التوجه إلى النبي رأسًا بالدعاء والاستغاثة كما رأينا في الأبيات السابقة التي توجه فيها المتصوفة إلى الرسول ﷺ وعلى هذا فإنني أقول : إن حديث الأعمى بالحقيقة ليس نصًا في محل النزاع وإنما هو شيء خارج عنه فإن نزاعنا مع المتصوفة الذين يدعون الأنبياء والأولياء ليس في التوسل فحسب بنوعيه المشروع والممنوع وإنما نزاعنا معهم هو في التوجه بالدعاء والاستغاثة إلى الرسول والأولياء الذي يفعلوه يوميًا ويسمونه توسلاً بالأنبياء والأولياء مع أنه ليس كذلك بل هو دعاء واستغاثة بالرسول ﷺ والأولياء وتسمية المتصوفة له بالتوسل لا يخرجه عن حقيقته وهو كونه دعاء واستغاثة بالرسول ﷺ وليس توسلاً به ولا بالأنبياء والأولياء وهو يعتبر من باب تسمية الشيء بغير اسمه، وتسمية الشيء بغير اسمه لا يغير من حقيقة الشيء فكون الخمر إذا سماه أحد من الناس عسلاً لا يغير ذلك من حقيقة الخمر بل هو باق على حقيقته الخمرية، وكون المتصوفة يسمون دعاء الرسول والاستغاثة به وكذلك الأولياء بأنه توسل بهم لا يغير ذلك من الحقيقة شيئًا بل هو باق على حقيقته وهو كون هذا الذي يفعله المتصوفة مع الرسول والأولياء دعاء واستغاثة بهم من دون اللَّه وهو عين الشرك باللَّه تعالى .

ومن الأدلة التي يستدل بها المتصوفة[1] وغيرهم في جواز التوسل بذوات الأنبياء والصالحين ما رواه أنس بن مالك رضي اللَّه عنه أن عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال : « اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا قال : فيسقون »[2] .

ولقد فهم المتصوفة وغيرهم من القائلين بجواز التوسل بذوات الأنبياء والصالحين إلى اللَّه من هذا الأثر بأن توسل عمر رضي اللَّه عنه إنما كان بجاه العباس رضي اللَّه عنه ومكانته عند اللَّه سبحانه وتعالى وأن توسله كان مجرد ذكر للعباس في دعائه وطلبًا منه للَّه أن يسقيهم من أجله وأما سبب عدول عمر رضي اللَّه عنه عن التوسل بالرسول ﷺ بزعمهم وتوسله بدلاً منه بالعباس رضي اللَّه عنه فإنما كان لبيان جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل ليس غير[3] .

المناقشـــــة

إن فهم المتصوفة هذا فهم خاطيء وتفسيرهم للحديث بهذا التفسير السابق مردود عليهم من وجوه كثيرة :

أولاً : من القواعد المهمة في الشريعة الإسلامية أن النصوص الشرعية

---

(١) استدل به زيني دحلان في « الدرر السنية » (ص١١) وكـذلك « خلاصـة الكلام » له ضمن « شواهد الحق » للنبهاني (ص١٥٧) وكذلك النبهاني في « شواهد الحق» (ص ١٥٧) .

(٢) البخاري مع الفتح (٢/ ٤٩٤) .

(٣) « شواهد الحق » للنبهاني (ص١٥٧) وكذلك « الدرر السنية في الرد على الوهابية » (ص١٣) .

يفسر بعضها بعضًا ولا يفهم شيء منها في موضوع ما بمعزل عن بقية النصوص الواردة فيه وبناءًا على ذلك فحديث توسل عمر السابق إنما يفهم على ضوء ما ثبت من الروايات والأحاديث الواردة في التوسل والجميع متفق على أن في كلام عمر : « كنا نتوسل إليك بنبينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا » شيئًا محذوفًا لابد له من تقدير وهذا التقدير إما أن يكون كنا نتوسل بجاه نبينا وإنا نتوسل بجاه عم نبينا على رأى المخالفين أو أن يكون كنا نتوسل إليك بدعاء نبينا وإنا نتوسل إليك بدعاء عم نبينا على رأينا نحن ولابد من الأخذ بواحد من هذين التقديرين ليفهم الكلام بوضوح وجلاء .

وإذا أردنا أن نعرف أي التقديرين أصح لابد من الرجوع إلى السنة لتبين لنا طريق توسل الصحابة الكرام بالنبي محمد ﷺ .

فإذا نظرنا إلى الصحابة الكرام هل كانوا إذا أجدبت بلادهم يقبع كل واحد منهم في بلده أو كانوا يجتمعون في بلده أو كانوا يجتمعون دون أن يكون معهم رسول اللَّه ﷺ وهو في الحياة فيدعون متوسلين بجاه محمد وذاته قائلين : «اللهم بنبيك محمد وحرمته عندك ومكانته لديك اسقنا الغيث» مثلاً أم كانوا يأتون النبي ذاته فعلاً ويطلبون منه الدعاء فيحقق ﷺ طلبهم ويدعو لهم ويسقون .

أما الأمر الأول وهو التوسل بذات الرسول وحرمته عند اللَّه ومكانته دون الإتيان إلى الرسول ﷺ وطلب الدعاء منه فلا وجود له في السنة النبوية الصحيحة ألبتة ولا عمله الصحابة الكرام وما ورد في ذلك من آثار فهي كلها موضوعة وضعها المغرضون لإيقاع الناس في الشرك في الدعاء .

وأما الأمر الثاني وهو التوسل إلى اللَّه بطلب الدعاء من الرسول ﷺ

فقد ورد كثير منه في السنة النبوية وقد كان الصحابة الكرام يفعلونه حيث أتى كثير من الصحابة يطلب الدعاء من الرسول ﷺ حينما أجدبت بلادهم وإليك حديث واحد يدل على أن الصحابة الكرام كانوا يتوسلون بدعاء النبي ﷺ لا بذاته وجاهه وحرمته ومكانته عند اللَّه .

فقد روى أنس بن مالك رضي اللَّه عنه حديثًا عن رسول اللَّه ﷺ فقال : « بينما رسول اللَّه يخطب يوم الجمعة إذ جاءه رجل فقال : يا رسول اللَّه قحط المطر فادع اللَّه أن يسقينا . فدعا فمطرنا فما كدنا أن نصل إلى منازلنا فما زلنا نمطر إلى الجمعة المقبلة قال : فقام ذلك الرجل أو غيره فقال : يا رسول اللَّه ادع اللَّه أن يصرفه عنا . فقال رسول اللَّه ﷺ : « **اللهم حوالينا ولا علينا** » . قال : فلقد رأيت السحاب يتقطع يمينًا وشمالاً يمطرون ولا يمطر أهل المدينة »[1] .

ووجه الاستدلال بهذا الحديث أن الصحابة الكرام رضوان اللَّه عليهم كانوا يتوسلون إلى اللَّه بدعاء النبي ﷺ لأنهم كانوا يأتون إليه ويطلبون منه الدعاء ولو كانوا يتوسلون بذاته وجاهه ومكانته عند اللَّه لما احتاجوا إلى الاتيان إلى المدينة وطلب الدعاء منه بل كانوا يتوسلون إلى اللَّه وهم في أهليهم فيقولون : « اللهم بنبيك محمد ومكانته وجاهه وحرمته عندك اسقنا الغيث فيسقون » ولكن هذا لم يفعله الصحابة الكرام لأنهم يعلمون بأنه توسل غير مشروع ولذا نقول إن المحذوف في توسل عمر بالعباس هو « إنا كنا نتوسل إليك بدعاء نبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بدعاء عم نبينا فاسقنا » وعلى هذا فتقدير المجيزين للتوسل الممنوع وهو قولهم إن المحذوف في توسل عمر بالعباس هو كلمة الجاه في الموضعين غير صحيح لأنهم ليس

(١) البخاري مع الفتح (٢/٥٠٨) .

لهم دليل يستندون إليه .

وإلى جانب ذلك هناك قرائن كثيرة تدل على أن التوسل من عمر رضي اللَّه عنه كان بدعاء العبـاس لا بذاته ولا بجاهه ولا بمكانته وهذه القرائن هي:

١ ـ عدول عمر عن التوسل بالرسول ﷺ وهو أشرف خلق اللَّه وأن التوسل به أولى من التوسل بغيره وذلك لأن الرسول ﷺ قد مات ولا يمكن طلب الدعاء منه بعد موته ولذلك عدل عمر عن التوسل به إلى التوسل بالعباس بن عبد المطلب لأنه عم رسول اللَّه ﷺ فطلب منه الدعاء ولو كان عمر توجه بجاه العباس إلى اللَّه لتوسل بجاه النبي لأنه أكبر جاهًا عند اللَّه من العباس بن عبد المطلب ولكن لما كان التوسل المشروع هو التوسل بدعاء الرسول ﷺ عدل عن التوسل بالنبي ﷺ لأنه لا يمكن طلب الدعاء منه بعد موته فتوسل بدعاء العباس بن عبد المطلب لطلب السقيا وعلى هذا نقول إن استدلال المجيزين للتوسل بذات الشخص وجاهه ومكانته عند اللَّه بهذا الحديث استدلال باطل لأن الحديث ليس دليلاً لهم بل عليهم ولكن أوقعهم في الاستدلال به إما سوء فهمهم وإما سوء مقصدهم .

ويقول الشيخ محمود شكري الآلوسي رادًا على المتصوفة الذين يستدلون بتوسل عمر بالعباس على جواز التوسل بالذوات مبينًا بأن هذا الحديث دليل على عدم جواز التوسل بالذوات وأن التوسل المشروع هو التوسل بطلب الدعاء من الرجل الصالح إن وجد قال :

« بل هو أقوى الأدلة وأرجحها وأعلاها وأوثقها وأصحها وأصدقها لما ندعيه فإن قول عمر : « اللهم إنا كنا إذا أجدبنا توسلنا . .إلخ » يدل دلالة

ظاهرة على انقطاع ذلك الذي هو الدعاء بدليل قوله : « إنا كنا » ولما كان العباس حيًّا طلبوه منه فلما مات فات فقصرهم له على الموجودين ولو كانوا مفضولين دليل ساطع وبرهان لامع على هذا المراد ولو كان المقصود الذوات كما يقولون لبقيت هذه التوسلات على حالها لم تتغير ولم تتبدل إلى المفضولين بعد وجود الفاضلين لا سيما الأنبياء والمرسلين فتأمل في هذا فإنه أحسن ما في الأوراق ، حقيق بأن يضرب عليه رواق الاتفاق واللَّه يهديك السبيل فهو نعم المولى ونعم الوكيل »[1] .

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رادًا على الذين يقولون بجواز التوسل بذات النبي وذات غيره من الأولياء ومؤكدًا بأن هذا لم يفعله الصحابة ولا التابعون بل هو من البدع المحدثة التي ابتدعها أهل الأهواء :

« فأما التوسل بذاته في حضوره أو مغيبه أو بعد موته مثل الإقسام بذاته أو بغيره من الأنبياء أو السؤال بنفس ذواتهم لا بدعائهم فليس هذا مشهورًا عند الصحابة والتابعين بل عمر بن الخطاب ومعاوية بن أبي سفيان ومن بحضرتهما من أصحاب رسول اللَّه ﷺ والتابعين لهم بإحسان لما أجدبوا استسقوا وتوسلوا واستشفعوا بمن كان حيًّا كالعباس ويزيد بن الأسود ولم يتوسلوا ولم يستشفعوا ولم يستسقوا في هذه الحال بالنبي ﷺ لا عند قبره ولا غير قبره بل عدلوا إلى البدل كالعباس وكيزيد بل كانوا يصلون عليه في دعائهم وقد قال عمر : « اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقينا » .

فجعلوا هذا بدلاً عن ذاك لما تعذر أن يتوسلوا به على الوجه المشروع

---

(١) « غاية الأماني في الرد على النبهاني » (ص٢٨٨) .

الذي كانوا يفعلونه وقد كان من الممكن أن يأتوا إلى قبره ويتوسلوا هناك ويقولوا في دعائهم بالجاه ونحو ذلك من الألفاظ التي تتضمن القسم بمخلوق على اللَّه عز وجل أو السؤال به فيقولون : نسأله أو عليك بنبيك ونحو ذلك مما يفعله بعض الناس . . . » .

ثم قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

« وكذلك علم الصحابة أن التوسل به إنما هو التوسل بالإيمان به وطاعته ومحبته وموالاته والتوسل بدعائه وشفاعته فلهذا لم يكونوا يتوسلون بذاته مجردة عن هذا وهذا فلما يفعل الصحابة رضوان اللَّه عليهم شيئًا من ذلك ولا دعوا بمثل هذه الأدعية وهم أعلم منا وأعلم بما يحب اللَّه ورسوله وأعلم بما أمر اللَّه به ورسوله من الأدعية وما هو أقرب إلى الإجابة منا بل توسلوا بالعباس وغيره ممن ليس مثل النبي ﷺ فدل عدولهم عن التوسل بالأفضل إلى التوسل بالمفضول أن التوسل المشروع بالأفضل لم يكن ممكنا »[1] .

وقال الشيخ نعمان خير الدين الشهير بابن الآلوسي البغدادي مرجحًا بأن توسل عمر بالعباس رضي اللَّه عنهما دليل على جواز التوسل بدعاء الرجل الصالح وعلى منع التوسل بالذوات :

« وأما ذكروه من الاستدلال بتوسل عمر بن الخطاب بالعباس بن عبد المطلب رضي اللَّه تعالى عنهما فالمراد بذلك أن يدعو لهم ، يدل عليه ثبوت دعائه لهم بطلب السقيا كما جاءت به بقية الروايات ومثله استسقاء معاوية في الشام بيزيد بن الأسود فإنه قال : يا يزيد ارفع يديك . فرفع يديه

---

(١) « التوسل والوسيلة » لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص١٢٩ ـ ١٣١) .

ودعا ودعا الناس حتى سقوا . وهذا المعنى هو الذي عناه الفقهاء في باب الاستسقاء ومرادهم التوجه إلى اللَّه تعالى بدعاء الصالحين فإن دعاءهم أرجى للإجابة ولو كان التوسل بالذوات هو المطلوب والمدلول الذي أقاموا عليه الدليل وهم بمقتضى دليلهم لا يخصون الأحياء بهذا التوسل ويستحبون التوسل بالذوات الشريفة ولو بندائهم ودعائهم وأنه على معنى أن الشفعاء يدعون لهم وقالوا : لا مانع من ذلك عقلاً وشرعًا فإنهم أحياء في قبورهم لكان التوسل بالنبي ﷺ في ذلك الأمر المهم وهم عنده بالمدينة أولى » .

ثم أورد توسل عمر بالعباس وقال :

« بل هذا الدليل الذي تمسكوا به من أقوى الأدلة وأرجحها وأظهرها على ما ندعيه من عدم الجواز فهو عليهم لا لهم عند من له أدنى فهم وإنصاف »[1] .

والخلاصة أن توسل عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه بالعباس رضي اللَّه عنه دليل قاطع على أن التوسل المشروع بالنبي ﷺ إلى اللَّه تعالى هو التوسل بمحبته وطاعته والإيمان به لأن هذه الأمور من الأعمال الصالحة والأعمال الصالحة من أهم الأشياء التي يتقرب بها الإنسان إلى اللَّه سبحانه وتعالى ولأنه هو التوسل الباقي بعد موت الرسول حيث أن الصحابة كانوا يأتون إلى النبي ﷺ في حياته ويطلبون منه الدعاء فكان يدعو لهم ولكن لما علم الصحابة رضوان اللَّه عليهم أن التوسل بدعاء النبي ﷺ غير ممكن بعد موته توسلوا إلى اللَّه بدعاء العباس بن عبد المطلب حيث طلب منه عمر أن يدعو فدعا ولم يكن التوسل بالعباس بن عبد المطلب بجاهه كما يزعم المخالفون من المتصوفة وغيرهم وإنما كان التوسل بدعائه ولو كان التوسل

---

(١) « جلاء العينين » لنعمان خير الدين (ص٤٥٦) .

بالذوات والجاه جائزاً لما عدل عمر رضي اللَّه عنه عن التوسل بجاه النبي ﷺ وذاته ومكانته عند اللَّه لأن النبي ﷺ يتفوق على الجميع في هذا .

ولكن لما كان التوسل بذاته وجاهه ومكانته غير جائز عدل عن التوسل به إلى التوسل بالعباس بن عبد المطلب .

وبهذا نخلص إلى أن الأحاديث الصحيحة التي استدل بها المتصوفة على جواز التوجه إلى الرسول بالدعاء والاستغاثة وبالأنبياء والصالحين ليس لهم أي دليل فيها بل هي ضدهم ومشائخ الصوفية لم يقعوا في هذا لعدم فهمهم لها وإنما يستدلون بها لسوء مقصدهم وفساد معتقدهم من أجل أن يبرروا للناس العوام الأعمال الشركية وقد فعلوها فما من بلد إسلامي في هذا العالم الواسع إلاّ ما شاء اللَّه إلا ويمارس الشرك باسم التوسل رغم أن التوسل بالشخص ودعائه والاستغاثة به بينهما فرق كبير جداً ومع هذا فالصوفية يخلطون بينهما عن عمد ويسمون دعاء الرسول والاستغاثة به وكذلك الأولياء بأنه توسل وهذا جهل عظيم وخطأ فادح وقع فيه المتصوفة عن عمد أو خطأ وعن علم أو جهل ، اللَّه أعلم بحالهم .

وللشيخ محمود شكري الآلوسي كلام نفيس في هذا المجال وهذا نصه: فقد قال رحمه اللَّه في كتابه « غاية الأماني في الرد على النبهاني » في معرض رده على النبهاني :

« أقول وباللَّه التوفيق : إن الكلام على ما حواه كلامه من الكذب والزور والبطلان يطول جداً فضلاً عما اشتملت عليه عباراته من الغلط وفساد التركيب وسوء التعبير فكتابه كله ظلمات بعضها فوق بعض فلو تكلمنا على ذلك كله لطال الكلام وكلت عن رقمه الأقلام فإن النبهاني هذا من أعظم

الغلاة المحادين للّه ورسوله وكلامه كله باطل وجهل مركب وبهت لأهل الحق وليس فيه جملة واحدة توافق الحق أصلاً فالحمد للّه الذي خذل أعداء دينه وجعلهم عبرة لأوليائه وعباده المؤمنين » .

ثم دخل الشيخ في التفريق بين دعاء الشخص والاستغاثة به من دون اللّه وبين التوسل به إلى اللّه فقال :

« أما مشروعية الاستغاثة ففيها تفصيل إذ الاستغاثة بالشيء على ما ذكره بعض المحققين : طلب الإغاثة والغوث منه ، كما أن الاستعانة : طلب الإعانة منه فإذا كان بنداء من المستغيث للمستغاث كان ذلك سؤالاً منه وظاهر أن ذلك ليس توسلاً به إلى غيره إذ قد جرت العادة أن من توسل بأحد عند غيره أن يقول لمستغاثه : أستغيثك على هذا الأمر بفلان . فيوجه السؤال إليه ويقصر أمر شكواه عليه ولا يخاطب المستغاث به ويقول له : أرجو منك أو أريد منك وأستغيث بك . ويقول : إنه وسيلتي إلى ربي . وإن كان كما يقول فما قدر المتوسل إليه حق قدره وقد رجا وتوكل والتجأ إلى غيره كيف واستعمال العرب يأبى عنه فإن من يقول : صار لي ضيق فاستغثت بصاحب القبر فحصل الفرج . يدل دلالة جلية على أنه قد طلب الغوث منه ولم يفد كلامه أنه توسل به بل إنما يراد هذا المعنى إذا قال : توسلت أو استغثت إليك بفلان . فيكون حينئذ مدخول الباء متوسلاً به ولا يصح إرادة هذا المعنى إذا قلت : استغثت بفلان . وتريد التوسل به سيما إذا كنت داعيه وسائله بل قولك هذا نص على أن مدخول الباء مستغاث وليس مستغاثًا به والقرائن التي تكتنفه من الدعاء وقصر الرجاء والالتجاء شهود عدول ولا محيد عما شهدت به ولا عدول فهذه الاستغاثة وتوجه القلب إلى المسئول بالسؤال والإنابة محظورة على المسلمين لم يشرعها لأحد من أمته

رسول رب العالمين وهل سمعتم أن أحداً في زمانه ﷺ أو ممن بعده في القرون المشهود لأهلها بالنجاة والصدق ـ وهم أعلم منا بهذه المطالب وأحرص على نيل مثل تلك الرغائب ـ استغاث بمن يزيل كربته التي لا يقدر على إزالتها إلا اللَّه؟! أم كانوا يقصرون الاستغاثة على مالك الأمور ولم يعبدوا إلا إياه ولقد جرت عليهم أمور مهمة وشدائد مدهلمة في حياته ﷺ وبعد وفاته فهل سمعت عن أحد منهم أنه استغاث بالنبي ﷺ أو قالوا : إنا مستغيثون بك يا رسول اللَّه ؟! أم بلغك أنهم لاذوا بقبره الشريف وهو سيد القبور حيث ضاقت منهم الصدور ؟ كلا لا يمكن لهم ذلك وإن الذي كان بعكس ما هنالك فلقد أثنى اللَّه عليهم ورضي عنهم فقال عز من قائل : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾[1] .

مبينًا لنا أن هذه الاستغاثة أخص الدعاء وأجلى أحوال الالتجاء وهي من لوازم السائل المضطر الذي يضطر إلى طلب الغوث من غيره فيخص نداءه لدى استغاثته بمزيد الإحسان في سره وجهره ففي استغاثته بغيره تعالى عند كربته تعطيل لتوحيد معاملته » .

ثم قال : « فلا يقال لأحد حي أو ميت قريب أو بعيد : ارزقني أو أمتني أو أحيي ميتي أو اشف مريضي . إلى غير ذلك مما هو من الأفعال الخاصة بالواحد الأحد الفرد الصمد » .

ثم قال : « والقرآن ناطق بخطر الدعاء عن كل أحد لا من الأحياء ولا من الأموات سواء كانوا أنبياء أو صالحين أو غيرهم وسواء كان الدعاء بلفظ الاستغاثة أو بغيرها فإن الأمور الغير مقدورة للعباد لا تطلب إلا من خالق

---

(١) الأنفال : (٩) .

القدر ومنشيء البشر كيف والدعاء عبادة وهي مختصة به سبحانه »[1] .

ومن الشبه التي يستدل بها المتصوفة على جواز دعاء غير اللَّه والاستغاثة به هو زعمهم بأنهم يدعون الأنبياء والصالحين ليتوسطوا لهم إلى اللَّه .

ومما يدل على هذا قول النبهاني حيث قال :

« وقد يتوسل بذي الجاه إلى من هو أعلى جاهًا منه والاستغاثة طلب الغوث والمستغيث يطلب من المستغاث به أن يحصل له الغوث من غيره وإن كان ذلك الغير أعلى منه فالتوجه والاستغاثة به ﷺ وبغيره ليس لها معنى في قلوب المسلمين غير ذلك ولا يقصد بهما أحد منهم سواه فمن لم ينشرح صدره لذلك فليبك على نفسه والمستغاث به في الحقيقة هو اللَّه تعالى والنبي ﷺ واسطة بينه وبين المستغيث فهو سبحانه مستغاث به والغوث منه خلقًا وإيجادًا والنبي مستغاث والغوث منه سببًا وكسبًا »[2] .

إذا نظرنا في كلام النبهاني السابق نرى بوضوح أن العلة التي وقع بسببها المتصوفة في دعاء غير اللَّه تعالى هي نفس العلة التي وقع بسببها دعاة غير اللَّه عبر التاريخ ألا وهي علة الواسطة حيث إننا لو تتبعنا تاريخ الأمم سنجد بأن من أهم الأشياء التي وقعوا بسببها في الإشراك باللَّه هي دعوى الواسطة .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية كلام نفيس في هذا المجال نريد أن ننقل منه مقتطفات .

---

(١) « غاية الأماني في الرد على النبهاني » (ص٢٥١ ـ ٢٥٢) .

(٢) « شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق » للنبهاني (ص٤٢٧) .

قال رحمه اللَّه بعد أن أثبت بأن الأنبياء والرسل واسطة بين اللَّه وبين الخلق في تبليغ الرسالة بكل ما تحمله هذه العبارة من العقائد والعبادات والأحكام الشرعية بشتى أنواعها .

قال رادًا على الذين يزعمون بأن الأنبياء والأولياء والصالحين وسائط بين اللَّه وبين خلقه في دفع المضار وجلب المنافع :

« وإن أراد بالواسطة أنه لابد من واسطة في جلب المنافع ودفع المضار مثل أن يكون واسطة في رزق العباد ونصرهم وهداهم يسألونه ذلك ويرجعون إليه فيه فهذا من أعظم الشرك الذي كفر اللَّه به المشركين حيث اتخذوا من دون اللَّه أولياء وشفعاء يجتلبون بهم المنافع ويدفعون بهم المضار لكن الشفاعة لمن يأذن اللَّه له فيها حق قال اللَّه تعالى : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ** ﴾[1] .

وقال اللَّه تعالى : ﴿ **قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ** ﴾[2] .

وقالت طائفة من السلف كان أقوام يدعون المسيح والعزير والملائكة فبين اللَّه لهم أن الملائكة والأنبياء لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويلاً وأنهم يتقربون إلى اللَّه ويرجون رحمته ويخافون عذابه قال تعالى : ﴿ **مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ**

---

(١) السجدة : (٤) .

(٢) سبأ : (٢٢ ـ ٢٣) .

اللَّه وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[1].

فبين سبحانه أن اتخاذ الملائكة والنبيين أربابًا كفر فمن جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم ويتوكل عليهم ويسألهم جلب المنافع ودفع المضار مثل أن يسألهم غفران الذنوب وهداية القلوب وتفريج الكروب وسد الفاقات فهو كافر بإجماع المسلمين. . .» .

وأخيرًا قال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن ناقش هذه الشبهة مناقشة طويلة :

« والمقصود هنا أن من أثبت وسائط بين اللَّه وبين خلقه كالوسائط التي تكون بين الملوك والرعية فهو مشرك بل هذا دين المشركين عباد الأوثان كانوا يقولون إنها تماثيل الأنبياء والصالحين وإنها وسائل يتقربون بها إلى اللَّه وهو من الشرك الذي أنكره اللَّه على النصارى حيث قال : ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ »[2] .

ويقول الشيخ عبد اللطيف في رده على ابن جرجيس الذي استدل على جواز دعاء غير اللَّه والاستغاثة به بكونهم وسائط بين اللَّه وبين عباده ، قال :

« فالقول بجواز الاستغاثة بغير اللَّه ودعاء الأنبياء والصالحين وجعلهم وسائط بين العبد وبين اللَّه والتقرب إليهم بالنذر والنحر والتعظيم بالحلف

---

(١) آل عمران : (٧٩ ـ ٨٠) .

(٢) التوبة : (٣١) والموضوع « مجموعة التوحيد » المجلد الأول (ص١١٨ ـ ١٣١) .

وما أشبهه مناقضة ومنافاة لهذه الحكمة التي هي المقصودة بخلق السماوات والأرض وإنزال الكتب وإرسال الرسل وفتح لباب الشرك في المحبة والخضوع والتعظيم ومشاقة ظاهرة للّه ولرسوله ولكل نبي كريم والنفوس مجبولة على صرف ذلك المذكور من العبادات إلى من أهلته لكشف الشدائد وسد الفاقات وقضاء الحاجات من الأمور العامة التي لا يقدر عليها إلا فاطر الأرض والسماوات » .

ثم قال الشيخ عبد اللطيف :

« الوجه الثاني أن هذا بعينه قول عباد الأنبياء والصالحين من عهد قوم نوح إلى أن بعث إليهم خاتم النبيين ولم يزيدوا على ما قال هؤلاء الغلاة فيما انتحلوا من الشرك الوخيم والقول الذميم كما حكى اللّه عنهم ذلك في كتابه الكريم قال تعالى : ﴿ **وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ** ﴾[1] .

وقال اللّه تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ** ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ **فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ** ﴾[3] .

فهذه النصوص المحكمة الصريحة في أن المشركين لم يقصدوا إلا الجاه والشفاعة والتوسل بمعنى جعلهم وسائط تقربهم إلى اللّه وتقضي

---

(١) يونس : (١٨) .

(٢) الزمر : (٣) .

(٤) الأحقاف : (٢٨) .

حوائجهم منه تعالى وقد أنكر القرآن هذا أشد الإنكار وأخبر أن أهله هم أصحاب النار وأن اللَّه تعالى حرم عليهم الجنة دار أوليائه الأبرار وجمهور هؤلاء المشركين لم يدعوا الاستقلال ولا الشركة في توحيد الربوبية بل قد أقروا واعترفوا بأن ذلك للَّه وحده كما حكى سبحانه إقرارهم واعترافهم بذلك في غير موضع من كتابه .

فحاصل ما ذكر من جواز الاستغاثة والدعاء والتعظيم بالنذر والحلف مع نفي الاستقلال وإن اللَّه يفعل لأجله هو عين دعوى المشركين وتعليلهم وشبههم لم يزيدوا عليه حرفًا واحدًا إلا أنهم قالوا قربان وشفعاء والغلاة سموا ذلك توسلاً فالعلة واحدة والحقيقة متحدة . . . »

ثم قال الشيخ عبد اللطيف بعد أن ذكر الوجه الثالث الذي أثبت فيه بأن اللَّه سبحانه وتعالى أمر عباده بإفراده بالدعاء والاستغاثة وإنزال الحاجات به دون غيره حيث أورد آيات وأحاديث كثيرة في هذا المجال وأخيراً قال :

« وعلى القول بجعل الوسائط والشفعاء بين العباد وبين اللَّه تقلع أصول هذا الأصل العظيم الذي هو قطب رحى الإيمان وينهدم أساسه الذي ركب عليه البنيان فأي فرح وأي نعيم وأي فاقة سدت وأي ضرورة دفعت وأي سعادة حصلت وأي أنس واطمئنان إذا كان التوجه والدعاء والاستغاثة والذبح والنذر لغير الملك الحنان المنان . . . فصلاح السماوات والأرض بأن يكون اللَّه سبحانه هو إلهها دون ما سواه ومستغاثها الذي تفزع إليه وتلجأ إليه في مطالبها وحاجاتها . . . . وإن الشرع الذي جاء به محمد ﷺ والسنة التي سنها في قبور الأنبياء والصالحين وعامة المؤمنين تنافي هذا القول الشنيع وتبطله وتعارضه فإنه ﷺ سن عند القبور ما صحت به الأحاديث النبوية

وجرى عليه عمل علماء الأمة من إسلام عند زيارتها والدعاء لأصحابها وسؤال اللَّه العافية لهم من جنس ما شرعه من الصلاة على جنائزهم ونهى عن عبادة اللَّه عند القبور والصلاة فيها وإليها وخص قبور الأنبياء والصالحين بلعن من اتخذها مساجد يعبد فيها اللَّه تعالى ويدعو وتواترت بذلك الأحاديث خرجها أصحاب الصحيحين وأهل السنن ومالك في موطئه فمنها قوله ﷺ : « **اللهم لا تجعل قبرى وثنًا يعبد اشتد غضب اللَّه على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد** »[1] .

وحديث ابن مسعود : « **إن من شر الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد** »[2] .

وحديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه : « **قاتل اللَّه اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد** »[3] .

ثم قال الشيخ عبد اللطيف :

« ومن شم رائحة العلم وعرف شيئًا مما جاءت به الرسل عرف أن هذا الذي قاله الغلاة من جنس عبادة الأصنام والأوثان مناقض لما دلت عليه السنة والقرآن ولا يستريب في ذلك عاقل من نوع الإنسان . . . وأن من أعرض عن اللَّه وقصد غيره وأعد ذلك الغير لحاجته وفاقته واستغاث به ونذر له ولاذ به فقد أساء الظن بربه وأعظم الذنوب عند اللَّه إساءة الظن به فإن المسيء به

---

(١) « موطأ الإمام مالك » (١/ ١٧٢) وأحمد في « المسند » (٢/ ٢٤٦) وصححه الألباني في « تحذير الساجد » (ص٢٤) .

(٢) « مسند أحمد » (١/ ٤٣٥) وصححه ابن حبان (٣٤٠) وصححه الألباني في « تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد » (ص٢٦) .

(٣) « مسند أحمد » (٥/ ١٨٤) وكذلك (٥/ ١٨٦) .

الظن قد ظن به خلاف كماله المقدس فظن به ما يناقض أسماءه وصفاته ولهذا توعد سبحانه وتعالى الظانين به ظن السوء بما لم يتوعد به غيرهم كما قال تعالى : ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾[1] .

وقال تعالى لمن أنكر صفة من صفاته : ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[2] .

وقال تعالى عن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[3] .

قال الشيخ عبد اللطيف :

« أي فما ظنكم أن يجازيكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره وما ظننتم بأسمائه وصفاته وربوبيته من النقص حتى أحوجكم ذلك إلى عبودية غيره فلو ظننتم به ما هو أهله من أنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير وأنه غني عن كل ما سواه فقير إليه كل من عداه وأنه قائم بالقسط على خلقه وأنه المنفرد بتدبير خلقه لا يشرك فيه غيره والعالم بتفاصيل الأمور فلا تخفى عليه خافية من خلقه والكافي لهم وحده لا يحتاج إلى معين والرحمن بذاته فلا يحتاج في رحمته إلى من يستعطفه وهذا بخلاف الملوك وغيرهم من الرؤساء

---

(١) الفتح : (٦) .

(٢) فصلت : (٢٣) .

(٣) الصافات : (٨٥ ـ ٨٧) .

فإنهم محتاجون إلى من يعرفهم أحوال الرعية وحوائجهم من الوسطاء الذين يعينونهم على قضاء حوائجهم وإلى من يسترحمهم ويستعطفهم بالشفاعة فاحتاجوا إلى الوسائط ضرورة لحاجتهم وعجزهم وضعفهم وقصور علمهم .

فأما القادر على كل شيء الغني بذاته عن كل شيء العليم بكل شيء الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء فإدخال الوسائط بينه وبين خلقه تنقص بحق ربوبيته وإلهيته وتوحيده وظن به ظن السوء وهذا يستحيل أن يشرعه لعباده ويمتنع في العقول والفطر وقبحه مستقر في العقول السليمة فوق كل قبح »[1] .

والخلاصة أن شبهة الوساطة التي يحتج بها المتصوفة لدعاء غير اللَّه من الأنبياء والأولياء هي نفس الشبهة التي وقع بسببها أمم كثيرة في الوقوع في الإشراك باللَّه حيث دعوا الأنبياء والأولياء بحجة أنهم يتوسطون لهم إلى اللَّه وقد وصفهم اللَّه تعالى بالمشركين لوقوعهم في دعاء غير اللَّه من الأنبياء والصالحين فكل من فعل مثل فعلهم فهو مثلهم ويتناوله الحكم الذي حكم اللَّه به على أسلافهم من عبدة القبور .

ثم إن اللَّه سبحانه وتعالى أقرب إلينا من حبل الوريد كما قال تعالى : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾[2] فلا حاجة إلى الوسطاء بين اللَّه وبين عباده ولذا فقد أمر سبحانه عباده المؤمنين أن يدعوه ويطلبوا منه ما يريدونه رأسًا بلا وسائط فقال تعالى : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ

---

(١) « منهاج التأسيس في الرد على ابن جرجيس » للشيخ عبد اللطيف نقلاً عن « غاية الأماني » (١/٢٦٣) .

(٢) ق : (١٦) .

عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[2] .

وعلى هذا فحجة المتصوفة بأنهم يدعون الأنبياء والأولياء لأنهم وسطاء بينهم وبين اللَّه حجة باطلة أتوا بها من عند أنفسهم وليس لهم أي دليل يستندون عليه من الكتاب والسنة لإثبات شرعية استدلالهم بهذه الحجة بل إن دعاء الأنبياء والأولياء بهذه الحجة هو عين الشرك باللَّه كما سبق لنا .

المطلب الثالث

حكم التوجه إلى الرسول بالدعاء والاستغاثة

لقد تحدثنا في المطلب الأول من هذا المبحث عن غلو المتصوفة في الرسول ﷺ وأثبتنا ذلك بإيراد عبارات عن أئمة التصوف أنفسهم وقد أوضحنا بأن هذا الغلو بالفعل أوقعهم في انحراف عقدي خطير حيث أدى بهم إلى صرف عبادة من أجل العبادات لغير اللَّه حيث توجهوا إلى الرسول بالدعاء والاستغاثة من دون اللَّه سبحانه وتعالى[3] .

ثم أتبعنا ذلك في المطلب الثاني بذكر أهم الشبه التي يستدل بها المتصوفة لتجويز التوجه إلى الرسول بالدعاء والاستغاثة وبينا بطلان استدلالهم بتلك الشبه التي أوردوها لكي يستدلوا بها على مشروعية دعاء غير

---

(١) غافر : (٦٠) .

(٢) البقرة : (١٨٦) .

(٣) انظر (ص ٤١٨ ـ ٤٣٨) .

اللَّه من الأنبياء والأولياء وقد أكدنا بأن النصوص الصحيحة من السنة النبوية التي أوردها المتصوفة على أنها أدلة مؤيدة لهم بأنها ضدهم[1] .

والآن في هذا المطلب نريد أن نرد على المتصوفة الذين يقولون بجواز التوجه إلى الرسول بالدعاء والاستغاثة وسيشتمل هذا الرد على الإثبات بأن الدعاء عبادة من أجل العبادات وأنه لا يجوز صرفه لغير اللَّه كائنًا من كان وكذا سأتطرق في هذا الرد على بيان حقيقة الرسول محمد ﷺ والتأكيد بأنه عبد من عباد اللَّه لا يستحق شيئًا من حقوق الألوهية كالدعاء والاستغاثة وغيرها من العبادات التي يصرفها المتصوفة له .

وسأتطرق في هذا الرد أيضًا إلى بيان بأن التوجه إلى الرسول ﷺ يعتبر شركًا باللَّه سبحانه وتعالى مع بيان خطورة الشرك .

مكانة الدعاء في العقيدة الإسلامية :

يعتبر الدعاء في العقيدة الإسلامية عبادة من أجل العبادات التي يتعبد بها المؤمن ربه ولعظم مكانته فقد قال عنه الرسول ﷺ : « **الدعاء مخ العبادة** »[2] .

وللدعاء أقسام كثيرة ذكرها العلماء في كتبهم ولكن نظرًا لطولها أريد أن أختصر على أهم الأقسام التي ذكرها المحققون لأقسام الدعاء ولأن هذين القسمين من أقسام الدعاء هما القسمان المتعلقان بهذا البحث حيث أن المتصوفة يفرقون بين دعاء العبادة ودعاء المسألة فيقولون بأنه يجوز التوجه إلى الرسول بالدعاء والاستغاثة لأن هذا دعاء مسألة ونداء وليس دعاء عبادة .

---

(١) انظر (ص٤٣٩ ـ ٤٧٠) .

(٢) « سنن الترمذي » (٥/٤٢٦) .

وقد قسم كثير من العلماء الدعاء إلى قسمين وهما : دعاء عبادة ودعاء مسألة .

ومن هؤلاء العلماء الذين قسموا الدعاء إلى هذين القسمين شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّه فقد قال في تفسير قول اللَّه تعالى : ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[2] .

قال رحمه اللَّه :

« هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعي الدعاء دعاء العبادة ودعاء المسألة فإن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة وهذا تارة ويراد به مجموعهما وهما متلازمان فإن دعاء المسألة هو طلب ما ينفع وطلب كشف ما يضره ودفعه وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود لابد أن يكون مالكًا للنفع والضر ولهذا أنكر تعالى على من عبد من دونه ما لا يملك ضرًا ولا نفعًا وذلك كثير من القرآن الكريم لقوله تعالى : ﴿وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ﴾[3] .

وقال : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ﴾[4] .

فنفى سبحانه عن هؤلاء المعبودين الضر والنفع القاصر والمتعدي فلا يملكون لأنفسهم ولا لعابديهم وهذا كثير في القرآن يبين تعالى أن المعبود

---

(١) الأعراف : (٥٥) .

(٢) الأعراف : (٥٦) .

(٣) يونس : (١٠٦) .

(٤) يونس : (١٨) .

لابد أن يكون مالكًا للنفع والضر فهو يدعو للنفع والضر دعاء المسألة ويدعو خوفًا ورجاءً دعاء العبادة فعلم أن النوعين متلازمان فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة .

وعلى هذا فقوله : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[1] يتناول نوعي الدعاء وبكل منهما فسرت الآية قيل : أعطيه إذا سألني وقيل أثيبه إذا عبدني ، والقولان متلازمان وليس هذا من استعمال اللفظ المشترك في معنييه كليهما أو استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه بل هذا استعماله في حقيقته المتضمنة للأمرين جميعًا فتأمله فإنه موضوع عظيم النفع وقل من يفطن له وأكثر آيات القرآن دالة على معنيين فصاعدًا فهي من هذا القبيل »[2] .

مما سبق تبين لنا أن الدعاء ينقسم إلى قسمين دعاء عبادة ودعاء مسألة وأن كلا النوعين من أنواع الدعاء من خصائص اللَّه تعالى فلا يليق بأحد من الملخوقات كائنًا من كان سواءً كان ملكًا مقربًا أو نبيًا مرسلاً أن يصرف له أي نوع من أنواع الدعاء السابقة وهذا خلافًا لما يزعمه الذين يدعون غير اللَّه ويقولون : إن الآيات القرآنية التي تنهى عن دعاء غير اللَّه إنما هو المقصود بها دعاء العبادة فقط أما دعاء المسألة فإنه يجوز أن يصرف لغيره لأنه ليس عبادة وقد كذبوا فإن الدعاء من أجل العبادات التي يتعبد بها الإنسان المؤمن ربه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

« وكلا نوعي الدعاء مختصان باللَّه تعالى حقان له لا يصلحان لغيره بل

---

(١) البقرة : (١٨٦) .

(٢) « مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية » (١٥/ ١٠ ـ ١١) وكذلك « بدائع الفوائد » لابن القيم (٣/ ٢) .

دعاء غيره بأحد النوعين شرك وذلك من معنى أنه الأحد الصمد فإن كونه أحدًا يوجب أن لا يشرك به في العبادة والاستغاثة فلا يدعى غيره والاسم الصمد جاء معرفًا يبين أنه هو الصمد الذي يستحق أن يصمد إليه بكلا نوعي الصمد وهذان الاسمان الأحد والصمد لم يذكرا في القرآن إلا في هذه السورة - يعني سورة الإخلاص - واللَّه هو المقصود لذاته ولما يطلب منه فهو مقصود مدعو لنفسه كما أنه مقصود مدعو لما يُسأل عنه ويطلب منه وهو الصمد في الأمرين لا يصلح لغيره أن يكون هو المعبود ولا أن يكون هو المتوكل عليه المستعان به المسئول منه »[1] .

وقال الشيخ سليمان بن عبد اللَّه بن محمد بن عبد الوهاب :

« واعلم أن الدعاء نوعان دعاء عبادة ودعاء مسألة ويراد به في القرآن هذا تارة وهذا تارة ويراد به مجموعهما وهما متلازمان» .

ثم قال : «الدعاء عبادة من أجل العبادات بل هو أكرمها على اللَّه فإن لم يكن الإشراك فيه شركًا فليس في الأرض شرك وإن كان في الأرض شرك فالشرك في الدعاء أولى أن يكون شركًا من الإشراك في غيره من أنواع العبادات بل الإشراك في الدعاء هو أكبر شرك المشركين الذين بعث اللَّه إليهم رسول اللَّه فإنهم يدعون الأنبياء والصالحين والملائكة ويتقربون إليهم ليشفعوا لهم عند اللَّه »[2] .

وقال عبد اللَّه القصيمي :

« وقد ورد إطلاق العبادة على دعاء اللَّه بقوله تعالى : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ

---

(١) « بيان تلبيس الجهمية » لابن تيمية (٢/ ٤٥٧ ـ ٤٥٨) .

(٢) « تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد » (ص٢١٩) .

دَاخِرِينَ﴾[1] .

وقوله ﷺ : « الدعاء مخ العبادة »[2] .

والعبادة إذا ورد ذكرها في القرآن أو في السنة مطلقة كقوله : ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[3] وقوله : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[4] وقوله : ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾[5] .

فلا ريب أن العبادة إذا أطلقت كما في هذه الآيات تضمنت الدعاء وغيره من أنواع العبادات . . . ولا يختلف الناس أن من دعا اللَّه فقد قام بجزء من العبادة المأمور بها بل لا يختلفون أن الدعاء من أفضل العبادات كما جاء في الحديث « الدعاء هو العبادة »[6] وذلك لشرفه وسمو منزلته حتى كأنه خلاصة العبادة وأطيبها ولا يختلف الناس أن الدعاء والنداء كانا من أجزاء العبادة . . . وقد نص القرآن والسنة نصًا جليًا علي أن الدعاء عبادة وذلك كقوله تعالى : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[7] .

فإن هذه الآية نص جلي على أن الدعاء عبادة وعلى أنه من أفضل أجزائها وأشرفها

أما النص من السنة على أن الدعـــاء عبـادة فهو قوله ﷺ : « الدعاء هو العبادة »[8] .

---

(١) غافر : (٦٠) .

(٢) « سنن الترمذي » (٥/٤٢٦) .

(٣) الحجر : (٩٩) .

(٤) النساء : (٣٦) .

(٥) الزمر : (٢) .

(٦) « سنن الترمذي » (٥/٤٢٦) .

(٧) غافر : (٦٠) .

(٨) « سنن الترمذي » (٥/٤٢٦) .

ومما سبق يتضح لنا جليًا بأن الدعاء يعتبر عبادة من أهم العبادات التي يتعبد بها المرء ربه وأن الذين يصرفون هذه العبادة لغير اللَّه سبحانه وتعالى قد صرفوا جزءاً من حقوق اللَّه سبحانه وتعالى إلى غيره وما دام الأمر كذلك فكل من صرف شيئًا من الدعاء إلى غير اللَّه سواء كان هذا المدعو ملكًا مقربًا أو نبيًا مرسلاً فقد وقع في الإشراك باللَّه سبحانه وتعالى وهذا ما سأوضحه إن شاء اللَّه فيما يأتي .

والآن بعد أن أثبتنا بأن الدعاء عبادة من أهم العبادات نريد أن نشرع في الرد على المتصوفة وسيشتمل الرد على الأمور التالية :

أولاَ : إثبات بأن الرسول عبد من عباد اللَّه وهذا هو الوصف الذي وصفه اللَّه به وأنه لا يملك لنفسه ضرًا وأنه لا يقدر على تخليص أحد من النار إلا أن يتغمده اللَّه برحمته وأن الشيء الوحيد الذي ينجي الإنسان بسببه هو الإيمان الصادق والعمل الصالح الموافق للكتاب والسنة .

وبعد هذا سأورد الآيات التي تنهى عن الإشراك باللَّه سبحانه وتعالى أحدًا من خلقه كائنًا من كان .

ثم سأتبع ذلك بأقوال العلماء في حكم دعاء الرسول والاستغاثة به .

الرد على الصوفية الذين يقولون بجواز التوجه إلى الرسول ﷺ بالدعاء والاستغاثة :

لقد رأينا في المدائح الصوفية التي أوردتها عن أئمتهم في المطلب الأول من هذا المبحث والتي غلوا فيها غلواً شديداً حتى رفعوا الرسول إلى منزلة الألوهية والربوبية فتوجهوا إليه بالدعاء والاستغاثة وطلبوا منه أموراً لا يجوز طلبها إلا من اللَّه سبحانه وتعالى كغفران الذنوب وتفريج الكروب

وإذهاب الهموم والغموم والنجاة من النار ووصفوه بأنه ملاذهم الوحيد الذي لا ملاذ لهم سواه[1] ونسوا اللَّه عز وجل الذي قال في كتابه : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[2] .

ونحن نقول للمتصوفة : إن الرسول ﷺ ما هو إلا عبد من عباد اللَّه الذين خلقهم لعبادته وحده وفضله اللَّه بالرسالة وجعله خاتم الأنبياء والمرسلين وفضله على العالمين وخصه بخصائص كثيرة دون إخوته من الأنبياء والمرسلين جميعًا ولكن مع ذلك كله لا يخرجه هذا عن طور العبودية للَّه سبحانه وتعالى وقد وصفه اللَّه عز وجل بالعبودية له في أكمل أحواله فقال في الإسراء : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[3] .

وقال في الإيحاء : ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾[4] .

وقال في الدعوة : ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾[5] .

وقال في التحدي : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ

---

(١) انظر (ص٧١٩ ـ ٨١٩) .

(٢) البقرة : (١٨٦) .

(٣) الإسراء : (١) .

(٤) النجم : (١٠ ـ ١٢) .

(٥) الجن : (١٩) .

مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[1] .

إذا نظرنا في الآيات السابقة نرى أن اللَّه سبحانه وتعالى وصف رسوله بالعبودية له حيث أضافه إليه فقال : ﴿ إِلَىٰ عَبْدِهِ ﴾ في الأماكن الأربعة وهو وصف عظيم في الحقيقة لا يجده إلا من حقق العبودية الكاملة للَّه سبحانه وتعالى ولذا أقول : الرسول عبد من عباد اللَّه لا يستحق شيئًا من العبادات التي يتعبد بها اللَّه وبما أن الدعاء عبادة والاستغاثة أيضًا فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه عبادة فلا يجوز صرفهما للرسول ﷺ لأنه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا وما دام لا يملك ذلك لنفسه فمن باب أولى لا يملكه لغيره وقد أمره اللَّه في كتابه العزيز أن يقول إنه بشر لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا فقال تعالى : ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[2] .

ففي هذه الآية أمر اللَّه رسوله محمداً ﷺ أن يصرح بأنه لا يملك نفعًا ولا ضرًا لنفسه فضلاً عن أن يملك جر النفع ودع الضرر عن غيره وأنه لو كان النفع والضر بيده لما أصيب بأمور يكرهها في هذه الدنيا ولكن لما كان لا يملك ذلك فقد أصيب الرسول ﷺ بأذى كثير من الكفرة في غزواته ومنها الإصابات التي أصيب بها في غزوة أحد كما هو معروف في السير ولذا يعتبر توجه المتصوفة إليه بالدعاء والاستغاثة عبثًا وهراءً وشركًا باللَّه عز وجل وقد نهى اللَّه عز وجل عن الشرك باللَّه في كتابه العزيز ووصفه بأنه ظلم عظيم فقال تعالى حاكيًا لنا وصية لقمان لابنه : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا

---

(١) البقرة : (٢٣) .

(٢) الأعراف : (١٨٨) .

بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[1] .

ففي هذه الآية أوصى لقمان عليه السلام لابنه بالابتعاد عن الوقوع في الشرك باللَّه لأنه أكبر ظلم وكيف لا يكون كذلك وهو أكبر معصية عصي بها اللَّه عز وجل في هذا الكون .

وقد وصف اللَّه سبحانه وتعالى في آية أخرى بأن من يشرك باللَّه مثل الإنسان الذي يسقط من السماء فيصير قطعًا فتتخطفه الطيور أو تذروه الرياح وتبعثره وتذهب به إلى مكان سحيق وذلك لأن الشرك ضرره خطير قال تعالى : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾[2] .

فالشرك كما ترى في هذه الآية أمره خطير جدًا ومن الآيات الدالة على خطورة الشرك أن اللَّه سبحانه وتعالى يغفر جميع الذنوب التي يرتكبها الإنسان المسلم مهما كانت إلا الشرك فإنه سبحانه وتعالى لا يمكن أن يغفر لإنسان مات مشركًا ويدل على هذا قول اللَّه تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾[3] .

ففي هذه الآية أخبر اللَّه سبحانه بأنه لا يغفر لمن مات مشركًا وأما ما دون الشرك فإنه تحت مشيئة اللَّه سبحانه ولذا ينبغي الحذر من الوقوع في الشرك باللَّه وقد أمر اللَّه رسوله أن يقول إنه بشر وأن ميزته التي يتميز بها عن البشر الآخرين هو الوحي وأن الإله الذي يستحق صرف العبادات جميعها له

---

(١) لقمان : (١٣) .

(٢) الحج : (٣١) .

(٣) النساء : (٤٨) .

هو اللَّه سبحانه وتعالى لا غيره فقال تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[1] .

وقد أمره اللَّه في آية أخرى أيضًا أن يقول إنه لا يعلم ما سيفعل به هو شخصيًا ولا يعلم ما سيفعل بأمته وإنه ما هو إلا متبع لما يوحى إليه من قبل اللَّه عز وجل والذي لا يدري ما يفعل به ولا يدري ما سيفعل بأمته لا يستحق أن يصرف له شيء من العبادة التي لا يستحقها إلا اللَّه سبحانه وتعالى لأن الذي يدعى لابد أن يكون عالمًا بالشيء قادرًا على دفعه وهذا يبرأ منه الرسول ﷺ كما هو أمامنا في هذه الآية الآتية قال تعالى : ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[2] .

وإذا كان الرسول ﷺ لا يعرف ما يفعل به في المستقبل ولا بأصحابه وهو في الحياة الدنيا قبل موته فكيف يعرف مشاكل الصوفية بعد أن مات حتى يتوجهوا إليه بالدعاء والاستغاثة من دون اللَّه تعالى إلا إذا قال المتصوفة الشريعة ما هي إلا لأهل الظاهر فقط أما أهل الحقيقة فإنهم لهم شريعة أخرى غير القرآن والسنة .

والحاصل أنه قد تبين لنا من خلال الآيات السابقة التي أوردتها ومن أقوال العلماء التي ذكرتها أن الدعاء نوعان وأن كلاً من النوعين مستلزم للنوع الآخر وأن كلاً منهما عبادة لا يجوز صرفها لغير اللَّه سبحانه وتعالى كائنًا من كان وأن الرسول عبد من عباد اللَّه الذين خلقهم لعبادته واصطفاه برسالته وأن

---

(١) الكهف : (١١٠) .

(٢) الأحقاف : (٩) .

أفضل وصف وصف به هو وصفه بأنه عبد اللَّه وما دام الأمر كذلك فقد بينا بأن صرف الدعاء والاستغاثة به يعتبر شركًا باللَّه عز وجل وبينا خطورة الشرك وأنه من أكبر المعاصي التي لا يغفرها اللَّه إلا بالتوبة منها قبل الموت وأن الرسول ﷺ قد تبرأ ممن يدعونه من دون اللَّه وأخبر بأنه لا يملك شيئًا من النفع والضر فضلاً عن أن يملكه لغيره وعلى هذا نقول : إن كل من يدعو الرسول ويستغيث به محاد للَّه ولرسوله فهو داخل تحت هذه الآية : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا** ﴾[2] .

أما من السنة فقد وردت أحاديث كثيرة تؤكد بأن الرسول ﷺ لا يعلم ما سيفعل به في المستقبل وأنه لا يستطيع دخول الجنة إلا إذا أدخله اللَّه فيها برحمته وإليك النصوص الدالة على هذا :

الحديث الأول : قال رسول اللَّه ﷺ : « **واللَّه ما أدري وأنا رسول اللَّه ما يفعل بي** »[3] .

والحديث الثاني : قول الرسول ﷺ : « **لن يدخل أحدكم الجنة بعمله قالوا : حتى أنت يا رسول اللَّه : قال : حتى أنا إلا أن يتغمدني اللَّه برحمة منه وفضل** »[4] .

---

(١) المجادلة : (٢٠ ـ ٢١) .

(٢) النساء : (١١٥) .

(٣) « صحيح البخاري » مع الفتح (٣/ ١١٤) .

(٤) « صحيح البخاري » مع الفتح ، مع اختلاف في بعض الألفاظ (١٠/ ١٢٧) .

ففي هذين الحديثين صرح الرسول ﷺ بأنه لا يعرف ما يفعل به وأنه لا يستطيع أن يدخل أحد بعمله الجنة إلا بفضل اللَّه حتى صلوات اللَّه وسلامه عليه وإذا كان الرسول كذلك لا يملك لنفسه دخول الجنة إلا برحمة اللَّه فتوجه المتصوفة إليه بالدعاء والاستغاثة يعتبر عبثًا وهراء وما أوقعهم في هذا الشرك إلا حبهم للخرافة والابتداع والوقوع في حبائل الشرك .

ومما يدل على أن الرسول لا يغني عن أحد شيئًا كائنًا من كان أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾[1] دعا الرسول صلوات اللَّه وسلامه عليه قريشًا فلما اجتمعوا قال لهم : « **يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من اللَّه فإني لا أغني عنكم من اللَّه شيئًا يا بني عبد المطلب لا أغني عنكم من اللَّه شيئًا يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من اللَّه شيئًا يا صفية عمة رسول اللَّه لا أغني عنك من اللَّه شيئًا يا فاطمة بنت رسول اللَّه سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من اللَّه شيئًا** »[2] .

ففي هذا الحديث نصح الرسول ﷺ عشيرته الأقربين ودعاهم إلى الإيمان باللَّه سبحانه وتعالى الإيمان الصحيح والأعمال الصالحة من أجل أن ينقذوا أنفسهم من النار وأخبرهم بأن مجرد قرابتهم للرسول ﷺ لا تنفعهم وأنه لا يستطيع أن يخلصهم من عقاب اللَّه وهذا دليل واضح على أن الرسول ﷺ لا يملك جلب نفع لأحد ولا دفع ضر عنه وأنه ما هو إلا رسول فقط وأن مهمته هي تبليغ دعوة اللَّه لهذه البشرية حتى تخرج من الظلمات إلى النور أما أن يصرف له شيء من حقوق الألوهية فيتوجه إليه بالدعاء والاستغاثة من أجل تفريج الكروب وغفران الذنوب وأن يوصف بأنه الملاذ

---

(١) الشعراء : (٢١٤) .

(٢) « صحيح مسلم » مع النووي (٣/ ٨٠) .

الوحيد للخلائق فهذا ليس من شأنه بل هذا حق من حقوق اللَّه تعالى لا يجوز صرفه لغيره .

وكيف يتوجه إليه المتصوفة بالدعاء والاستغاثة ويطلبون منه أموراً لا يجوز طلبها إلا من اللَّه وهو قد زار قبر أمه فبكى وأبكى من حوله ثم قال رسول اللَّه ﷺ : « **استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي فزوروا القبور فإنها تذكر الموت** »[1] .

وثبت أيضًا في « صحيح مسلم » أن رجلاً قال : يا رسول اللَّه أين أبي؟ قال : « **في النار** » فلما قفى دعاه فقال له : « **إن أبي وأباك في النار** »[2] .

فانظر كيف أن الرسول ﷺ لم يستطع أن ينفع والديه وهما أقرب الناس إليه فكيف نتصور أن الرسول ﷺ يغفر ذنوب من جاءوا بعد موته ويفرج همومهم من أولئك المتصوفة المخرفة الذين يتوجهون إليه بالدعاء والاستغاثة ضاربين بتلك الآيات التي تصف الداعي لغير اللَّه أضل إنسان عرض الحائط مثل قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ**﴾[3] .

وناسين بل متناسين أيضًا تلك الآيات التي قررت بأن كل مدعو دون اللَّه ما هو إلا عبد وأنه لا يستطيع نصر من يدعوه سواء كان هذا المدعو ملكًا أو نبيًا أو حجراً أو شجراً ومن هذه الآيات قوله تعالى : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن**

---

(١) « صحيح مسلم » مع النووي (٧/ ٤٦) .

(٢) « صحيح مسلم » مع النووي (٣/ ٧٩) .

(٣) الأحقاف : (٥ ـ ٦) .

دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾[1] .

ففي هذه الآية أخبرنا اللَّه سبحانه وتعالى بأن المدعوين من دون اللَّه لا يستطيعون نصر من يدعونهم لأنهم عاجزون عن نصر أنفسهم فضلاً عن أن ينصروا غيرهم ومن كان عاجزًا عن نصر نفسه لا ينبغي أن يتوجه إليه بالدعاء والاستغاثة لأنه لا يملك إجابة دعاء من دعاه ولا إغاثة من استغاث به لأن هذه من خصوصية اللَّه عز وجل فلا ينبغي أن تصرف لغيره ومن صرفها لغيره فدعا غيره واستغاث بغيره فقد وقع في الشرك الأكبر .

وهناك نص قاطع من السنة النبوية بأن الرسول ﷺ قال للصحابة حينما قالوا : قوموا نستغيث برسول اللَّه : إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث باللَّه . وهذا نص الحديث :

روى الطبراني بإسناده أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول اللَّه ﷺ من هذا المنافق فقال النبي ﷺ : « **إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث باللَّه** »[2] .

وفي حديث آخر حينما قال الصحابي للرسول ﷺ : ما شاء اللَّه وشئت قال : « **بل ما شاء اللَّه وحده أجعلتني للَّه ندا** »[3] .

---

(١) الأعراف : (١٩٤ ـ ١٩٧) .

(٢) « مجمع الزوائد » (١٠/١٥٩) وأخرجه أحمد في « المسند » (١/٢١٤) .

(٣) البخاري في « الأدب المفرد » وحسنه الألباني في « الصحيحة » (ص١٣٩) .

إذا نظرنا في الحديثين السابقين نجد أن الرسول ﷺ أنكر على الصحابة الذين قالوا قوموا نستغيث برسول اللَّه ﷺ وأخبرهم بأن الذي يستغاث به هو اللَّه سبحانه وتعالى لأنه هو الذي يستطيع أن يغيث من استغاث به أما هو فلا يستغاث به لأنه عاجز عن إغاثة من استغاث به في الأمور التي لا يمكن أن يقدر عليها إلا اللَّه سبحانه وتعالى وهذا في حال حياته أما بعد موته فإنه لا يجوز أن يستغاث برسول اللَّه إطلاقًا لأنه انتقل من هذه الدار الفانية إلى الدار الباقية فكل من استغاث به بعد موته وطلب منه غفران الذنوب وتفريج الكرب وإزالة الهموم والغموم فقد صرف له شيئًا من العبادات التي لا يجوز صرفها لغير اللَّه سبحانه وتعالى وحينئذ يعتبر وقع في الشرك .

أما في الحديث الثاني فقد أنكر الرسول ﷺ على الذي عطف مشيئته على مشيئة اللَّه سبحانه وتعالى فقال له مبينًا له خطورة هذه الكلمة وهو قوله : «ما شاء اللَّه وشئت » : « **أجعلتني للَّه ندًا** » فالرسول كما نرى في هذا الحديث اعتبر عطف مشيئة الرسول على مشيئة اللَّه بحرف الواو إشراكًا باللَّه سبحانه وتعالى وهذا رد كاف ومقنع في الحقيقة على المتصوفة الذين رفعوا الرسول ﷺ إلى منزلة الألوهية فصرفوا له أنواعًا من العبادات رغم أن العبادات لا يجوز صرفها لغير اللَّه سبحانه وتعالى لا لنبي ولا لولي ولا للملائكة ولا غيرهم من المخلوقات ولذا أقول إن توجه المتصوفة إلى الرسول ﷺ بالدعاء والاستغاثة يعتبر شركًا باللَّه سبحانه وتعالى لأنه صرف شيء من العبادات لغير اللَّه وصرف شيء من العبادات لغير اللَّه يعتبر عبادة لغيره وما الشرك إلا هذا بعينه والشرك أمره خطير فيجب أن يبتعد عنه المسلم لأنه لا يمكن أن يبقى مع الشرك عمل صالح ويدل على هذا قول اللَّه تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ**

الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾[1] .

ففي هذه الآية أخبرنا اللَّه سبحانه وتعالى بأنه أوحى إلى الرسول ﷺ وإلى الأنبياء من قبله بأنه لو وقعوا في الشرك باللَّه لأحبط أعمالهم وأبطلها فإذا كان الشرك خطورته بهذا المستوى وهو أنه يحبط أعمال الأنبياء ولما بقي لهم أي عمل صالح لو وقعوا في الشرك فكيف بمن سواهم إذا وقع في الشرك فإنه من باب أولى يحبط عمله ويبطل ويصبح هباء منثوراً.

ولذا ينبغي للمتصوفة أن يتنازلوا عن هذه الأدعية الشركية التي توجهوا بها إلى الرسول ﷺ وطلبوا منه غفران الذنوب وتفريج الكرب والغموم والأخذ باليد يوم الميعاد ويتوجهوا إلى خالقهم الذي بيده ملكوت كل شيء والذي لا يغفر الذنوب سواه ولا يستطيع إجابة المضطر سواه .

قال تعالى : ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[4] .

والخلاصة التي نخرج بها أن الرسول ﷺ بشر مثلنا وأنه ما خلق إلا لعبادة اللَّه كما خلق غيره من الإنس والجن وأنه لا يستحق شيئًا من العبادة وقد سبق لنا أنه قال لا يستغاث به وإنما يستغاث باللَّه سبحانه وتعالى وأنه لا

---

(١) الزمر : (٦٥ ـ ٦٦) .

(٢) الأعراف : (٥٤) .

(٣) آل عمران : (١٣٥) .

(٤) النمل : (٦٢) .

يستطيع أن ينجي أحدًا من النار حتى ولو أقرب الأقربين إليه إلا إذا مات مؤمنًا باللَّه ولذا أقول: إن توجه المتصوفة إلى الرسول بالدعاء والاستغاثة يعتبر شركًا باللَّه سبحانه وتعالى ومع أن ما قلناه كاف ومقنع لمن يريد الوصول إلى الحق والهداية إلى الصراط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه فإننا نريد أن ندعم ما قلناه بآراء العلماء في حكم التوجه إلى الرسول ﷺ بالدعاء والاستغاثة وذلك حتى لا نتهم بأننا أول من أتى بهذا الكلام وأن هذا الأمر لم يتكلم عنه أحد في العصور السابقة من علماء الأمة الإسلامية عبر عصورها المختلفة كما يدعي عباد القبور من المتصوفة وغيرهم في أرجاء العالم الإسلامي .

أقوال العلماء في حكم التوجه إلى الرسول بالدعاء والاستغاثة :

لقد أنكر العلماء قديمًا وحديثًا التوجه إلى الرسول أو إلى غيره من المخلوقات كائنًا من كان بالدعاء والاستغاثة واعتبروا ذلك صرف شيء من أجل العبادات وأعظمها لغير اللَّه سبحانه وتعالى وحتى يتضح لك بأن دعاء الرسول والاستغاثة به يعتبر شركًا باللَّه سبحانه وتعالى إليك طائفة من أقوال بعض أولئك العلماء الأجلاء .

أولاً : أقوال شيخ الإسلام ابن تيمية في حكم التوجه إلى الرسول بالدعاء والاستغاثة .

يعتبر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّه من أكثر العلماء الذين أوتوا مقدرة فائقة في الرد على المبتدعين بشتى أصنافهم من صوفية وجهمية ومعتزلة وأشعرية وخوارج وشيعة وغيرها من الفرق الضالة .

ولقد اعتبر شيخ الإسلام ابن تيمية التوجه إلى الرسول بالدعاء والاستغاثة شركًا باللَّه عز وجل وإليك طائفة من أقواله في هذا المجال .

قال شيخ الإسلام بعد أن أورد هاتين الآيتين وهما قوله تعالى : ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾[1] .

وقوله سبحانه : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾[2] .

قال شيخ الإسلام :

«قالت طائفة من السلف : كان أقوام يدعون المسيح والعزير والملائكة فبين اللَّه أن الملائكة والأنبياء لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويلاً وأنهم يتقربون إلى اللَّه ويرجون رحمته ويخافون عذابه وقال تعالى : ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ﴾[3] .

وقوله سبحانه : ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[4] » .

ثم قال شيخ الإسلام :

« فبين سبحانه أن اتخاذ الملائكة والنبيين أربابًا كفر . فمن جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم ويتوكل عليهم ويسألهم جلب المنافع ودع المضار مثل أن يسألهم غفران الذنوب وهداية القلوب وسد الفاقات فهو كافر بإجماع المسلمين »[5] .

---

(١) الأنعام : (٥١) .

(٢) الإسراء : (٥٦) .

(٣) آل عمران : (٧٩) .

(٤) آل عمران : (٨٠) .

(٥) « الرسالة » لشيخ الإسلام ابن تيمية ضمن « مجموعة التوحيد » (ص١١٩) .

وقال في كتابه « التوسل والوسيلة » :

« فأما ما لا يقدر عليه إلا اللَّه تعالى فلا يجوز أن يطلب إلا من اللَّه سبحانه لا يطلب ذلك لا من الملائكة ولا من الأنبياء ولا من غيرهم ولا يجوز أن يقال لغير اللَّه اغفر لي واسقنا الغيث وانصرنا على القوم الكافرين أو اهد قلوبنا ونحو ذلك »[1] .

وقال في نفس الكتاب في مكان آخر :

« ولا يجوز لأحد أن يستغيث بأحد من المشائخ الغائبين ولا الميتين مثل أن يقول : يا سيدي فلانًا أغثني وانصرني وادفع عني وأنا في حسبك ، ونحو ذلك بل كل هذا من الشرك الذي حرمه اللَّه ورسوله وتحريمه مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام وهؤلاء المستغيثون بالغائبين والميتين عند قبورهم وغير قبورهم لما كانوا من جنس عباد الأوثان صار الشيطان يضلهم ويغويهم كما يضل عباد الأصنام ويغويهم فتتصور الشياطين في صورة ذلك المستغاث به وتخاطبهم بأشياء على سبيل المكاشفة كما تخاطب الشياطين الكهان »[2] .

وقال أيضًا في نفس الكتاب :

« وأما دعاء الرسول وطلب الحوائج منه وطلب شفاعته عند قبره أو بعد موته فهذا لم يفعله أحد من السلف ومعلوم أنه لو كان قصد الدعاء عند القبر مشروعًا لفعله الصحابة والتابعون وكذلك السؤال به فكيف بدعائه وسؤاله بعد موته . . . فإن هذا كله من فعل النصارى وغيرهم من المشركين

---

(١) « التوسل والوسيلة » لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص١٣٦) .

(٢) « التوسل والوسيلة » لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص١٥٤) .

ومن ضهاههم من مبتدعة هذه الأمة ليس هذا من فعل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ولا مما أقر به أحد من أئمة المسلمين »[1] .

وقال أيضًا في نفس الكتاب :

« وإذا تكلمنا فيما يستحقه اللَّه تبارك وتعالى من التوحيد بينا أن الأنبياء وغيرهم من المخلوقين لا يستحقون ما يستحقه اللَّه تبارك وتعالى من خصائص فلا يشرك بهم ولا يتوكل عليهم ولا يستغاث بهم كما يستغاث باللَّه ولا يقسم على اللَّه بهم ولا يتوسل بهم بذواتهم وإنما يتوسل بالإيمان بهم وبمحبتهم وطاعتهم وموالاتهم وتعزيرهم وتوقيرهم ومعاداة من عاداهم وطاعتهم فيما أمروا وتصديقهم فيما أخبروا وتحليل ما حللوه وتحريم ما حرموه »[2] .

وقال شيخ الإسلام في « الرسالة السنية » :

« إن كل من غلا في نبي أو رجل صالح وجعل فيه نوعًا من الإلهية مثل أن يقول يا سيدي فلان أغثني أو انصرني أو ارزقني أو أجرني وأنا في حسبك ونحو هذه الأقوال فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه فإن تاب وإلا قتل فإن اللَّه إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب ليعبد وحده ولا يجعل معه إلهًا آخر .

والذين يدعون مع اللَّه آلهة أخرى مثل المسيح والملائكة والأصنام لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق أو تنزل المطر أو تنبت النبات وإنما كانوا

---

(١) « التوسل والوسيلة » لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص٧٠) .

(٢) نفس المرجع (ص١٢٢) .

يعبدونهم أو يعبدون قبورهم أو صورهم ويقولون ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾.

ويقولون : ﴿هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ .

فبعث اللَّه رسله تنهى أن يدعى أحد من دونه لا دعاء عبادة ولا دعاء استغاثة . . . » .

ثم قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

« وعبادة اللَّه وحده لا شريك له هي أصل الدين وهو التوحيد الذي بعث اللَّه به الرسل وأنزل به الكتب »[1] .

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[3] .

ثانيًا : إليك أقوال الإمام ابن القيم رحمه اللَّه في حكم الاستغاثة بغير اللَّه ودعاء غيره :

فقد قال رحمه اللَّه في كتابه « مدارج السالكين » متحدثًا عن أنواع الشرك :

« ومن أنواعه ـ أي الشرك ـ طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم

---

(١) « الرسالة السنية » لشيخ الإسلام ابن تيمية نقلا عن « تيسير العزيز الحميد » (ص٣٣٨) .

(٢) النحل : (٣٦) .

(٣) الأنبياء : (٢٥) .

والتوجه إليهم وهذا أصل شرك العالم فإن الميت قد انقطع عمله وهو لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعًا فضلاً لمن استغاث به أو سأله أن يشفع إلى اللَّه وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده فإن اللَّه سبحانه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه واللَّه سبحانه لم يجعل سؤال غيره سببًا لإذنه وإنما السبب لإذنه كمال التوحيد فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن والميت محتاج إلى من يدعو له كما أمرنا النبي ﷺ إذا زرنا قبور المسلمين أن نترحم عليهم وندعو لهم ونسأل لهم العافية والمغفرة فعكس المشركون هذا وزاروهم زيارة العبادة وجعلوا قبورهم أوثانًا تعبد فجمعوا بين الشرك بالمعبود وتغيير دينه ومعاداة أهل التوحيد ونسبتهم إلى التنقص بالأموات وهم قد تنقصوا الخالق سبحانه بالشرك وأولياءه الموحدين بذمهم ومعاداتهم وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص إذ ظنوا أنهم راضون منهم بذلك وأنهم أمروهم به وهؤلاء أعداء الرسل في كل زمان ومكان وما أكثر المستجيبين لهم وللَّه در خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام حيث قال : ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] .

وما نجا من أشرك بهذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيده للَّه وعادى المشركين في اللَّه وتقرب بمقتهم إلى اللَّه »[2] .

وقال الإمام ابن القيم في « إغاثة اللهفان » :

« ومن المحال أن يكون دعاء الموتى أو الدعاء بهم أو الدعاء عندهم

---

(١) إبراهيم : (٣٥ ـ ٣٦) .

(٢) « مدارج السالكين » لابن القيم (١/ ٣٤٦) .

مشروعًا وعملا صالحًا ويصرف عنه أهل القرون الثلاثة المفضلة بنص رسول اللَّه ﷺ ثم يرزقه الخلوف الذين يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون فهذه سنة رسول اللَّه ﷺ في أهل القبور بضعًا وعشرين سنة حتى توفاه اللَّه تعالى وهذه سنة خلفائه الراشدين وهذه طريقة جميع الصحابة والتابعين لهم بإحسان هل يمكن لبشر على وجه الأرض أن يأتي عن أحد منهم بنقل صحيح أو حسن أو ضعيف أو منقطع أنهم كانوا إذا كان لهم حاجة قصدوا القبور فدعوا عندها وتمسحوا بها فضلاً أن يصلوا عندها أو يسألوا اللَّه بأصحابها أو يسألوهم حوائجهم فليوقفونا على أثر واحد أو حرف واحد في ذلك بلى يمكنهم أن يأتوا عن الخلوف التي خلفت بعدهم بكثير من ذلك وكلما تأخر الزمان وطال العهد كان ذلك أكثر حتى لقد وجد في ذلك عدة مصنفات ليس فيها عن رسول اللَّه ولا عن خلفائه الراشدين ولا عن أصحابه حرف واحد من ذلك بلى فيها من خلاف ذلك كثير »[1] .

ثالثًا : قول الإمام الحافظ ابن عبد الهادي في حكم الاستغاثة برسول اللَّه ﷺ والتوجه إليه بالدعاء :

قال رحمه اللَّه :

« وقوله ـ أي قول السبكي ـ: إن المبالغة في تعظيمه ـ أي تعظيم الرسول ﷺ ـ واجبة إن أريد به المبالغة بحسب ما يراه كل أحد تعظيمًا حتى الحج إلى قبره والسجود له والطواف به واعتقاد أنه يعلم الغيب وأنه يعطي ويمنع ويملك لمن استغاث به من دون اللَّه الضر والنفع وأنه يقضي حوائج السائلين ويفرج كربات المكروبين وأنه يشفع فيمن يشاء ويدخل الجنة من يشاء ، فدعوى المبالغة في هذا التعظيم مبالغة في الشرك وانسلاخ من

(١) « إغاثة اللهفان » للإمام ابن القيم (١/ ٢٠٢) .

جملة الدين »[1] .

رابعًا : قول عبد اللَّه علي القصيمي في حكم التوجه إلى الرسول بالدعاء والاستغاثة قال عبد اللَّه علي القصيمي :

« إن أعلم الناس بالإسلام وأنفذهم بصرًا في الدين وأتقاهم للَّه وأحرصهم على العمل الصالح الذين شهدوا تنزل الوحي ونزول القرآن وعرفوا أسباب نزوله . . . والذين هم أعلم الناس على الإطلاق بمرامي القرآن ومقاصد السنة وروحهما وفحواهما وأعني بهؤلاء صحابة رسول اللَّه من المهاجرين والأنصار .

فلم نجد أحدًا من هؤلاء حاول يومًا سؤال ميت حاجة من حاجاته لا الرسول الكريم ولا من هو دونه لا في حالات السراء ولا في حالات الضراء ولم يحاول أن يطلب ميتًا قضاء حاجة واحدة من حاجاته التي تلازمه كل وقت والتي لا تنقضي ولم يستصرخ الرسول ﷺ ولا غيره بعد الموت لنازلة نزلت أو عظيمة وقعت وقد أصيب الصحابة بعد موت النبي ﷺ بمصائب متنوعة دينية ودنيوية ووقعوا في أفانين من أشراك البلاء ووقعوا في نزاع في مسائل كثيرة وفي حروب طاحنة مؤلمة ولكنهم مع هذا لم يحاولوا أن يفضوا النزاع أو يكشفوا ما بهم من بلاء بالرجوع إلى الرسول وبالرجوع إلى سؤاله والاستغاثة به والاستصراخ بشفاعته لهم عند اللَّه ليكشف ما بهم وما أصابهم . . . فاقتصار الصحابة عند ذلك كله بعد موت النبي الكريم وقد اصطدموا بحاجات ملحة إليه وبأمور طاغية باغية يتعلق المصطدم بها بالأسباب كلها قويها وضعيفها برهان لا يرام إضعافه ولا القدح فيه على أنهم يرون ذلك بعد

---

(١) « الصارم المنكي في الرد على السبكي » لابن عبد الهادي (ص٣٥١) .

الموت غير جائز وغير مشروع وعلى أنهم لا يختلفون في ذلك لأنه لم يأت عن أحد منهم يعبأ به أنه فعله »[1] .

ثم قال القصيمي :

« إن عدول الصحابة عن التوجه إلى الرسول بالدعاء والاستغاثة هو الاعتراف بأن طلب الأموات وسؤالهم والاستغاثة بهم ليس جائزاً ولا مشروعًا ولا مستطاعًا باتفاق الصحابة ومن تبعهم بإحسان وبإجماع سيرتهم العملية الصامتة ثم الاعتراف بأن الاستغاثة بالموتى باطلة غير جائزة بالضرورة وبالإجماع الصامت وكل جواب غير هذا هو جواب باطل مدخول متكلف»[2].

خامسًا : قول الشيخ محمد صديق خان في حكم التوجه إلى الرسول بالدعاء والاستغاثة :

قال الشيخ رحمه اللَّه :

« من استغاث بالأموات زعمًا منه أنهم يشفعون له في الدنيا فقد سلك سبيل اليهود والنصاري .

قال : إذا قال قائل أنا أدعو الشيخ ليكون شفيعًا لي فهو من جنس النصارى .

والمؤمن من يرجو ربه ويخافه ويدعوه مخلصًا له الدين وحق شيخه أن يدعو له ويترحم عليه فإن أعظم قدرًا هو رسول اللَّه ﷺ وأصحابه أعلم الناس بأمره وقدره وأطوع الناس له ولم يكن يأمر أحدًا منهم عند الفزع والخوف أن يقول يا سيدي يا رسول اللَّه ولم يكونوا يفعلون ذلك في حياته ولا بعد مماته بل كان يأمرهم بذكر اللَّه ودعائه والصلاة والسلام

---

(١) « الصراع بين الوثنية والإسلام » للشيخ عبد اللَّه القصيمي (ص٣٠٩ ـ ٣١٠) بإيجاز .

(٢) نفس المرجع (ص٣١٢) .

عليه ﷺ »[1] .

وقال رحمه اللَّه في تفسيره « فتح البيان » تحت قوله تعالى : ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ .

قال : « وفي هذا أعظم وازع وأبلغ زاجر لمن صار ديدنه وهجيراه المناداة لرسول اللَّه أو الاستعانة به عند نزول النوازل التي لا يقدر على دفعها إلا اللَّه سبحانه وتعالى وكذلك من صار يطلب من الرسول ﷺ ما لا يقدر على تحصيله إلا اللَّه سبحانه فإن هذا مقام رب العالمين الذي خلق الأنبياء والصالحين وجميع المخلوقين ورزقهم وأحياهم ويميتهم فكيف يطلب من نبي من الأنبياء أو ملك من الملائكة أو صالح من الصالحين ما هو عاجز عنه غير قادر عليه ويترك الطلب لرب الأرباب القادر على كل شيء الخالق الرازق المعطي المانع وحسبك بما في الآية من موعظة فإن سيد ولد آدم وخاتم الرسل يأمره اللَّه بأن يقول لعباده : ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعًا﴾ فكيف يملكه لغيره وكيف يملكه غيره ممن رتبته دون رتبته ومنزلته لا تبلغ إلى منزلته لنفسه فضلاً عن أن يملكه لغيره فيا عجبًا لقوم يعكفون على قبور الأموات الذين قد صاروا تحت أطباق الثرى ويطلبون منهم الحوائج ما لا يقدر عليه إلا اللَّه عز وجل كيف لا يستفطنون لما وقعوا فيه من الشرك ولا ينتبهون لما حل بهم من المخالفة لمعنى « لا إله إلا اللَّه » ومدلول ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ .

وأعجب من هذا اطلاع أهل العلم على ما يقع من هؤلاء ولا ينكرون عليهم ولا يحولون بينهم وبين الرجوع إلى الجاهلية الأولى إلى ما هو أشد منها فإن أولئك يعترفون بأن اللَّه سبحانه هو الخالق الرازق المحيي المميت

---

(١) « الدين الخالص » للشيخ محمد صديق حسن خان (ص٢٦) .

الضار النافع وإنما أصنامهم شفعاء لهم عند اللَّه ومقربون لهم إليه وهؤلاء يجعلون لهم القدرة على الضر والنفع وينادونهم تارة على الاستقلال وتارة مع ذي الجلال وكفاك من شر سماعه واللَّه ناصر دينه ومظهر شريعته من أوضار الشرك وأدناس الكفر ولقد توسل الشيطان أخزاه اللَّه بهذه الذريعة إلى ما تقر عينه وينثلج به صدره من كفر كثير من هذه الأمة المباركة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا وإنا للَّه وإنا إليه راجعون »[1] .

سادسًا : أقوال الشيخ رشيد رضا في حكم التوجه إلى الرسول بالدعاء والاستغاثة :

قال رحمه اللَّه تحت تفسير قوله تعالى : ﴿ **قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ** ﴾ الآية :

« هذه الآية من أعظم أصول الدين وقواعد عقائده ببيانها لحقيقة الرسالة والفصل بينها وبين الربوبية والألوهية وهدمها لقواعد الشرك ومباني الوثنية من أساسها . . . والناس قد فتنوا منذ قوم نوح بمن اصطفاهم اللَّه ووفقهم لطاعته وولايته من الأنبياء ومن دون الأنبياء من الصالحين فجعلوهم شركاء للَّه تعالى فيما يرجوه عباده من نفع يسوقه إليهم وما يخشونه من شر يمسهم فيدعونه ليكشفه عنهم وصاروا يدعونهم كما يدعونه لذلك إما استقلالاً وإما إشراكًا إذ منهم من يظن أنه تعالى قد أعطاهم القدرة على التصرف في خلقه بما هو فوق الأسباب التي منحها اللَّه تعالى لسائر الناس فصاروا يستقلون بالنفع والضر منحًا ومنعًا وإيجابًا وسلبًا ومنهم من يعتقد أن التصرف الغيبي الأعلى الذي هو فوق الأسباب الكسبية الممنوحة للبشر

---

(١) انظر « فتح البيان » للنواب صديق حسن خان (٤/ ٢٢٥) .

خاص بربهم لا يقدر عليه غيره ولكنهم يظنون مع هذا أن هؤلاء الأنبياء والأولياء عند اللَّه تعالى كوزراء الملوك وحجابهم وبطانتهم وبين من لم يصل إلى رتبتهم فالملك المستبد بسلطانه يعطي هذا ويعفو عن ذنب هذا بوساطة هؤلاء الوزراء والحجاب المقربين عنده وكذلك رب العالمين يعطي ويمنع ويغفر ويرحم وينتقم بوساطة أنبيائه وأوليائه بزعمهم فهم شفعاء للناس عنده تعالى يقربونهم إليه زلفى كما حكاه التنزيل عن المشركين في قوله تعالى : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾.

ثم قال الشيخ محمد رضا :

« وفي مثل هذا التشبيه الوثني وتمثيل تصرف الرب العظيم الغني عن عباده بتصرف الملوك المستبدين الجاهليين الذين يحتاجون إلى وزرائهم وبطائنهم في حمله على ما ينبغي له فيهم قال اللَّه تعالى : ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾ .

وبين في هذه الآية وأمثالها أن رسل اللَّه تعالى وهم صفوة خلقه لا يشاركون اللَّه تعالى في شيء من ملكه بل هو المتصرف في هذا الكون كله وأن الرسالة التي اختصهم اللَّه تعالى بها لا يدخل في معناها إقدارهم على النفع والضر بسلطان فوق الأسباب المسخرة لسائر البشر .

وذلك أن مدار العبودية على توجه العباد إلى المعبود فيما يرجون من نفع ويخافون من ضر فاستعمل اللفظان في التنزيل في بيان أن الرب المستحق للعبادة هو من يملك الضر والنفع غير خاضع ولا مقيد بالأسباب العادية كقوله تعالى : ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا﴾[1] .

---

(١) المائدة : (٧٦) .

وقوله في عجل بني إسرائيل : ﴿ أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا ﴾[1] وغير ذلك من الآيات » .

ثم قال الشيخ :

« فلما كان ملك الضر والنفع بهذا الإطلاق خاصًا برب العباد وخالقهم وكان طلب النفع أو كشف الضر عبادة لا يجوز أن يوجه إلى غيره من عباده مهما فضله تعالى عظيمًا عليهم أمر اللَّه رسوله أن يصرح بالبلاغ عنه أنه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًا وقد تكرر هذا الأمر له في القرآن مبالغة في تقريره وتوكيده فقال تعالى : ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾[2] .

وقوله : ﴿ قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا ﴾[3] .

وهذه الآية أبلغ وأشمل في معناها بما فيها من إيجاز واحتباك يحذف ما يقابل الضر والرشد المذكورين وهما ضدهما بدلالتهما عليهما والتقدير : لا أملك لكم ضرًا ولا نفعًا ولا رشدًا ولا غواية »[4] .

سابعًا : أقوال الإمام الشوكاني في حكم التوجه إلى الرسول ﷺ بالدعاء والاستغاثة :

قال رحمه اللَّه :

« ولا شك أن من اعتقد في ميت من الأموات أو حي من الأحياء أنه يضره أو ينفعه إما استقلالاً أو مع اللَّه تعالى أو ناداه أو توجه إليه أو استغاث به في أمر من الأمور التي لا يقدر عليها المخلوق فلا يخلص التوحيد للَّه ولا

---

(١) طه : (٨٩) .

(٢) الأعراف : (١٨٨) .

(٣) الجن : (٢١) .

(٤) « تفسير المنار » للشيخ رشيد رضا (٩/٥٠٧ ـ ٥١٠) بإيجاز .

إفراده بالعبادة إذ الدعاء بطلب وصول الخير إليه ودفع الضر عنه هو نوع من أنواع العبادة ولا فرق بين أن يكون هذا المدعو من دون اللَّه أو معه حجرًا أو شجرًا أو ملكًا أو شيطانًا كما كان يفعل ذلك الجاهلية وبين أن يكون إنسانًا من الأحياء أو الأموات كما يفعله الآن كثير من المسلمين وكل عالم يعلم هذا ويقر به فالعلة واحدة وعبادة غير اللَّه تعالى وتشريك غيره معه يكون للحيوان كما يكون للجماد وللحي كما يكون للميت فمن زعم أن ثم فرقًا بين من اعتقد في وثن من الأوثان أنه يضر أو ينفع أو يقدر على أمر لا يقدر عليه إلا اللَّه تعالى فقد غلط غلطًا بينًا وأقر على نفسه بجهل كثير فإن الشرك هو دعاء غير الأشياء التي تختص به أو اعتقاد القدرة لغيره فيما لا يقدر عليه سواه أو التقرب إلى غيره بشيء مما لا يتقرب به إلا إليه ومجرد تسمية المشركين لما جعلوه شريكًا بالصنم والوثن والإله لغير اللَّه زيادة على التسمية بالولي والقبر والمشهد كما يفعله كثير من المسلمين بل الحكم واحد إذا حصل لمن يعتقد في الولي والقبر ما كان يحصل لمن كان يعتقد في الصنم والوثن إذ ليس الشرك هو مجرد إطلاق بعض الأسماء على بعض المسميات بل الشرك هو أن يفعل لغير اللَّه شيئًا يختص به سبحانه سواء أطلق على ذلك الغير ما كان تطلقه عليه الجاهلية أو أطلق عليه اسمًا آخر فلا اعتبار بالاسم فقط ومن لم يعرف هذا فهو جاهل لا يستحق أن يخاطب بما يخاطب به أهل العلم وقد علم كل عالم أن عبادة الكفار للأصنام لم تكن إلا بتعظيمها واعتقاد أنها تضر وتنفع والاستغاثة بها عند الحاجة والتقرب لها في بعض الحالات بجزء من أموالهم وهذا كله قد وقع من المعتقدين في القبور فإنهم قد عظموها إلى حد لا يكون إلا للَّه سبحانه بل ربما يترك العاصي منهم فعل المعصية إذا كان في مشهد من يعتقده أو قريبًا منه مخافة تعجيل

العقوبة من ذلك الميت وربما لا يتركها إذا كان في حرم اللَّه أو في مسجد من المساجد أو قريبًا من ذلك وربما حلف بعض غلاتهم باللَّه كاذبًا ولم يحلف بالميت الذي يعتقده .

وأما اعتقادهم أنها تضر وتنفع فلولا اشتمال ضمائرهم على هذا الاعتقاد لم يدع أحد منهم ميتًا أو حيًّا عند استجلابه لنفع أو استدفاعه لضر قائلا : يا فلان افعل لي كذا وكذا وعلى اللَّه وعليك وأنا باللَّه وبك »[1] .

وقال أيضًا في رسالته « شرح الصدور بتحريم رفع القبور » :

« لقد أمر اللَّه رسوله ﷺ أن ﴿ **قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعًا** ﴾ فانظر كيف قال سيد البشر وصفوة خلقه في أنه لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا وكذلك قال في الحديث : « **يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من اللَّه شيئًا** » الحديث. فإذا كان هذا قول رسول اللَّه في نفسه وفي أخص قرابته به وأحبهم إليه فما ظنك بسائر الأموات الذين لم يكونوا أنبياء معصومين ولا رسلاً مرسلين بل غاية ما عند أحدهم أنه فرد من أفراد هذه الأمة المحمدية »[2] .

* * *

(١) « الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد » للشوكاني (ص٣٣) .

(٢) « شرح الصدور بتحريم رفع القبور » للشوكاني ضمن مجموعة الرسائل المنيرية (ص٧١) .

فهرس الموضوعات

الموضـــــوع	الصفحة
المقدمة	٥
سبب اختياري للكتابة عن الصوفية	٨
منهج البحث	٩
خطة البحث	١١
شكر وتقدير	١٩

الباب الأول

مفهوم التصوف ونشأته ومصادره وأقسامه وأهم العوامل التي أدت إلى الانحرافات العقدية عند الصوفية وتحته فصلان

الفصل الأول

تعريف التصوف ونشأته ومصادره وأقسامه وتحته ثلاثة مباحث

المبحث الأول : تعريف التصوف	٢٥
تعريف التصوف لغة	٢٦
تعريف التصوف اصطلاحًا عند الصوفية	٢٨
تعريف التصوف لدى غير المتصوفة من المسلمين	٣١
المبحث الثاني : نشأة التصوف	٣٤
أقسام الصوفية	٤٩
المبحث الثالث : مصادر التصوف	٥٤
المصدر الأول: الأفلاطونية اليونانية الغربية	٥٤
المصدر الثاني: أديان الهند الوثنية	٦٣

الموضـــــــوع	الصفحة

المصدر الثالث : المسيحية المحرفة ٧٢

الفصل الثاني

أهم العوامل التي أدت إلى الانحرافات العقدية عند الصوفية

المبحث الأول : طلب الهداية في غير الكتاب والسنة ٨٣

ادعاء كثير من الصوفية تلقي الهداية عن طريق الهواتف وزعم التلقي عن اللّه ٨٩

تنفير الصوفية الناس عن العلم الشرعي ٩٦

حث الإسلام على العلم والإعلاء من شأنه... ٩٨

استهزاء الصوفية بعلماء الأمة الاسلامية ١٠٠

ختام المبحث : ١٠٤

المبحث الثاني : اعتقادهم بأن هناك حقيقة تخالف الشريعة.... ١٠٩

موقف المتصوفة من القرآن الكريم : ١٣٠

موقف العلماء من تقسيم الصوفية الدين إلى شريعة وحقيقة ١٣٣

الانحرافات التي وقع فيها الصوفية بسبب هذه القاعدة ١٣٥

المبحث الثالث : الغلو الزائد في الرسول ﷺ والأولياء ١٣٧

أولاً : تعريف الغلو في اللغة وفي الاصطلاح ١٣٧

ثانيًا : موقف الإسلام من الغلو ١٣٨

المطلب الأول : غلوهم في الرسول ﷺ ١٤١

المطلب الثاني : غلوهم في الأولياء ١٥٦

المبحث الرابع : تأثرهم بالفكر اليوناني الوثني ١٧٣

أولاً : أقوال كبار أئمة التصوف التي تدل على تأثرهم بفلاسفة اليونان ١٧٣

الموضـــــــوع	الصفحة
ثانيًا : الكتاب الذين كتبوا عن التصوف وأثبتوا تأثرهم بالفكر اليوناني.....	١٧٨
تصريح كبار المستشرقين بتأثر المتصوفة بالفكر اليوناني.....	١٨٤
الخلاصة :.....	١٨٥
الباب الثاني	
انحرافات الصوفية في الإلهيات	
الفصل الأول	
انحراف الصوفية في التوحيد مع ذكر المفهوم الصحيح لتوحيد اللَّه	
المبحث الأول : تعريف التوحيد في اللغة مع توضيح المفهوم الصحيح لتوحيد اللَّه الذي أرسل الله به الرسل وأنزل به الكتب.....	١٩١
أولاً : تعريف التوحيد في اللغة والاصطلاح.....	١٩١
ثانيًا : المفهوم الصحيح لتوحيد اللَّه عز وجل.....	١٩٢
النوع الأول : توحيد الربوبية.....	١٩٢
النوع الثاني : توحيد الألوهية.....	١٩٩
النوع الثالث : توحيد الأسماء والصفات.....	٢٠٤
المبحث الثاني : موقف الصوفية من التوحيد الذي أرسل اللَّه به رسله وأنزل به كتبه.....	٢١٣
أقسام التوحيد عند الصوفية.....	٢٢٨
المبحث الثالث : مفهوم التوحيد عند غلاة الصوفية هو القول بوحدة الوجود.....	٢٣٩
المطلب الأول : ذكـــــر النصوص التي تدل على أن	

الموضـــــــوع	الصفحة

الصوفية يعتقدون بأن حقيقة التوحيد هو القول بوحدة الوجود ٢٣٩

المطلب الثاني : المضـــاعفات التي ترتبت على القول بوحدة الوجود..... ٢٦٨

أولاً : من المضاعفات التي وقع فيها الصوفية تجويز عبادة كل شيء موجود في هذا الكون ٢٦٩

ثانيًا : من المضاعفات التي ترتبت على القول بوحدة الوجود القول بوحدة الأديان ٢٧٢

ثالثًا : من المضاعفات التي ترتبت على القول بوحده الوجود القول بوحدة الأديان..... ٢٧٧

الخلاصة ٢٨٣

المطلب الثالث : حكـــم من آمــن بوحدة الوجود في ميزان الإسلام ٢٨٤

الفصل الثاني

انحراف الصوفية في المحبة واعتقادهم بأن اللَّه يحل في بعض مخلوقاته

المبحث الأول : انحراف الصوفية في محبة اللَّه عز وجل ٣٠١

تمهيد : في أن حب اللَّه شعبة من شعب الإيمان ٣٠١

خطأ الصوفية في مفهوم محبة اللَّه ٣٠٤

أقسام المحبة عند الصوفية ٣٠٨

اعتقاد الصوفية بأن من أحب أي شيء في هذا الكون فقد أحب اللَّه ٣١٢

الخلاصة : ٣١٧

المبحث الثاني : اعتقاد الصوفية بحلول اللَّه في خلقه ٣٢٥

الموضـــــــوع	الصفحة
المطلب الأول : ذكـــر النصـــوص التي تثبت قول الصوفية بالحلول.....	٣٢٥
المطلب الثاني : موقف أهل الإسلام من القائلين بالحلول..	٣٤٢
الخلاصة.....	٣٤٨
الباب الثالث	
انحرافاتهم في الرسول ﷺ والخضر عليه السلام والأولياء رحمهم اللَّه	
الفصل الأول	
انحرافاتهم في الرسول ﷺ	
المبحث الأول: انحرافهم في مبدأ خلقه والمادة التي خلق منها.	٣٥٧
المطلب الأول : اعتقادهم بأن الرسول أول مخلوق وأنه مخلوق من نور.....	٣٥٧
أولاً : ذكر النصوص التي تثبت معتقدهم هذا.....	٣٥٧
ثانيًا : الشبه التي تعلق بها الصوفية لإثبات هذا المعتقد...	٣٧٢
ثالثًا : أول ما خلق اللَّه.....	٣٧٦
المطلب الثاني: اعتقادهم بأن الكون خلق من نور محمد ﷺ	٣٨٠
المطلب الثالث : اعتقادهم بأن الكون خلق من أجل محمد ﷺ وأن جميع العلوم جزء من علمه....	٣٩٦
أولاً : ذكر النصوص التي تثبت معتقد الصوفية هذا.....	٤٠٥
ثانيًا : شبههم.....	٤٠٦
المبحث الثاني : اعتقاد الصوفية بجواز التوجه إلى الرسول ﷺ بالدعاء والاستغاثة : وحكم التوجه إلى الرسول ﷺ بالدعاء والاستغاثة.....	٤١٧
تمهيد.....	٤١٧

الموضـــــــوع	الصفحة
المطلب الأول : نمـــاذج من مقالات الصوفية التي تثبت توجههم إلى الرسول بالدعاء والاستغاثة . . .	٤١٨
أولاً : تعريف الدعاء في اللغة والاصطلاح	٤١٩
ثانيًا : نماذج من مقالات الصوفية التي تثبت توجههم إلى الرسول ﷺ بالدعاء والاستغاثة	٤٢٤
الخلاصة	٤٤٤
المطلب الثاني : أهم الشبه التي يستدل بها الصوفية لتجويز التوجه إلى النبي ﷺ والأولياء بالدعاء والاستغاثة من دون اللَّه	٤٤٦
أولاً : سوء فهم الصوفية للأحاديث الواردة في التوسل بالنبي ﷺ وعدم تفريقهم بين التوسل بالنبي ﷺ وبين دعائه والاستغاثة به من دون اللَّه	٤٤٦
ثانيًا : النصوص التي تثبت على أن الصوفية يخلطون بين التوسل بالنبي ﷺ وبين دعائه والاستغاثة به وأنهم يرون الكل بمعنى واحد	٤٤٧
ثالثًا : شبه الصوفية على جواز التوسل بالذوات	٤٥٣
الخلاصة	٤٧٦
المطلب الثالث : حكم التوجه إلى الرسول ﷺ بالدعاء والاستغاثة	٤٧٧
مكانه الدعاء من العقيدة الإسلامية وأقسامه . . .	٤٧٨
الرد على الصوفية الذين يقولون بجواز التوجه إلى الرسول بالدعاء والاستغاثة بأدلة من الكتاب والسنة	٤٨٣
أقوال العلماء في حكم التوجه إلى الرسول ﷺ	

الموضـــــــوع	الصفحة
بالدعاء والاستغاثة	٤٩٤